

من البحر الأحمر للنيل الأزرق

مغامرات فى الحبشة

تأليف
روزيتا فوربس

ترجمة وتقديم دكتور
صبرى محمد حسن




منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET





كتاب الجمهورية

يونيــو ٢٠١٠

www.gombook.net.eg

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير

علــى هاشــم

ALIHASHEM@ELTAHRIR.NET

E-mail:aly_hashem@gitc.com.eg

من البحــر الأحمــر إلى النيــل الأزرق

مغامرات فى الحبشة

تأليف: روزيتا فوربس

ترجمة وتقديم

الدكتور/ صبرى محمد حسن

دار الجمهورية للصحافة

١١١ ــ ١١٥ ش رمسيس

ت: ٢٥٧٨٣٣٣٣

يونيو ٢٠١٠

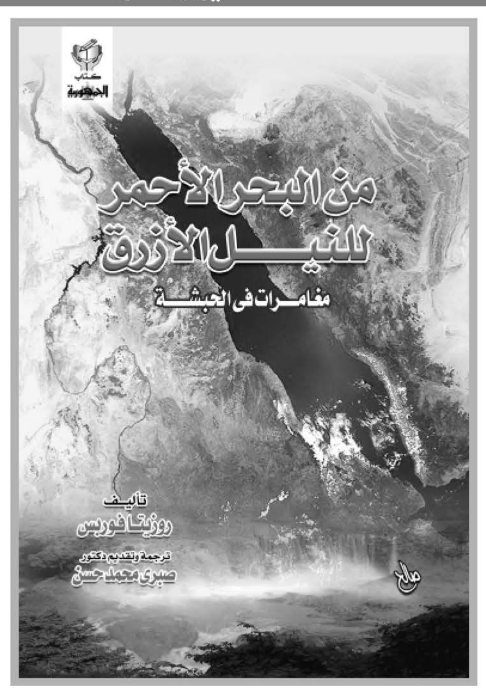
أسعار البيع فى الخارج

سوريا	٣٠٠ ل.س
لبنان	١٢٠٠ ل.ل
الأردن	٤,٥ دينار
الكويت	٣ دنانير
السعودية	٣٠ ريالاً
البحرين	٣ دنانير
قطر	٣٠ ريالاً
الإمارات	٣٠ درهماً
سلطنة عُمان	٣ ريالات
تونس	٦ دنانير
المغرب	٩٠ درهماً
اليمن	٩٠٠ ريالاً
فلسطين	٦ دولارات
لندن	٦ جك
أمريكا	١٥ دولاراً
استراليا	١٥دولاراً استرالياً
سويسرا	١٥فرنكاً سويسرياً

الاشتراك السنوى

داخل جمهورية مصر العربية
١٨٠ جنيهًا
الدول العربية ٩٠ دولاراً أمريكياً
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا
١١٥ دولارا أمريكيًا
أمريكا وكندا
١٣٥ دولارا أمريكيًا
باقى دول العالم
١٧٥ دولارا أمريكيًا

إذا وجدت أى مشكلة
فى الحصول على
«كتاب الجمهورية»
وإذا كان لديك أى مقترحات أو
ملاحظات
فلا تتردد فى الاتصال على أرقام :
٢٥٧٨٣٣٣٣ ٢٥٧٨١٠١٠
http://www.eltahrir.net



تصميم الغلاف الفنان : صالح صالح

سكرتير التحرير
سيد عبد الحفيظ

من البحـــر الأحمـــر
إلى النيـــل الأزرق
مغامرات فى الحبشة

تأليف : روزيتا فوربس

ترجمة وتقديم

الدكتور/ صبرى محمد حسن

مقدمة الترجمة

بقلم د. صبرى محمد حسن

روزيتا فوربس

اسمها بالكامل جوان روزيتا فوربس؛ وهى رحالة وكاتبة، ولدت فى اليوم السادس عشر من شهر يناير من العام ١٨٩٣ فى لينكون Lincoln، التى تربت ونُشِّئت فيها تنشئة تقليدية، تمتعت خلالها بالقراءة والكتابة.. تزوجت روزيتا فوربس من العقيد رونالد فوستر فوربس، وترحلت معه فى الهند، والصين وأستراليا، وجنوب أفريقيا. لكنهما طلقا فى العام ١٩١٧، وفى العام ١٩١٩، أى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، قامت روزيتا فوربس بجولة حول العالم؛ انتهت هذه الجولة فى شمال أفريقيا؛ الذى يعد أول ملتقى لروزيتا بالعالم العربى، عاشت هذه السيدة مع الشخصيات المحلية، واختلطت بهم وكانت تتردد على الأسواق الشرقية وتصادق العرب، والأفغان، والهنود، والتاجيك، والأوزبك والكزخانيين، التقت هذه السيدة ببعض الشخصيات البارزة فى كل من القاهرة، ودمشق، وبيروت، واكتسبت اهتماماً بالعرب دام معها بقية حياتها، الكتاب المعنون - جوالون بلا مرشد - الذى صدر فى العام ١٩١٩ يصف تلك الراحلة التى قامت بها هذه السيدة حول العالم.

روزيتا وواحة الكفرة

فى شتاء العام ١٩٢٠ - ١٩٢١ وضعت روزيتا فوربس خطة للقيام بعبور الصحراء الليبية على ظهر جمل بحثاً عن واحة الكفرة التى كانت تقع ضمن

حدود سايد Sayed، إدريس السنوسى Senussi (الذى أصبح فيما بعد الملك إدريس السنوسى)، حتى ذلك الوقت كان جرهارد روز Rohlfs، هو الأوروبى الوحيد الذى زار واحة الكفرة؛ كان ذلك فى العام ١٨٧٩، تنكرت روزيتا فوربس فى زى مسلمة، وأطلقت على نفسها اسم خديجة، لكن لغتها العربية لم تكن بجودة لغة السيدة آن بلنت، صاحبة كتاب الحج إلى نجد(☆)، وأحست روزيتا فوربس أنها مضطرة إلى الادعاء بأن أمها شركسية، الأمر الذى يبرر عيوبها اللغوية، سافرت روزيتا فوربس بصحبة أحمد حسانين، الباحث والمستكشف المصرى، الذى كانت معارفه وخبرته أمراً حيوياً فى نجاح هذه المغامرة، كانت رحلتهما التى قاما بها بواسطة الإبل شاقة وخطرة فى بعض الأحيان. الرواية التى أوردتها روزيتا فوربس عن الرحلة فى كتابها: سر الصحراء: الكُفرة، الذى صدر فى العام ١٩٢١ تدل على صدق مزاعم هذه السيدة بأنها مستكشفة جادة.

روزيتا وآرثر توماس

فى العام ١٩٢١ تزوجت روزيتا من العقيد آرثر توماس ماكجراث، لكنها واصلت الاحتفاظ بالاسم روزيتا فوربس، ليكون اسماً مهنياً لها، وواصلت ترحالها مثلما كانت تفعل من قبل، لكن خططها التى وضعتها للسفر إلى جنوب الجزيرة العربية بصحبة والد كيم Kim فيلبى باءت بالفشل، والسبب فى ذلك أن سلطات عدن رأت أن الرحلة ستكون جد خطيرة، وكبديل عن هذه الرحلة، قامت بالتجوال خلال الحبشة، بصحبة هارولد جونز، وهو مصور سينمائى، قامت روزيتا فوربس هى وزوجها الثانى آرثر توماس ماكجراث بكثير من الأسفار، وعندما كانا فى لندن حظيا باهتمام كبير، ترحلت روزيتا فوربس فى العام ١٩٣٠ فى بلاد فارس وقد سافرت إليها عن طريق المرور خلال كل من سوريا وفلسطين والعراق وشرق الأردن، كما ترحلت أيضاً فى أمريكا الجنوبية وروسيا، كما ترحلت أيضاً من كينيا إلى ساحل العاج.

☆ هذا الكتاب من منشورات المركز القومى للترجمة فى جمهورية مصر العربية، وترجمه إلى العربية الدكتور صبرى محمد حسن.

فى أثناء الحرب العالمية الأولى كانت روزيتا فوربس تقود سيارات الإسعاف فى فرنسا وحصلت على ميداليتين من الحكومة الفرنسية، وأثناء الحرب العالمية الثانية ساعدت فى المجهود الحربى عن طريق إلقاء المحاضرات فى أمريكا، استقرت روزيتا فوربس خلال السنوات الأخيرة من عمرها مع زوجها فى جزر البهاما، توفيت روزيتا فوربس فى برمودا فى اليوم الثلاثين من شهر يونيو من العام ١٩٦٧، لم تحظ روزيتا فوربس بالنفوذ الذى حظيت به جرترود بل Bellفى العالم العربى، لكنها كانت رحالة واسعة الحيلة جرى تسجيل حياتها المليئة بالمغامرات فى كتابين من كتب السيرة.

روزيتا فوربس فى عيون الآخرين

اشتهرت هذه السيدة بحق بترحالها فى الأجزاء الخطيرة من العالم، واقع الأمر أن هذه المرأة الإنجليزية الجسورة اعتادت على امتداد سنوات طويلة على زيارة الأماكن النائية والخطيرة، وخاطرت أيضاً بالذهاب إلى أماكن أخرى ممنوعة.

هناك من يقول: إن أفغانستان جرى غزوها مرات عدة: الإسكندر الأكبر، على سبيل المثال، سيَّر قواته الإغريقية بين جبالها، وجنكيز خان هرول خلال شوارعها هو وجحافل قواته، وجاء بعد ذلك الراج Raj البريطانى القوى ليأمر طائراته الحربية بالتحليق فوق مملكة الناسك المعزولة، وعلى الرغم من ذلك كله، لم يستطع أى أحد تجريد الأفغان من أسلحتهم بلا مجهود سوى روزيتا فوربس.

روزيتا فوربس وبيشاور

بدأت روزيتا رحلتها من بيشاور، تلك المدينة الساحرة، الخارجة فى معظمها على القانون، والتى تقع مثل بيضة الحمام على قاعدة ممر خيبر القريب منها، تعين على روزيتا فوربس بطبيعة الحال المغامرة بالدخول إلى أسواق العاديات فى المدنية، كيما تتحرى الشائعات الذائعة عن "أسرار بيشاور التى يعرفها الناس جميعاً"، ومع ذلك، فإن رغبة روزيتا كانت تذهب إلى ما وراء الخطيئة الثقافية لتلك البلدة الحدودية سيئة السمعة، من هنا استأجرت هذه الرحالة الشجاعة سائقاً وسيارة، وألقت بحقائبها فى شنطة السيارة، وارتدت

قفازها، ووضعت قبعتها الرائعة اللائقة على رأسها، وركبت السيارة، متجهة إلى كابول، ثم مزار شريف لتصل فى نهاية المطاف إلى سمرقند البعيدة، وأسفرت هذه الرحلة عما يعد أبهج الرحلات التى أجريت فى فترة الثلاثينيات، والسبب فى ذلك أن عينى روزيتا فوربس الفاحصتين لم يغب عنهما شىء على الإطلاق، تحدثت روزيتا فوربس مع البدو الرُّحل، وتناولت الطعام مع أفراد الأسر المالكة، وكشفت عن قصص ملأت كتابين، ومن يمن الطالع أن صورها وأحسن قصصها لا تزال تجمع هنا فى الكتاب المعنون "الطريق الممنوع"، هذا الكتاب البهيج، لا يزال عامراً بالحياة، وله سحره الخاص، شأنه فى ذلك شأن مؤلفته المغامرة الجميلة.

أسفرت هذه الرحلة فى عشرينيات القرن العشرين عن سفر يعد من أشهر أسفار المغامرة فى ذلك التاريخ، بحكم أن الكتاب عامر بالملاحظات السياسية والمقابلات المهمة التى جعلت من هذه المرأة رحالة شهيرة بحق وحقيقة، يزاد على ذلك أن هذه السيدة تقدم للقارئ أيضاً مقطوعات شعرية عن جمال عالم الصحارى التى تجولت خلالها.

من البحر الأحمر إلى النيل الأزرق

قسمت المؤلفة الكتاب إلى عشرين فصلاً، جاء أولها تحت عنوان «التوقع»، فى حين يحمل الفصل الثانى عنواناً هو «توابيت العهد فى هرار»، بَركة الماء، هو عنوان الفصل الثالث؛ وأفردت المؤلفة الفصل الرابع لـ «الضيافة فى الجبال»، أما الفصل الخامس فيحمل عنوان «البغال والزواج بصفة أساسية»، وأفردت المؤلفة الفصل الخامس من الكتاب لـ «ما يخص النساء»، «فزع دنكالى بين المرشدين» هو عنوان الفصل السابع، واختارت المؤلفة «أنكوبر ووفاة عمر» عنواناً للفصل الثامن، ويقع الفصل التاسع تحت عنوان «مدينة الغابة: أديس أبابا»، «قدس الحبشة» هو عنوان الفصل العاشر، ويقع الفصل الحادى عشر تحت عنوان «أول لقاء مع النيل الأزرق»؛ «ليلة مخيفة» هو عنوان الفصل الثانى عشر؛ أما الفصل الثالث عشر فيدور حول «الأشباح والطمع»، واختارت روزيتا فوربس «من النيل إلى شوشا الخالية من الماء» عنواناً للفصل الرابع عشر، «لالبيلا الحمراء» هو عنوان الفصل الخامس عشر، فى حين يتناول الفصل السادس عشر «أخطار الطريق المختصر».

«قصور جُندار» هو عنوان الفصل السابع عشر؛ ويحمل الفصل الثامن عشر عنواناً هو «المعارك مع الشماليين»، وأوردت المؤلفة الفصل التاسع عشر تحت عنوان «أكسيوم، عاصمة ملكة سبأ»، وفى الفصل العشرين تتأمل المؤلفة ما مضى، وتنهى المؤلفة الكتاب بملحق وخارطة عن خط سير الرحلة.

لما كان هارولد جونز، ذلك المصور السينمائى، مرافقاً لروزيتا فوربس فى هذه الرحلة، فقد زود الكتاب باثنتين وأربعين صورة التقطها بآلة تصوير سينمائى، فجاءت مفسراً وشارحاً وموثقاً غاية فى الأهمية لهذه الرحلة الثمينة، بخاصة فى ضوء مصاعب النقل والتنقل على ظهور البغال حاملين معهم أمتعتهم وبخاصة علب الأفلام الخام التى استعملها ذلك الفنان فى تلك اللقطات الفريدة.

قطعت روزيتا فوربس هى وقافلتها ورفيقها هارولد جونز هذه الرحلة فى واحد وستين يوماً، أو بالأحرى فى أربعمائة وخمسين ساعة ونصف الساعة، قطعت خلالها ألفاً وتسعة وثمانين ميلاً وربع الميل.

شهر يناير

بدأت قافلة الرحلة مسيرها إلى داير داوا فى اليوم السادس عشر من شهر يناير عند الساعة السابعة والنصف صباحاً لتصل إلى بحيرة آراميا عند الساعة الثانية بعد الظهر، وفى اليوم السابع عشر، تتحرك عند الساعة الثامنة صباحاً لتصل هرر عند الساعة الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة، وفى اليوم الحادى والعشرين من شهر يناير وعند الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة يممت القافلة مسيرها إلى كيرسا لتصلها عند الساعة الثالثة وخمس عشرة دقيقة، وعند الساعة السابعة وخمس وثلاثين دقيقة من اليوم الثانى والعشرين من شهر يناير تتحرك القافلة صوب كلوبى لتصلها عند الساعة الواحد والربع ظهرا، وتنطلق القافلة عند الساعة السابعة وخمس وثلاثين دقيقة من اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير قاصدة ديور لتصلها عند الساعة الرابعة والربع عصراً؛ وتصل القافلة إلى تولو عند الساعة الثالثة وعشر دقائق عصراً قادمة إليها من ديدرك التى تحركت منها عند الساعة السابعة وخمس وثلاثين دقيقة صباحاً. وفى اليوم الخامس والعشرين من شهر يناير، وعند الساعة السابعة وعشرين دقيقة تتحرك

القافلة من تولُّو قاصدة دباسو لتصلها عند الساعة الثانية والنصف عصراً، ويشهد اليوم السادس والعشرون من شهر يناير تحرك القافلة من دباسو عند الساعة السابعة وخمس عشرة دقيقة قاصدة كُنتِّى التى تصلها عند الساعة الثالثة عصراً، وفى اليوم السابع والعشرين من الشهر نفسه، وعند الساعة السابعة والربع صباحاً تغادر القافلة كُنتِّى متجهة إلى هايرو لتصلها عند الساعة الثالثة والنصف عصراً، وعند الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة من صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير تغادر القافلة هايرو قاصدة جالاسو لتصلها عند الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً، أى بعد مسير دام أربع ساعات، وعند الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم التاسع والعشرين تيمم القافلة وجهها شطر آرداحا لتصلها عند الساعة الثالثة والربع عصراً، أى بعد مسير دام ثمانى ساعات وربع الساعة، وفى اليوم الثلاثين من شهر يناير، وعند الساعة السابعة وخمس دقائق تتحرك القافلة قاصدة هواش، لتصلها عند الساعة الواحدة ظهراً، أى بعد مسير دام ست ساعات، وفى اليوم الحادى والثلاثين من الشهر نفسه، تتحرك القافلة عند الساعة الواحدة وعشر دقائق ظهراً قاصدة - أوارا ملكيا - لتصلها عند الساعة السادسة وخمس دقائق مساء أى بعد مسير خمس ساعات تقريباً.

هذا يعنى أن القافلة سارت ثلاثة عشر يوماً من شهر يناير قطعت خلالها مائتين وتسعة وعشرين ميلاً قطعتها فى ست وثمانين ساعة وخمس دقائق أى بمعدل ميلين أو ما يزيد على ذلك قليلاً فى الساعة الواحدة.

شهر فبراير

فى اليوم الأول من شهر فبراير وعند الساعة السابعة وعشرين دقيقة تحركت القافلة قاصدة آرجوبا لتصلها عند الساعة السادسة مساء أى بعد مسير دام عشر ساعات وأربعين دقيقة، وعند الساعة الثامنة وخمس عشرة دقيقة من صباح اليوم الثانى من شهر فبراير اتجهت القافلة صوب آليو آمبا لتصلها عند الساعة الثالثة وعشر دقائق عصراً، وفى اليوم الثالث من شهر فبراير شدت القافلة رحالها عند الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة قاصدة آنكوبر، لتصلها عند الساعة الثانية عشرة ظهراً، وعند الساعة التاسعة من صباح اليوم الرابع من شهر فبراير، قصدت القافلة منطقة ثارا

لتصلها عند الساعة الرابعة وخمس وأربعين دقيقة عصراً، شهدت الساعة الثامنة وعشر دقائق من صباح اليوم الخامس من شهر فبراير تحرك القافلة إلى وادى إنجفان وضاحية شانو، لتصلها عند الساعة الرابعة والنصف عصراً، وفى اليوم السادس من الشهر نفسه، تتحرك القافلة عند الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً قاصدة الكنيسة الموجودة فى باكى مريم لتصل إليها عند الساعة الثالثة وخمس دقائق عصراً، وتتحرك القافلة من باكى مريم عند الساعة السابعة وعشرين دقيقة من اليوم السابع من شهر فبراير قاصدة أديس أبابا التى تصلها عند الساعة الثالثة عصراً.

بعد سبعة أيام، أى فى اليوم السادس عشر من شهر فبراير، وعند الساعة الثامنة صباحاً تتوجه القافلة إلى كاجاواها لتصلها عند الساعة الرابعة عصراً، ويشهد اليوم السابع عشر من شهر فبراير وعند الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة تحرك القافلة إلى منطقة قريبة من مجرى وُشالى، لتصلها عند الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة، وفى اليوم الثامن عشر من الشهر نفسه، وعند الساعة السادسة وخمس دقائق صباحاً تتجه القافلة صوب دبرا ليبانُس على نهر جمَّا لتصلها عند الساعة التاسعة والربع صباحاً، أى بعد مسير دام ثلاث ساعات وعشر دقائق، وعند الساعة العاشرة من صباح اليوم التاسع عشر من شهر فبراير تتحرك القافلة قاصدة قرية فيش، لتصل إليها عند الساعة الثانية عشرة وأربعين دقيقة ظهراً. ويشهد اليوم العشرون من الشهر نفسه وصول القافلة مجرى مائى بين جرسو آبوت، عند الساعة الرابعة عصراً، متحركة إليها من فيش عند الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة، فى اليوم الحادى والعشرين من شهر فبراير وعند الساعة السادسة وعشرين دقيقة، تتوجه القافلة إلى نهر أدباى لتصله عند الساعة الثالثة وخمس عشرة دقيقة ظهراً، كانت دجم، مقصد القافلة فى اليوم الثانى والعشرين من شهر فبراير. بدأت القافلة تحركها فى ذلك اليوم عند الساعة السادسة وعشرين دقيقة، لتصل دجم عند الساعة الرابعة عصراً، عند الساعة السابعة من صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر فبراير، تحركت القافلة قاصدة دبرا ماكس لتصلها عند الساعة السابعة مساءً، أى بعد مسير دام اثنتى عشرة ساعة، وتصل القافلة إلى دبرا ماركوس فى اليوم الرابع

والعشرين من الشهر نفسه، كانت حلتوم مقصداً للقافلة فى اليوم الخامس والعشرين من شهر فبراير؛ وقد وصلت إليها عند الساعة الثانية وخمس عشرة دقيقة، من بداية تحركها عند الساعة السابعة والربع صباحاً، فى اليوم السادس والعشرين من شهر فبراير، وعند الساعة السابعة وخمس دقائق يممت القافلة مسيرها إلى سلطان إيل، التى وصلت إليها عند الساعة الثالثة وعشر دقائق عصراً، كانت قرية موتا مقصداً للقافلة فى اليوم السابع والعشرين من الشهر نفسه؛ بدأت القافلة تحركها عند الساعة السابعة صباحاً، ووصلت إلى موتا عند الساعة الثانية وخمس دقائق، يشهد اليوم الأخير من شهر فبراير، أى اليوم الثامن والعشرين، تحرك القافلة عند الساعة السابعة والربع صباحاً، قاصدة جارو واها، التى تصلها عند الساعة الثالثة وخمسين دقيقة عصراً.

هذا يعنى أن الرحلة استغرقت تسعة عشر يوماً من شهر فبراير قطعت فيها مسيراً يقدر بنحو مائة وست وثلاثين ساعة وخمس عشرة دقيقة قطعت خلالها ثلاثمائة وخمسة وثلاثين ميلاً، أى بمعدل اثنى عشر ميلاً فى اليوم الواحد.

شهر مارس

استغرقت الرحلة سبعة وعشرين يوماً أيضاً من شهر مارس، قطعت خلالها أربعمائة وتسعين ميلاً ونصف الميل، فى غضون مائتين وثمانٍ وعشرين ساعة وخمس وخمسين دقيقة، جاءت على النحو التالى:

تحركت القافلة عند الساعة السابعة صباحاً من اليوم الأول من شهر مارس قاصدة منطقة نهر قوطة، التى وصلتها عند الساعة الثانية وخمس وعشرين دقيقة ظهراً، ويشهد اليوم الثانى من شهر مارس تحرك القافلة عند الساعة السابعة والربع صباحاً قاصدة مباديرا مريم، لتصلها عند الساعة الرابعة إلا ربعاً عصراً؛ وكانت دبرا تابور على موعد مع القافلة التى وصلتها عند الساعة الواحدة والربع ظهراً قادمة إليها من مباديرا مريم التى تحركت منها عند الساعة السابعة والربع صباحاً، وعند الساعة السادسة إلا عشر دقائق من صباح اليوم الرابع من شهر مارس تحركت القافلة إلى حافة وادٍ ضيق، وصلتها عند الساعة الثالثة والنصف عصراً؛ كانت شوشا على موعد مع

القافلة عند الساعة الخامسة إلا الثلث من عصر اليوم الخامس من شهر مارس، وفى اليوم السادس من الشهر نفسه، وعند الساعة السابعة صباحاً تحركت القافلة إلى قرية تلجا التى وصلتها عند الساعة الرابعة إلا ربع عصراً، أما اليوم السابع من شهر مارس فكان على موعد مع ثلاث قرى من قرى - الجرا جتامب - ؛ فقد تحركت القافلة صوب هذه القرى عند الساعة السادسة وخمس وثلاثين دقيقة لتصلها عند الساعة الرابعة عصراً، فى اليوم الثامن من الشهر نفسه وعند الساعة السادسة وعشر دقائق صباحاً تحركت القافلة إلى لاالبيلا لتصلها عند الساعة العاشرة والربع صباحاً، أى بعد مسير أربع ساعات تقريباً، عند الساعة السابعة إلا ربعاً من صباح اليوم التاسع من شهر مارس، قصدت القافلة قرية دمبيتا التى وصلتها عند الساعة الرابعة عصراً، وكانت قرية كوا آمبا هى الأخرى على موعد مع القافلة التى بدأت تحركها صوبها عند الساعة السابعة صباحاً من اليوم الحادى عشر من شهر مارس، لتصلها عند الساعة الرابعة إلا ربعاً من عصر اليوم نفسه، تحركت القافلة عند الساعة السابعة وأربع دقائق من صباح اليوم الثانى عشر من شهر مارس لتصل إلى قرية كواليسا عند الساعة الرابعة إلا خمس دقائق من عصر اليوم نفسه، وصلت القافلة بعد تحركها عند الساعة السابعة من صباح اليوم الثالث عشر من شهر مارس إلى منطقة نهر - نايلى أوالى - عند الساعة الخامسة والربع، وتحركت القافلة عند الساعة السابعة وخمس دقائق صباح اليوم الرابع عشر من شهر مارس قاصدة آمبوس جاربا، التى وصلتها عند الساعة الرابعة والثلث من عصر اليوم نفسه، يشهد اليوم الخامس عشر من شهر مارس وصول القافلة بعد تحركها عند الساعة السابعة وعشر دقائق صباحاً، إلى قرية - كيل مدين آلم - عند الساعة الرابعة عصراً، تتحرك القافلة عند الساعة السابعة إلا عشر دقائق من صباح اليوم السادس عشر من شهر مارس قاصدة وادياً أسفل جُندار، وصلت إليه عند الساعة الخامسة والربع مساءً؛ يشهد اليوم السابع عشر من شهر مارس تحرك القافلة عند الساعة السادسة وعشر دقائق صباحاً صوب جُندار التى تصل إليها عند الساعة الثامنة والنصف صباحاً، أى بعد مسير دام ساعتين وثلث الساعة، وفى اليوم الثامن عشر من شهر مارس تتحرك القافلة عند الساعة الثامنة وعشر دقائق صباحاً لتصل إلى المنطقة المجاورة لمجرى اجيرارو عند الساعة

الخامسة والنصف من مساء اليوم نفسه، يشهد اليوم التاسع عشر من شهر مارس تحرك القافلة عند الساعة السابعة والثلث صباحاً قاصدة الجانب الشمالى من ريدة وايكن، التى تصل إليها عند الساعة الرابعة إلا ربعاً عصراً، كان اليوم العشرون من شهر مارس علي موعد مع القافلة التى بدأت تحركها عند الساعة السابعة والنصف صباحاً، عندما نصبت خيامها عند الساعة السادسة والنصف مساء على بعد أربعة أميال خلف وأسفل دبيبهد، وعند الساعة الثامنة إلا الربع من صباح اليوم الحادى والعشرين من شهر مارس تتحرك القافلة لتصل إلى قرية بور مريم عند الساعة السادسة إلا عشر دقائق من مساء اليوم نفسه، وفى اليوم الثانى والعشرين من الشهر نفسه، تصل القافلة بعد تحركها عند الساعة السابعة والربع إلى ميتامرت عند الساعة الخامسة إلا الربع من عصر اليوم نفسه، تصل القافلة إلى ميتامكت عند الساعة الرابعة من عصر اليوم الثالث والعشرين من شهر مارس بعد أن بدأت تحركها عند الساعة السابعة وأربع دقائق صباحاً، كانت قرية ميتامم مقصداً للقافلة التى وصلت إليها عند الساعة السادسة إلا الربع، بعد أن بدأت تحركها عند الساعة السابعة والربع صباحاً، وكانت مجموعة قرى أداجا سُنِّى على موعد مع القافلة التى بدأت تحركها عند الساعة السابعة والربع من صباح اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس؛ وقد نصبت القافلة مخيمها بالقرب من هذه القرى عند الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة عصراً، فى اليوم السادس والعشرين، وعند الساعة السابعة إلا الربع تحركت القافلة قاصدة أكسيوم التى وصلت إليها عند الساعة الثالثة عصراً، كانت آدوا على موعد مع القافلة، التى تحركت صوبها عند الساعة الثامنة إلا ثلثاً من صباح اليوم السابع والعشرين من شهر مارس؛ وقد وصلت القافلة إلى آدوا عند الساعة الواحدة والربع ظهراً، أى بعد مسير دام خمس ساعات وخمس وثلاثين دقيقة، وفى اليوم الثامن والعشرين من شهر مارس تحركت القافلة عند الساعة السابعة صباحاً قاصدة نهر مارب الذى وصلته عند الساعة الخامسة والنصف مساءً، وفى اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس، وعند الساعة السابعة والنصف صباحاً، تتحرك القافلة قاصدة أدّى كوالا التى تصلها عند الساعة الواحدة والنصف ظهراً، منهية بذلك خط سير هذه الرحلة الممتعة.

لغة الكتاب

لغة الكتاب الإنجليزية سليمة بشكل عام، وفيها كثير من المفردات والتعبيرات والمصطلحات الأمهرية، التى حرصت على توضيح معانيها حتى يتمكن قارئ الترجمة من فهم الكتاب، على صعيد اللغة الانجليزية أوردت المؤلفة على الصفحة رقم ٣ من النص الانجليزى، الكلمة boogie بالهجاء الخاطئ Boojie، وقد تكون روزيتا فوربس قصدت بذلك الإفصاح عن جنسية الناطق بهذه الكلمة، من خلال لغته، فالرجل سورى وربما تكون استعملت حرف J بدلاً من G ومعروف أن الجيم السورية تختلف عن الجيم القاهرية، لكن الاستعمال اللغوى هنا فيه شىء من القصور، إذ لابد من إضافة الظرف Down إلى هذه الكلمة كيما تعطى معنى "المضاجعة".

أوردت المؤلفة الكلمة Halt، وهى صفة لا تستعمل سوى فى تعبير قديم بطل استعماله The halt and the blind بمعنى - العُمى والعُرّج -.

فى الفصل الثانى عشر، وعلى صفحة ٢٠١ من النص الإنجليزى أوردت المؤلفة الجملة التالية

They blinked at me stupidly, but zabaniers and cook, even Graz match, were already dragging in the animals who were so surprised that they kick.

مستخدمة بذلك ضمير الوصل Who استعمالاً قديماً بطل منذ زمن طويل، والصحيح هنا استبدال هذا الضمير بالضمير That.

استعملت المؤلفة Tisane ويصح فيها أيضاً Ptisan و Tizanne وهى مأخوذة من الكلمة اللاتينية إغريقية الأصل Ptisané التى تعنى - الشعير المقشور - ؛ واستقر استعمالها للدلالة على - نقيع الشعير، لكن المؤلفة هنا تستخدمها للدلالة على نقيع يصنعه أهل الحبشة من زهور عناقيد شجر الكوسو حمراء اللون.

يبدو أن روزيتا فوربس كانت متمرسة على كثير من مفردات وتعبيرات اللغة الأمهرية، وكانت تفيد من الأحباش المرافقين لها فى القافلة، فى الوقوف على معانى الكثير من هذه التعبيرات والمفردات التى منها على سبيل المثال Addis Ababa - الزهرة الجديدة، Khabral - قائد القافلة، Dejes -

حاكم، Gabra - عبد، كلمة Gabra هذه يمكن استعمالها فى تفسير بعض الأسماء الحبشية فالشخص الذى يحمل اسم Gabra Gorgis، يكون معنى اسمه عبدالقديس جورج، والشخص الذى اسمه Ballam barassi Gabra Slessi يكون معنى اسمه عبدالثالوث، كلمة Timkat الأمهرية معناها عيد الغطاس عند النصارى، كلمة Woldo الأمهرية معناها ولد أوابن، وفى ضوء هذا حرصت على أن أضع فى نهاية الكتاب المترجم قائمة بتلك المفردات والتعبيرات الأمهرية ومعانيها.

الكلمة العربية «سوق» لها الدلالة نفسها فى اللغة الأمهرية Suq، كلمة Ma-llesh الأمهرية هى الكلمة العامية - ما علش - بمعنى - ما عليك من شئ - أو - ولا يهمك - كلمة Shabaan فى اللغة الأمهرية لها الدلالة العربية نفسها، كلمة Tamallas لها نفس دلالة الكلمة العربية - تملّص، الكلمة الأمهرية Igliss، والمأخوذة من اللغة العربية، تعنى عند الأحباش، كل ما هو سلبى؛ مقاولو البغال عندما يستخدمون هذه الكلمة مع مرؤوسيهم تفيد - الوقوف، وإنزال الأحمال، والجلوس أرضاً، كما تعنى أيضاً الحديث والتسامر حول النار المشتعلة.

المصطلح الأمهرى: Vetrari Bazab يعنى طائفة من البشر الأقرباء للإمبراطور والمقربين إليه، وهم من أصحاب الهيبة والمكانة، الكلمة :Dergo أمهرية تدل على "الطعام"، كلمة Negus تعنى "ملك الحبشة". المصطلح Ne-gus Nebrast تعنى "ملك ملوك الحبشة" (إمبراطور)، Kebra Negest مصطلح أمهرى يدل على مخطوطة "عظمة الملوك"، كانت هذه المخطوطة موجودة فى كلية الملك تيودور، وأعيدت إلى ديبرا ليبانوس بعد أن جرى الاحتفاظ بها سنوات عدة فى المتحف البريطانى، كلمة Anjera أمهرية تعنى "خبز حبشى"، كلمة Adabai تعنى "النيل الأزرق"، كلمة Abbai أمهرية وتعنى "الجزء العلوى من النيل الأزرق".

بقى أن أقول: إن الحملات البرتغالية كانت هى الأسبق فى الوصول إلى الحبشة، وبعد ذلك بثلاثة قرون نشطت ذاكرة الغرب، وتركزت على لالبيلا بسبب العدد الضخم من الكنائس، غريبة الشكل، وغريبة الإنشاء، والمنحوتة فى الجبال فى تلك البلدة، وقام القنصل الفرنسى فى مسّاوا، أكيل رافراى ومعه جبرائيل سيمون، الذى كان ضابطاً خيالاً من قبل، قاما باختراق جبال

لاستا، وترك كل منهما سجلاً لمدينة لالبيلا فى كتب نشرت فى العام ١٨٨٢ و١٨٨٥، جاء بعدهما المستكشف الألمانى الشهير، الذى لم تأت بعده أية قوافل غربية أو أمريكية إلى أن قام الوزير الفرنسى فى أديس أبابا السيد/ دى كوبيت، هو وزوجته بالمرور خلال لالبيلا وهما فى طريقهما إلى إريتريا فى العام ١٩٢٣، ومن بعدهما جاء هارلان الأمريكى، ومن بعده هارولد جونز، ثم روزيتا فوربس.

ترى ما سر اهتمام البرتغاليين بالحبشة؟ وما هو السر وراء تركيز الفرنسيين والإنجليز والأمريكيين على هذا البلد؟.. ولماذا عجلت إسرائيل بالبحث لها عن موطئ قدم هناك؟ ولماذا ركزت إسرائيل على الحبشة دوناً عن سائر بلاد إفريقية الشرقية(☆)؟ من يقرأ هذا الكتاب يقف إلى حد بعيد على إجابة الكثير من هذه التساؤلات.

☆هل جلّب يهود الفلاشا إلى إسرائيل له صلة بهذا الأمر؟ ثم، اين نحن من كل ذلك؟

إلى

الحبشة وولي عهدها راس تفارى

تصدير

"هذا الكتاب ليس عن الحبشة؛ وإنما هو سجل لرحلة استمرت ثلاثة أشهر على ظهر بغل، الكتاب هو قصة ما جرى للسيد هارولد جونز، المصور السينمائى، وأنا معه، طوال مسافة تقدر بنحو ألف ومائة ميل، قطعناها خلال الجبال والغابات، والأنهار والصحراوات، بحثاً عن مادة صالحة للتصوير. الكتاب، عبارة عن قصة مغامرات خطيرة، ورعناء، لكل ما رأيناه وسمعناه وما فعلناه فى المسافة ما بين البحر الأحمر والنيل الأزرق، لكن هذه الرحلة هى مجرد انطباع عن الحبشة، كما بدت لنا من الخيمة ومن فوق ظهر البغل."

روزيتا فوربس

الفصل الأول

التوقع

قال البارسىّ (*) متشككاً "هذا قارب طيب جداً، لكنه ليس للركاب"، تجاوزتنى حملقته التائهة إلى حيث توجد سفينة شحن غير نظامية ونحو١٣٠طناً وقائمة شحن لا تخطر على بال، كانت تقف فى الميناء بغية تحميل هذه الأشياء، واصل البارسىّ كلامه، وهو يدفع إلى الخلف طربوشه المتعَرِّق كيما يهرش رأسه بفرشة من فرش الأسنان - القارب ليس فيه سوى كابينة واحدة.

قلت محتجة، وقد خطر على بالى هارولد جونز المصور السينمائى، هو وعلب الأفلام الضخمة، التى رفض الافتراق عنها: نحن لا يمكن أن ننام معاً فى هذه الكابينة.

رد البارسىّ مفزوعاً - تقولين تنامان فى الكبينة! لكن لا أحد يستطيع النوم فيها.

غادرت المكتب، وأنا حائرة بعض الشئ، ومعى قصاصة من الورق توجهنى إلى عنوان ضيافة سفينة نقل فارسية تعمل بين عدن وجيبوتى، لكن انحل اللغز بعد ذلك بساعات قلائل، كانت - الكابينة - تعنى، حفرة فى جوف السفينة، يدوّم فيها الماء بلطف جيئة وذهاباً فى قاع السفينة، كان لون البطانيات الموضوعة على الرف، الذى كان يستخدم سريراً مثبتاً فى جانب السفينة، وردياً زاهياً، ويبدو أن الفراشات قد وجدت لها مكاناً وثيراً فوق تلك البطاطين، إذ كانت على شكل أكوام، وهى تحرك شواربها بترقب مشوب

* البارسىّ: بتشديد الياء، هو واحد من اتباع الديانة الزرادشتية او المجوسية. (المترجم)

بالخوف، الأمر الذى يجعل منها شيئاً تعافه النفس، وإن هى إلا نظرة واحدة حتى تبادلت أنا وهارولد جونز عرض استخدام واحد منا لتلك الكابينة، وعليه ركبنا على ظهر المركب، كان القمر فانوساً سحرياً راح يعرض لنا صخور عدن المنبسطة والسوداء على خلفية مُلاءة من الفضة، كانت السماء مثل شبكة محملة بحمل ثقيل من النجوم التى جعلتها السماء تتدلى من فوقنا، بدا لى أن الإنسان إذا ما وقف على أطراف أصابع قدميه، قد يستطيع سرقة ضوء من أضواء درب اللبَّانة (★)، ويضعه متلألئاً على الطاولة، على أضواء هذه الشموع السماوية المتباينة، ونحن متدثرين بتلك البطاطين فى ذلك النسيم المنعش، أكلنا مادة رمادية الشكل مفرومة فرماً غير طبيعى، أكد لنا أحد الأعراب أنها سمك، كان معى جوال من التمر تشاركت فيه مع مشرقى، وسيِّد الحضرموتى البدين الذى كان مسافراً إلى أديس أبابا لزيارة ولد عمِّه، كان سيِّد الحضرموتى محزوناً تماماً لأنه لم يستطع أن يتبين من رجل قصير وجهه عامر بالتجاعيد، ويتحدث اللغة الدمشقية، ما إذا كان الحبشيون متحضرين بما فيه الكفاية كيما يعرفون طريقة عمل فطيرة معينة من الدقيق المزود بنكهة الزيت، والفلفل والمكسرات، يعدها الرجل أمراً مهماً فى غذائه، غلبنى النوم فى وسط الحديث، واستيقظت لأرى ذلك المشرقى يهش الذباب عنى بطريقة مؤدبة، كانت أرض الصومال تبدو عند الأفق وكأنها حوض من أحواض زهور البنفسج، فى حين كان سيِّد يتحدث عن الكلاب، سمعته يقول وأنا ذاهبة للبحث عن الإفطار: "الكلب السلوقى لابد أن تكون حواف أقدامه مثل عيون المرأة».

بينما كانت السفينة غير النظامية تشق طريقها، وسط همهمة، وانزلاق فوق بحر من الزجاج، أحضر الرجل صاحب الوجه العامر بالتجاعيد لفافة من اللحُف، ليخرج من داخلها جرواً صغيراً من جروان الصيد، يقترب اثنان من الوطنيين من الرجل، وقد فغرا فاهيهما، وكان واضحاً أنهما يتطلعان إلى ذلك الرجل وكأنه شكل جديد من أشكال الحواة، قال السورى، لكن سيِّد اكتفى بالشخير "انظروا الآن، هذا كلب حقيقى." كان من رأى السورى أن الكلب السلوقى هو وحده الجدير بهذا الاسم.

★ مجرة من المجرات الفلكية. (المترجم)

قال السورى: "إنه ليس كلباً مطلقاً، إنه معاشرة جنسية" بلغت الإهانة من الكبر حداً فترت معه قوة الحديث، إلى أن سمعنا خشخشة المرساة إيذاناً بوصولنا إلى جيبوتى، قال سيِّد وهو يتنحنح محدثاً ضوضاء الإرهاقِ والتعب "الحمد لله"، جازفت بالموافقة على ما قاله الرجل، لكنى سرعان ما أُخضِعت لاستجواب حول كيف ولماذا جئت إلى "أرض الغرباء" هذه، وعندما اعترفت بطريق غير مباشر بأنى جئت عن طريق فلسطين وسوريا، والعراق وبلاد فارس، نظر الرجل العجوز إلىَّ نظرة توحى بخيبة الأمل، قال متعجباً: "الله يعينك، الترحال أمر لا يناسب النساء".

اصطحبنا الطبيب العربى فى لنشه إلى الشاطئ، يزاد على ذلك أن الوثيقة التى يمكن التأكد من صحتها، والمعنونة "سمسم مفتوح" تلك الوثيقة التى أهدتنى إياها السلطة الفرنسية، منعت رجال الجمارك من غمس أصابعهم فى الأفلام الخام، ظناً منهم أنها ربما تكون تبغاً أو أفيوناً، توجهنا إلى الفندق عبر ممرات وشوارع عامرة بنباتات الهايبسكس ذوات الزهور وردية اللون، وهنا وجدتنى أقر أن جيبوتى، بلونها الأبيض وأناقتها وعدم ازدحامها، بدت لى وكأنها قد غُسلت وجرى وضعها فى الشمس كيما تجف، وهذه شراشف الأسِرَّة التى عليها رسوم على شكل مربعات، وهذا هو رغيف الخبز المقرمش الذى يصل طوله إلى نحو نصف ياردة هو وقوارير النبيذ الأحمر التى ذكرتنى بجنوب فرنسا؛ وهذا هو راعى الفندق، يصر على حتمية أن ينام هارولد جونز فى "غرفة ملابس النساء" طالما أن الفندق كان مشغولاً بكامله، وإنه سيجرم إذا ما أرسل هارولد جونز إلى وحشة وتعاسة اللوكاندة المنافسة؛ هذا الراعى صاحبُ لكنة غريبة. كانت جيبوتى مشغولة بتصدير الجلود والبن، واستيراد دولارات ماريا تريزا، وكانت تقوم بأعمالها بلغات مختلفة جعلتها تبدو وكأنها مدينة عالمية كبيرة، كان الصوماليون أيضاً يرتدون ثيابهم Tobhs التى يلفونها حول وسطهم ويطرحونها على أكتافهم - وغطاء الرأس والتنورة - مما يضفى عليهم مسحة التقدم، التى لا أعرف إن كانت القبعة المصنوعة من اللِّباد داخله فى هذه المسحة أم لا، وعلى الفور، بدأت أفهم الرعب الناجم عن القنصل البريطانى، خاصة عندما رأيت شيئاً جميلاً يمشى مشية - امرأة رياضية تماماً، يتوجه إلى القنصل البريطانى

لتسأله إن كان بوسعها ارتداء بنطال قصير فى القطار وهى فى طريقها إلى أديس أبابا! ذلك القطار يغادر عند الفجر، وعليه تذوقنا طعم القهوة المضبوطة التى تُصَلِّحها هذه السيدة، ودفعنا آخر ما تتوقعه هذه السيدة المدبرة، وخرجنا بحثاً عن حصان Gharry، قال الحمَّال الصومالى "أفضل لكما أن تأخذا حصانين بدلاً من واحد"، قالها وهو ينظر إلينا كما لو أن حملنا الذى يصل إلى نحو ستة عشر ثقلاً، أكبر من أن يجره حيوان لوحده، رحت انظر فى صمت إلى حصان مكسر مربوط بلجام وحبل، وبالطريقة نفسها راح هارولد جونز ينظر فى صمت أيضاً إلى شبح لشئ ربما كان حصانا لحمل أمتعة المسافر أو لعبة من لُعب المكعبات.

قلت: "نعم، سيذهب كل منا على حدة، والأفضل أن يكون الإنسان فى الوسط." وقد ثبت تخوُّفى، فقد انخلعت عجلة من العجلات بعد نحو مائتى ياردة، وأكملنا الرحلة سيراً على الأقدام.

لم يكن هناك أى شئ طيفىّ حول المحطة، اللهم باستثناء ذلك الضوء الضعيف الذى حوَّل ذلك الجمع الصاخب من الحمالين إلى موجة بيضاء من البشر، الذين هددوا بجرفنا، مثلما فعلوا مع أمتعتنا، كانت فكرة الصومالى تقضى بوزن أكبر قدر من الأصناف التى معنا ثم نقوم بعد ذلك بوضعها بعنف على هرم الكراتين الموجودة داخل العربة.

تأوه هارولد جونز قائلا: "آلة تصويرى" وعشرات الأيدى تتخاطفها منه، ألقى الحمالون بحامل آلة التصوير على رأس تاجر يلبس عمامة ذهبية اللون، الذى رفض هذا العمل، وراح يلقى بالحامل على الأرض، وهنا وصلت الضوضاء إلى مسامعى، لأنى وجدت نفسى أقفز من فوق الطاولة محاولة أن أختطف بالقوة ممتلكاتنا القابلة للكسر، من أيدى المجموعة، التى كانت مصممة على تمزيق وتقطيع تلك الممتلكات بحجة الوزن، أخيراً، اندفعنا معاً وحملنا آلات التصوير ومررنا بها من خلال البوابة، ورحنا نكومها على الرصيف، ونحن نلهث، وغضبانين، وقد أصيبت آلات التصوير بردود، وجلسنا فوقها إلى أن جاء ناظر المحطة لإنقاذنا.

بدأنا بعد ذلك تقدماً هيناً عبر بلاد الصومال، كان القطار يهدئ من سرعته قبل السواد الأعظم من التلال وعند كل منحنى من المنحنيات العنيفة،

كان القطار يتوقف كلما أراد سائق القطار أن يشرب، وعندما كان الميكانيكى ينزل لاختبار عجلات القطار بمفتاح يصل حجمه إلى حجم الميكانيكى نفسه، كان القطار يتوقف، اضطرارياً عند الظهيرة فى ظل أشجار ست الحسن(☆)، أمام كوخ صغير فيه بار، كنا نتناول فيه المكرونة ولحم الماعز بشهية كبيرة، حيانى السيد بحرارة من مقعده الذى كان يجلس عليه ويتسامر مع نساء كن يلبسن عمائم فوشياوية اللون ورد نجوتات Frock coat، الطلاق يمارس على نطاق واسع فى جنوبى الجزيرة العربية، ولذلك لم أندهش عندما كنت أرافقه، عندما أعلن أن لديه بالفعل ما يزيد على ثمانين زوجة، شهقت بشدة من ذلك المُعمم، لكن السّد The Sayed كان ساخطاً على ما قاله هذا الرجل "إن شاء الله سيمتد بك الأجل إلى أن تكمل المائة زوجة." ركزت انتباهى على قهوتى، إذ توالت بعد ذلك تفاصيل كثيرة.....

راح القطار طوال فترة العصر يتلكأ عبر الرمال والصخور، دوَّمت "شياطين التراب" كما لو كانت أعمدة من الدخان، وكانت تتكسر بين الحين والآخر على القطار مغطية إيانا بحبيبات الرمل الخشن، بعد أن تجاوزنا تلال الحدود بدت البلاد رتيبة إذ كانت عبارة عن حجارة سوداء وتربة حمراء، فى حين كان الغزال يخاطر على بعد مسافة يصعب النيل منه عندها، وكان هناك صقر أو صقران يحومان فوق فريسة غير مرئية، وقبيل الغروب بدأ حرس المقدمة الخاص بالجبال الإثيوبية، يكسر خط السهل، كانت هناك فيما بين سفوح التلال المتدحرجة نحو الأعلى، وغير مستوية السطح وكهرمانية اللون، كانت هناك غابة من الشجيرات القصيرة والكثيفة، هذه الشجيرات الخضراء الكثيفة، ذات الأوراق الغضَّة، وهذه المسحة من أشجار السنط رمادية اللون، والأشواك العامة، والتى تحتوى أيضاً على مئات الأعشاش المعلقة الخاصة بالطيور، كانت تعِدُ بريف متغيرا يقع خلف داير داوا Dire Dawa وبوابات إثيوبيا.

قلت: "هذا مكان جيد للتخييم: فيه ظل وارف"، لكن هارولد جونز تكلم كلاماً علمياً عن الرؤية والقيم الضوئية، وعليه تراجعت عما قلت ورحت أفرد أكبر خريطة معنا وأبحث عن مسارات توحى بالتفاؤل والأمل، هذا هو سحر

☆ نبات مزهر من فصيلة السنطيات. (المترجم)

الخارطة، الخارطة تمثل الجانب الآخر من الأفق، حيث يصبح كل شىء فيها أمراً ممكناً. الخارطة تنطوى على سحر التوقع بلا تعب ولا يحتاج الإدراك من خلالها إلى جهد كبير، أعظم الحواديت تذوى أمام احتمالات المغامرة التى تقع فى نطاق التحركات الزرقاء الخافتة من البحر إلى البحر، الرحلة الكاملة لا تنتهى مطلقاً، لأن الهدف يكون دوماً عبر النهر التالى، حول كتف الجبل التالى، هناك دوماً مسار آخر لا بد من السير فيه، وسراب آخر لابد من استكشافه، الإنجاز هو الثمن الذى يدفعه الجائل ثمناً للمغامرة والمخاطرة.

وعليه أصبحت المسارات التى حددتها للوصول إلى لاليبلا أكثر تعقيداً على تعقيدها، الحبشة فيها كثير من التباينات؛ فيها الجبال، والوديان، والصحراء، وفيها النهر، وفيها الغابة، وفيها مدينة مسورة من العصور الوسيطة، وفيها البيوت المصنوعة من القش والعشب فى القرى، وفيها سكان الكهوف، وفيها سكان التلال، وفيها القساوسة، وفيها المحظيات، وفيها غير المتحضرين، وفيها الضيافة البسيطة، وفيها بريق العنف القديم، لكن لاليبلا هى جوهرة الحبشة السرية والفريدة، يزاد على ذلك أن الكنائس الإحدى عشرة، مثل كنيسة بترا Petra"الحمراء حمرة الورد والقديمة نصف قدم الزمن" كلها مخبأة بين صخور لاستا Lastaوأشواكها، وسواء بنيت تلك الكنائس بواسطة العبيد أو الملائكة، أم بواسطة المصريين، والفينيقيين أم العرب، فإن عظمة هذه العجائب التحت - أرضية كانت قوية عندنا شأنها شأن القس البرتغالى الفاريس الذى مات منذ أربعمائة عام، والذى كان أول من وصف تلك الكنائس قبل مماته، منذ ذلك الحين، بدأت الجبال الحمراء تكشف عن سرها لمجموعة قليلة من الأوروبيين لا يزيدون بأى حال من الأحوال على ستة أفراد، يضاف على ذلك أن الرهبان الذين يقومون على أمر الحديث عن الأعمدة والمسلات، المتعلقة بالإنشاء المعجزاتى لتلك الكنائس، والذين أيضاً يزيدون من غموض أسرار تلك الكنائس عن طريق الكشف عن تسجيلات وسجلات قديمة تماماً إلى حد أن مجرد النفس البشرى يمكن أن يدمرها، ومن بين هذه السجلات فقرات من اللغة العربية تنتشر بين اللغة الجعزية(★)، هذا يعنى إذن أن - لاليبلا - كانت هدفنا ومبتغانا، وهى تقع

★ اللغة الجعزية: واحدة من اللغات الأثيوبية. (المترجم)

فى قلب الحبشة، وفيها عدد لا يحصى من السلاسل الجبلية التى هى بمثابة الأسوار، والنهر هو ذلك الخندق المملوء بالماء الذى يحيط بلالبيلا، وعدت من جديد إلى صداقة خارطتى، واخترت مساراً، تمثل سحره فى الأرض التى كان يخترقها، والتى كان السواد الأعظم منها عمودياً على المسار!

وصلنا إلى داير داوا Dire Dawa فى الوقت الذى كنت فيه مترددة بين ماسَّاوا Massaua على البحر الأحمر أو وادى مدنى Wadi Medeni على النيل، باعتبار ذلك النهاية البعيدة لرحلة بلغ مسارها من التعرج حداً جعلنى أتوقف عن التماس الأعذار لذلك المسار.

حدثت مشادة أخرى حول متاعنا، تسربت على إثرها أشياء مختلفة من حقيبة الأشياء الصغيرة التى انقطع حزامها، ثم قام تاجر أرمينى بمرافقتنا إلى الفندق بعد أن وقع بصره علينا، كانت غرفت نومى فى الفندق تطل على أجمة بوغنفيلية (☆) تتخللها أشجار البونسيانا (☆☆)، فضلاً على نبات متسلق زكى الرائحة يتعلق مثل الستارة حول باب غرفتى.

حذرنا صديقنا الجديد "من لحظة دخولكم الحبشة إلى لحظة مغادرتكم لها، لن تلتقوا رجلاً أميناً مطلقاً".

توصلت بعد ذلك إلى قرار مفاده أن كثيراً من الحبشيين أمناء فيما يتعلق بالمسائل النقدية، أما فيما يتعلق بأفكارهم فهى على النقيض من ذلك تماماً، لكن، فى الوضع الذى كنت عليه، صدَّقت ذلك الحكم تصديقاً حرفياً، وعليه اتخذت لنفسى حارساً شخصياً قوياً يدعى إشيتى.

ذهبنا فى صبيحة اليوم التالى إلى السوق ومعنا كيس من العملات المعدنية الصغيرة جداً، وهو ما استطعت الوصول إليه فى ظل الظروف القائمة، كانت تلك العملات عبارة عن قروش قيمة الواحد منها ثلاثة دايمات (☆☆☆)، لكنها كانت لها قوة شرائية كبيرة، اشترينا حبوباً، وبناً، وسكراً للقافلة، وأكياساً كبيرة من الملح لمقايضته بالبيض والبن فى الداخل، ثم تمشينا حول الميدان، المزدحم بمزيج مشوش من الأعراق نصف المتحضرة ونصف التجارية

☆ نبات امريكى معترش. (المترجم)

☆☆ شجرة مزهرة مكسيكية. (المترجم)

☆☆☆ الدايم عملة امريكية تساوى عشرة سنتات. (المترجم)

التى تحوم حول مواقع السكك الحديدية المتقدمة فى أفريقيا. كانت النساء الصوماليات جالسات تحت مظلات مصنوعة من القش، وقد لففن شعورهن فى شباك، فى حين كانت أزوارهن محملة بالخرز، ويبدو أن اللون الأصفر كان هو لون الموضة - فى ذلك الوقت - فى حين كان هناك شريط أحمر من القطن ملفوفاً بطريقة أنيقة على كتف واحد من أكتاف كل امرأة من هؤلاء النساء، كانت النساء يبعن زبدة الماعز فى أوعية مجدولة، وكانت رائحة اللبن مشوبة برائحة الدخان المستخدم فى تجفيف القرع المفرَّغ الذى يستخدم أوعية، وكن يبعن أيضاً قبضات سميكة من التبغ الذى على عوده، وهؤلاء هم رجال القبائل الذين يرتدون الزى الأبيض، يمرون ممسكين بأيدى بعضهم البعض، وعلى رءوسهم صلصال أصفر اللون، حاملين رماحهم عبر أكتفافهم، ويمرجحون عاموداً معلقاً فى كل طرف من طرفيه مجموعة من الطيور الحية، أما الحضريون والحضريات فيمكن تمييزهم بتلافيفهم، التى يسمونها الشماسات Chammas ، بيضاء اللون وشعرهم المقصوص على شكل خصل هفهافة، وهاتان أرملتان أو ثلاث، وقد قصصن شعورهن من المقدّمة، تتقين الشمس بواسطة مظلات عجيبة الشكل مصنوعة من القش، يمشين وهن يجرجرن وراءهن على الرمل أطراف ثيابهن زعفرانية اللون، وهذا معتوه ملفوف بالحبال إلى أن أصبح شبيهاً بطرد أسود انفجر خارجاً من لفافاته، يصيح طالباً الصدقة والإحسان. وهذا موسيقى يرتدى عمامة قرمزية اللون يجلس تحت شجرة بوغنفولية يعزف على قرعة مفرَّغة مركب عليها أوتار، وبالقرب منه كلب يقضم فى رأس ثور ملقاة فى التراب، كانت تلك بوابة إفريقيا بلهبها وحرارتها ورائحتها، وعندما تناهت إلى مسامعنا فجأة أصوات موسيقى الفرح من خلف أسوار المُركَّب السكنى، كان فى ذلك تلميح إلى التعويذة التى تكمن وراء هذه الأشياء.

قال آشيتى Esheti وقرع الطبول ينساب على شكل ضوضاء إيقاعية: "هذا صديق من أصدقائى يزوّج ابنته، عمرها خمسة عشر عاماً، والعريس عمره اثنان وعشرون عاماً، هيا تعالوا لتروا ما يحدث، سيكون هناك رقص كثير، وهرج ومرج»

سار أمامنا، مبتسماً، فى فناء مملوء بالخادمات، والعبيد، والشحاذين،

وعازفى النايات، صغار يحدثون القرقرات المخيفة وهم يضعون أصابعهم فى حلوقهم، كان نصف الفناء قد حُوِّل إلى خيمة كبيرة، وعندما طلب منا المضيف الذى كان يرتدى ثوباً أبيض شديد النظافة وله حواف خضراء اللون، الدخول وجدنا مئات من الناس: رجالاً ونساءً، كانوا جميعاً جالسين على الأرض حول مكان مفتوح، كانت هناك دائرة داخلية من الرجال الذين يحملون بنادق، ووسط هؤلاء الرجال كانت ترقص أشكال من الأبنوس، ترتدى عمائم بيضاء، ملفوفة بأربطة بيضاء، ويحملون قوارير طويلة الأعناق فيها زيت، راحوا يرشونه وينثرونه على الجمهور، الذى كان يصفق تصفيقاً إيقاعياً مدوياً طوال الوقت، هذه الوجوه السوداء تماماً، وهذه الملابس شديدة البياض كانت تصنع تقابلاً عجيباً، وكانت تبدو فى الضوء الخافت كما لو كانت بقعاً من الظل والخيال تتجرف إلى الأعلى والأسفل على بحر متجمد، هذه مجموعة من النساء تشكل فى ركن من الأركان مربعاً من الموسلين الأبيض، وفى داخل هذا المربع توجد العروس، على حد قول آشيتى، قال: "الرجال الذين يقفزون عند ذلك المربع هم الأقارب، هم يرقصون ويصيحون لإبعاد الأرواح الشريرة، لكنهم سيشربون حالاً التدج Tedj إلى أن ينسوا أنفسهم!".

قبل أن أتمكن من طرح سؤال آخر طلباً للمزيد من الشرح، بدأ الجمهور يتجمع فى الفناء حيث كانت توجد مجموعة من البغال التى وضعت فوق سُرُجها أغطية مزركشة زركشة بهيجة، كان العريس يرتدى قناعاً أزرق فى أبيض، وعباءة غامقة اللون، وجرت مساعدته بواسطة ثلاثة من الأصدقاء على ركوب بغل من البغال، ويبدو أن هؤلاء الأصدقاء كانوا من أصدقاء العريس، ولذلك كانوا يتصرفون على نحو يوحى بأنهم من أهله، وتبعت العروسة العريس، كانت هناك قطع طويلة من الشاش الخفيف مفرودة مثل الخيمة، من فوق العروسة، لكن فى اللحظة التى ركبت فيها على البغل جرى لف هذا الشاش الخفيف حولها وجرى وضع برنيطة من نوع الروديكو والمصنوعة من اللباد، على رأسها! وضع العريس هو ورفاقه أغطية رأس على رءوسهم فوق الأقنعة التى كانوا يرتدونها، وسار الموكب فى الممر الضيق، وكانت هناك مجموعة من الأشكال التى تقفز هنا وهناك، وكانت الموسيقى تسبق هذه المجموعة وتعزف على آلات وترية عجيبة الشكل، وكان حملة

الزيت المقدس، والأشخاص الذين يرتدون ألبسة مهلهلة ويحملون صوانى الطعام المغطاة بأغطية من القماش قرمزى اللون، وددت لو أنى تابعتهم لحضور الوليمة، لكن آشيتى كان صارماً فى كلامه، قال مؤنباً "لقد انتهت فترة الصباح، وهناك أمور كثيرة تخص القافلة ينبغى الانتهاء منها". من الواضح أن آشيتى كان يعبر عن وده لنا، وربما كان ذلك بدافع من المصلحة المالية، لأنه أعلن أنه سوف يبحث لنا عن خدم وعن بغّالة، فضلاً على حيوانات لحمل الأمتعة و "حيوانات قوية نركبها ومناسبة لمقامنا».

التقيت بعد ذلك المرشدين الذين لم يكونوا على استعداد للذهاب إلى المدى الذى وددت الوصول إليه، والتقيت مرشدين آخرين، أكثر مكراً، وعدونى بكل شئ، فى إطار حلاوة اللسان التى لم تخف نظراتهم الخبيثة، وتعاملت مع طباخين لا يعرفون الفرق بين الدجاجة والبيضة، وتعاملت أيضاً مع خبراء فى الطهى كانوا يودون أن يأخذوا معهم مخزونات من البقالة، كانت البغال تقف بالعشرات فى الشارع، لكنها جميعاً كانت عرجاء أو محتقنة الظهور، كنا بحاجة أيضاً إلى حرس مرافق من الجنود، لكن عندما رأينا أولئك الذين كانوا يجرون عرضاً على شكل كتيبة يجرى التفتيش عليها كان السواد الأعظم منهم غير متأكدين من صلاحية بنادقهم، لم تكن هناك سُرُج إنجليزية يمكن استعمالها، أما السُّرُج الحبشية فكانت غير مريحة، وكانت الرّكاب (☆) من النوع الذى يدخل فيما بين أصابع القدم، أما قائد القافلة- الذى يعرف باسم -الجنرال- والذى جاء إلىّ بتزكية من بعض الناس فقد اختفى فى الجبال، وكل ما عرفته عنه أنه سيعود بالتأكيد غداً أو بعد غداً، أو فى وقت ما، واقع الأمر، وكما هو الحال فى تجهيز قافلة أفريقية، كانت اللحظة التى قمنا خلالها بفحص كل أشكال النقل بدءاً من الإبل إلى الحمير الصغيرة رمادية اللون التى لها خطوط سوداء على أكتافها، وبعد أن التقينا آخر المرشدين الذين يعرفون البلاد كلها فيما عدا ذلك المكان الذى وددنا الذهاب إليه، تبدو لنا وكأننا لن نبدأ المسير مطلقاً.

ظهر آشيتى بعد ذلك، فى صباح أحد الأيام، ومعه نسخة منه شخصياً

☆ الرّكاب: بتشديد الراء وكسرها، هو ذلك الجزء من السرج الذى يضع فيه راكب البغل او الحصان قدمه. (المترجم)

لكنها كانت أكثر منه نحافة واسوداداً، قال آشيتى، وبعدها بدأت تتحسن الأمور: "هذا هو جابرا Gabra جُرجس -Gorgis سيكون لك طاهياً." نظر جابرا إلى بضاعتى ومؤنى مشفقاً "سنذهب الآن إلى السوق للشراء ونشترى ما هو مفيد بحق"؛ وأمضيت صباحاً مفيداً فى المساومة على الزيوت والتوابل، وحزم من الأشياء المكسبة للطعم والنكهة، والمواعين عجيبة الشكل، والأوانى التى أصر جابرا جُورجس على أنها هى الأكثر ملاءمة لنيران الخشب، من آنياتنا المطلية بالميناء، اشترينا طاقماً من الأكواب عالية الزينة تحسباً "لأن يأتى العظماء لزيارة مخيمنا"، كما اشترينا أيضاً بعض الحقائب التى تغلق بالأقفال لمنع الجنود أو البغّالة من أن يتيهوا عجباً بطعامنا، حدث كل شىء فجأة فى اليوم التالى، قام التاجر الأرمينى بإحضار الجنود، كما أحضر ستة آخرين ليحلوا محل الجنود فى حال غيابهم، هذه المنظومة تسهل، بلا شك، السير مع مرافق غير معروف لكل خادم، وجندى، أو مرشد اعتباراً من نقطة البداية، وبحيث يكون له ضامناً أو بديلاً- أو بالأحرى يكون له دلمينا Dalmin، أو بمعنى أدق شخص أمين له وعليه- ويكون مسئولاً أمام السلطة المركزية عن تصرفات صديقه.

عقب انصراف الجنود مباشرة لشراء الصنادل (☆) والبطاطين التى هى جزء من أجورهم، على الرغم من علمى بأنهم يبيعون هذه الأشياء قبل بداية الرحلة - أحضروا أمامى "صبياً"، أصر جاربا جورجس أن هذا الصبى هو جوهرة الخدم، وكان الصبى يرد على كل سؤال أطرحه عليه قائلاً: "أستطيع غسل الملابس غسلاً جميلاً"، وبناء على هذا التصميم وذلك التعبير استأجرته، على الرغم من أنه كان يحمل اسماً هو جابرا ميكائيل جلاّن، الذى لم أتمكن من نطق الكلمة الأخيرة منه.

سرت شائعة مفادها أن قطيعاً مكوناً من خمسة بغال وصل من هرار، ثم اندفعنا إلى سوق الحبوب لاستئجار هذه البغال فور تنزيل حمولتها، بينما كنا فى طريقنا إلى السوق حيّا رجل طويل رفيقى، والقى جاربا بنفسه عليه ممسكاً به من كتفيه كما لو كان يتخوف من هربه منه، وراح يهزه حتى يتأكد من شخصيته الحقيقية، تعجب وهو يفسر ما يحدث "هناك ثلاثة رجال

☆ الصُّندل: حذاء مكشوف فى معظمه حفاظاً على تهوية القدمين. (المترجم)

يبحثون عنك فى الجبال، أيها الثعلب! تعال معنا الآن، واختر معنا البغال."
وبهذه الطريقة جرى ضم عمر الجنرال إلى جماعتنا، كان عمر الجنرال لا يزال يحتج عندما وصلنا إلى مجموعة أشجار السنط التى كانت البغال تتمشى تحتها بعد إنزال حمولتها عنها، غمغم جابرا جورجس "أرجوك ألا تتجهمى بهذا الشكل أيتها السيدة." لكنها معجزة أن نتمكن من انتقاء ستة بغال متينة؛ وعندما وجدنا، عند عودتنا، أن ذلك الترزى الهندى الحزين قد قام بإحضار شباك البعوض المطلوبة لنا، وعندما وجدنا أن السَّمكرى قام بتنظيف الرّكاب الإنجليزية، ارتفعت روحنا المعنوية أملاً فى الإسراع بالرحيل.

من الطبيعى أن يحدث المزيد من التأخير، واقع الأمر أن العملة المعدنية المستخدمة فى الحبشة هى دولار ماريا تريزا، الذى تصل نسبة الفضة فيه إلى ثمانين فى المئة، ويساوى نحو ثلاثة شلنات وحجمه كبير ووزنه كبير أيضاً، والكيس الذى يحتوى على ما قيمته ٥٠ جنيهاً إنجليزياً من هذه الدولارات، يكفى لأن أحمله وليس شيئاً غيره، وأربعة أكياس من هذه الأكياس تشكل حمولة بغل من البغال، لكن نظراً لعدم وجود فكة فى المناطق الداخلية من البلاد، فإن هذه الدولارات لا تستخدم ويقتصر استعمالها على الأثرياء. بوسعك شراء عشرين بيضة أو دجاجتين بالقرش الواحد، وتستطيع شراء خروف نظير ثلاثة أرباع الدولار، لكن من سوء الطالع أن هذه العملات المعدنية كلها تعد شيئاً خرافياً أولاً وقبل كل شئ، وعليه تستطيع الذهاب إلى السوق ومعك دولاراتك البيضاء البراقة وتروح تبحث عن القروش والأرباع بقيم مبالغ فيها، هناك فخ آخر يقع فيه الغافلون والمتهورون، ربع الدولار مدموغ بأسد متوج، لكن إذا كان فم الأسد مفتوحاً ورافعاً ذيله فإن القبلى لن يقبله ويرفض أخذه، وعليه رحت أنا وهارولد جونز نبحث وننفق ساعات في البحث عن أرباع لا يكون الأسد المدموغ عليها فاتحاً فمه أو رافعاً ذيله، أخيراً عدنا ونحن، محملون بأكياس صغيرة، قمنا بوضعها داخل جوال كبير، وتنهدت تنهيدة ارتياح وحاولت وضع هذا الجوال الكبير فى ركن من الأركان، أدى ثقل ذلك الجوال، وإن شئت فقل الحقيبة، إلى انكسار مقبضيها على الفور. وجلسنا على الأرض ورحنا ننظر إلى بعضنا البعض فى صمت، تناهى

إلينا صوت قادم من الخارج - "سيدتى، الجنود يقولون إن الجو سيكون رطباً على الجبال وإنهم لم يتمكنوا من شراء أى شىء ليصنعوا منه خيمة، كما أن الأعمدة التى طلبت شراءها من السوق، طويلة جداً ولا تصلح لشباك الناموس، إضافة إلى أن جلاّن مصاب بالحمى ويرتعش". قاطعه صوت آخر يقول: "إنه ليس مصاباً بالحمى- هذا الرجل السيئ أكل القات! (*) سيدتى، هل تأذن لى بربط الركاب فى السّير لأن رجليك طويلتان على هذا السرج". وبذلك نكون قد كسرنا الصمت.

فى عصر ذلك اليوم راح كل واحد من أفراد القافلة يطلب دفعة مقدمة من أجره، متعللاً بأن زوجته مريضة أو طفله عليل، وعندما جاء الرجال ومع كل واحد منهم حزمة من الأوراق الخضراء يربطها إلى وسطه، سرح بالى فى أن القسم الأكبر من النقود جرى إنفاقه على شراء القات، ذلك المخدر الذى يثير ويؤدى إلى الاكتئاب، والذى يقال إنه لا يأكله سوى المسلمين.

(*) القات: نبات مسكر يمضغه اهل اليمن والحبشة وكثير من سكان القسم الجنوبى من الجزيرة العربية كما ينتشر مضغه ايضاً فى الصومال (المترجم).

◆ الفصل الثانى

ثوابت العهد فى هرر

اتخذنا الترتيبات اللازمة لتحركنا عند الساعة السادسة، وعليه عند الساعة الخامسة صباحاً، وأثناء الظلام الدامس، وقبل أن تبدأ الديكة صياحها، كنا قد ارتدينا ملابسنا ورحنا ننتظر وصول البغال، قام كل من جاربا جورجس هو وجلاَّن بحمل الأمتعة إلى خارج الفندق وهما غير راضيين، أكدت لهارولد جونز "كل شىء فى هذا البلد يبدأ متأخراً ساعة عن موعده". كان الضوء الرمادى قد زحف إلى الشرفة، ولم نر أى حيوان من الحيوانات.

قال عمر، وهو عائد من المرة الخامسة لاستطلاعه للشارع: "أنا لا أظن أن البغال قد وصلت بعد إلى البلدة". أوضح عمر أنه من باب الاقتصاد فى الإنفاق يقوم رؤساء البغَّالة Nagadis بإرسال حيواناتهم لتتغذى من التلال ويقومون بإحضارها فى الوقت الذى تُطلب فيه.

وبعد شروق الشمس كنا جالسين على أكوام الأمتعة على جنب الشارع، وقد بدا علينا البله والحماقة اللذان كانا بداخلنا.

قلت لهارولد جونز "ما رأيك فى إفطار آخر؟" قلت ذلك وأنا أستعيد ذكر القهوة الممتازة التى تناولناها فى الفندق، أحسسنا بالسرور ونحن نناقش المثل العربى الذى يقول: "ثلاث بدايات ثم بداية حقيقية بعد ذلك".

قال جونز: "أستطيع القول إننا سنبدأ المسير عند الظهر".

راجت عند الساعة التاسعة شائعة مفادها أن آخر مرة شوهدت فيها بغالنا كانت عندما كانت تجرى بطريقة هوجاء بعيداً بين الجبال، وقبيل

الظهر، عاد الرُّسل الذين كنا قد أوفدناهم لتحرى هذا الأمر، وهم يتصنعون الاكتئاب وخيبة الأمل، لكنهم فى واقع الأمر كانوا مسرورين من مفاجأة المعلومات التى جاءوا بها، قالوا : إن البغال هاجمتها الضباع أثناء الليل، وقد أكلت الضباع رجل بغل من هذه البغال وأصيبت البغال الأخرى بجراح، وأن أصحاب البغالَ كانوا لا يزالون يُطَبِّبونها، راجت هذه الشائعة بسرعة، وكان آخر ما سمعته من هذه القصة أن الأسد أكل صاحب البغال Nagadi.

قمنا بلا فضول أو تطفل قدر المستطاع، بإعادة متاعنا إلى غرفنا، واستبدلنا ملابسنا بملابس عادية وخرجنا لمشاهدة وصول دجزماتش إيمارو Dejezmatch Imaru، حاكم هرر المُناب، الذى كان يحضر حفل زفاف ابنة راس تفارى Ras Tafari فى أديس أبابا.

كان الموكب جذاباً، مر فى بداية الموكب الجنود على اختلاف أحجامهم وأشكالهم "ملفوفين فى جبخانات(*) حسب كلام هارولد جونز، فيما بين فترات تشغيله لآلات التصوير (الكاميرات)، كان هؤلاء الجنود يمثلون الحرس الخاص لراس تفارى، وقد جرى تدريبهم بواسطة ضباط الصف السابقين فى وحدة البنادق الأفريقية الخاصة بالملك، وكانوا يرتدون زياً أوروبياً موحداً كاكى اللون، جاء الدجزماتش ماشياً على قدميه بعد الجنود، وهو رجل نحيف مميز القامة، وكان غطاء رأسه الأسود العريض وقبعته الرودية Rodeo يخفيان الكثير، جاء مسئولو الدجزماتش خلفه، وكانوا يشكلون جمهوراً من المتشحين بالقماش شديد البياض، وكانت هناك بقع قرمزية منثورة على حافة العباءات، كانت هناك نسوة يمسكن مظلات نسائية صغيرة مضحكة على شكل باغودات(**) ويظللن بها على جدائل مضفورة لا تحصى ولا تعد من الشعر، الأمل الذى يجعلها تبدو كما لو كانت شبكة من الشباك، كان الحمَّالون يترنحون بسبب أحمالهم من الأطباق المصنوعة من الصلب، أو ربما كانت تلك تُرُساً Shields، كان أفراد الحاشية المسلحون بالبنادق والرياح يقتادون الخيول التى كانت الشراشيب تتدلى من قماش السُّرُج المطرز برسوم

☆ جبخانة: كلمة تركية الأصل، تعنى شريطاً من الجلد فيه مواضع لطلقات البنادق ويلفه الجندى حول وسطه او على كتف من كتفيه، وحول وسطه. (المترجم)

☆☆ واحدة - باغودة-: معبد صينى او يابانى مكون من ادوار عدة. (المترجم)

الأسود، فى حين كانت مؤخرة الموكب مكونة من متسلقى الجبال، والمجذومين، والشحاذين الذين كانوا يلبسون أغطية رأس مصنوعة من الوبر، كما كانت فى المؤخرة بعض الكلاب وعنزة ضالة".

بعد أن أعدنا آلة التصوير إلى مكانها جاءتنا رسالة تفيد أن صاحب السعادة يود لقاءنا، وعليه صعدت مع هارولد جونز إلى مقر الحكومة الصغير المبنى على تلة فى وسط الداير Direداوا، وتحيط به شرفات يرى الواقف فيها منظراً رائعاً للتلال والوديان، هذا المقر يمكن الوصول إليه عن طريق مجموعة قمم ملتحمة على شكل درج (سُلَّم)، يرتفع بطريقة عمودية فيما بين ما يشبه الأسود المخدَّرة، غمغم هارولد جونز، ونحن نصعد درجة إثر أخرى، بين الجماهير الغفيرة المحبطة التى كانت تحاول أن تحظى بحضور صاحب السعادة "هذه الحيوانات ينقصها شئ، لكنى لا أعرف ما هو".

استقبلنا الدجزماتش إيمارو فى غرفة كبيرة تكاد تكون خالية مكسوة باللون الأحمر، وكانت صورة الأسد هى الغالبة على مظلة العرش بل وعلى كرسى العرش نفسه، كان الدجزماتش يتكلم قليلاً من الفرنسية، وسرعان ما تبينا سر استدعائنا.

قال الدجزماتش: "فى استعراض العرش فى العام الماضى رأيت صورتكما مع شيخ C hiefعربى، وقد تذكرت هذه الصورة نظراً لأن هذا الرجل كان أضخم رجل رأيته فى حياتى، أنا لم أعرف أحداً مارداً على هذه الشاكلة".

ضحكت وحدثته عن الشريف الريسونى Raisuni المغربى الذى بلغ وسطه من الكبر حداً حتم عليه أن يكون له باب خاص يدخل منه، وكرسى خاص يجلس عليه، كان وجه إيمارو نحيفاً ينم عن الذكاء، وكانت ابتسامته على نحو تجعل الناظر إليه يقف على جاذبيتها، وبعد أن تطوع الدجزماتش بإرسال برقية إلى راس تفارى يطلب منه فرماناً خاصاً يسهل علينا ترحالنا خلال الجبال، دعانى إلى مقابلة زوجته.

كانت هناك فى الغرفة المزودة بكراسى فرنسية مطلية بالذهب، وطاولات مطلية بالذهب أيضاً، امرأة تجلس غارقة فى كرسى ذى مسندين، وبلا حراك وسط لفائفها، التى كانت تلامس شفتيها ومكونة من ثنية فوق أخرى، كانت عيناها سوداوين ولها رموش كثيفة مثل رموش الغزال وكان شعرها مجدولاً

ومضفوراً بطريقة توحى وكأنه شىء مطرَّز، لكنها كانت مُتْعَبة بعد رحلة طويلة، وربما كانت مكسوفة ومستحية، الأمر الذى جعلها لا تقول سوى كلمات رسمية قليلة على سبيل التحية، أحضر الخدم أكواب مشروب التدج ذهبى اللون، ذلك المشروب الذى يصنع من العسل والأعشاب المُرة والذى قال عنه بودلير -Baudelaire" إنه الأكثر فخامة، هو مشروب نبيذ العسل فى مذاق الطفل الصغير".

تحدثنا عن الترحال وكان من رأى الدجزماتش أن قافلة البغال أفضل فى الترحال من القطار، قال: "المرء وهو فى القطار لا يرى من البلد سوى قذارته، ولا يأكل أو يتنفس سوى هذه القذارة أيضاً، من الحكمة أن تركبى؛ ستكسبين كل شىء ما عدا الوقت". وابتسم مُضيفاً "أنا أتساءل، هل ننظر إلى هذا الأمر مثلما تنظرين إليه؟".

عندما عدنا إلى الفندق وجدنا مجموعة كئيبة من الحيوانات مُجَمّعة بجوار السلم، وفى عهدة رئيس من رؤساء البَّغَّالة ربما كان هو حام ولد سيدنا نوح، كان وجهه بأجمته من الشعر الأبيض توحى بالنبل، وكان وجهه مربعاً تتخلله وديان عريضة كانت توحى بتناسق عظامه، كانت عيناه غائرتين وصريحتين وتوحيان بأنه لم يكن كبيراً أو شاباً، لكنه عاقل تماماً، من سوء الطالع أن لهجته لم تكن مفهومة للجميع اللهم باستثناء البغَّالة، الذين كان من مصلحتنا أن يقوموا بترجمة وشرح كلماته القليلة لنا، وأنا لا أظن أنه كان يستعمل أكثر من ست كلمات.

كان من الصعب توبيخ أو توجيه اللوم إلى إنسان من هذا القبيل عن أمر لا يفهمه مثل تأخر يوم كامل عن الموعد المحدد، وكان محرجاً أيضاً أن أبرز له أنى قد اخترت بغالاً سليمة فى حين جاءنى هو ببغال ظهورها شبيهة بدكان القصَّاب.

قال بان Pan صاحب الرأس الأسود مجعد الشعر، والذى من المفترض أن يعلق ناياً فى حزامه: "هو يقول: ما عليك". شاهدنا فى يأس البغال وهى يجرى دفعها داخل الحوش، ثم أغلق الباب، وأعلنا من جديد أننا سنبدأ التحرك عند الساعة السادسة.

طُرق الباب عند الساعة الثالثة والنصف طرقاً مرعباً، ولابد أن يكون هذا الطرق قد أيقظ كل النائمين فى الشارع.

سألنى جابرا جورجس "ألم يئن الموعد، يا سيدتى؟"

رددت عليه "ليس بعد". وددت لو أنى كنت قد تذكرت لعنة عربية تناسب هذا المقام، بعد ذلك بساعة انتعشنا بفعل الأغانى الصادرة عن المرافقين الذين كانوا ينتظروننا فى الشارع، استسلمنا بعد ذلك للأمر الواقع.

جاء القسم الأكبر من أهل داير داوا لرؤيتنا ونحن نبدأ التحرك، أحسست أن الطريقة التى سرنا بها فى مجرى النهر الجاف خارج البلدة كانت جديرة بالاهتمام الذى أوليناها إياه، سار أمامنا جنديان حاملين بندقيتيهما فى أيديهما، وسيفين معقوفين يتدليان خلف ظهريهما كما لو كانا ذيلين، وسارت البغال على غير هدى خلفهما وهى محملة بكل أنواع الصناديق، والحِزم، والجوالات، حاول هارولد جونز وأنا معه المحافظة على ركوبتينا فى خط مستقيم، لكن بعد الميل أو الميلين الأولين فهمنا أننا لا يمكن أن نركب البغال إلا إذا كنا قد ولدنا وتربينا معها،- ما عليك سوى أن تركبها وتحاول تحاشى أرجل البغال المجاورة لها، طوال مسيرنا فى رمال وادى هررى Harri، عاودنى الحنين إلى قوافل الإبل، نظراً لأن الجمل لا يرفس إلا فى اتجاه واحد فقط، فى حين يتمتع البغل بشئ سحرى فى مفاصله، إذ يستطيع الرفس فى جميع الاتجاهات وبكفاءة واحدة وبكل أرجله، وقد أفلت هارولد جونز من رفسة وجهها بغل أبيض مشلوح الأذن إلى كتفه، كما التمع حافر مرَّ بسرعة أمام قماش السرج الذى كنت أركب عليه، قبل أن أحاط علماً بتلك التصرفات البغلية الشاذة، كان الجو شديد الحرارة، مما أدى إلى انصهار قالب الشيكولاتة الذى كان بداخل الحقيبة التى أحملها على ظهرى، وسالت الشيكولاتة على فرشاة أسنانى وعلى المشط قبل أن ألاحظ نقط الشيكولاتة تسقط على حذائى.

كان التراب كثيفاً فى مجرى النهر الجاف نظراً لأن هذا المجرى هو الطريق الرئيسة التى يستخدمها قرويو التلال فى المجئ إلى المدينة لتسويق منتجاتهم، التقينا قطعاناً من الحمير المحملة بالعلف والتبن، وشاهدنا الإبل وهى مربوطة بحبال رأس إلى ذيل، ويقودها رجال سود شبه عراة، وضعوا كل أمتعتهم، المشط، وخلة الأسنان والتبغ، ونباشة الأذن، كل ذلك مغروس فى شعر كل جمَّال من الجمالين، كانت النساء يحملن أشياءً أكثر مما تحمله

البـغـال، كن يمـررن علينا على شكل جمـاعـات ترتدى مـلابس قـرمـزية اللون، وهن يحملن أحمالاً كبيرة من الحطب على رءوسهن فى حين يوجد طفل أو حزمة من الدجاج متدلية على ردفيها، قد تكون أيديهن فى بعض الأحيان مملوءة بالقرع القللى، فى حين توجد قرعة حمراء، وإن شئت فقل قرعة عسلية متزنة على رأسها، أو قد تكون هناك عنزة ملفوفة فى الحزام الموجود حول وسطها، كانت هناك قطعان من الماشية ترعى فى ظل شجرة الست المستحية(★)، وعندما بدأت تزداد كثافة الأشجار القصيرة عند سفوح التلال، كنا قد وصلنا إلى فحَّامات الفحم النباتى التى تحيط بها جذوع مشتعلة، وشاهدنا أيضاً قطعاناً من الماعز يرعاها أولاد صغار عراة.

زاد اقتراب الأشواك الكبيرة بعضها من بعض إلى أن صنعت من فوق رءوسنا ستارة يزيد من رونقها تلك الأجنحة قرمزية اللون، أو تتخللها نباتات متسلقة كثيرة، بدأنا الصعود بعد ذلك وانفتح المكان من أمامنا كما لو كان خارطة، كان المسار الذى أخذناه ضيقاً، ومفزعاً بسبب الصخور والجلاميد المنخلعة من الجبال، فى أماكن شبه عمودية على المسار، الذى كان يتلوى ويعود إلى الخلف إلى أن بدأنا نرى الجزء الذى قطعناه منه على شكل سلسلة لا يتصورها عقل من الحلزونات، التى تنحدر من صخرة إلى أخرى فى الأسفل، كانت البغال تتزحلق وتترنح فى بعض الأحيان، انقطعت الحبال مرتين وتناثرت الحمولات بين الأحجار، فى الوقت الذى راحت البغال فيه تنتفض إحساساً بتحررها من حمولتها.

أبطأنا التقدم بعض الشئ، والسبب فى ذلك أننا كنا، عند كل منعطف يشرف فيه مسارنا على حافة مكان مفتوح، نلتقى جمعاً كبيراً من الحمير صغيرة الحجم، المحملة بأكياس البن التى تزيد على طاقتها، والتى تنتشر خلال قافلتنا، الأمر الذى يزيد من ارتباك بغالنا المُجهدة، وتنتج عنه عاصفة من السباب واللعان التى تصدر عن البغَّالين، عندما كانت القافلة تتجه نحو الأسفل بين الجذور المزقة والجلاميد الصخرية المعلقة، كنا نواصل المسير، مخافة أن تنزلق السُّرُج إلى رءوس البغال، فى إحدى المرات، وعندما كان هارولد جونز يركب البغل، انقطع حزام بطن البغل، وسقط هارولد جونز على

★ الست المستحية: شجرة من السنطيات. (المترجم)

كتفه فى الخلف، طقم البغل الحبشى هش وثقيل وكل سير وحزام فيه يجرى ربطه على شكل عقدة، ويجرى إصلاحه وتقويته باستعمال الخيوط، باستثناء التغاضى بصورة مؤقتة عن هذه التناقضات فى العرَّاقة(☆) الموجودة أسفل السرج.

أخيراً وجدنا أنفسنا فجأة على قمة السلسلة الجبلية الأخيرة، وعندما نظرنا فى الخلف، إلى زرقة الوادى الشبيه بالفنجان، وإلى الجبل الذى تكسوه الغابات، وينزل نحو الأسفل إلى السهل الموجود خلف دايرا داوا، شاهدنا هضبة أمامنا، عبارة عن أرض زراعية فيها التماع بحيرة فيما بين الأكواخ المصنوعة من قش نبات عش الغراب، كانت نباتات الفربيون المزهرة هى ونبات الصبار تحد جانبى الطريق الذى كنا نسير فيه، كانت الطيور والقطعان هاجعة بسبب حرارة الظهيرة فى أماكن تشوين قصب السكر أو الذرة التى توفر لها الظل، كان الرجال والنساء ينامون ويضعون علي رءوسهم بعض الملابس، وراح مرافقونا، الواحد بعد الآخر، يوضحون أن المَطلع أصبح أكثر انحداراً، تمتم أشد الجنود سواداً، وهو يدعى أيضاً جاريا جورجس، وعريبيد شرير، على وجهه شلخ يمتد من أعلى صدغه إلى ذقنه، بأن راح يقول شيئاً عن الحمى. كان هناك جندى آخر أكثر صراحة، ضحك ذلك الجندى "نحن كلنا تعبانين، نظراً لأننا شربنا بالأمس الكثير من مشروب التدج، غنينا الليل بطوله أمس، أما اليوم فنحن حزناء فى هذا الصباح".

تحولت بحيرة بلاَّ Balla إلى ما يشبه الضباب الذى كان يترأرأ فوق القرى المبعثرة، ودوائر الفطر التى على المنحدرات، التى يحيط بها سياج من أشجار الفربيون التى يصل طول الواحدة منها إلى عشرين قدماً، بعد مسير دام سبع ساعات، وصلنا إلى بحيرة أخرى تدعى الآرامية Arameya، تعكر سطح مائها بسبب هبوب ريح مفاجئة، وكانت عامرة بالبط، كان من بين هذه الطيور، أنواع من قبيل طائر أبى ملعقة أحمر العينين، وطيور الغرَّاء (☆☆) الصلعاء، وطيور الغطس التى كانت تبدو وكأنها بلا أعناق؛ كانت هناك أيضاً طيور

☆ العرَّاقة: قطعة من قماش او خيش توضع على ظهر الحمار او الحصان او البغل قبل وضع السرج على ظهر الحيوان. (المترجم)

☆☆ طير مائى من فصيلة البط. (المترجم)



مَطلع شديد الانحدار

مخوِّضة بكميات كبيرة، ومنها الأبيض والأسود، تمشى متأنقة على أرجل نحيفة وردية اللون.

دفعنا افتتاننا بالإمكانات التصويرية لتلك الطيور إلى التخييم على أرضٍ منخفضة قريبة من الماء، تحيط بها أشجار الحور(☆)، التى شكلت مصداً غير كاف للرياح، كان جاريا جورجس قد ذهب لشراء الطعام على الطريق، وعاد إلينا ومعه قرعة مجوفة مجففة مليئة بالحليب والبيض، كما أحضر أيضاً دجاجة نحيفة. قام جاريا بعدئذٍ بجمع بضعة أحجار قليلة، وقبضة ذراع من الخشب، وبعد أن كوّم كل شىء حوله بطريقة غير منظمة استطاع فى غضون نصف ساعة إعداد وجبة رائعة، بعد تناول الصنف الثالث، الذى تمثل فى الدجاجة الرياضية، أحسسنا بالشبع ولم نعد جوعانين، أحضر هارولد جونز الغليون الذى لا مفر منه- الذى لم يكن يبعده عن فمه إلا عندما كان يأكل أو عندما يضع وجهه على مؤخرة آلة التصوير (الكاميرا)- فى حين قمت أنا بتدخين واحدة من آخر سجائرى الثمينة، تحدثنا عن الصور الرائعة التى سنقوم بالتقاطها، إلى أن غربت الشمس وبدأت العاصفة تهدد خيامنا.

كان الجنود والبغالة قد نظموا أنفسهم على جانب الطريق المحمى من مهب الريح استعداداً لوليمة الشاة، جرت العادة، عند قيام قافلة من القوافل برحلة طويلة، أن يطلب القائمون بتلك الرحلة ذبح شاة على سبيل الأضحية لجلب الحظ السعيد، هذه العملية تعد أضحية فى الحبشة، إذ يجرى اقتياد الشاة إلى وسط الحلقة، ويجرى ذبحها، وقبل أن يتوقف جسم الشاة عن الارتعاد تكون حوالى ستة سكاكين قد امتدت إلى جنب الذبيحة للسلخ والتقطيع، ويجرى التخلص من اللحم الساخن بتقطيعه إلى قطع صغيرة، وبعد خمس دقائق من بداية ضربة السكين الأولى لا يتبقى من الشاة سوى العظم والدم الذى يلطخ الخدود والأصابع، شاهدت عمر وهو يقتاد شاة فى اتجاه الجماعة بالقرب من خيمتى ثم هرب على وجه السرعة فى الظلام.

كانت ليلة تعيسة نظراً لأن المرافقين كانوا بلا مأوى، واضطررنا إلى تقاسم البطاطين، عند الساعة الحادية عشرة انخفضت درجة الحرارة أكثر مما كانت عليه وتزايد ذلك الانخفاض مع اقترابنا من طلوع الفجر، لم نكن

☆ نوع من الأشجار من فصيلة الصفصافيات. (المترجم)

نتوقع وجود البعوض فى ظل مثل هذه الريح القوية، لكن الخيام كانت عامرة بالبعوض- قال جلان: "بعوض كبير بحجم الفئران"، قالها وهو يشعر بالضيق داخل شبكته، صحوت عشرات المرات للقيام بمذبحة لذلك البعوض، كما كنت أصحو أيضاً لأرى ما إذا كان هناك شىء آخر يمكن أن أرتديه، كان الجنود يسعلون سعالاً خشناً فى الجانب الآخر من المخيم، وعلى شكل تشنجات، تخيلتها ألحاناً تراجيدية حزينة، لكنى لم أستطع فهم لغتهم الأمهرية، أحسسنا جميعاً بالسعادة والفرح عندما طلع الفجر علينا، على الرغم من أن هارولد جونز وأنا كنا نلف وندور هنا وهناك ونحن ملفوفون إلى أذقاننا بالبطاطين، ونأكل الخبز البايت والبيض المسلوق، ورحنا نخفى ارتعادنا، وانتهينا بأن رحنا نقارن بين القضمات.

جرى فى حماية مجموعة من أشجار الصبار تحميل البغال التى كانت تصهل وترفس، بدأنا تحركنا، نازلين إلى الممر العريض الموجود بين عيدان الذرة العويجة والأرض المحروثة، مررنا على الأجران التى كان الناس فيها يدرسون الحبوب عن طريق عصى الدرس، ومررنا أيضاً على أكوام متحركة من الدريس اتضح، فى نهاية الأمر، أنها كانت حميراً محملة بالدريس، كان الطريق يعج بالحركة، هؤلاء هم الرؤساء (الشيوخ) يركبون الخيول وتحيط بهم البنادق، ورجال يركبون البغال، ورجال يمشون على أقدامهم، والكل يسارعون إلى لقاء الدجيز Dejez إيمارو، أو حتى مجرد مشاهدته أثناء مروره، مر علينا شخص يرتدى عباءة مذهبه الحواف، ويركب مهراً عربياً أبيض، استدرت لأنظر إلى حامل الرمح الذى كان يجرى خلف هذه الشخصية، بدأت أقول: "هذه الرماح أكثر فاعلية من البنادق-" لكنى لم أكمل جملتى، لأن ركوبتى، من باب الاعتراض، انحرفت جانباً، وأنقطع حزام السَّرج، وينهار السرج مثل جرف من الثلج، وزمزمية الماء، وحقيبة القماش التى أعلقها على ظهرى، وسقطت على الأرض وسط أيكة فى بداية الأمر، تبعتنى جلبة من أصوات كثيرة، وهرولة أقدام كثيرة، لكن أعقاب البغل هى التى أخرجتنى من تلك الأيكة، بلا ضرر اللهم باستثناء وسادة من الأشواك، التى راح جاريا جورجس ينتزعها الواحدة بعد الأخرى، وهو يعزينى فى كل مرة.

لم تقع أية حوادث أكثر من ذلك فى فترة الصباح، ومع دخول وقت الظهيرة كنا نخيم وسط مزارع البن على جرف جبلى يطل على مدينة هرَّار Harrar، كانت أشجار الفلفل توفر الحماية للخيام، كان هناك ممر تحده من جانبيه الورود البرية والليلج البرى أيضاً، وينزل منحدراً إلى كتلة الجدران القديمة، ذات اللون البنى المشوب باللون الذهبى، وتوشك على التداعى، والتى جرى بناؤها فى القرن الخامس عشر، وعلى مسافة بعيدة من هذا المكان كانت هناك بنايات بيضاء حديثة مغمورة بضوء الشمس، وكانت أبراج تلك البنايات تخترق ضباب الجبل.

كان هناك خارج منطقة التخييم، ومفصولاً عنها بواسطة ضفة من نبات متسلق مزهر، مجرى مائى توسع ليصبح بركة من برك الماء، فى هذه البركة كان السواد الأعظم من السكان يستحمون أو يغسلون ملابسهم، كانت خيالات الأشكال الأبنوسية منعكسة على الماء، كانت الجلود مفرودة داخل تجاويف مناسبة، كيما تستخدم لتكون طشوتاً مملوءة برغوة الصابون التى تقوم النسوة بنقع الغسيل وشطفه إلى أن تجرى تغطية سطح الأرض بأكوام من الكتان الأبيض، كان ذلك الكتان الأبيض يُنشر على الإيكات، أو فوق الأغصان، أو قد ينشر على الضفة أو فى الأخاديد، كان الصبية الأشقياء ينزلون الكثير من هذه الحبال الطويلة، كانت الملابس تتساقط من فوق الجدران، بينما كنا فى طريقنا إلى هرر Harrar، كان كل منحنى من منحنيات تلك البركة، وكل حفرة من حفرها، بها حصتها من الغسيل، كان كل آدمى يدعك ويغسل نوعاً معيناً من القماش، طلبنا تفسيراً، عندما كانت النساء يفتن علينا، وأكوام من الغسيل الذى يتقاطر منه الماء، فوق رءوسهن، ورائحة الصابون تسبقهن، وعرفنا أن تلك الليلة كانت ليلة التمكات Timkat، أى ليلة عيد الغطاس، الذى تقوم فيه توابيت العهد من مختلف الكنائس، بالذهاب على شكل مواكب إلى تلك البركة للحصول على البركة السنوية للماء، ويتحتم فى ذلك العيد أن يلبس كل إنسان ثوباً "أبيض خاليا من البقع"، كما ينبغى على كل واحد أن يسارع للحصول على نقط قليلة من الماء المقدس.

الحبشة مسيحية منذ نحو ١٦٠٠ عام، وكانت هى بطلة العقيدة على امتداد قرون وهى تدعى أن هذه العقيدة ليست أقدم وحسب وإنما هى مفهوم أنقى



الغسيل العائلى

أيضاً، هناك أسطورة تقول: إن ماكيدا Makeda، حاكمة أكسيوم Axum، كانت هى ملكة سبأ التى زارت (سيدنا) سليمان قبل ألف عام قبل الميلاد، وأن ماكيدا أنجبت ولداً من سليمان، هو منليك الأول، الذى يعد سلف البيت (الأسرة) الحاكمة حالياً، ومؤسس اليهودية فى إثيوبيا، وقد تلقى منليك الأول تعليمه فى القدس، إلى أن بلغ الثامنة عشرة من عمره، كما يعتقد الأثيوبيون، أن منليك الأول عندما عاد إلى أكسيوم، جلب معه بصفته مؤسساً لأسرة مالكة تبلغ من العمر ثلاثة آلاف عام، ألواح موسى، بل وربما أيضاً تابوت العهد الذى حفظت فيه تلك الألواح، هناك قصة مفادها أن ألواح موسى الأصلية محفوظة فى العاصمة القديمة، وهناك قصة أخرى تقول إن تابوت العهد مدفون فى مكان ما تحت جدران هذه العاصمة، على أى حال، فإن كل كنيسة من الكنائس الأرثوذوكسية الحبشية لديها نسخة من هذه الألواح القانونية (الشرعية)، وفى عيد الغطاس يجرى حمل توابيت العهد فى موكب خلال المدينة.

وقفنا عند غروب الشمس على التل الذى يعلو مخيمنا ورحنا نراقب الجماهير وهى تتوافد على الملجأ المفروش بقماش أحمر استعداداً لتلقى الألواح، كان ذلك الملجأ يبدو من بعد كما لو كانت الرمال قد زهَّرت. أصوات الطبول، أصوات موسيقى الناى الحادة، والأغانى الصاخبة كانت تتناهى إلى مسامعنا قادمة من الحدائق التى كان نبات الرتل فيها شبيهاً بالفراشات ذهبية اللون، والليلج الشبيه بالقنا(*) الذى كان يحذر القادمين من أشجار البوغنفيلة، سارع العبيد حاملين آخر لفة من لفات السجاد المطلوب لخيام المؤمنين. جاءت النساء بعد ذلك، وهن يحملن سلال الخبز أو القرع على رءوسهن، أقترب صوت الطبول أكثر وأكثر، وجاء القساوسة من كل جانب، وهؤلاء هم الأتباع يحملون المساند التى يضطجع عليها أولئك القساوسة أثناء الصلوات الكنسية الطويلة.

غلت الجماهير إلى أن أصبحت مثل بحر من زبد، وتحولت الأغانى فجأة إلى نوع من صيحات الإعجاب، بدا كل شخص منتصباً واقفاً، ثم أحنى كل واحد منهم رأسه عند قدمه اعترافاً بوصول توابيت العهد، يصل ببطء شديد عازفو النايات من بين الأشجار ومعهم عازفو الطبول البراميلية الكبيرة، لمعت القرون من فوق بنادق المرافقين، ووسط ضوضاء الأصوات وضوضاء الموسيقى،

(*) القنا: عشب استوائى مزهر عريض الأوراق. (المترجم)

ووسط دوى البنادق وصليل الرماح والسيوف، كانت المظلات الضخمة من القطيفة، والمطرزة بالذهب، وبألوانها الحمراء، والبيضاء، والأرجوانية، تتهادى ويمشى تحتها كبار القساوسة، انتقى غروب الشمس الذهب الموجود فى الرِّداءات الكهنوتية البراقة، والتمعت شمس الغروب على الصلبان المنحوتة فى الميدان، وأنارت كل حافة وكل حِلية من الحُلى الرخيصة، وأمام كتلة الألوان التى كان يتبارز فيها كل من الحرير والقطيفة والقماش المطرز بالمجوهرات، كان حملة المباخر يؤرجحون دخان مباخرهم، بينما كانت الصلبان الضخمة تتمايل.

فيما بين المظلات ذات الرءوس الحمراء حمرة فاتحة، كان هناك شخصان، كانت إنسانيتهما كتيمة فى صلابة وبهاء مطرزاتهما، يحملان الألواح على رأسيهما، مغطاة بقماش فاخر حتى لا يظهر منها شىء سوى شكلها.

غربت الشمس دون أن يدرى أحد، وراء التل، لكن الضوضاء ثارت من جديد فى الأماكن التى نصبنا فيها الخيام قريبة من بعضها مثل عيش الغراب، مرت توابيت الثالوث ومخلصنا فى اتجاه البركة ومن خلفها كان يمشى الحاكم إيمارو مع رؤسائه Chiefs وجنوده، ظننت للحظة أن غروب الشمس انعكس على موجة أخرى من البياض، جاءت من المدينة، لكن آلاف الأصوات كانت تُحَيِّي صائحة "القديس ميخائيل!" مر التابوت الثالث لينضم إلى بريق الذهب والمجوهرات بجانب الماء.

أثناء عودتنا عن طريق مسار أشجار البن، تمكنا من رؤية الموكب الأخير، موكب القديس جورج وهو ينحرف نازلاً من الجبل قادماً من الكنيسة الموجودة أعلى الجبل، هذا العويل النسائى المتقطع، الذى يعد صياحاً منذ قديم الزمان، والذى هو نبض الفرح الأفريقى، جاء بمثابة تذكار مسيحى على خلفية عنف وثنى، حدث فى ذلك الوقت قتال فى الوادى، لكن أحداً لا يعرف سبباً لذلك القتال، ولماذا بدأ، خرج أحد الرجال مترنحاً ورأسه ينزف، كانت هناك مجموعة من الشخصيات المكافحة تتمايل حول المقاتلين الأصليين....

ظلت الطبول تقرع طوال الليل من جانب التل، بينما كان القساوسة سَهَارى بجوار التوابيت، فى حين كان المؤمنون يراقبون، ويصلون، ويأكلون كسراً رقيقة من خبز الصوم الكبير، وكان الرجال العظام فى خيامهم، والجنود جالسين بجوار أسلحتهم المكدسة، بينما كان الفقراء يتجولون بثيابهم التى غسلوها مؤخراً.

الفصل الثالث

بَرَكَةُ المياه

استحال علينا النوم داخل مخيمنا، وعليه تناولنا الإفطار فى رمادية الفجر، وفور انبلاج الضوء وعندما أصبح مناسباً للتصوير، قمنا بالتمركز على الجسر الذى يعبر المجرى المائى، بدأ بالفعل جمع من الناس يسيرون على ضفتى المجرى، وانعكست بذلك صور ضخمة للملابس على صفحة ماء البركة الموجودة فى الأسفل، كان كبير القساوسة يرتدى عباءة من القطيفة بنفسجية اللون، وتنورة داخليةِ من القطيفة بنفسجية اللون أيضاً، كان الشماسان، اللذان يحملان الأَجْبيَّة وإن شئت فقل الفنداق، أمام كبير القساوسة، أقل أهمية وقيمة فى ثيابهما ذات اللون الأصفر الباهت، والذهبى والأزرق، فى الوقت الذى كانت تنبعث فيه ألوان قوس قزح بدءاً من اللون القرمزى إلى اللون البرتقالى، تتوهج من تحت المظلات التى على شكل زهرة، كان المشهد على خلفية مدرج طبيعى، فيه التلال المرتفعة فى الخلف، وسرعان ما بدأ كل منحدر يعمر بالأشكال، مثلما يضفى المن اللون الأبيض على الصحراء فى ساعة بعينها.

ساد الصمت عندما كان القساوسة والمتعبدون ينتظرون وصول الحاكم، وإذا كانت البهجة والرونق قد اختفيا وذويا، فى شمس الصباح، فقد تبقى انطباع واحد قوى، شعب مقاتل، فيه كل شخص غير ملون مسلح ببندقية، بسيطة مثل الملابس التى يرتدونها، وبدائية مثل الصخور التى وهبتهم الحياة، على هذه الخلفية من البساطة، وبطريقة طفولية إلى حد بعيد، ونبوئية إلى حد ما، تجلت روعة الكنيسة التى تحكم الحبشة، وتمتلك قسماً كبيراً من الأرض الطبيعية على شكل عقارات وتملى آراءها على الملوك وعلى الفلاحين أيضاً.

بعد أن غادر الحاكم إيمارو خيمته ونزل إلى ضفة المجرى المائى مصحوباً بالمسئولين والضباط، راح الشماسان يغنيان أغانى دينية، ارتفع دخان المبخرين، ورفعت الصلبان من جديد، راح عشرون شماساً، تلك الشخصيات الصغيرة التى ترتدى عباءات مركبا على أطرافها أشرطة من القطيفة، يدقون أجراسهم ويهزون شخاليل من النحاس الأصفر، التى هى من قبيل الشخاليل التى عثر عليها فى مقابر الملوك المصريين، وينحنى كبير القساوسة ببطء على الماء، ثم يغمس صليبه فى الماء، وفى اللحظة نفسها، ينحنى الجمهور إلى الأمام إلى أن تلامس شفاههم الأرض، وفى كوب من الذهب المحفور، يجرى إحضار الماء إلى القائم بعمل الحاكم، وبعد ذلك، وعندما ينصرف البلاط العابس من حول الحاكم المناب، وبعد انصراف الحاكم المناب نفسه، يحدث اندفاع نحو المجرى المائى، يروح الصبية يلقون بأنفسهم فى البركة، وتهدد ضفاف البركة بالانهيار بفعل تدافع الجمهور على الماء طلباً لملء القوارير وحبات القرع المفرَّغ، تسابقت الجماهير قادمة من التلال، ومن الفضاء الموجود فى الأسفل، على الوصول إلى البركة، والجميع يتدافعون ويناضلون من أجل الحصول على قطرات قليلة من الماء يسكبونها على رءوسهم، إلى أن أصبح عدد البشر فى البركة أكبر من عدد الواقفين على الأرض!

عند هذه المرحلة كانت الساعة قد دقت الثامنة، وبدأت الشمس تكتسب قوتها، ومن يمن الطالع دعانا الحاكم للفرجة على رقصة القساوسة من خيمته، التى كانت عبارة عن شرفة مفتوحة مفروشة بالسجاد، كان الحاكم إيمارو يجلس فى منتصف الخيمة، وكانت عباءته مفتوحة، كاشفة بذلك عن حوافها قرمزية اللون، وعلى كل جانب من جانبيه كانت تجلس بطانته وإن شئت فقل حاشيته، وكل واحد منهم واضعاً ساقاً على ساق، بين طيات من حرير الساتان أسود اللون، كان الجمهور واقفاً على الجانبين، ورحنا لمدة ساعة نشاهد تحيات الكرماء والمضيافين، والعظماء، الذين يتمتعون بقدر كبير من الرقة فى التعامل.

عندما جاء رئيس لتحية الحاكم، كان يحنى ركبة من ركبتيه إلى أن تصل إلى الأرض، ثم يحنى جبهته أمام ركبته، لكن هذه العملية كانت تنتهى وتكتمل بحركة كاسحة واحدة بما يشبه اعتراض المشية، وهنا يجئ قس يرتدى عمامة مرتفعة

وعباءة سوداء فوق ملابسه الخضراء خضرة التفاح والمذهَّبة ليطرح سؤالاً، ويضع ثنية من ثنيات إيشاربه على شفتيه، وينحنى ليقبِّل ساق الحاكم.

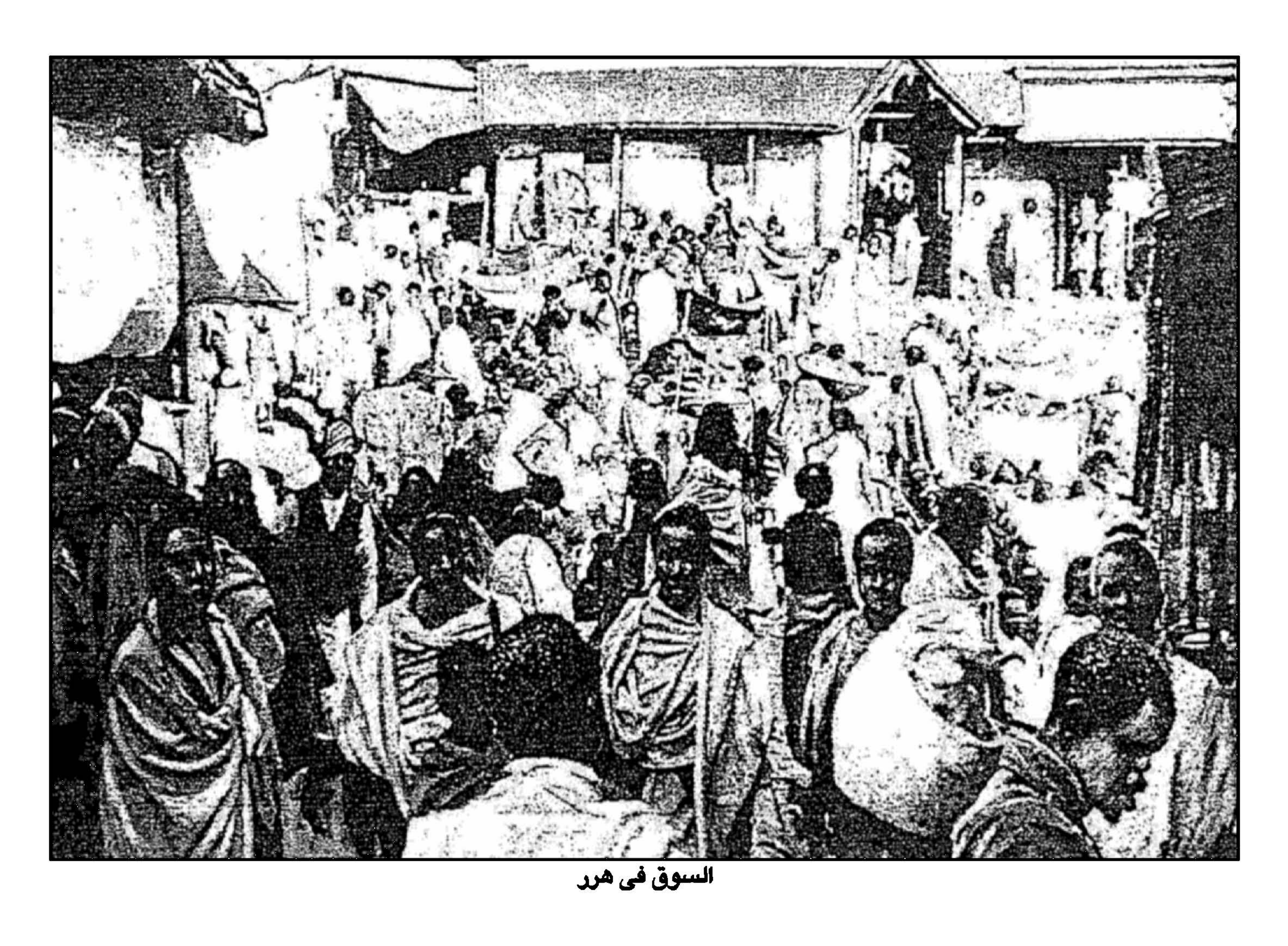
الاقتراب من أية شخصية من الشخصيات المهمة يحتم، وهذا من باب التأدب، وضع قطعة من القماش على فم المقترب باعتبار ذلك نوعاً من الوقاية من اتصال الأنفاس، الأحباش المهمون قليلو الكلام وكتومون، ويصرون على نوع من الخصوصية عندما يكونون بين عامة الناس، لكنهم يشاركون عامة الناس فى مسألة خرافات عين الحسود. وفى اللحظات التى يمكن أن يؤخذوا فيها على غرة، يتدخل خادم أو صديق بقطعة من القماش أو المنسوجات، من هنا يفضل الأحباش أوانى الشرب المصنوعة من القرون على تلك المصنوعة من الزجاج، نظراً لأنه ليس من الصحيح أو الضرورى أن يُرى الفم أثناء الشرب، والحاكم عندما يركب جواده، أو عندما يُقَبِّل الرئيس صديقاً من أصدقائه، أو عندما يتوقف المضيف عن الحديث أثناء تناول الطعام، أو حتى عند القيام بأى عمل من الأعمال عندما يكون الحارس فى فترة راحته، هنا يقوم الخدم اليقظون بإلقاء قطعة من القماش الأبيض على فمه، وعليه، وبينما كنا ننتظر ظهور التوابيت قادمة من معبد القش، الذى تمضى فيه التوابيت فترة الليل، وبينما كان القساوسة يرتدون الملابس الخاصة برقصة الأضحية، لاحظت بعض الرجال وهم يلتفون ويفترقون، أحياناً بسلسلة من الانحناءات، وأحياناً أخرى بالقبلات، وفى معظم الأحيان بأيد متشابكة ورءوس منحنية شفة إلى أذن، ويغمغمون قائلين: "كيف حالك؟ هل أُمورك على ما يرام؟ كيف الحال؟ هل أنت بخير؟" وعادة ما يجرى رفع ثنية من ثنيات العباءة أو الثوب بغية المحافظة على سرية عملهم.

كان الجو حاراً حتى فى الجناح الخاص، عندما أعلن الشمامسة فى نهاية المطاف وصول التوابيت، جرى نقل التوابيت إلى خارج المعبد المؤقت على أصوات الأجراس والطبول، والنايات والقرون، وقف جمهور الألوان على خلفية من أشجار الفلفل، كان هناك رجال يقفون فى المنتصف حاملين الألواح على رءوسهم، لكن الستائر الذهبية طغت على منظرهم، إذ كانت تبدو كما لو كانت معدناً منسوجاً وتسقط غليظة عند أقدامهم، كان على الجانبين صبية يرتدون ملابس أرجوانية اللون، ويمسكون صناديق كبيرة تحتوى على قربان الصباح،

كان القساوسة يرتدون ملابس خليطاً من الأبيض والأسود، وكانت الشمامسة يرتدون ملابس خليطاً من الأحمر والأبيض، وكانوا مصطفين على شكل رتب متقابلة، وعلى أنغام طبلة جلدية كبيرة عملاقة راحوا يرقصون مثلما فعل سيدنا داود (قبل تابوت العهد، وبخطوات بطيئة، وتمايل بطئ، ودون أن يتوقفوا عن الغناء، وبينما كانت عصى الصلاة يُلوَّح بها من فوق رءوسهم، راح الشمامسة يتحركون جيئة وذهاباً فيما بين الظل وضوء الشمس.

كانت هناك مظلات صغيرة مصنوعة من القش تقفز إلى أعلى من بين الجمهور، كان هناك حفيف خفيف بين المسئولين الجالسين فى الخيام، وكانت رءوس الشمامسة الصغار تومئ بفعل مغالبة النوم لهم، فى حين كانت الشماسى تتدلى مثل بتلات الزهور قرمزية اللون، سرَّعت الطبول إيقاعها فى نهاية المطاف، وصعدت الشخاليل أيضاً إلى مستوى ذلك الإيقاع، وقبل أن يقوم هارولد جونز بضبط آلات تصويره (كاميراته)، تشكل من جديد موكب الليلة السابقة، نزلت ثلاثة توابيت من فوق التل لتستقر فى كنائسها المختلفة، لكن تابوت القديس ميخائيل بقى ليلة أخرى من ليالى الصلاة.

أمضينا أربعة أيام فى مخيمنا بين مزارع البن الشهيرة، التى تعد هرر مدينة لها بجزء كبير من تجارتها، وفى ساعة متأخرة من عصر كل يوم كنا نذهب إلى المدينة ذات الأسوار القديمة، التى صمدت أمام هجمات كثيرة، وانتصرت وانهزمت فى كثير من المعارك على امتداد أحد عشر قرناً من الصراع بين العرب والأحباش، كانت هرر عاصمة لهاديه Hadiyeh، التى كانت مقاطعة من بين سبع مقاطعات، وإن شئت فقل أقاليم، كانت تشكل الإمبراطورية العربية التى تأسست فى القرن السابع، وعلى الرغم من أنها، فى فترات مختلفة، كانت تُحكم بواسطة أتراك اليمن، وبواسطة الجلاّ Galla، وبواسطة مصر، إلا أنها لم تسقط مطلقاً فى أيدى الحبشة المسيحية، إلا بعد أن قام منليك بهزيمة أميرها فى العام ١٨٩٠ الميلادى، جعل السير ريتشارد Richard بيرتون أول هدف له أثناء قيامه باستكشاف شرق أفريقيا؛ ومن وصف الرجل لمدينة هرر، نجد أن المدينة لم تتغير تغيراً كبيراً بعد أن دخلها بعد رحلة عامرة بالأحداث بدأت من زيلا Zeila، حيث وجد الرجل نفسه فى مواجهة مع مُضيف غير مرغوب فيه تماماً، هو الأوتوقراطى الأمير أحمد سلف أبى بكر.



السوق فى هرر

كانت البوابات الخمس لا تزال مغلقة عند غروب الشمس، وعلى الرغم من أنه عن طريق الديبلوماسية يمكن الخروج من المدينة حتى الساعة الثامنة مساء، فإن كل من يريد الدخول بعد القفل بالمفاتيح يتعين عليه الانتظار إلى الصباح، ومع ذلك، كانت الجدران المتداعية، وكذلك الحجر الرملى والجرانيت، مع بعض المزاغل المستديرة الصغيرة، يجرى إصلاحها بنوع من الأسمنت البدائى، ويجرى تركها على حال يستطيع معه أى لص نشيط من هدمها بلا مجهود كبير، كان أهل مدينة هرر لهم لهجتهم الخاصة، وإن شئت فقل لهجة "هرر" التى لا يفهمها أى أحد من خارج منطقة الجوار المباشر، النساء فى هرر لهن لباسهن الخاص بهن، وهو عبارة عن عباءة Abba قصيرة الأكمام ومطرزة وحمراء اللون، وتُلبس مع بنطال ضيق قرمزى اللون بالإضافة إلى شال أحمر قانى أو بلون زهرة البتيونيا، ولا يختلف عن السارى الهندى، شعر نساء هرر يعطى انطباعاً بأنه جرى تقصيره، نظراً لأن الشعر ينتهى فى منطقة القفا بخصلات كثيرة، خصلات الشعر هذه تشكل مجموعة من الطرطشات اللونية على خلفية الثوب الأبيض الذى ترتديه الحبشيات، والصوماليات شبه العاريات، أما الرجال فيلبسون حزاماً من الجلد أو قميصاً داخلياً منقوعاً فى الزيت، ويلبسه الرجل إلى أن تتهاوى خيوطه كلها، أما النساء فيلبسن أثمالاً بنية اللون مزينة بالخرز والزينات المصنوعة من قرون الحيوانات، وشعرهن سائب على رءوسهن ومقسوم على شكل ضفيرتين عند مؤخرة العنق.

لا يزال القسم الأكبر من سكان هرر من الأجانب، صوماليين، وعربا، وزنوجا، وقلة قليلة من يهود اليمن الذين يعملون فى سبك وتجارة الفضة، فضلاً على عرق هجين منحدر من التجار الهنود والتجار الآخرين؛ وفيها أيضاً بعض من الجلاّ Gallas الذين وفدوا إليها من إقليم مجاور، هؤلاء الجلا اجتاحوا الحبشة فى القرن السادس، واستوطنوها، وبعد أجيال من الحظوظ المتغيرة، والتى حكم الجِلا، خلال فترة منها، الجزء الشمالى من البلاد، من خلال عاصمة الجلاّ فى جندار Gondar، جرت هزيمتهم مؤخراً بواسطة منليك Menelik، مؤسس الحبشة الحديثة.

من هنا نجد أن سوق هرر تعد سوقاً فريدة نظراً لوجود هذه الأعراق

المتباينة، نزلنا عن طريق الشوارع الضيقة المرصوفة بالحصى ولا تتسع لثلاثة أشخاص يسيرون جنباً إلى جنب، إلى سوق مسقوفة بالحصير أو شرائح الكتان، ثم إلى ميدان توجد فيه طبقة واحدة كاملة من البشر، الرابضين حول البضائع المتنوعة التى تباع فى هذه السوق، وذهبنا إلى ميدان آخر كان المشترون فيه واقفين على رأس هذا الميدان، كان واضحاً أن الأصوات كانت متداخلة، نظراً لعدم وجود متسع للحركة، بسبب وجود شحاذين من مختلف الأنواع، ومجذومين، وهياكل لما يمكن أن يكونوا من قبل رجالاً، والمصابين بداء الفيل، والعميان، والمشوهين، والمسجونين الذين كانوا يتجولون فى حرية اللهم باستثناء السلاسل المربوطة بها أقدامهم، أيديهم المكلبشة إلى بعضها بالحديد، والمدينين، والمرابين، والدائنين، والمتهمين بالقتل هم وأقرب أقارب القتيل، حتى يؤكد المدعى لنفسه أن المتهم محبوس إلى أن يجئ يوم المحاكمة.

كان سوق اللحم على مبعدة من هذه السوق، وقد وجدنا فيها نحو نصف فدان من الجحوش المصنوعة من القش وتمتد من الجدار إلى الجدار ومحملة باللحم النيئ الذى يغطيه الذباب، وسمعنا أصوات سكاكين القصابين وهى تستخدم فى تقطيع ذلك اللحم، لم تكن أصوات السكاكين بغرض تقطيع اللحم وإنما لجذب انتباه المتسوقين، كان عنبر الجمارك، وعليه العلم الحبشى بلونه الأخضر، والأصفر، والقرمزى يقع فى الميدان الرئيسى من مدينة هرر، وكان العلم يرفرف على قطعان الدواب غير المحملة، وعلى كنيسة المخلِّص، ذلك المبنى مثمن الأضلاع المدهون باللون الأحمر، والأزرق والأصفر مع شىء من الخشب المزخرف عن طريق الحفر أسفل السقف المعلق عليه صليب أرثوذوكسى مربع. يحتل قدس الأقداس وسط الكنيسة من الداخل، وقدس الأقداس لا يدخله سوى القساوسة فقط، قدس الأقداس هذا فيه أيضاً المكان الذى يوضع فيه التابوت، ومن أمامه يقام القداس وسط سحاب البخور وأصوات الشخاليل، يوجد ممران حول هذا المكان، الجزء الداخلى من هذين الممرين يحتوى على بعض الصور المقدسة، والأعلام، والرسائل المملة، والصلبان، والممر الخارجى يبلغ من القذارة حداً يوحى بأنه حظيرة للدجاج وليس ممراً.

هرر فيها أيضاً قبر الأمير نور Amir Nur، الذى أحاط مدينة هرر

بأسوارها الحالية، بعد الانتصار الكبير على الحبشة المسيحية (فى العام ١٥٥٩)، والذى قتل فيه الإمبراطور كلوديو Claudius، هذا البطل المسلم مدفون بالقرب من أكبر وأعرق المساجد، الذى يقال له مسجد الجميل، وهو عبارة عن مُنشأ شبيه بالجرن ومبنى من الحجر الرملى والأسمنت الصلصالى، اعتدنا على سماع صوت المؤذن الذى يأتينا من فوق مآذن المسجد المخروطية الشكل، فى الوقت تبدأ فيه أجراس الكنيسة تدق فى الطرف الآخر من البلدة، هذا شىء جديد على البلدة بعد زيارة بيرتون لها، يوم أن كانت هرر واحدة من أشد المدن المقدسة التزاماً بالإسلام، ومع ذلك لايزال سكان هرر يمسحون أنفسهم بالغراء ويمضغون القات(☆)، الذى ينمو على ارتفاع يتردد بين ثلاثة أو أربعة آلاف قدم، وينتج عنه ثلاث مراحل ذهنية متميزة هى: الإثارة، والقلق والفتور، جربت مضغ القات مرة واحدة فى اليمن ولم أحصل منه على أية نتيجة مهمة سوى النعاس والتهاب الحلق.

صناع الفضة يأتون إلى هرر من اليمن، والسواد الأعظم منهم من اليهود، المقتصدين والجادين فى عملهم، إلى حد أن دكاكين اليهود هى الوحيدة التى تظل مفتوحة حتى فى ساعات الحر القائظ؛ لكن هرر توقفت عن إرسال حصتها من العبيد إلى ساحل الجزيرة العربية، يقول المؤرخ العربى المقريزى: إن هرر اعتادت على توفير المخصيين أو بالأحرى الطواشى السود، لحرملكات الشرق، وأنها قبل خمسين عاماً، كانت سوقاً للعبيد الذين كانوا يأتون من كل أنحاء إفريقيا، وهناك مثل شرقى يقول: "إذا ما أصبحت غنياً أشترى عبداً حبشياً؛ وإذا أردت أخاً (فى السلاح) فاشترى نوبياً؛ وإذا ما احتجت إلى حمار فاشترى سواحيلياً".

فى تلك الأيام كان عدد سكان هرر يقدرون بنحو ٨٠٠٠ ثمانية آلاف نسمة، وهرر فيها الآن نحو ٤٥٠٠٠ نسمة، وهى بالإضافة إلى محصول البن الرئيسى، تتاجر أيضاً فى التبغ، وزيت الزبّاد (الذى يعد أساسًا للعطر أو الطيب الشرقى)، كما تتاجر أيضاً فى الزعفران (الذى يستخدمه العرب صبغاً ذهبياً كما تستخدمه نساؤهم مستحضراً من مستحضرات التجميل)، كما تتاجر أيضاً فى الشحم الحيوانى الذى يستخدم فى صناعة الشموع،

☆ الاسم العلمى لنبات القات هو: Gathula Aedulis (المترجم)

وتتاجر أيضاً فى العلك (اللبان) والعسل، والإنسان يستطيع الاعتماد على أنفه فى تمييز هذه السلع التجارية لأن رائحة العطر تفوح على المرء فى المدينة، ونكهة البن تصادف الإنسان عند أعتاب المنازل عندما تقوم النساء بتصنيف حبات البن عن طريق هزها فى صوانٍ ضحلة، ورائحة لحم الضأن تطالع الإنسان حول الأسواق.

منظر هرر رائع أيضاً من الممرات الموجودة فى التلال التى تعلوها، يلى ذلك جدرانها القديمة ركائزها المستديرة التى تذوب فى الأرض بنية اللون المحيطة بها؛ ومنازلها مربعة الشكل الخالية من النوافذ، والتى تتخللها الأكواخ المصنوعة من القش هى بمثابة لوحة من النسيج الصوفى لها ضوء الكهرمان وظله، درجت على الذهاب إلى حافة الرف الجبلى الذى كنا فوقه عند غروب الشمس، ومن تلك الحافة وعبر أشجار الليلج البرى وأشجار صنوبر الآلام المثمرة، ومن خلال أشجار الدفلى المبذولة(☆) كنت ألقى نظرة على البلدة وهى تذوب مع الأرض المبنية منها، إلى أن لا يتبقى منها سوى مقر الحكومة والكنائس وبعض المبانى الحديثة المسقوفة بالصفيح التى تبرز من الأرض ذات اللون البنى المصّفر.

كان آخر يوم لنا فى هرر مشغولاً بشكل غير متوقع، جاء ألاكا Alaka دستا، سكرتير الحكومة، وقسيس كنيسة القديس ميخائيل لزيارتنا فى الصباح بينما كنت أقوم بتكديس كل شىء داخل حقيبة ملابسى، اللهم باستثناء الملابس، التى لم يكن لدى منها سوى بنطال ركوب الدواب، والمُعرِّق، والمعطف المصنوع من الجلد، لم يكن لدينا سوى كرسى واحد، قام جلّان بإحضاره لضيفنا كيما يجلس عليه، بينما جلست أنا على صندوق من صناديق الأفلام، التى كانت صناديق مفيدة مربعة الشكل ومصنوعة من الصفيح، واستعملنا أربعة منها لصناعة طاولة، على الرغم من احتجاجات خدمنا.

كان آلاكا يتحدث بالعربية تحدثاً ممتازاً، ولذلك أضعنا نحو عشر دقائق فى تبادل التحية، وقبل أن يقول لنا، وهو يبتسم ويدفع عمامته البيضاء

☆ اشجار الدفلى المبذولة: عبارة عن شجيرات زهورها بيضاء او حمراء او وردية اللون. (المترجم)

العالية إلى الخلف، أنه أحضر رد راس تفارى على البرقية التى أرسلها دجيزماتش إيمارو نيابة عنا، حاول آلاكا أن يترجم لنا الرسالة من لغتها الأمهرية، وكان وجهه الأسود المستدير يكشف عن شىء قليل من القلق مخافة أن يضيع منى أى شىء من لطف ورقة الوصى على العرش، أردف آلاكا قائلاً: "تتمثل مهمتى الآن فى عمل كل ما يمكن أن يساعدكما، خبرانى بذلك الذى يمكن أن أفعله لكما؟"

جاء ترحيب راس تفارى "أفتح يا سمسم" على كنز إثيوبيا بعد الطريقة الرائعة التى وضع بها إقليماً تحت تصرفنا (إضافة إلى كونه وصياً على العرش ووليا للعهد، هو أيضاً حاكم لهرر)، أصبحت مسألة الحديث عن التوافه التى من قبيل ظهور البغال الملتهبة والأحزمة المقطوعة أمراً لا يصح الحديث فيه، وفى نهاية المطاف كان آلاكا دستا هو الذى أعلن أنه سوف يرسل معنا "مسئولاً يحمل ورقة يتعين على الناس كلهم احترامها"، شكرناه شكراً جزيلاً وتساءلنا عن رأى المسئول فى مخيمنا.

بغية أن يكون ترحالنا خفيفاً، وهذا أمر صعب المنال فى ظل وزن آلة التصوير (الكاميرا)

والأفلام، كانت معداتنا عبارة عن خيمتين طائرتين طول الواحدة منها سبعة أقدام، ومزودة بفرشة أرضية مثبتة فى الخيمة، ونقالين من الخيش، وكيسين من أكياس البراغيث، كانت النقالتان مبطنتين ببطانة متينة وليس فيهما من فتحات سوى فتحة ضيقة في كل منهما يجرى من خلالها إدخال الأشياء عن طريق التلوِّى، (أنا أرى دوماً أن حقائب السفر من طراز ولسى Wolsey تتسع لكثير من الأشياء.) يزاد على ذلك أن من كان منا يقوم بالكتابة، يصبح من حقه استعمال الكرسى الوحيد الذى لدينا، أما الباقون منا فكنا نجلس جميعاً على الأرض، ونجعل من حقيبة الملابس طاولة نضعها بيننا، وكنا نغسل فى أوان من المطاط يمكن فردها وطيها على نحو يمكن معه وضعها فى الجيب، كان معنا أيضاً حقائب من النوع الذى يُحمل على الظهر، تحتوى على كل ما يمكن أن نحتاجه أثناء سيرنا فى الطريق، هذا فضلاً على الإضاءة التى قد نكون بحاجة إليها، هذه الإضاءة لم تكن ناجحة تماماً، نظراً لأنها كانت عبارة عن شموع يجرى وضعها داخل فوانيس مصنوعة من



سوق اللحم فى هرر

الصفيح؛ الأمر الذى يجعلها تنثنى بسهولة متحولة إلى ما يشبه قطعاً صغيرةٍ من الورق، وأنا أعتقد أن حمولتنا كلها لم تكن تتجاوز مائة وخمسين رطلاً؛ وقد جاء ذلك الوزن بمثابة صدمة لأحاسيس المرافقين لنا إذ أن الناس هنا يقدرون أهمية الرحالة بما يحملونه من عفش وأمتعة.

بعد أن ودَّعنا قس كنيسة القديس ميخائيل وداعاً طيباً ومطولاً، وصلتنا رسالة من الحاكم المناب تطلب منا زيارته، تملص هارولد جونز من هذه الزيارة بحجة انشغاله بمسألة الملابس وعدم كفايتها، وعليه ذهبت أنا بصحبة اثنين من الجنود ومعى قائمة فيها احتياجات "اللحظة الأخيرة" التى يتعين توفيرها والحصول عليها.

يسكن دجيزماتش إيمارو فى المنطقة الواقعة خلف منزل البلاط الملكى، وقد حتم وصولى إلى غرفة استقباله مرورى خلال صالة (عزائم اللحم النيئ) Guebers التى تقدم لمئات عدة من الضيوف، استقبلنى مُضَيِّفى عند العتبة، وبصحبته عدد كبير من وجهاء مدينة هرر، ورحنا نتحدث من خلال المترجم، نظراً لأن الحاكم بلغ من الخجل حداً جعله لا يتكلم بالفرنسية على الملأ، عندما تركت الحاكم كانت الشمس قد أوشكت على الاختفاء وراء التلال، ولذلك سارعت إلى شراء زمزاميات من الخيش استعداداً للرحلة، كما اشتريت أيضاً فانوسين من النوع الذى لا تطفئه الرياح أو الأمطار Hurricane، بعد أن تأكد لنا أن الريح على الجبال سوف تتغلب على أقوى الشموع.

قمت بالتفتيش على البغال للمرة الأخيرة واختبرت أحزمة السُّرُج كلها، تعين على بعد ذلك اختراق متاهة من المتاهات، عبارة عن مجموعة من المركبات السكنية المسوَّرة أملاً فى العثور على صانع الخيام، ووقفت بجواره وهو يقوم بوضع الغرز الأخيرة فى واقيات الرجال المصنوعة من الكتان المتين لأخذها معى وأنا أشعر بالانتصار فى المهمة التى قمت بها، توقفت برهة لمساومة واحد من سكان التلال كان يحمل بعض أعمدة الخيام، ولشراء بعض الجوالات التى يمكن أن نلف فيها آلات التصوير (الكاميرات)، التى أوقفنا على خدمتها بغلاً من البغال، وعليه كان الليل قد أرخى سدوله عندما بدأت الصعود فى اتجاه البوابة، يزاد على ذلك أن الجدل الذى دار حول مسألة فتح أو عدم فتح الأبواب زاد من تأخيرنا أيضاً، أثناء هذا الجدل والنقاش وجدت

رجلاً يجثو عند قدمىّ، وأنا لا أعرف ما إذا كان هذا الرجل ماشياً على الجدار أو جالساً على السقف، لكن الرجل بطقطقة شبيهة بطقطقة البيوض التى تتكسر انبطح أمامى، والدم يسيل من رأسه، حتى جوطة Gouta، ذلك الجندى الذى كان يتكلم ثلاث جمل فرنسية فى اللحظات غير المناسبة "ابتعدى، لأنه مخمور وسكران"، دفعونا خلال البوابة، لكن عندما سرنا فى طريقنا نحو الأعلى بين أشجار الصبَّار والصخور المنقلعة عن الجبال، مر علينا ستة شخوص، يغمغمون بكلمات غير مفهومة.

قال جوطة "لقد شرب الجميع شراب التدج، وسكر الجميع بعد الاحتفال؛ وأنا أعتقد أننا نحن الجنديين الوحيدين فى هرر اللذين لم يسكرا". ابتسمت لتقييم ذلك الجندى لطرفته، لكن أفكارى كانت مركزة على العشاء، لأن الساعة كانت الثامنة، وكانت آخر وجباتنا متعجلة قبل فترة التصوير الصباحى، سرّع البغل خطاه عندما انحرف إلى مسارنا بين أشجار الفلفل، لكن الهدوء كان يخيم على مخيمنا بشكل غير طبيعى، كان هارولد جونز يقوم بتحميض جزء من أحد الأفلام ونادانى فرحاً من خيمته "مادة الفيلم ممتازة ومن الطراز الأول"، لكنى كنت قد بلغت من الجوع حداً منعنى من الاهتمام بهذا الكلام، سألت جلاَّن الذى تتملكه اللهفة والحزن "لماذا لم توقد النار؟ أين جابرا جورجس؟" كان جلاَّن جاثماً على الأرض يبدو عليه الاستياء وقلة الحيلة، أجابنى الصبى متشككاً "هو نائم".

اتجهت صوب لفافة بيضاء اللون، فاقدة الوعى بجوار الرماد الناتج عن النار، هززت تلك اللفافة، رفستها، رفعتها إلى الأعلى بعض الشئ، دون أن يسفر ذلك كله عن شىء، قال جوطة بنغمة خفيضة "إنه سكران"، كان سكراناً بالفعل، وأهمل إحضار أى نوع من أنواع الطعام التى كُلِّف بشرائها من السوق، فتشنا جيوبه بحثاً عن المفاتيح ، وقمنا بفتح شنطه وحقائبه، بحثاً عن القوت، وعندما تمثلت النتيجة النهائية فى كسرة من الخبز الجاف وحبة واحدة من الطماطم، اقترح علينا هارولد جونز إفاقة جابرا جورجس بسكب الماء البارد عليه، سكبنا جرادل من الماء على رأس تلك اللفة البيضاء، ولكن ذلك لم يحدث أى أثر.

تساءل هارولد جونز متشككاً "هل تستطيعين طبخ أى شىء؟"

أجبته، "نعم، إن كان هناك ما يمكن طبخه، لكن ما الذى سوَّاه هذا الآدمى بالمؤن؟"

كانت المؤن مخبأة تحت سياج من الشجيرات كثيفة الأشواك، ولم نكتشفها إلا فى الصباح، عند هذه اللحظة تطوع جوطة بالإغارة على أقرب الأكواخ طلباً لشئ من البيوض، وبعد نصف ساعة دار خلالها قدر كبير من الزعيق والنباح، عاد إلينا جوطة ومعه ثلاث بيضات، صنعت عجة بيض وأصر جلاّن على إضافة شىء من البصل الذى كان قد ربطه فى طرف مظلته Chamma، كانت العجة جيدة جداً، ولم أجد مبرراً لتطرق هارولد جونز إلى ذكر أن مسألة الصادرات الأساسية للحبشة تتمثل فى الجلود!

♦ الفصل الرابع

الضيافة في الجبال

غادرنا هرر عند الساعة السابعة والنصف صباحاً، وكان الجو صحواً، لكن المرء يعجز فى الحبشة عن التعليق على الطقس، لكنه يكون رائعاً دوماً، اللهم باستثناء موسم الأمطار، أى من شهر يونيه إلى شهر أغسطس، وأثناء العواصف العاتية فى شهر فبراير أو مارس، وقد أدى مسيرنا راكبين مدة يومين أثناء حرارة الظهيرة، التى لها قوة الضربة، إلى جَلد بشرة وجهى، وحول لون هارولد جونز إلى لون اللحم النيئ، لكن فى ذلك الصباح كان هناك نسيم معطر بعطر الشجر، وكان البغالة يغنون وهم يحاولون التغلب على مشكلات حمولاتهم، كان عدد أفراد قافلتنا أثناء مسيرتنا التى بلغ طولها نحو ٣٦٩ ميلاً إلى أديس أبابا، نحو سبعة عشر رجلاً، ونحو اثنى عشر بغلاً تحمل الأمتعة وأربعة بغال للركوب، إضافة إلى بغلين جيدين آخرين أهدانا إياهما الدجيزماتش إيمارو فى اللحظة الأخيرة، وعلى الرغم من أن هذين البغلين لم يكونا يُسُرَّان الخاطر، فإنهما كانا مثل السيارة الرولز رويس عندما تقارنها بالسيارة الفورد، من حيث السير والسرعة، كان بغلى أبيض اللون وسرجه من القطيفة بنفسجية اللون، ومطرزاً بالفضة وزهر البتونيا، كانت عُدَّة لجام البغل مكسُوَّة بالقطيفة المخيطة بالزهور المخملية، أما قربوس(☆) السَّرج فكان مطلياً بلون بهيج، وله حافة فضية على شكل حلقة أو طوق، لم تكن ركوبة هارولد جونز بمثل هذه الأبهة، إذ كان له جُلٌّ مزركش باللونين الأخضر الزيتونى واللون الوردى، وكان البغلان يستجيبان لشكيمتى لجاميهما بل إنهما كانا يعدوان إذا ما طلب ذلك منهما! شكيمة اللجام الحبشى آلة من

☆ القربوس: بفتح القاف وضم الباء، هو الجزء الأمامى من سرج الحصان. (المترجم)

آلات التعذيب، هذه الشكيمة مكونة من حلقة من الحديد تلامس سيرى اللجام فى أضعف الأحوال، ويجرى إدخالها فى سقف فم البغل على النحو الذى يحدث قطعاً فى الفم، ولذلك يشيع أن ترى فى الحبشة حصاناً أو بغلاً وفتحتا أنفه قرمزيتان والدم يتقاطر من فكه.

كان راس تفارى قد أصدر أوامره بأن يرافقنا مسئول إقليمى اسمه بلاّم باراسِّى Ballam barassi جاربا سيلسِّى، إضافة إلى بغَّالتنا الستة، وجنودنا الستة، والخادمين والمرشد، كان بلاّم باراسى لا يعرف التعب أو الكلل، على الرغم من أنه كان يبدو متعباً دوماً، كان وجهه النحيف محاطاً بشعر أشعث، وكان رأسه حليقاً، وعيناه حمراوان، عيون الأحباش تكون محتقنة بسبب الشمس والتراب، وتحفها رموش طويلة، وكانت ابتسامته خليطا من الخجل الحالم وطول الأسنان البيضاء، كان بلاّم باراسِّى قبل انتهاء مسيرتنا الثانية قد أرسل معنا لأنه "لطيف وهادئ، ولم يتسبب مطلقاً فى الجَلَبة ولم يغضب مطلقاً مثل الأحباش الآخرين". اكتشفنا أنه خدوم دوماً ومؤدب، وإن احترامه الفطرى كان أمراً يسر الخاطر، أحضر معه حاشية خاصة به، كان يركب خلفه ثلاثة من حملة البنادق، وكان هناك أربعة آخرون يجرون بالقرب من ركابه الذى كان يضعه بين أصبعى قدميه الكبيرين، كان هناك خادم يحمل حذاء بلاّم باراسِّى وينحنى واضعا الحذاء كى يلبسه سيده عندما ينزل من فوق ركوبته، كان هناك خادم آخر يحمل قرعة مفرغة مملوءة بالجعة اللاذعة التى وزعها علينا جميعاً فى أكواب مصنوعة من قرون الحيوانات، وكان هناك حمار يعدو أمامه حاملاً عفشه وأمتعته، وكانت فى المؤخرة أمَة تحمل غلاية وسجادة، اقترحنا أن تركب هذه الأمَة بغلاً من بغالنا الاحتياطية، لكن قيل لنا إن هذا لا "يصح"!

فى الحبشة يُعاقب من يتجر فى العبيد بالإعدام، لكن الاستعباد الداخلى أمر مسموح به، ظل الأحباش يستعبدون أسراهم طوال الحرب التى دامت قروناً، سواء أكانوا مسلمين أم وثنيين، وأن سلف هؤلاء الأسرى، هم وضحايا الإغارات التجارية التى قام بها الجيل الأخير هم العبيد القانونيون فى هذه الأيام. وعلى الرغم من الجهود التى يبذلها راس تفارى من أجل منع نقل البشر والإتجار فيهم، فإن قوافل العبيد تتسلل بين الحين والآخر نحو

الساحل حيث تقوم سفن وقوارب الدهو بنقل هذه الحمولات البائسة إلى جزيرة العرب، لكن هذا التهريب خطر، على الرغم من أن أرباحه السخية هى التى تحرض على الإقدام على هذه المخاطرة، عندما كنت فى اليمن فى العام ١٩٢٣، كان العبيد الأحباش يباعون بأغلى الأسعار وكانت حرملكات(☆) نساء تهامة عامرة بالبنات اللاتى لا يتكلمن كلمة عربية واحدة، مما يعنى أن هؤلاء البنات لم يكن بعيدات عن وطنهن فى إثيوبيا منذ زمن بعيد، قال جاريا جورجس، الذى أحس بصداع بعد شراب المساء: إن حال العبيد كان سعيداً، لأنهم لم يكن معهم نقود، وأن المتاعب تنشأ عن امتلاك النقود!

قطعنا الاثنى عشر ميلا إلى آرامية Arameya فى وقت قياسى، كانت بغال الحاكم هى التى حددت معدل السير، وراح الجنود يسخرون من سرعتنا، وهذا هو دستا Desta يسأل وهو يطوى مظلته محولا إياها إلى عمامة كبيرة "هل أنتم فى طريقكم إلى الجنة، الأمر الذى يجعلكم تسَرِّعون خطاكم على هذا النحو؟"

عند هذه المرحلة كنا قد حددنا أن معنا ثلاثة جنود ظرفاء، وثلاثة لا يعوَّل عليهم، كان جوطة من بين الجنود الثلاثة الأول، وكان وجهاً مسلّياً، كانت زوايا كل ما فى هذا الوجه مرتفعة إلى أعلى، عيناه، فتحتا أنفه، وفمه، كان شبيهاً بالقطة المسلية الجذابة؛ الثانى هو المحارب الأسود سواد الفحم صاحب الشامات القديمة الناجمة عن الضرب بالسكين، وصاحب الأسنان شديدة البياض عما تكشف عنه الابتسامات الأخرى؛ أما دستا فكان طيب المحيا، وشاباً، ورشيقاً وبشرته شبيهة ببشرة البنات ذوات البشرة الشبيهة بلون القهوة ويرتدى قميصاً على الموضة، كان من بين الباقين، اثنان حليقان حلاقة جائرة وبلا شعر مثل البيضة، ولم يحدث أن استطعت تمييز أحدهما عن الآخر؛ أما الثالث فكان

غير ملفت للنظر تماماً إلى حد أن لا أحد كان يعرف اسمه ولا حتى ذلك الذى يقوم به.

الأسماء معقدة فى الحبشة وسبب ذلك أن الاسم الأول يجرى اختياره من بين أسماء الشهداء المسيحيين مضافا إليه السابقة ،وُلدو، Woldo (بمعنى،

☆ واحدة حرملك، وهو جناح النساء فى المنازل فى الجزيرة العربية. (المترجم)

ابن، أو ، ولد)، أو السابقة ،جابرا، Gabra (بمعنى عبد) وعليه فإن طباخنا جابرا جورجس كان "عبد القديس جورج"، أما معنى اسم بلاّم باراسِّى جبرا سيلسِّى فهو "عبد الثالوث"، الاسم الثانى يمثل عموماً، صفة من نوع ما مثل القوة، الشجاعة، الخفّة، الأمل، المجد؛ بعض هذه الأسماء تمثل ممتلكات قيمة فى بعض الأحيانَ، بقرة، ثور، ترس؛ أو جمالاً طبيعياً مثل شجرة، نهر، نجم، تحتفظ العائلات الكبيرة، فى بعض الأحيان، باسم سرى، يجرى به تعميد كل طفل من الأطفال، لكن هذا الاسم لا يذاع سره إلا لقلة قليلة من أفراد هذه العائلات، الاسم جوطة Gouta فى اللغة الأمهرية يعنى "ممتلئ" full، لكن الجندى الشبيه بالقطة أكد لى أن تلك تسمية خاطئة فى مدلولها، قال ثم توقف يقطف وردة أرجوانية ويحشى بتلاتها داخل أنفه "أنا أبلغ من الفقر مبلغاً لا يمكن أن أكون معه ممتلئاً، داخلى جوعان بصفة مستمرة"، هذه عادة شائعة فى المسيرات، فقد رأينا سكان التلال فى كثير من الأحيان وأوراق الأشجار تبرز من فتحات أنوفهم، فى حين يستطيع المرء فى أسواق المدينة شراء كرات صغيرة من القطن الخام المنفوش لاستعمالها فى الغرض نفسه.

سقينا البغال من بحيرة آرامية الأمر الذى أغضب البط، وسرنا بين شجيرات الصَّبار المزهرة إلى أن وصلنا أرض الريف الواسعة، وصعدنا منحدراً كبيراً ونزلنا منه إلى منخفض، لنمر بعد ذلك خلال دغل من الشجيرات الصغيرة المتشابكة ومنه إلى سفح الجبال، بدأت الزراعة تقل تدريجياً، إلى أن أصبحنا لا نرى سوى رقع صغيرة من قصب السكر أو الذرة العويجة وعدد قليل جداً من الأفدنة المحروثة، الأمر الذى أحارنا فترة طويلة، لأن ذلك بدا لنا مثل ثورة مفاجئة لا يمكن أن تنتج إلا عن ديدان هائلة الحجم، وجدناً تفسيراً لذلك عندما رأينا، عند بحيرة أخرى، بحيرة آديل Adele، اثنى عشر رجلاً، مقسمين إلى ثلاث جماعات قوام كل جماعة أربعة أفراد كانوا "يحرثون" باستعمال أعمدة مدببة طويلة معلق عليها من أعلى حجر ثقيل. وبهذه الأعمدة كانوا يقطعون فى الأركان الأربعة لقطعة من الأرض طولها قدمان، ويرفعون الحواف إلى الأعلى، ثم يقتلعون العمود من الأرض بشدة، ثم يلقونه على الأرض، وبهذه الطريقة يستطيع اثنا عشر رجلا

القافلة اثناء السير

حرث فدان فى اليوم الواحد، بعد تسلقنا للتل الواقع بعد بحيرة آديل دخلنا أخدوداً من نوع ما وربما كان مجرى مائياً عميقاً فى يوم من الأيام، ومن خلال هذا الأخدود الأرضى المحاط فى الأعلى من فوق رءوسنا بأعشاب مزهرة مشينا راكبين دوابنا مسافة تقرب من نحو ميل، لنخرج من مكان ضيق إلى منحدر وعر يوجد أسفله واد، قالت أصوات ستة "هذه هى كيرسا! هذه هى كيرسا التى نخيم فيها"، لكنى لم أكن مندهشة من مسير الساعة الإضافية التى مشيناها، وسبب ذلك أن قرى كثيرة فى الحبشة تحمل الاسم نفسه والذى لا ينتمى إلى مجموعة قرى بعينها Tukels، وقد ينطبق على حى بأكمله، وربما كان ذلك السبب فى اختلاف الخرائط الخاصة بالمكان الواحد بعضها عن بعض، ومن ثم لا تصلح فى استعمالها للترحال.

خيمنا فى بقعة الأرض المكشوفة الواقعة أسفل كبرى قرى المنطقة، التى يوجد فوقها أكبر مبنى ثمانى الأضلاع مسقوف بالصفيح والذى هو عبارة عن كنيسة، ونظراً لأن الوقت كان لا يزال مبكراً (كانت الساعة الثالثة صباحاً)، فقد آثر السواد الأعظم من المرافقين لنا النوم، ولف كل واحد منهم نفسه فى مظلته كما لو كان شرنقة من شرانق دودة القز، كان من بين البغالة واحد مفلفل الشعر، قام بإحضار قطعة من الخشب، فيها شبه من الملعقة وراح يستخدمها فى تنظيف أذنيه! تراجع اثنان من السود إلى الخلف من خيمتهما، حيث كانت هناك شريحة من قماش الخيش الكتانى المتين معلقة فوق عمود، ويرتكز كل طرف من طرفيها على كومة من السُّرُج، وقام أحدهما بحلق رأس الآخر، حلقاً جائراً باستعمال قطعة من زجاج قارورة مكسورة، ثم قام بعد ذلك بدعك الرأس بالدهن لحمايتها من الشمس.

تجولت خلال المخيم بينما كان جاربا جورجس يُصَلِّح القهوة، وشاهدت ابن آوى وهو يقفز مبتعداً قفزات شبه دائرية، وشاهدت أيضاً هدهدين يرتفعان وهما يرفرفان بأجنحتهما المخططة بخطوط مثل خطوط الحمار الوحشى، عندما بدأت قلة قليلة من القرويين المهمين تقترب من خيامنا، الأمر الذى جعلنا نقرر ونجزم أن من الصعب هنا تمييز الرجال عن النساء، المسيحى الحبشى يرتدى سروالاً أبيض من القطن وقميصاً أبيض من القطن أيضاً، والسروال يكون ضيقاً عند منطقة الساقين، أما القميص فيكون طويلاً

وواسعاً من أسفل وضيق الأكمام عند الرسغين، وتكون ياقته عالية فى قمصان الرجال، والقميص النسائى أطول وأوسع من القميص الرجالى، لكن الرجل والمرأة يرتديان المظلة، التى هى عبارة عن تلفيعة منسوجة يدوياً من القطن يصل طولها إلى نحو ثلاث ياردات، وعرضها يتردد بين ياردتين وأربع ياردات، وتتباين جودته وجودة نسيجه طبقاً للمرتبة الاجتماعية، وأنا أعتقد أن المظلات شديدة الطراوة التى يرتديها الأمراء والأميرات تقدر قيمة الواحدة منها بمئات الدولارات، يزاد على ذلك أن المظلة الملونة أمر نادر تماماً، يزاد على ذلك أن المظلة وردية اللون أو زرقاء اللون يكون المقصود منها محاكاة الأزياء الأجنبية، أما المظلة صفراء اللون فهى ترمز إلى الحزن والحداد، قد يكون ذلك آخر تذكار من تذكارات الثياب الديرية زعفرانية اللون، التى كانت الأرامل فى الزمن الماضى يمزقنها ويلطخن أنفسهن بالسواد ويحلقن رءوسهن، هذه العادة لا تزال سائدة بين كبار السن وغير المستتيرين.

اللون الأسود هو رمز الحداد والحزن عند الحضر، كما أن لون أغطية رءوس النبلاء التى تصنع من الحرير هو أيضاً اللون الأسود، أما أغطية رأس الطبقة المتوسطة فهى تصنع من الصوف الخشن، أما البرانس Burnouses، التى تُبطن فى بعض الأحيان، أو تصنع لها حواف من اللون الأحمر، فيرتديها الجنسان، والرجال يرتدون البرانس ذات الطراطير التى تكون على كتف واحد وليس على الكتفين، أما النساء فيرتدين البرانس التى يتدلى طرطور الواحد منها إلى الخلف، أما الماتب Mateb فهو عبارة عن حبل رفيع من الحرير مختلف الألوان يلف بأحكام حول العنق، وغالباً ما يحمل حجاباً أو تعويذة أو رقية، وقد ارتدى المسيحيون الأحباش كلهم ذلك الماتب من يوم أن أبتكره فرومنتيوس، الأسقف الأول، ليميز به المؤمن عن الوثنى، والمارغيف Marghef فهو ذلك التطريز زاهى الألوان الذى يركب على حافة مظلة الرئيس أو رجل البلاط أو الحاشية، فى حين يفضل المحدثون ارتداء حزام أحمر عريض فوق هذه اللفافة؛ ذلك أن هؤلاء المحدثين كانوا يرمزون ذات يوم إلى أصحاب السمو الملكى.

قصدنا القرية قبل غروب الشمس لنطّلع على بيوت عيش الغراب المصنوعة من القش ونتفرج عليها من الداخل، جدران هذه البيوت مصنوعة

من عيدان الذرة الجافة، والمليسة بالطين من الجانبين، وسقف البيت منصوب على إطار من الأعمدة المربوطة إلى بعضها بالجلد، وهذه الأعمدة تبرز مسافة قدم أو قدمين حول البيت كله، أرضية هذا البيت من الطين، والمكان المحيط بالمدفأة مصنوع أيضاً من الطين، وأحياناً توجد أيضاً حلبة من الطين توضع عليها كنبة من الخشب أو كنبة مصنوعة من السيور المصنوعة من الجلد والمثبتة على إطار من الخشب، ولا يوجد من الأثاث سوى مقعد أو مقعدين بدائيين، وبعض المخاد المصنوعة من الحشائش، وبعض السلال، وصف من القرع المفرَّغ، وغالباً ما يشارك الدجاج، والماعز، أو الحمار المريض، أو البقرة الحامل أهل الدار العديدين فى ذلك الكوخ؛ الجو هنا مشبع بالروائح غير الطبيعية الناتجة عن النار التى توقد بروث البهائم، والرائحة هنا لا تطاق.

سعدنا بعودتنا إلى خيمتنا، وتلك النيران الست الصغيرة التى تحلق حولها مختلف أفراد حاشيتنا.

سألت جابرا جورجس، والطباخ يضحك "هل اشتريت أى شىء من البيض؟"

تعجب قائلاً: "تسألينى عن البيض! فى غضون نصف ساعة سيكون لديك الكثير منه إلى الحد الذى يجعلك غير قادرة على المشى". نظرت إليه نظرة شك، أصر قائلاً: "لا، لا، هذا صحيح، أنت تتجولين فى حماية راس تفارى، هذا معروف للجميع، والقرية كلها ستحضر لكم الطعام".

كانت تلك أول أمسية لى خبرت فيها الضيافة Dergo من قبل تلك القرية المضيافة، كنت لا أزال أكتب داخل خيمتى وأنا أنتظر وصول العشاء، وبالتدريج بدأ وجود ضوضاء كبيرة فى المخيم، وقوقات، ثغاء، قباع(☆) مع عدد كبير من المرافقين من البشر، نظرت خارج الخيمة فوجدت خيامنا مطوقة بجمهور كبير. عندما قفز جابرا جورجس من فوق النار بدا وكأنه جالس تحت كومة من التبن، هى عبارة عن كتل الوقود التى أحضرتها النساء على سبيل الهدايا، كان جلاَّن يقوم بتلميع حذائى داخل كومة كبيرة من البيض؛ لا أظن أنى رأيت كومة بهذا الحجم من قبل، كانت الوقوقات تأتينا

☆ القباع: الصوت الناتج عن الخنزير ويصح فيه شخير، ايضاً. (المترجم)

من كل جانب وسرعان ما اكتشفت أن المرء لا يمكن أن يمشى خارج نطاق البقعة الضوئية ألا وتدوس قدماه على حزمة دافئة من الريش، كان ضوء النجوم لا يزال غير كافٍ، وعليه كل ما استطعت تمييزه من بين هذه الكتل البيضاء من الشخصيات، هو الظلال السوداء الناجمة عن الثيران الواقفة، والبقع الداكنة التى تأكدت أنها عبارة عن ماعز وأغنام. كانت حزم القصب موضوعة إلى جانب سُرُجنا، مع تلال من الشعير، فى حين جاءت النساء باللبن الرايب، وسلال مملوءة بالتشاكو Tchako، تلك العجينة التى تصنع من الزيت والذرة العويجة وتكفى لحرق جلد الفم، والبيرة معبأة فى قرون الأبقار التى يبلغ طول القرن منها نحو قدمين، اعتدت على هذه الضيافة العربية سنوات عدة، حيث يتحتم على الرجل أن "يموت عشرين مرة من أجل إنقاذ ضيفه، ويقطع من جسمه لكى يطعم ضيفه." لكن هذا الموكب من مواكب سيريز(☆) Ceres تحت النجوم الضبابية أثبت أن الشرق المسيحى يمكن أن يتبارى مع الإسلام فى الكرم، وهذا هو ما لم يستطعه الغرب المسيحى.

بزعم حماية البغال من هجوم الضباع، سهر الجنود والبغالة الليل بطوله يأكلون اللحم النيئ، وصحوت فى آخر المطاف على وقوقة احتجاج طويلة.

سرنا فى اليوم التالى مدة خمس ساعات فقط، لكن استطعنا التقاط عدد كبير من الصور على الطريق. مبلغ علمى أن الناس الأكثر بدائية هنا ظنوا أننا نقوم بطقس من الطقوس الدينية، بعد ذلك سأل أحدهم عمر عما إذا كانت آلة التصوير (الكاميرا) هى تابوتنا من منطلق انطباع مفاده أن التصوير السينمائى يعد عقيدة منافسة! على بعد مسافة تقدر بنحو ثلاثة أميال عن كيرسا Kersa، وبعد التسلق المنتظم، وجدنا أنفسنا على قمة سلسلة جبلية تشرف على منظر من التلال والأراضى الغابية التى تشبه القماش المكرمش من تحتنا، ومن خلف هذه التلال والأرض الغابية شاهدنا البياض الناصع للسهل، تمكنا من رؤية الوادى الذى جئنا منه إلى داير داوا، كما رأينا أيضاً أسقف البلدة، ومسحة من اللون الرمادى، فى حين كان الأفق مسدوداً بالتلال البعيدة التى تحرس أرض الصومال.

شاهدنا تلة متوجة بأشجار الزيتون وأشجار الطقسوس، وتجشم البغالة

☆ سيريز: إلهة الزراعة عند الرومان. (المترجم)

المتاعب للوصول بحيواناتهم حول هذه التلة تحاشياً للسير خلال قبور المسلمين، قال جابرا جورجس وهو يشير بإصبعه إلى الحجاب، "هذه أمور غير طيبة، الأمر لا يكون آمناً إلا فى وقت الظهيرة". سرنا خلال منطقة آخذة فى الارتفاع التدريجى خلال سلسلة من الجبال الدائرية التى يمر السائر فيها بارتفاعات وانخفاضات، بعيداً عنا وفى الناحية الشمالية (والجنوبية أيضاً) كانت توجد الكتلة الجبلية التى يسمونها جارا ميوليتا Gara Muleta، "جبل المنظر الجميل"، وكان الممر واسعاً فى بعض أجزائه على نحو يسمح بسير البغال بجوار بعضها، لكن فى كثير من أجزائه كان لا يسمح سوى بسير حيوان واحد، إذ كانت تحده أشجار الياسمين البرى(★) وأشجار الكانتوفا ورقته شبيهة بورقة الوستاريا(★★) وعناقيد من الزهور قرمزية اللون، كانت النساء هن المسافرات الرئيسيات وكانت كل واحدة منهن تحمل قرعة مفرَّغة على رأسها، واثنتين على ذراعيها، وقرعة رابعة على ظهرها، إضافة إلى حزمٍ كبيرة من عشب الجيشا شديد الخضرة الذى يصنعون منه شراباً مسكراً للغاية، كانت قلة قليلة من هؤلاء النساء يجمعن نباتاً محملاً بثمار الليمون اللامعة، الذى يعطى بديلاً للصابون إذا ما طُبخ على نار هادئة: انهالت الحمير المعتادة على الطريق ومن فوق ظهورها أحمال من البن، وبين الحين والآخر كان يتجاوزنا راكب من الركاب ويلقى علينا التحية "أنا أحييك" وكنا نرد عليه "بارك الله فيك". الأحباش يتنقلون ويسافرون فى شىء من الأبهة قدر المستطاع، ورئيس أصغر قرية بين القرى لا يخرج منها راكباً إلا ومعه بعض من حملة الرماح أو اثنين من حملة البنادق يمشيان خلفه، هذه العادة تزيد من روعة المشهد على الطريق، وأفقر القرويين الأحباش عندما يركب بغله الوحيد، ومن خلفه زوجته أو ولده، يكون من خلفه صبى أسود صغير يجرى وراء البغل حاملاً بندقيته.

مع بداية فترة العصر خيمنا فى كلوبى Kolubi، على ارتفاع يتردد بين ستة وسبعة آلاف قدم، نصبنا خيامنا بين أشجار ضخمة، وكانت الغابات تكسو المنحدرات الموجودة أمامنا، كانت هناك كومة من الذهب الشاحب، نظراً لوجود شاب كان يغربل الذرة بالطريقة البدائية التى تقوم على تذرية ملئ

★ نبات مزهر متسلق. (المترجم)

★★ نبات متسلق تنمو ازهاره على هيئة عناقيد. (المترجم)

المذراة فى الهواء الذى يفصل الحب عن القش، فى الوقت الذى يقوم فيه ولد صغير بمسح حبوب الذرة عند سقوطها باستخدام مقشتين مصنوعتين من القش.

جرى إحضار الخروف المعتاد، وهو حيوان ضخم أبيض فى أسود، وقبل أن أتمكن من توقيفه، جرى ذبحه على بعد بوصات قليلة من خيمتى، وخلال وقت قصير سلخ الرجال الخروف، وجلسوا أرضاً فى أقرب مكان ظليل استعداداً لأكل اللحم النيئ، كانوا يقطعون شرائح من اللحم النيئ الموضوع أمامهم ويروحون يدسون هذه الشرائح فى أفواههم ويقطعون عند شفاههم ذلك الجزء الذى يتعذر دخوله إلى الفم، وذلك بضربة إلى الأعلى يمكن أن تكون خطراً على الأنف، بعد حوالى ربع الساعة ارتسمت على وجوهٍهم تعبيرات الحيوانات آكلة اللحوم، إذ بدا عليهم النعاس، والتخمة، فضلاً على تلطيخ أيديهم وأفواههم بالدم، أضيفت إلى هذا المشهد لمسه فكاهية، تمثلت فى تلك الأفواج من الصقور التى راحت تحوم حول المكان أملاً فى الإمساك بقطعة من لحم ذلك الخروف.

عدت إلى خيمتى التى كانت تعج بالذباب وفى يدى كومة كبيرة من خبز الأنجيرا(☆) رمادى اللون، ورقيق جداً على نحو يجعله شبيهاً بالحرير الموسلينى، بعد ذلك بدقائق قليلة دوت من فوقنا أصوات ثلاث طلقات صدرت أو أطلقت من القرى التى فوقنا، سألت جلاَّن، الذى كان يتلكأ حول باب الخيمة ولم يكن لديه ما يفعله "هل يجرى الهجوم علينا، أم أن شخصاً قادم لزيارتنا؟"

أجابنى "لا، لا، هذه إشارة إلى مولد طفل". استنتجت من الأسئلة التى طرحتها عليه بعد ذلك حقيقة مفادها أنه فى بعض القرى يُعلَن عن ولادة المرأة بإطلاق ثلاثة من الأعيرة النارية من البنادق، وأن إطلاق المزيد من الطلقات يعنى ظهور رأس الوليد، أما إطلاق الطلقة الخامسة فيعنى أن الوليد قد أصبح من أهل هذه الدنيا، واصل جلاَّن كلامه "الشمس شديدة اليوم، وهذا فأل سيئ" وأوضح أن ولادة طفل بوصفها مرضاً، فإن أشعة الشمس يجب ألا تصل إلى المريضة، وإلا كان ذلك يعنى الموت المحقق، وعليه

☆ الأنجيرا: خبز حبشى شديد المرارة يخبز على نار الفحم النباتى. (المترجم)

تضع المرأة حملها بعيداً عن الهواء وضوء النهار، وذلك عن طريق شب نار كبيرة من روث الماشية الجاف، ويجرى سكب قدر كبير من البخور على تلك النار، لإحداث دخان كثيف، ورائحة كثيفة، وعرق شديد أثناء عملية الولادة، فى حين يقوم جمع صاخب من النساء يغمغمن متوسلين بالأم مريم Mariam، ويرحن يقدمن للوالدة جرعات من صلصلة البربرى Berberi الحريفة جداً، والتى يمكن أن تطيح برأس الأوروبى.

يجرى بعد ذلك إعطاء الوالدة شيئاً من الزبد والعسل، ثم تُعطى بعد ذلك مُقيئ، ويجرى بعد ذلك دفن خلاص الولادة أسفل عتبة الدار حتى يظل الوليد محتفظاً بتراثه؛ أما إذا كان المولود أنثى فيجرى دفن الخلاص خارج المجمع السكنى، نظراً لأن مصير المرأة لا يكون تحت سقف الأب.

كان القمر قد طلَع، عندما وجدت امرأة تنظر إلىّ من خارج الخيمة، وفى يدها طفل حديث الولادة مربوط فى جلد عنزة معلق فيه قطع من العظمٍ حماية للطفل من عين الحسود، كانت المرأة تمسك فى يدها قرن بقرة طويلاً، مثقوباً عند طرفه وملفوفاً فى قطعة صغيرة من نُفَّاخة، مما جعلنى أفهم على الفور أن ذلك يستعمل رضَّاعة للطفل، كانت تلك الرضَّاعة تستخدم فى ذات الوقت حصَّالة قمت بوضع دولار فيها، قبل أن تتصرف إلى بقية القرية لجمع العملات المعدنية الصغيرة، مع عرض الطفل فى ذات الوقت، حتى لا تكون هناك شكوك حول ذكورة الوليد، وأن هذا الوليد جدير بالعون من حيِّه ومنطقته اللذين سيجنيان ثمار عمله فى المستقبل.

ساد المخيم فى تلك الليلة هدوء غير عادى، هذا هو عمر مصاب بالحمى ومُكَوّم بلا حول أو طول بالقرب من النار، ونظراً لأنه صومالى مسلم، فإنه لم تكن له شعبية بين أفراد القافلة، الذين أكدوا لى أنه يعانى من عجزه عن الحصول على أى شىء من القات، الذى تعتمد عليه حاسته العصبية، كان جونز Jones هو الآخر على قائمة المرضى بعد أن أصابه الصداع بفعل الشمس، عندما دخلت خيمته ومعى حبتان من الأسبرين، أعطانى مقابلهما "مادة من الطراز الأول لعلاجٍ حروق الشمس على الفور، وتوقف الالتهاب على الفور". كانت رقبتى تجعلنى أحس وكأنها ميسومة بحديد محمى، على الرغم من أن مصباحه كان مطفأ، لم أحاول منعه من التفتيش فى حقيبة ظهره، قال

متعجباً، وهو يمسك فى يده أنبوباً لزجاً "هذه هى المادة! ضعيها على عنقك على الفور". شكرته وخرجت فى الظّلمة العامرة بضوء النجوم، جلست على حجر من الأحجار ورحت أدهن رقبتى بلطف، خطر ببالى أن ليل الصحراء له سحر تفتقر إليه الجبال، كانت السماء من فوقى مخضبة بتراب فضى، لكن ذلك التراب كان بعيداً جداً، وكانت الريح تَزفُّ بين الأشجار، ليل الصحراء هادئ بطريقة ساحرة، وسماوات ذلك الليل معَدن مصهور بعد اكتوائه باللهب، عند هذه المرحلة، خطر ببالى أن حلقى قد اكتوى هو الآخر، اقتربت من أقرب النيران إلىّ، ورحت أنظر إلى الأنبوب الذى انتقاه جونز فى الظلام، ووجدت أنه معجون أسنان مصنوعاً من حامض الكربوليك وإن شئت فقل حمض الفنيك!

عندما استيقظت فى صبيحة اليوم التالى خفت أن يكون هدوء المخيم نذير شؤم، كانت الساعة لم تتجاوز الخامسة، لكن بِلاّم باراسِّى اقترح القيام بسلسلة من المسيرات الطويلة بغية الوصول إلى كُيُونِّى Kunni فى اليوم الرابع وعليه دخلت خيمتى وأنا أرتعد فى هذه الظلمة الرمادية، لم يكن هناك شىء يتحرك، وعندما هززت الحُزَم البيضاء الملقاة على الأرض هنا وهناك بطريقة عشوائية، كنت لا أسمع سوى صوت هذه الحزم البيضاء تتأوه وتتلوى ألماً.

سألت عمر "ما هذا الذى يحدث بحق السماء؟" كان عمر قد بدأ يتعافى، رفع المرشد يديه إلى الأعلى.

"لقد أكلوا لحماً نيئاً كثيراً، وتعاطوا دواء قوياً".

راح الرجل فى يأس يسحب بعض المرضى كى يقفوا على أرجلهم، حاولوا وهم ممتقعون وشبه منحنين الوقوف وهم يترنحون، بلا جدوى وجباههم تتصبب عرقاً.

سألت وأنا أنظر داخل الخيمة التى كانت أولي الخيام التى بدأت تدب بالحركة استعداداً للرحيل "أين بلاَّم باراسِّى؟"

قال عمر بأسف شديد "هو أيضاً تعاطى مطهراً"(✫).

والذى لا شك فيه، أن ذلك لو كان قد حدث فى ساعة متأخرة من ساعات

✫ المطهِّر: يكون طقساً عاماً فى الحبشة، ويجرى تعاطيه دوماً بعد اكل اللحم النيئ.

النهار، لكانت حاسة المرح فىّ قد أخرجتنى مما أنا فيه، لكن الجو كان بارداً وكنت جوعانة أيضاً، وأن المخلوقات التى أيقظتها كانوا يترنحون فى أقرب الأماكن إلينا، وعليه بدأت أستعمل أفضل ما لدى من اللغة العربية، وراح عمر ينظر إلىّ مستسيغاً ذلك الذى أقوله.

قال عمر متأملاً: "المؤسف أنك لست رجلاً، وعندها يمكن أن تضربيهم".

بعد ذلك بأربع ساعات، وبينما كان يجرى تحميل البغال بواسطة جماعة من الأشباح، جاءنا رئيس القرية على وجهه ابتسامة ساحرة؛ وأبدى ملاحظة "سيكون بوسعكم التحرك حالاً لأن الحيوانات كلها خرجت من أجسام الرجال".

كانت الشمس متوهجه ونحن نازلون من كولوبِّى Kolubi إلى بيارة من شجر التيد Teyd وشجر الزجبار Zigbar المتين، كانت تلك الأشجار تشكل حافة حول الجبل ومزخرفة بشجيرات مزهرة، وتتخللها أشجار التُّوب الهيكلية رمادية اللون، فى ذلك السهل الذى مازلنا نراه، ومن فوقه الضباب الأزرق زرقة البحر.

قال بلاّم باراسِّى: "لقد جرى مؤخراً قطع بعض الأشجار بواسطة اللصوص؛ جرت العادة أن يقبع هؤلاء اللصوص هنا ثم يقومون بالإغارة على القوافل".

قاطعت كلامه قائلة: "نحن هنا فى حمايتك؛ وأنا متيقنة من أننا فى مأمن من هؤلاء اللصوص".

ابتسم جابرا سليسِّى وأشار إلى الخلف، قال: "معنا كثير من البنادق الآن، وهناك المزيد من البنادق مع أمتعتنا".

كانت قافلتنا تتزايد يوماً بعد يوم، وكان مستحيلاً علينا اقتفاء أثر الرؤساء على اختلاف أنواعهم هم والقرويين الذين كانوا يرافقوننا إلى نهاية أراضيهم ثم يتركوننا بعد أن ينحنوا لنا احتراماً وتقديراً. أعطانا دست Desta المزيد من المعلومات عن اللصوص "كان فى الجبال عدد كبير من اللصوص السمان قبل وصول خطوط السكة الحديد إلى هذا المكان"، ذكر دستا كلمة سمان، بإشارة منه إلى أحجام هائلة، "لكن الآن النقود كلها يجرى نقلها بالقطار، وهنا يتحتم على اللصوص العمل بجد كى يستطيعوا كسب عيشهم".

بعد أن سرنا مسافة ثمانية أو تسعة أميال التقانا بلاّم باراسِّى ألمايا هو ورؤساء مجموعة قرى شالانكو Chalanko، كانوا وهم يرتدون أغطية رءوسهم ذات الحواف الغليظة، وقبعاتهم، عريضة الحواف المصنوعة من اللباد، والتى تحتوى على ثنيات من الموسلين تخفى كل شىء ما عدا عيونهم، يبدون كما لو كانوا من عصابات نسف البرلمانات، بعد تبادل التحيات، أداروا بغالهم خلفنا ودخلنا على شكل موكب خلال دوائر القرى لنفترق عنهم بمزيد من الانحناءات والتحيات عند سفح المرتفع التالى، لاحظت أننا عندما كنا نتجاوز لوحاً موضوعاً فى كومة من الحجارة، ومركباً عليه شريط أبيض يرفرف فوق ذلك اللوح، وهذه إشارة إلى وجود كنيسة على التل بعيداً عن الأنظار، كان الراكبون ينزلون عن مطاياهم، ويروحون يكنسون التراب بقبعاتهم، ويحيُّون ذلك الرمز.

واصلنا مسيرنا راكبين بعد ذلك عبر مجموعة متتالية من السلاسل الجبلية المنحدرة، فيها رقع مزروعة فى الوديان التى بين هذه السلاسل، عثر عمر على حقل من حقول القات المحببة إلى نفسه، وقام الجنود بسرقة أعواد الذرة، أما جابرا جورجس الذى يتمتع بذاكرة طبَّاخيه، فقد رجانا أن نأكل بعض بذور الشمبورا Shimbura، التى لها مذاق المكسرات، أو بعض حبوب التالبا Talbaالتى يصنع منها أهل البلد حساءً حلو المذاق.

مررنا فى حقل من حقول السوف Suf، تلك الزهور الذهبية البراقة التى يعصر منها الزيت، على عروسة وعريس من الجلاّ، وبصحبتهما قلة قليلة من حملة الرماح وجمع من النساء اللاتى كن يزغردن، وفى شعورهن شرائح من أوراق الشجر، ويمسكن فى أيديهن أغصاناً، ومن سوء الطالع أن العروسة والعريس هربا عندما جهزنا آلة التصوير لتصويرهما، وتمثل صيدنا فى العروسة الصغيرة الجسم، ببشرتها الشبيهة بلون القهوة التى تلمع بفعل الزيت، وذلك القماش الرخيص أحمر اللون الملفوف حولها، يشيع بين الجلاّ الجنوبيين عرف مفاده أن والد العروسة يكون من حقه اختيار مهر ابنته من بين ممتلكات أصدقائه، ففى يوم الزواج، ينتقل والد العروسة من كوخ إلى كوخ مطالباً بالهدية الفلانية والهدية التركانية، والتى تتدرج من قرعة وسيعة خاصة إلى خروف أبيض أو أسود سمين، وهو يعرف مسبقاً،

أن أصدقاءه، سوف يطلبون منه، فى الوقت المناسب، شيئاً مساوياً لذلك الذى أعطوه إياه.

قررنا التخييم فى ديدر Deder، تلك القرية الكبيرة التى لم تظهر على خارطتنا، والتى لا يمكن أن تبعد مسافة أكبر من ثمانية عشر ميلاً عن كولوبى فى اتجاه طيران الغراب، ومن سوء الطالع أن كل شىء فى الحبشة يكون دوماً أبعد بكثير مما يبدو عليه، نظراً لأن الطريق يتلوى كما لو كان ثعباناً، ويروح يفرض نفسه فى مرتقيات مستحيلة، لينحدر من جديد نازلاً بين كتل من الصخور تبدو وكأنها بحر من الطين، وقد تجمدت وسط عاصفة من العواصف، ويقضى الواحد منا اليوم بطوله إما متعلقاً بالقربوس، فى الوقت الذى تترنح فيه الركوبة تأرجحاً عمودياً نحو الأعلى، أو تحاول موازنة نفسها، فى حين يخرج الراكب قدميه من الرّكاب مخافة أن ينسحقا بين جلاميد الصخر، فى الوقت الذى تعجل فيه الاهتزازات والترنحات بسحب الراكب نحو الأرض.

قافلة البغال لا تعرف السلام فى الحبشة، ذلك أن الصياح الذى لا ينقطع يصاحب القافلة فى ظل المفاجآت التى تحدث عند كل منعطف من المنعطفات، وسيل الحمير الذى لا ينتهى، وقافلة الإبل التى تسير بطريقة فوضوية، والتى تصيب البغال بالهستيريا (لا أعرف إن كان ذلك بسبب رائحتها أو منظرها؟)، طوال الأيام الأولى كنت أخشى حدوث معركة فى أية لحظة من اللحظات، نظراً لأن الصياح كان يتسم بالغضب، كما كان التشويح بالأيدى عنيفاً، لكن الأرجح أن ذلك كان جدالاً لطيفاً حول أفضل المسارات أو حول السعر المناسب لشراء نعلة من النعال، وإذا ما سأل أحدهم أحداً سؤالاً، تقوم القافلة كلها بمناقشة الرد على ذلك السؤال بأعلى صوت ممكن، وإذا ما طال الصمت، ولنقل لمدة خمس أو ست دقائق، يروح أفراد القافلة بترديد قواف عجيبة لا وزن لها، كان من عادة واحد من خدم بلاّم باراسىٍّ، أن يسير حاملاً على رأسه آنية من أوانى الطبخ، وكانت تناسبه تماماً، كما لو كانت قبعة بلا حافة، وعليه لم يستطع رفاقه منع أنفسهم من الدق على هذا الإناء كلما مر على واحد منهم، لكن أفضل الفرص المواتية لذلك كانت تتهيأ عندما

كنا نساعد (عن غير قصد تماماً) فى القبض على عبد هارب، كنا على مشارف قرية ديدر، وكنا قد انتهينا بصعوبة بالغة من تسلق أبشع سلسلة من الصخور التى واجهتنا، عند أعلى السلسلة اعترض طريقنا شخص محترم لكن منكوش الشعر، وحكى لنا حكاية مفادها أن عبده ألقى حمولته فجأة وفر هارباً داخل الغابة، راح الجنود مثل الكلاب يطاردون ذلك العبد، ومن خلال تعبيراتهم توقعت أن يكون هناك كثير من النباح، اضطررنا إلى تعقب ذلك العبد، مع هؤلاء الجنود، لكن المطاردة لم تدم طويلاً، ولم تحدث انفعالات كبيرة من جانب السيد أو العبد، إذ واصلا سيرهما وهما يتجادلان.

الفصل الخامس

البغال والزواج بصفة أساسية

تبدَّت لى قرية ديدر وكأنها أول مخيم من مخيماتنا الجبلية، لا من حيث إنها أعلى من القرى الأخرى، إذ طبقاً لجهاز الأنرويد، فإن الارتفاعات على هذا المسار تتردد بين ٦٠٠٠ و ٨٠٠٠ قدم، وإنما لأن الخيام جرى نصبها على منحدر كان يجعل كل شىء ينزلق بسهولة خارجاً من الخيام، دخلت للنوم داخل الخيمة وقدماى معلقتان فوق حافة النقّالة، وصحوت من النوم على اصطدام لأجد نفسى أنا وكيس البراغيث فى مكان قدمىّ.

اعتباراً من هذه المرة، عكسنا طريقة تصرفنا، بأن اعتدنا على ارتداء ملابسنا فى الليل استعداداً للنوم وخلع ملابسنا فى الصباح استعداداً لرحلة الركوب الطويلة الحارة، وتأسيساً على ذلك، فإن تغطيتى لنفسى بالبلوزات الطويلة ذوات الأكمام، وبالإيشاربات، أو حتى بمعطف أو معطفين أو حتى بمرشحة بغل من البغال، كان يشكل لى صعوبة فى تخليص نفسى، أو بالأحرى الخروج من كيس الخيش الضيق، كنت قد فعلت ذلك عندما سمعت صوتاً حاداً لصرخات شخير، وأصوات حوافر استولى عليها الرعب، ثم سمعت صراخاً، ومن بعده طلقة ثم مزيداً من الأصوات الحادة، أمسكت مسدساً وخرجت من الخيمة لأرى كتلة معتمة تتساق بخفة فى جوف الليل، كما رأيت ارتباكاً أيضاً بين الأشكال الملفوفة بالبطاطين.

اندفع دستا ورائى ومعه بندقية، صاح قائلاً "ضباع!" وعقب ذلك مباشرة قفز شىء ما من الظل، وجهت إليه طلقة لكنها أخطأته، وبعدها بدا الجميع وكأنهم يقومون بعمل مفاجئ، اعترضت مع جوطة "إذا ما أطلقنا المزيد من الذخيرة، فإن القرية كلها ستهب لنجدتكم" .

كرر جوطة الكلام "دعوهم يحضرون ليعثروا لنا على بغالنا".

أمضينا بقية الليل فى البحث عن الحيوانات، واستأنفنا رحلتنا فى الصباح وقد نقص اثنان من بغالنا. وبينما كنا نسير فى وادٍ، كانت أشجار الغابة فيه محملة بالياسمين البرى، والبرتقال وزهر العسل، ونبات متسلق قرمزى اللون، رحت أعمل فكرى فى المثل العربى الذى يقول: "ثق بالله وبحبل فى رجل الحمل" لكنى علمت أن البغال خلعت الأوتاد وقطعت حبال الأقدام الخلفية.

حدث لنا فى ذلك الصباح، مضمون، سينمائى طيب، وسبب ذلك أننا فى مكان من الأماكن تعين علينا تسلق ذلك المكان على أيدينا وركبنا فى حين لفت البغال صاعدة إلى أعلى حول الجنب، أنا على يقين أن البغال يجرى فى عروقها دم سرطان البحر(★)، بينما كان هارولدٍ جونز يحرك مقبض آلة التصوير (الكاميرا) نحو الأسفل، مر بعض الجلاً، وبعد أن أمسكت أيديهم بأقوى أحجبتهم، انحنوا على الأرض لاستعطاف القوة المجهولة!

بدأ المسار بعد ذلك يدور بطريقة مملة حول وخلال وادى بوركة Burka، الذى تناولنا غداءنا بجوار مجراه المائى، وكيما نصل إلى الشجرة الظليلة الوحيدة تعين علينا عبور وهدة عميقة، وكان عمر مستعداً لتقديم يد العون لنا، عندما راح يشد فى اللحظة غير المناسبة، مما أدى إلى سقوطه فى الماء هو وهارولد جونز. وهنا ألقى أتباعنا بأنفسهم وهم يصرخون، لإنقاذنا، وراح كل واحد من هؤلاء الأتباع يمسك بطرف من أطراف ملابس ضحية من الضحايا، أو بساق من سيقانهم، وكانوا جميعاً يسحبون ويدفعون بلا إجماع إلى حد أن أوشك عمر على الغرق ووصل هارولد جونز إلى البر وهو مغطى بالطين، وسقط هذا الطين من عليه على شكل قشف بعد أن غادرنا الوادى فى قيظ فترة العصر، بعد ذلك بفترة قصيرة، عثرنا على واحد من بغلينا الضائعين ووسمناه أمامنا بميسم من الحديد قمنا بتسخينه فى نار الفحم النباتى، ما إن تغلبت على هذا المنظر غير المتوقع، وركبت البغل الذى راح يمشى متسلقاً بين الجلاميد الزلقة، التى حتمت علينا السحب إلى أعلى من

★ سرطان البحر: الكابوريا. (المترجم)

ناحية والانحناءات من ناحية أخرى، سقط بغل من بغالنا المحملة بالأمتعة، وفشل فى النهوض بسبب حمله الثقيل، الأمر الذى أدى إلى انزلاقه انزلاقاً خطيراً مما أدى إلى كسر رجل من أرجله.

حدث ضجيج يصم الآذان واستمر فترة قصيرة، أدركت بعدها أن البغَّالة كانوا يحاولون ضرب الحيوان المنكوب كيما يستطيع الوقوف على أرجله، تناولت بندقية سيلاسِّى، ونزلت إلى أسفل الصخرة وأنا مستعدة لفتح النار على ذلك الحيوان المنكوب بنفسى، لكن رئيس البغَّالة تدخل وفى يده سكين، قال: "لماذا تضيعين الطلقات السمينة؟" وبينما كنت أتناقش معه، وسط سيل من الأحمال المتناثرة هنا وهناك، ووسط رفسات مؤسفة، وصل إلينا شخص لإنقاذنا ومعه طلقتان، وأسفرت عاصفة الاحتجاج والتفسير عن القيام بإعادة التحميل الخطرة من جديد.

العجيب بحق هو أن الأحباش، لا يكنون أى احترام للحيوانات، والسبب فى ذلك أن الأحباش شفوقون فى تعاملاتهم مع زملائهم، وفى الجنوب حيث اعتادوا على الاتصال بالغرباء، هم مضيافون فى علاقتهم بزملائهم فى الجنوب، كان يجرى بصورة مستمرة تقديم هدايا صغيرة من الحليب، والخبز المصنوع من الذرة، أو الجعَّة دونما انتظار لأى مقابل لذلك، كان البغالة قد اعتادوا على قطع أعوادَ قصب السكر وأعواد الذرة، أثناء مرورهم على الحقول، التى يعمل فيها مُلاَّكها وهم شبه عارين، وكانوا يبتسمون للبغالة ويتمنون لهم رحلة موفقة.

فى بعض المراحل، وعندما ينحدر المسار على نحو يتحتم التخفيف من حمولات الحيوانات، كنا نضطر إلى الاعتماد على الحمَّالين المحليين وكنا نستأجر هؤلاء الحمالين بطريقة عرفية تماماً، كان الجنود يرون بعض الرجال الذين يتسكعون فى القرية، فيذهبون إليهم ويجعلونهم ينهضون واقفين على أقدامهم، ووسط احتجاج مشوب بخفة الظل، ليقوموا بنقل النفايات من أية خيمة من الخيام إلى علبة من علب البرافين (التى تتسرب منها الأشياء دوماً) التى يحملونها على أكتافهم، كان سكان التلال يحملون هذه الأشياء بخفة ظل واضحة وينقلونها إلى خارج الأحياء التى يقيمون فيها، فى الوقت الذى يكون فيه طلب على مجموعة جديدة من هؤلاء الحمالين،

كانوا يشكروننا ويقبلون أقدامنا إذا ما أعطيناهم أقل القليل من العملات المعدنية، والحبشى يفلح فى القيام بهذا العمل فى شىء من الخجل واعتزاز بكرامته بطريقة تسر الخاطر.

أبلغنا بلاَّم باراسىّ، أن الغريب فى الأزمان القديمة، كان يحظى بحق النقل خلال أراضى القرية، وأن هذه العادة لا تزال سارية فى الجبال، لكنى أعتقد أن المسألة فى معظمها ترجع إلى الأوامر التى تصدر عن راس تفارى، الذى كنا نسافر معتمدين على واحد من فرماناته.

أمضينا الليلة الرابعة فى توللو Tullu، ذلك الحى المكون من أكواخ صغيرة، المتناثرة على نطاق واسع على المنحدرات المحيطة بالوادى، حيث كانت نباتات الست المستحية تظلل مخيمنا، كان البغالون يتناقشون فى مسألة فقدان بغل من البغال ومصرين على أننا كنا نسير مسافة طويلة فى كل يوم، وهنا قام جابرا سيلسِّى، «أحن» و«أصبر» هؤلاء الرفاق جميعاً، بتوضيح أن مُلاك البغال يرون أن مسير خمس ساعات يعد كافياً فى الرحلات الجبلية، وأن هذه المسافة تختصر عند الظهيرة، بأن يروح البغالة يتسكعون فى فترة العصر، ويتناولون وجبتهم الجافة الوحيدة أثناء الليل، لكنه أراحنى وهدأنى عندما أكد لى فى شىء من الأدب، "رغبتى الوحيدة هى أن أقطع المسافة التى ترغبين فيها، وأن أتوقف عندما تريدين، وأن أسهل عليك الأمور".

تأكدت فى تلك الليلة من عَقل البغال بطريقة سليمة وآمنة، وطببت جلاّن قدر استطاعتى من وعكة صحية رفعت درجة حرارته إلى نحو ١٠٢ درجة فهرنهيت، وقد وصف لى تلك الوعكة بقوله: "داس أحد البغال على قدمى وتسبب ذلك لى فى ألم فى فخذى، وعليه فإن رأسى يكاد ينفجر الآن" ثم عدت إلى خيمتى على ضوء النجوم، وسمعت صوت عمر وهو يصف بحثه غير المجدى، عن الطعام بين القرى.

كان عمر يقول: "الناس هنا ليسوا بشراً فى هذه المنطقة وإنما هم ضباع، فى اللحظة التى رأوا فيها بنادقنا فروا هاربين، وهم يصرخون، وتبعناهم، بلا طائل، ونحن نصيح قائلين: تعطفوا علينا وبيعونا بعضاً من بيوضكم، حسب رضاكم! اصنعوا فينا معروفاً، سنكون ممنونين لكم، بارك الله فيكم، لكنهم لم يتوقفوا ليستمعوا إلينا، أدى وجودنا إلى إخلاء الجبل بكامله!"



سوق ديفيه

أظن أن المرافقين ناموا وهم جوعى، لأنهم كانوا على استعداد لبدء المسير عند الساعة السابعة من صبيحة اليوم التالى، هذا يعنى أن ذلك حدث بعد ساعة من نداء الإيقاظ الصباحى المعتاد، تمثلت مسيرة ذلك اليوم فى تسلق مجازين يقع وادى هيرنا Hirna فيما بينهما، كان المجاز الأول مغطى بالأشجار الغابية. سرنا تحت مستوى ستائر نبات متسلق أرجوانى اللون تفوح منه رائحة زكية، ومعه نباتات الفربيون الخضراء اللامعة التى تربط بين أجمات الأشجار الطويلة، التى لأغصانها لحى من الخنشار(★) وزبد حبوب الياسمين البرى، أفسد علينا متعتنا هذه إلى حد ما، وأحد من الحمالين المحليين عندما وضع أمامنا مجموعة من الدواجن الحية المربوطة من أرجلها إلى عصا، أخيراً أصررت على حتمية ذبح هذه الدواجن وهنا دارت نوبة غاضبة من النقاش، وعندما أصبحت أحبالى الصوتية غير كافية للرد، استطعت عن طريق الإشارات معرفة السبب، وأن الحمالين الذين كانوا معنا كانوا جميعاً من الجلاّ، وأنهم إما من المسلمين أو الوثنيين، وأنهم لن يحملوا شيئاً مقتولاً بواسطة المسيحيين الأحباش، اقترحت عليهم "إذن، فليقوموا هم بذبح هذه الدواجن بأنفسهم"، ولكن عمر أوضح أن طباخنا لا يمكن أن يتعامل مع أى طائر مذبوح بسكين كافر، تواصلت هذه الأزمة المستحكمة إلى أن خطر ببال الجنود أنهم إذا ما ذبحوا الدواجن ووضعوها فى جوال فقد يقتنع الجلاّ بحمل ذلك الجوال فى نهاية المطاف!

أمضينا ساعة فى تصوير حصاد الذرة، ذلك المنظر المشهود، حيث يقوم المردة السود العراة، اللهم باستثناء ما يستر العورة، بمصارعة سيقان الأذرة التى يبلغ طول الواحد منها أربعة عشر قدماً، وتقوم البنات بخفة ورشاقة بحمل حبوب الذرة فى سلال على رءوسهن إلى خارج الحقل، مر علينا عجوز يحمل حملاً كبيراً من القرع المفرّغ، كان ذلك القرع يبدو كما لو كان نفّاخات متجمدة على كتفى الرجل، نظر نظرة متفحصة إلى بغلى الأبيض، قال "بغل جيد؛ إنه يجرى مثل الماء، أما قدماى فهما مثل حجرين من تحتى". انشرح صدره كثيراً عندما أعطيته قرشاً، وانصرف لحاله يغنى.

فى الهيرنا، التى هى سوق كبيرة، وإن شئت فقل: سوق المنطقة المجاورة،

★ الخنشار: نبات السرخس. (المترجم)

والتى فيها نفر قليل من أصحاب الدكاكين اليونانيين والأرمينيين، تلقينا صدمة، كان الوقت ظهراً، وكنا نسرع الخطى، وكانت ريح باردة تواجه وجوهنا، عندما أشار عمر إلى مجموعة مشوشة من بغال حمل الأمتعة وغير المسّرجة، كانت مبعثرة على الأرض الخضراء، وقد أدى تدقيقنا فى الأمر إلى إثبات أن مالك البغال، استغل انشغالنا بعملية التصوير، وخيم فى هدوء طوال فترة النهار، والذى لا شك فيه أن ذلك البغّال ظن أن نصبه لخيمته ومظلته، وفكه لأمتعته كلها، فى الوقت الذى راحت فيه بغاله تتجه صوب المجرى المائى، يمكن أن يقنعنا أن مسألة القيام بمسيرة جديدة أمر لا طائل من ورائه، كان تعبير ذلك البغّال خليطاً من الدهشة والاشمئزاز عندما داهمت الجنود بعد البغال، وجعلتهم يحضرون البغال عدوا وأمرتهم بإعادة التحميل على الفور. استغرقت هذه العملية نصف ساعة، لكنها علّمت صاحب البغال درساً ومضينا فى صعودنا لسلسلة الجبال التالية التى تعدها الحبشة منطقة صمت وسكون.

وعلى الرغم من هذا التأخير، فقد وصلنا إلى دباسو DAbasso، وجانب من جوانب التلال عليه غطاء كثيف من الورد البرى، لنشاهد من فوقه غروب الشمس فى كونّى Kunni، جبل الغابات، وحول النار التى جرى شبها، تجمع مرافقونا، كل منهم شبيه بخيمة صغيرة مستقلة وهو ملفوف فى بطانيته، لا يظهر منه سوى عينيه وأنفه؛ وراحوا جميعاً يشوون الأذرة التى سرقوها من الوادى ويتحدثون عن معاركهم، والمؤسف أيضاً عن دخائلهم! كان هناك حفل زفاف فى مجموعة من الأكواخ القريبة منا، كان العريس تاجراً مسيحياً من الهيرنا، وعليه جرى دعوتنا لشرب التدج Tedjوأكل الفتفت Fet،Fet، الذى هو قطع صغيرة من اللحم مستديرة الشكل مغموسة فى صلصة حارة جداً، كان الضيوف جالسين على الأرض، ولدى كل واحد منهم ملعقة وسكين، ويستخدمون شرائح من الخبز الوطنى لتكون له طاولة وفوطة فى الوقت ذاته، كان العريس تفوح منه رائحة الزيت، وكان يجرى إطعامه بواسطة رجال العريس الأربعة، الجالسين حوله ويقطعون قطعاً صغيرة من لحم الخروف النيئ المعلق من رجليه فى عمود يحمله عبدان، ويروحون يدسون قطع اللحم الصغيرة فى فم العريس، وفى ملجأ فى الخلف عبارة عن بضع ياردات قليلة

من قماش الموسلين، منصوبة على شكل خيمة، كانت هناك بعض البنات يقمن بالشئ نفسه للعروسة، وإذا ما أصيب العريس بغصة، فإن اثنين أو ثلاثة من أصدقائه يسارعون إلى إخفاء وجهه تحت مظلاتهم (شملاتهم)، وبين الحين والآخر، كانت النساء اللاتى يحضرن الوليمة فى حوش مجاور يقمن بالغناء، وبلا إنذار يندفع رجل واقفاً على قدميه بقرن بقرة، ويروح يُفرغ ما به من بيرة، ويمسك به مقلوباً رأساً على عقب، ويروح يرش على الضيوف القطرات المتبقية.

وبعد أن يصل هذا الفرح إلى ذروته، ويجرى اقتياد العروسة إلى داخل الكوخ وإجلاسها على حشية فى حين يقوم والدها بقراءة قائمة ممتلكات العروسة بدءاً بثورين وانتهاء بقبعة من اللباد، ويجرى سكب الزيت على العروسة أربع مرات من قنينة رفيعة، وتروح العروسة ترشف مشروب التدج الذى يشرب منه الآخرون بعد ذلك، ثم يجرى بعد ذلك طى شاشة القماش الموسلينى حول العروسة فى الوقت الذى تحتضن فيه أمها أو تتحدث معها.

لا يعد الرقم أربعة رقماً حظيظاً وإنما هو سر أيضاً من الأسرار الكنسية الروحانية، نظراً لأن فيثا نجاست Fetha Negast يصرح بأن هناك أربعة بطاركة، وأربعة أناجيل، وأربعة أنهار فى الجنة الأرضية، وأربع رياح، وأربعة فصول، وأربعة عناصر، وأربعة أرباع فى الأرض، وبناء على ذلك خرجت العروسة من شاشتها الموسيلينية ومن فوقها أربعة أغصان من أغصان الزيتون، كما أن هناك أيضاً أربعة أحجبة حول عنقها، وددنا لو أننا تمنينا لها حظاً سعيداً، لكن زميلاً من الضيوف أصر على ما مفاده أن العروسة يتعين عليها عدم التحدث إلى الغرباء فى يوم زفافها، وعليه تعين علينا تركها وسط أغانيها ووسط حرارة كوخها المعطّر، وعدنا إلى نيران مخيمنا، كانت هناك ثلاث نيران مشبوبة، وفى كل واحدة منها كان يجرى خبز الحب على شكل كعكات رقيقة مفرودة على القُرْمَة، ثم يجرى تغطيتها برماد النار الساخن.

قال جوطة: "سنكون غداً فى كونىٍّ، وسنجد أشجاراً كاملة للوقود".

ابتسم دستا قائلاً: "وقرود أيضاً، وأنا سوف أرميها بالرصاص، لكن السيدة ستقول: إن القرود جميلة وإنها تحبهم حب الولد، مثل الحمل الأبيض والحمل الأسود فى ديدر، اللذين لن تدعنى أقتلهما".

ضحك الجميع عندما تذكروا خروجى متسللة أثناء الليل لإطلاق سراح حيوان كان محتجزاً لوليمة من ولائم اللحم النيئ، دخلت أنام على صدى الأصوات الوطنية، لأنى أظن أن السواد الأعظم من أهل الريف جاءوا إلينا للجلوس حول نيراننا الكبيرة ولكى يتبادلوا معنا قطع اللحم المقدد، الناشف تماماً مثل الجلد؛ وذلك من باب الاستعداد لدردشة الطريق، صحوت على ندى المسيرة، كان حذائى متجمداً الأمر الذى جعلنى أنفق عشر دقائق فى لبس الحذاء، كما كانت ملابسى مثل قطعة الإسفنج، سمعت هارولد جونز يخرج من خيمته، أخيراً وبعد خشخشة العلب سمعت صوته الذى كان موحياً بالفرح "هم ناشفين مثل عظمة من العظام!".

رددت عليه غاضبة بعد أن أنقطع الرباط الثانى "ماذا تعنى؟ هل كنت نائماً على حذائك؟

أجابنى رفيق صاحب الذهن الفريد، وهو يفرك يديه المخدرتين بسبب البرد، على الرغم من ضعفهما فى بعض الأماكن بسبب حرارة الشمس والرياح الشديدة "أقصد الأفلام، بطبيعة الحال".

تمثل الاختبار الوحيد الآخر لهذه الرحلة الجبلية فى نقص الماء، لو كانت هناك أبيار أو ينابيع كبيرة فهى تكون مخبأة خارج نطاق معرفة القرويين، الذين يشربون من حفر مروِّعة إلى أبعد حد ممكن، وتتمرغ فيها الماشية والماعز، أو من مجار مائية بطيئة الجريان وآخذة فى التعفن وعامرة بالطين والمخاط، يزاد على ذلك أن القسم الأكبر من الأكواخ يجرى بناؤها على بعد مسافات كبيرة من مصادر المياه، وقد حتم ذلك علينا فى كثير من الأحيان إرسال رجالنا على بعد أميال كثيرة لجلب المياه من التلال، حتى يمكن استخدامها فى عملية الطبخ والشرب، أما مسألة الاغتسال فكانت خارج الحسبان، كنا فى بعض الأحيان نشترى ملئ قرعة مفرَّغة، من الماء المشوب بالطين، وكريه الطعم والرائحة نظير ثلاثة أو أربعة بنسات، لكن بعد الأيام القلائل الأولى، توقفنا عن الجدل حول محتويات قواريرنا من الماء الذى تدور من حوله الشكوك.

اقترح على هارولد جونز "أغلقى عينيك عندما تشربين، وارتكنى على الخط".

من يمن الطالع، أن كانت هناك دوماً حفرة أو بركة طينية بشكل أو آخر، كنا نسقى منها البغال إن تصادف أثناء النهارٍ عدم مرورنا على مجار مائية.

أوصلنا مسير اليوم السادس إلى قرية كونِّى، التى هى عبارة عن كُتلتين من الجبال مغطاتين بالغابات. أنفقنا فترة الصباح فى مراقبة السحب أثناء انزلاقها فوق القمم الداكنة، وعند الظهيرة أخذنا قسطاً من الراحة تحت بعض أشجار الزيتون كيما نتمتع بالمنظر، كان ضوء الشمس والظل يتذبذبان فوق الوديان التوأم، وكانت قرية سبتافيرو Sabatafero الجديدة الكبيرة، الشبيهة بمحصول عيش الغراب فى الشمال، تتلألأ فى بحيرة شبه جافة فى الجنوب، رحت أنا وهارولد جونز، ونحن نتأمل كثيراً أثناء تقشير البيض المسلوق بطريقة جائرة، نهنئ أنفسنا بجمال كونِّى Kunni وبحصيلة عملنا الصباحى، الذى تمثل فى بعض المشاهد والمناظر الجذابة لنساء الجلا، وهن يطحن الأذرة فى أوان أو جرار طينية كبيرة، ونحو ستة من الرجال يلبسون تيجاناً من الزهور، ويقُومون ببناء كوخ من القش، ومجموعة من الثيران كانت تستخدم فى فصل الحبوب عن القش، قطع عمر علينا تأملنا، قال: "البلاَّم باراسِّى يود أن يعرف كم الساعة الآن، فقد وقفت ساعته". مع هذه المباغتة، لابد أن أكون قد كمشت البيضة التى كانت فى يدى، فقد بددت لامبالاتى عندما سقطت علىَّ كمادة مخاطية صفراء.

تعجب عمر قائلاً: "هذا من سوء الحظ! هذه البيضة كانت ستصبح صوصاً صغيراً خلال وقت قصير!"

سارع هارولد جونز بوضع منديله على أنفه، كانت تلك أردأ بيضة خلال هذه الرحلة الطويلة، فقد أتلفت بنطالى الذى كان يعانى منذ فترة طويلة.

خيمنا على سلسلة الصخور الواقعة بين القمم الغابية الكبيرة، لأن بلاَّم باراسِّى كان يود أن يكون قريباً من بقايا ذلك الذى كان فى يوم من الأيام قرية كبيرة، تنعم بمقام راس ماكونن Ras Maconen فيها، وراس ما كونن هذا هو والد وصىِّ العرش الحالى، كانت غالبية الناس فى ذلك الوقت قد انتقلوا إلى سبتافيرو فى الأسفل، وهذا من باب الحكمة والتعقل فى رأيى، بعد انهيار خيمتين؛ بسبب العاصفة التى هبت على الممر، لم تكن تلك الليلة مريحة، فقد أمضيناها فى دق الأوتاد وشد الحبال، وفى النهاية فقدت الأمل فى التعامل مع مسألة صراخ الخيش بفعل الدوامة التى وترت أعمدة الخيمة

إلى حد الانكسار، وبعد أن يئست أخذت كيس نومى وذهبت إلى أخدود أسفل الصفة، ورقدت فى تلك الحفرة التى يبلغ طولها ثمانية أقدام، ووضعت مخدتى عند مدخل الحفرة، ونمت إلى أن راحت بقرة من الأبقار تنطحنى ظناً منها أنى شىء يؤكل.

كان هناك ضوء وردى عجيب على التلال، كانت الأشجار تكتسى لوناً أبنوسياً على خلفية هذا الضوء الوردى، وكان الصقيع يغطى سطح الحشائش، تناوبت أنا وهارولد جونز على العناية بوعاء صنع القهوة، الذى كان بمثابة الشئ الوحيد الدافئ فى هذا المكان، جرت العادة أن نتبادل السير والركوب على امتداد ساعات طويلة، لكن فى ذلك الصباح على وجه التحديد مشيناً بتثاقل وبصورة منتظمة إلى أن أذابت الشمس الصقيع، وتحولت ممرات الغابة إلى ما يشبه المجوهرات، فقد كانت النباتات المتسلقة تلمع وتتلألأ، وكانت الأغصان تهمس أسفل أحمالها البللورية، نزلنا إلى الأسفل عن طريق ممرات حجرية كانت تمر من فوق جذوع الأشجار أو من تحتها، كان يظهر لنا بين الحين والآخر قرد كبير على وجهه الأسود كشكشة بيضاء، كان يدُلى نفسه بالقرب من رءوسنا، وفى بعض الأحيان كانت تأتى قافلة من هذه القرود وتروح تتسلق الأشجار على بعد مسافة منا، قال لنا عمر: إن الجلاّ يضعون إناء يحتوى على البيرة فى بعض الممرات المفضلة عند القردة، وعندما تروح تلك القردة تتشمم هذه البيرة وتشرب منها وتسكر وتصبح فريسة سهلة لحملة الرماح الذين يراقبونها.

بعد مسير ثلاث ساعات بدأنا نتجاوز آخر أشجار الست المستحية التى كانت تتخللها وتعلوها نباتات اللبلاب أرجوانية اللون، كانت الجبال من خلفنا تبدو مثل عباءة من الغابات صنعت من القطيفة الخشنة. كنا نرى أمامنا، امتداداً واسعاً من الحشائش، يتبادل مع السهل والتل، وكانت أعراف تلك الحشائش أحَدّ قليلاً من أعراف الحشائش التى فى المنخفضات البريطانية، كانت الحقول مثل رقعة من الذهب حيث كان الرجال يحصدون الشعير بمناجل طويلة الأيدى، أو مثل رقعة من الزمرد الأخضر فى المناطق التى تنمو فيها أشجار الموز وأشجار البن بالقرب من المجارى المائية، كانت أبراج الحراسة والمراقبة منتشرة خلال المناطق المزروعة، وكانت تشبه خلايا النحل المسطحة المركبة على حزم مرتفعة من السيقان النباتية، من باب الاحتراز من هجمات الخنزير البرى عليها.



فى غابة كونّى

عند الظهر، كنا نسير خلال بوروما Boroma، التى كانت حشائشها تطاول سروج البغال، وكانت قافلتنا شبيهة بفئران الغيط وسط تلك الحشائش، وكانت خلفنا الأرض الناعمة التى قبلتها الشمس، كانت سلسلة صخور لاجاردين تبدو لنا كما لو كانت زرقة ضبابية لا تقترب منا مطلقاً، تجاوزنا قرية باديسَّا Badessa، تلك القرية الكئيبة، التى هى عبارة عن أكوام من التبن والدريس، وبلا نوافذ، لكن أبوابها خفيضة، وجرى قطعها خلال الجدار المصنوع من القش ويبلغ سمكه نحو أربع عشرة بوصة، والتى كان الصبية فيها يمارسون لعبة الهوكى بمضارب مصنوعة من عيدان قصب السكر وثمرة شجرة الأمبويانا الصلدة.

بعد ذلك بساعة أدركنا أننا فقدنا الأمتعة والبغَّالة، أسفر تفتيشنا للطريق الذى سلكناه عن عثورنا على البغال التى كانت تمشى الهوينا فى أرض باديسَّا الخضراء، وكان مالك البغال متمترساً فى واحد من البيوت المصنوعة من التبن والدريس، توقفت عن الصراخ وأعقبت ذلك بوضع المسدس فى ظهر أقرب البغالين منى، ونتيجة للمفاجأة الكبيرة، وفى شىء قليل من الانبساط وانشراح الصدر، راح البغَّال يعدو هنا وهناك محاولاً إيقاف البغال الباركة، وجاعلاً إياها تقف على أرجلها، وغادرنا القرية بعد ذلك، وعلى سبيل الانتصار راح النجادى يتقدم قافلتنا، أضاع ذلك كله وقتاً كثيراً منا، نظراً لعدم خبرتنا فى مسألة البغال والبغَّالة، كنا نضيع وقتاً كثيراً فى مسألة تجميع البغال الضالة، وبخاصة فى المناطق التى يكون فيها أشياء من النوع الذى تأكله هذه البغال، أخيراً قال مرشدنا عمر أننا وصلنا هابرو Habro، وعليه، خيمنا فى المنطقة التى أوحت لنا مجموعة الأشجار بوجود الماء، الذى كان عبارة عن حفرة طينية سوداء تفوح منها رائحة كريهة، كان الجو دافئاً بشكل يسر الخاطر، لكن الريح كانت قوية إلى حد ما، كنت أنا وهارولد جونز بعد أن تعبنا من الجهود المضنية التى بذلناها مع البغال، رحنا نشرب شيئاً من اللبن المُحمض وشيئاً من القهوة داخل الخيمة، وفجأة سمعنا صراخاً خارج الخيمة، كان الصراخ أنثوياً تماماً تمكنت من معرفة أن صاحبته هى ولاتا سبات Walata Sabat، عبده بلام باراسِّى، وتبع ذلك الصراخ ضوضاء على شكل قرقعة جعلتنا نخرج من

الخيمة، كان واضحاً أن المرأة قد أوقدت ناراً فى حافة العشب الطويل، وقد امتدت تلك النار إلى مسافة أميال عبر التل والوادى، كانت عند قدميها كومة من كيزان الذرة الشامية ومن خلفها شريط من اللهب، وعلى الفور، أحسسنا أن الخيام كان يتهددها الخطر، الأمر الذى جعلنا جميعاً نندفع لإطفاء النار، أمسك هارولد جونز ببطانية واحد من المرافقين فى حين أمسكت أنا بعرَّاقة سرج من السُّرُج؛ فى حين أحضر البغالة بعض الجلود، أعتقد أنها بعض مخلفات ولائم اللحم النيئ، وراح الجنود يقتلعون الجذور والأفرع الخضراء، لكن النار استعرت بفعل الريح وراحت فى شىء من المرح تلتهم كل ما يعترض طريقها فى اتجاهها نحو أعلى التل، غير عابئة بمجهودنا.

صاح ريس عمال جابرا سيلاسِّى، والنار مشتعلة فى منطقة خلفنا وتنتقل من منحدر إلى منحدر آخر: "لا خوف من النار على المخيم". كشفت غريزة هارولد جونز الطبيعية عن نفسها مرة ثانية، وفى غصون ثوان معدودة أخرج آلة تصويره، وكلما كنت أنظر إلى الخلف وأنا أقوم بتوجيه عمليات الإطفاء، نظراً لوجود أكواخ من القش على الجانب الآخر من التل، أرى وجهاً شغوفاً، محروقاً بفعل الشمس، وشعراً أشعث منكباً على العدسات بصورة دائمة عند نقطة جديدة من نقط الأفضلية، فى حين كانت هناك أشكال لبشر مضطربين يخرجون من بين سحب الدخان، لتظهر خيالاتهم على خلفية النار المتوهجة، وغارقين من جديد فى دوامة من الريح، واللهب، وحشائش تطاول أكتاف الرجال.

أخيراً جاءنا الجلاّ من القرى المجاورة مهرولين، ووسط هذا الصياح والصراخ قام هؤلاء الجلا بإخلاء مساحة كبيرة أمام النار، ومن بداية هذا الحاجز راحوا يقاومون النار ويمنعونها من الاشتعال.

قال هارولد جونز، وهو يحك جبهته الملطخة بالسِّناج الأسود: "أقول، أنا أخشى من انقلاب القهوة وأنا أحضر آلة التصوير، لكنها لابد أن تكون قد بردت بطبيعة الحال".

دخل شخص إلى مكان الخيام المحجوب عن مهب الريح، وكان يحاول شب النار فى شىء قليل من الحطب، وغمغم ذلك الشخص قائلاً: "لا يمكن شب

نار فى هذه الريح". عرفنا أن المتحدث هو جابرا جورجس وأن روحه لا تزال معنية بمأساة القهوة الضائعة.

كنا قد تجاوزنا فى ذلك اليوم موكبين من مواكب الزواج، وقد أكد لى الطباخ أنهما موكبان غير حظيظين، تذكر الطباخ ذلك الإنذار فى الوقت الذى ذهبت فيه إلى خيمتى وأنا أرتدى المُعَرِّق وقد حرَّقت النار أطراف شعرى.

قال مبدياً ملاحظة: "قلت لك إن أمراً قد يكون شيئاً حسناً لكن أضعاف هذا الأمر قد تكون تعيسة دوماً".

الفصل السادس

ما يخص النساء

يبدو أن الأبوة لم تكن لها قيمة بين البشر البدائيين الذين يسكنون بصفة أساسية الأراضى المرتفعة فى إثيوبيا، وأن الزواج عند هؤلاء البشر ليس سوى رباط يؤكد على جماعية العمل وجماعية المصالح. والأطفال الذين ينتجون عن مثل هذا الارتباط ينسبون إلى الأم ويعرفون إما بأسمائهم الشخصية أو باسم الأم الشخصى دون الإشارة إلى أسماء الآباء، والمرأة، شريطة أن تكون قد قامت بنصيبها من العمل، كانت تصبح حرة فى إقامة العلاقات التى تريدها هى، وأبناؤها سواء أكانوا شرعيين أم غير شرعيين يرثون أمهم، هذا يعنى أن الأسرة لا وجود لها سوى أنها نظام للنسب إلى الأم والإرث منها، وعليه فإن ممتلكات الشقيق تؤول بعد وفاته إلى أبناء شقيقته؛ لأنهما كانا من صلة الدم الأمومى نفسه، ولا تؤول هذه الممتلكات إلى أبناء زوجته، التى سترث بدورها هى الأخرى من أهلها وناسها، هذه الطائفة من سكان ما قبل التاريخ كانوا يرتبطون فيما بينهم على شكل جماعات طبقاً لعمل هذه الجماعات، كرجال أحرار ونساء حرائر بلا أى فارق طبقى، نظراً لأنهم متساوون بحكم الفقر، هؤلاء السكان كانوا يعيشون على الصيد والزراعة وليست لديهم فكرة عن الزراعة إلى أن جاءهم الساميون من الجزيرة العربية وتزوجوا من النساء الزنجيات، وأصبحت مشكلة الأبوَّة أمراً قابلاً للحل عن طريق البشرة الشاحبة التى نتجت عن مثل هذا الزواج، استسلمت مسألة النسب إلى الأم هذه لمفهوم الغزاة عن الأسرة.

هذا يعنى أن حرية المرأة، غير المحدودة فى ذلك الوقت، بدأت تعانى من بعض القيود، لكن المرأة فى ضوء ذكرياتها عن حريتها القديمة، رفضت

الموافقة على ما هو أكثر من مجرد الارتباط المؤقت مع الغرباء، وعليه بدأ شكل قانونى محترم من نظام المحظيات الموجود إلى يومنا هذا، والذى هو فى أساسه نوع مُحسَّنٌ من التعدد غير المشروط الموجود بين أناس عاشوا وأنجبوا مهملين مثلما تفعل الحيوانات، جرى اعتباراً من فجر المسيحية فى القرن الرابع العمل على تدعيم قوة الأسرة، لكن منظومة النسب إلى الأب، الذى يعد الأب فيه المالك الوحيد لنسائه وأطفاله، وأراضيه وحيواناته تمخض عن منظومة إقطاعية تقوم على القوة، وبعد خمسة عشر قرناً من الزمان فإن الصراع لا يزال قائماً بين هاتين المنظومتين المتعارضتين، والأرجح أن ضغط النفوذ الأوروبى بنظريته التى تقوم على المسئولية الفردية والمساواة يمكن أن يشكل خطراً لهاتين المنظومتين.

ظلت الفلاحة الحبشية طوال الظروف المتغيرة التى طرأت على البلاد، فى موضع ماشية من مواشى الأحمال، فى إطار منظومة كاملة من الحقوق المدنية والمادية، البنات المسلمات يعملن إلى أن يصلن إلى سن الزواج، لكن طوال سنوات الخصوبة، التى يكن خلالها قادرات على الحمل والولادة، يندر أن يغادرن بيوتهن؛ لكن المرأة الحبشية تقع عليها مسئولية العمل المجتمعى طوال حياة تشيخ قبل الأوان وتدمر المرأة معها، المرأة الحبشية هى حمَّالة الحطب وجالبة الماء، ونظراً أيضاً لأن القرى تكون بعيدة عن مصادر الحطب ومصادر جلب الماء، فهى تكد لمسافة أميال وهى حاملة أثقالاً كبيرة على ظهرها.

العمل فى إثيوبيا إما خاص بالرجال أو النساء، وعلى سبيل المثال، لا يمكن لرجل أبداً حتى ولو كان على حافة الموت جوعاً، أن يقوم بطحن الحب إلى دقيق بين الأحجار الثقيلة التى تستخدمها أمه أو زوجته، النساء هن اللاتى يقمن بإعداد كل أصناف الطعام والشراب، لكن المرأة لا يمكن أن تحكم بذبح أصغر الطيور أو الحيوانات المطلوبة للطبخ، قد تساعد المرأة فى عملية الجنى فى الحقول، لكنها لا يمكن أن تقوم ببذر الحب أو قيادة المحراث، وإلا جدبت الأرض، فى مجالها قد تكون المرأة بحاجة إلى أن تكون فنانة، نظراً لأن تفاصيل الحياة المنزلية تعد عرفاً معقداً، الدجاجة قبل تقديمها فى وليمة من الولائم، يجب تقسيمها إلى اثنى عشر قسماً، بحيث يناسب كل منها ضيفاً

من الضيوف حسب اختلاف مقاماتهم، مسألة قيام شخص غير مهم بأخذ الجناح تعد أمراً لا يغتفر، ومسألة أن يأخذ الجلد أيضاً تعد جريمة فى حق ربه البيت لأن الجلد هو نصيبها، وبالطريقة نفسها فإن كل قسم من الثور أو الشاة مخصص لاستعمال خاص، والأكتاف فقط هى التى يمكن أن تستخدم فى صنع الحساء؛ الرأس، والأقدام، والأمعاء هى من مخصصات العبيد؛ أما الضلوع فتقدم للشيوخ أو لقتلة وصيادى الأسود.

المرأة أيضاً هى التى تضفر السلال متعددة الأنواع التى تصنع من القش، والمرأة أيضاً هى التى تخمِّر مشروب التدج والبيرة، وهى أيضاً التى تصنع الجرار الطينية التى توضع فيها هذه المشروبات، والمرأة أيضاً هى التى تغزل الخيوط من ألياف القطن، لكنها لا تستطيع القيام بعملية النسج، لأن هذه الصناعة من صميم عمل الرجال وحدهم أو من اختصاصات بعض العائلات وأحياء بعينها، التطريز والحياكة هما أيضاً من أعمال الرجال.

الجنسان يفترقان بحكم التقاليد فى الحياة كما هما مختلفان فى العمل، فى المآدب والاحتفالات الأخرى يقوم رب البيت باستضافة الضيوف من الرجال فى كوخ مستقل أو فى حوش على شكل خيمة، فى حين تقوم الزوجة على أمر الإشراف على مأدبة خاصة بالنساء، فى الكنائس يجرى دائماً تعليق ستارة للفصل بين الأجزاء المختلفة المخصصة للرجال والأجزاء المخصصة للنساء، فى الاجتماعات العامة يبدو الجنسان وكأنهما غير واعيين لبعضهما البعض قدر المستطاع، اللهم إلا إذا كانوا أقرباء يلتقون أو يتفرقون، الزوج والزوجة لا يكشفان عن حبهما على الملأ، من العار أن يقبِّل أحد الآخر أو أن يضع يده على كتفه أو ذراعه إشارة إلى الحب، ومع ذلك فإن القبلات هى أكثر أشكال التحية شيوعاً فى الحبشة، فيما بين الأقارب تطبع القبلة كاملة على الفم، وتكرر عدة مرات بسرعة، فيما بين الأصدقاء الحميمين نجد أن طريقة العناق واحدة، لكنها من الناحية العددية تقل أو تزيد حسب الحميمية القائمة، المعارف يقبلون بعضهم البعض فى الخد الأيمن، أما رجال الدين فتجرى تحيتهم على الكتف الأيمن، أما الشيخ أو الرئيس فيجرى تحيته جثياً على الركبة، والتابع عندما يحيى سيدة عظيمة يقوم بتقبيل يدها بعد كل جملة.

ومع ذلك، عندما يعود زوج من المقناص أو من الحرب، فإن زوجته يجب ألا تذهب للقائه عند الباب، ولابد من بقائها داخل المنزل وتتظاهر بأنها مشغولة بأعمالها المعتادة، وإذا ما كانت من مرتبة أقل من مرتبته، فإنها قد تتحنى، عندما يكونان لوحدهما، وتقبل ركبته، إما إذا كانت من مستواه فإنها عليها أن تحييه وترحب به، دون أن تمد يدها، إيحاء بأنها مشغولة فى أعمالها.

المرأة هى التى توكل إليها مسألة الضيافة إلى حد كبير نظراً لأن الضيافة تعد من أسياسيات الحياة الحبشية، مفهوم هذه الضيافة يرجع إلى أيام ما قبل التاريخ، يوم أن كانت وسائل الحياة مشاعاً بين الجماعات التى تقاسمت العمل وثمار هذا العمل، قد يساء إلى هذه الضيافة بواسطة صغار المسئولين الفقراء، وقد لا تكون الضيافة على ما يرام إذا ما تعلقت بالأجانب، وذلك بدافع الرغبة فى الكسب، لكنى أرى أنها لا تُمْنَعُ عن الفقراء، سواء أكان هذا الفقير صديقاً أم غريباً، عندما يطلبها باسم السيدة مريم (العذراء). رئيس كل قرية من القرى هو المسئول عن الدرجو Dergo، وإن شئت فقل الضيافة الحكومية التى تقدم للرحالة، سواء أكانوا مواطنين أم أجانب، ومبلغ هذه الضيافة يقدر حسب منزلة من يتلقاها، لكن أنا أتصور أن مبلغ الضيافة هذا يتباين طبقاً لكرم الحى والصناعة التى تقوم بها نساء هذا الحى، وبخاصة أنهن يتعين عليهن إعداد الخبز الوطنى الحبشى، وهن اللاتى يقمن بتخمير مشروب التلا Tallaأو التدج، وهن اللاتى يقمن بخلط الصلصات والتوابل، وهن اللاتى يقمن بتقطيع الحطب، وجلب الماء (الذى يعد أهم الهدايا)، وهن اللاتى يبحثن عن البيض، وهن اللاتى يقمن فى حالة استضافة شخصية كبيرة بإعداد طعام مكون من اثنى عشر صنفاً مختلفاً، فى حين يقتصر عمل الرجال على اقتياد بعض الحيوانات وتوفير الحبوب والحشائش، هذه هى الضيافة العامة التى يجرى فرضها كنوع من أنواع الضرائب من قبل الحكومة المركزية، كما يجرى فرضها على المستوى الإقليمى من قبل الراس أو الدجيز ماتش.

تَعْهَدُ القرية بالضيافة الخاصة فى معظم الأحيان، إلى إداريين محددين يجرى اختيارهم من بين أكثر سكان القرية احتراماً، يشغل هؤلاء الإداريون هذا المنصب الشرفى فترات تتردد بين الأشهر والسنين، وهم يقومون على

أمر تنظيم تقديم الطعام وعلف الماشية طبقاً لإمكانيات كل أسرة من الأسر، وهم يوزعون الطعام، لا على الغرباء والرحالة وحدهم وإنما على كل فرد من أفراد المجتمع الذين يكونون بحاجة إلى مثل هذا الطعام، وعندما يقوم رئيس من الرؤساء أو شيخ من الشيوخ بزيارة الحى، يضطر ذلك المسئول عن الاحتفالات إلى توجيه نداء خاص إلى جميع المصادر المحلية للقيام بإطعام الخدم والجنود، لكن مهمة هذا المسئول الرئيسية تتمثل فى توفير الإعاشة فى حالات المرض، وفى حالات الولادة، وفى حالات المآتم أو الأحداث الأخرى التى تمنع الأسرة من القيام بأعمالها اليدوية.

يجرى التأكيد فى كل حادث من أحداث الحياة العائلية على الضيافة والتعاون فى القرية، وعلى سبيل المثال، إذا ما وُلد طفل، فإن الجيران لا يقومون فقط بتقديم الطعام بكل أنواعه طوال فترة نفاس الأم، وإنما يقومون أيضاً بالأعمال المنزلية التى يتقاسمونها فيما بينهم، كما يقومون أيضاً عن طيب خاطر بمهام القابلة والممرضة أيضاً، ويظهر هذا التعاون المنطقى بشكل أوضح عند الزواج، كل من تجرى دعوته لحضور حفل الزواج يتحتم عليه إرسال هدية مالية (نقوط) أو ذبيحة إلى والد العروسة، ويجب ألا تقل قيمة هذه الهدية عن دولار، لكنها فى أغلب الأحيان تكون عشرين أو ثلاثين دولاراً، ونظراً لأن مثل هذه الهدايا تشكل بائنة العروس عند زفافها أو تدعم هذه البائنة، فهى تسهِّل مشكلات والد العروس الذى يتعين عليه الحصول على أزواج لبناته العديدات، هذه البائنة تجعل الأب يبقى على أفضل علاقاته مع جيرانه، هذه الهدايا تقدم أيضاً فى المآتمِ حتى تتمكن الأسرة المنكوبة من إطعام العديد من المعزِّين، لكنها تعد شكلاً من أشكال القروض التى يتعين ردها بالمثل فى حالات الزواج أو الوفاة فى أسرة من سبق وقدم تلك الهدايا.

من الواضح أن دعوات كثيرة يمكن أن توجه إلى متلقى الهدية، وعلى سبيل المثال، إذا حصل المتلقى على ثور هدية زواج لولده الوحيد من صديق أعطاه الله أربع بنات، فإن المتلقى يتعين عليه رد ثور من الوزن نفسه فى زواج كل بنت من هؤلاء البنات الأربع، وإذا لم يقدم المدعو أو يرسل شيئاً أو هدية تناسب مقامه، وجب استدعاؤه أمام الرئيس المحلى وتغريمه مبلغاً قد يصل إلى اثنى عشر دولاراً.



واحد من الحضر

البجّار

حامل رمح

عندما يبلغ الزوجان سناً مناسبة يصبح من حقهما أخذ جزء من أرض الأسرة، تكفى مساحته لإعطاء منتوجات كافية لإعالتهما، هذه الأرض يجرى اختيارها بواسطة محكمين معينين من قبل الحى أو المنطقة، التى يكون من حق الزوج فيها قطع ما يكفى من الأخشاب لإقامة بيته، ويقوم الأصدقاء والأقارب بنقل هذه المادة إلى الموقع الذى سيبنى الزوج فيه البيت، أما العروس فتقوم بعون من أمهات القرية بتجهيز الطعام والشراب، وبلا أى تعويض عن العمل يتجمع الجيران كلهم لبناء المسكن فى يوم واحد؛ هذا المسكن سيكون أيضاً إسطبلاً وجرناً للأسرة الجديدة، وعليه فإن حياة القروى الحبشى منذ مولده إلى مماته، وفلاحته لأرضه، والتعاون الذى يتعين عليه المشاركة فيه من أجل الرفاة العام، تعد عملاً مجتمعياً مشتركاً مثل الكوخ الذى يتقاسمه ذلك القروى مع الماشية والدواجن، هذه البساطة الأبوية تحتم أن تكون هناك حياة عائلية مثالية، لكن جماعية أشكال الزواج، والطلاق، والمحظيات وكذلك العبودية كل ذلك هو الذى يفسد هذا النوع من الحياة.

ربما يكون الزواج فى الحبشة بمتابعة أبسط الارتباطات وأقلها قيوداً، أو قد يكون أكثر العقود الدينية والقانونية تعقيداً، تعد الارتباطات المشروعة بين الأحرار والعبيد أمراً مشيناً، وخاصة السيدة التى تتزوج عبداً، هذه السيدة، يجرى تجريدها من مكانتها لتكون من مكانة زوجها، فى بعض الأحيان قد تتزوج الإماء المحررات أو العبيد المحررون من رجال أحرار أو نساء حرائر، لكن ذلك يكون دوماً عرضة للرفض وعدم القبول، هناك بعض الحرفيين الذين لا يتزوجون من خارج طبقتهم الاجتماعية، ويرجع السبب فى ذلك، إلى الشكوك التى تدور حول هؤلاء البشر ومسألة تحضيرهم لأرواح الموتى أو القوى الشريرة الأخرى، يدخل ضمن هذه الفئة كل من بائعى المجوهرات والحدادين، وعازفى الكمنجات، وعازفى النايات والأعواد، وإذا ما تزوج أحد هؤلاء الحرفيين أو الموسيقيين من امرأة فلاحة أو امرأة تعمل بالتجارة، فإن أبناء هذه المرأة يوصفون بأنهم ورثوا التلوث الذى فى دم الأم.

الخطبة فى الحبشة لها أيضاً مهابة مثل الزواج تماماً، والخاطب عندما يوافق عليه والد العروسة يتحتم عليه إحضار ضامن واحد أو أكثر، يكون

مسئولاً من الناحية المالية عن ذلك الذى يمكن اعتباره تعاملاً دبلوماسياً أو تجارياً، الحبشة فيها أربعة أنواع من الزواج، الزواج الدينى، الذى يندر انتهاجه أو الموافقة عليه اللهم باستثناء القساوسة ورجال الدين، وقلة قليلة من العائلات الكبيرة، وهذا النوع من الزواج يستحيل فصمه إلا للأسباب الواردة عند فيثا نجاست :-Fetha Negast

١ - إذا ما وافق الزوج والزوجة على أن يصبح أحدهما أو كلاهما راهباً وراهبة.

٢- إذا كان أحدهما أو كلاهما غير قادر على إنجاب الأطفال.

٣- إذا ثبتت خيانة أى منهما؛ لكن يجب أن يكون جنوح الزوج على نحو يعد فضيحة.

٤- إذا ما حاول أحدهما إزهاق حياة الآخر.

٥- الصدع الموجود قبل الزواج والسابق إهماله من جانب الطرف الآخر.

٦- إذا ما أصيب أحدهما بالبرص أو داء الفيل.

٧- إذا ما اتهم أحدهما الآخر زيفاً وعلى الملأ بالخيانة.

٨- إذا ما حكم على أى منهما بالسجن لفترة طويلة.

من حيث التنفيذ وبناء على موافقة أبونا Abouna، وفى ظل تداول العديد من دولارات ماريا تريزا يصبح الطلاق من الزواج الدينى أمراً ممكناً، باستثناء القساوسة، المشكلة هنا تتمثل فيما إذا أبرموا عقوداً للزواج مع من هم أقل منزلة، والتى عادة ما تتم بواسطة أولياء الأمور أو الأوصياء، القانون الدينى يتطلب موافقة الطرفين، وعليه إذا كانت الزوجة قد تزوجت عندما كانت طفلة، يصبح بوسعها، فى حال حصولها على الأغلبية، طلب الطلاق إذا ما رغبت فى ذلك، وذلك من منطلق عدم مسئوليتها عن تصرفات الأوصياء، وهنا لا يكون أمام الزوج من بديل سوى أن يظل أعزب أو أن يخرج من الرهبنة(☆) Priesthood .

☆ حكوا لى فى اديس ابابا عن شكل من اشكال الزواج الدينى الملزم إلى الأبد، وذلك منعاً للأرمل والأرملة من الزواج مرة اخرى؛ لكن قساوسة دبرا ليبلنوس هم والسلطات الخاصة بالأعراف الحبشية، مثل كاسترو او بوليرو pollero، لا علم لهم بهذا الطقس.

فيثا نجاست صارم فى قيوده التى يفرضها على الزواج، المرأة التى تطلق بسبب الخيانة يمكن أن تتزوج من جديد إذا ما تابت عما فعلت، الزواج من سيدات يزيد عمر الواحدة منهن عن الستين أمر ممنوع، والأرملة لا يمكن أن تتزوج إلا بعد فترة حداد مقدارها عشرة أشهر على الزوج السابق، بوسع الأب إجبار ابنه الماجن أو ابنته الماجنة على الزواج، والفتاة الفاضلة التى تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً يصح لها أن تطالب بأن يكون لها زوج ويجرى إعطاؤها بائنة، الزواج الثانى أمر مرفوض، ويعد الزواج الثالث أمراً مشيناً، ومن يُقبل عليه لا ينضم إلى سر القربان المقدّس سوى ثلاث مرات فى العام، الرجل والمرأة يمكن أن يتزوجا بخطاب أو توكيل، لكن الزواج للمرة الثانية يجب أن يكون مصحوباً بصلاة لطلب العفو، والزواج للمرة الرابعة أمر مرفوض تماماً، بل وينظر إلى الأطفال الناجمين عنه على أنهم ليسوا أبناء شرعيين.

فيثا نجاست، معقد أيضاً فى المسائل الخاصة بالقانون، والمجتمع، والطب والدين، وهو يمنع الزواج من المصابين بالبرص، ومن الطواشى، والمجانين، والمصابين بداء الفيل، يجيز فيثا نجاست عدم زواج أقارب الدم إلى الجيل السابع، كما لا يجيز أيضاً زواج الوصى أو القاصر، أو الأخ بالرضاع والأخت بالرضاع، أو الأقارب الروحانيين الذين من قبيل كفيل المُعَمَّد، والغليون(☆)، كما يمنع أيضاً زواج كفيل المعمد من أخت الغليون أو أمه، سلف الارتباطات الروحية ممنوعين من الارتباط إلا بعد الجيل الثانى عشر(☆☆)، فيثا نجاست ينص أيضاً على أن أولياء أمور الطفل، هم وآباء العماد لا يجوز لهم أن يتعاشروا جنسياً فى ليلة تعميد الطفل.

إذا كان الزواج الدينى أمر نادراً وغير شعبى فى الحبشة- وربما كان ذلك ناتجاً من أن النساء يتذكرن حريتهن الضاربة فى القدم وأنهن لسن على استعداد لربط أنفسهن برجل واحد مدى الحياة، فإن القساوسة مدعوون إلى مباركة الزواج المدنى Bercha، الذى يعد أكثر أنواع الزواج شيوعاً بين

☆ الغليون، بفتح الغين وسكون اللام وضم الياء، هو ابن او ابنة فى العماد عند النصارى. (المترجم)

☆ يمكن لأبينا الترخيص بذلك بعد الجيل الثالث.

العائلات مختلفة المكانات، فى بعض الأحيان قد تتم الخطبة أمام القسيس وبإقرار منه، وفى مثل هذا الظرف يقوم الخطيبان بتبادل "الدبل" وأيديهما متشابكة فوق الصليب، يجب اختيار يوم إعلان الخطوبة، بعناية فائقة، وقد جرى العرف على استشارة أحد القبَّالة(☆) القدامى فى اختيار ذلك اليوم، وهنا يجب الأخذ بعين الاعتبار خصائص وإمكانيات كل يوم من أيام العام:-

اليوم الثانى من يناير

- لا تغادر بيتك، قد يحدث لك سوء.

اليوم الخامس من يناير

- احتفظ بروحك وجسدك فى حال طيب، هذا اليوم خطر.

اليوم السادس من يناير

- اذهب حيثما تشاء بلا خوف.

اليوم الحادى عشر من يناير

- لا تقم برحلة، سيهزمك أعداؤك.

اليوم الثالث عشر من يناير

- عيد الملائكة، صلّ، وسوف يعينونك.

اليوم السادس عشر من يناير

- أفضل الأيام، المريض سيشفى، إلخ.

اليوم السابع عشر من يناير

- لا تسر بالقرب من الماء، إلخ.

اليوم الواحد والعشرون من يناير

- افعل كل ما تريد.

اليوم السادس والعشرون من يناير

- كل واشرب مع أصدقائك، اليوم يوم صداقة.

☆ **القبّال: احد العارفين بالموروث المسيحى؛ والاصل فى هذه الكلمة هى الكلمة العبرية** Quabbalah **بمعنى - تقاليد او موروث. (المترجم)**

قلة قليلة من الناس هم الذين يلمـون إلمامـاً تامـاً بهـذه الرسـالة المملة، والقسـاوسـة غيـر راضين عنها، لكن كل من يستطيع تكرار هذا الأمـر بكامله سواء أكان علمانياً أم رجل دين، تتأكد أهليته ويتطلع إلى زيادة هذه الأهلية.

تعد الخِطْبَة ملزمة إذا ما أعلنت من قبل والد العروس أو وصيها، وفى حضـور أولياء أمـر العـريس وضـامنيـه، وعندمـا تؤكـد بالحلف باسم النيجوس(*) Negus. يقدم العريس فى الخطبة لخطيبته مبلغاً من المال وبعض الهدايا مثل: الملابس، والزِّينيَّات، والزيت، والعطر، والبخور. واعتباراً من تلك اللحظة يصبح الضامن لحل المشكلات فى الأسـرة المرتقبـة، هذا الضامن أصبح يتحمل مسئولية احترام حقوق العروس، وأنها ينبغى أن تُطعم وتُكسى وتسكن فى مسكن مناسب، وألا تُساء معاملتها، ومن هنا تجرى إحالة المنازعات الزوجيـة إلى ذلك الضـامن، الذى يتـصـرف تصـرف المرشـد والفيلسوف والصديق، كما يعمل أيضاً مؤكداً أيضاً على قدرة العريس على الوفاء بالديون كلها، وإذا ما انفصمت عرى هذا الزواج يقوم والد العروس بإجبار الضامن على دفع ثلاثة دولارات كل ثلاثة أيام إلى أن يقوم زوج ابنته بتـدبيـر الأمـور على النحـو الذى يـرتضيـه والد الزوجـة، وهنا يتـحـتم على العريس رد المبلغ الذى دفعه الضامن مضاعفاً جزاء له على سوء تصرفه.

تعد إقامة مأدبة الطعام إشارة إلى إقرار مراسم الخطبة، وبهذه المناسبة، وفى المناسبـات المماثلة التى تلى ذلك يطلب والد العـروس عدداً من الذبائح وجوالات الحبوب من أسرة العريس، لكن والد العروس يتعين عليه فى المقابل تقديم هديه نقدية يجرى خصمها من مبلغ البائنة (المهر) التى جرى الاتفاق عليها، قد تتبع مأدبة الطعام بالرقص فى بعض الأحيان، لكن الرجال والنساء فى جانبين مختلفين من الحوش، ولا يلامسون بعضهم بعضاً أثناء الرقص، فى البداية يروح الرجل يدور حول شريكته فى الرقصة فى حين تبقى هى مثل قمة من القمم، ثم يقومان بعد ذلك باتخاذ وضعين متضادين يحدثان خلالهما تموجات تتحول إلى الوضع الحلزونى باستثناء سمك الثياب وتعددها ينتهى ذلك التكرار الممل بنوع من العنف المنضـبط الذى يعـد أثراً من آثار الحروب.

---

* النيجوس: شراب حلو من النبيذ والماء الساخن وجوز الطيب وعصير الليمون. (المترجم)

يجرى الإعلان عن الزواج المدنى على مأدبة الغداء التى يتناول الرجال والنساء الطعام فيها فى مكانين مختلفين، يحدث المزيد من الرقص، ويطلق الكثير من الأعيرة النارية، فى حين يقوم أحد الأشخاص المسئولين بإعداد قائمة بالهدايا التى يحضرها الضيوف، بعد ذلك، يجرى لف العروس بعباءة، مظلِّة (شملة) Chamma وقناع من قماش الموسلين بحيث لا يظهر منها شئ، ثم تُقتاد بعد ذلك إلى حوش الرجال ويجرى إجلاسها على مقعد، فى الوقت الذى يروح فيه والدها يعد المهر نقداً أو برءوس الماشية، كما يعدِّد والد العروس أيضاً الأشياء الواردة فى قائمة الأدوات المنزلية التى يهديها والدها إليها، ثم يسألها والدها بعد ذلك إن كان حماها يوافق على قبول هذا المهر، وبعد أن يحصل الأب على رد إيجابى من ابنته يصبح بوسعه، إن هو أراد ذلك، طلب ضامن جديد، وما لم يتم الاتفاق على غير ذلك مسبقاً وأمام الشهود فى تلك اللحظة من لحظات الزواج، تصبح ممتلكات العروسين مشتركة فيما بينهما، وعند الطلاق يجرى تقسيم هذه الممتلكات بينهما بالتساوى عن طريق ثلاثة محكمين فى وجود الضامنين وأعضاء الأسرتين، تصل مسألة المساواة إلى حد التصلب، إلى حد أن السجاجيد يجرى قطعها إلى نصفين والقماش الخام، وكذلك الملابس يجرى أيضاً تقطيعها إلى نصفين، وإذا ما كانت هناك غلاية واحدة، فقد يجد الزوج نفسه حاصلاً على الغلاية فى حين يكون غطاء الغلاية من نصيب الزوجة!

فى بعض الأحيان، قد يأخذ الزوج زوجته بعد الزواج، ويذهبان لزيارة أهلها حتى يروا أنها لا تساء معاملتها.

فى الحبشة شكل ثالث من أشكال الزواج، لا هو بالزواج الدينى ولا بالزواج المدنى، وإنما هو نوع من الزواج المشروط؛ وهذا الشكل من الزواج يشيع بين الأسر التى تود أن يكون لها وريث، دون أن تتكبد نفقات الزواج بصورة متكررة، هذا الزواج التجريبى لا يدوم عادة أكثر من عامين دون أن يصبح شيئاً عادياً عن طريق الاحتفال المدنى Bercha، لكن الإقرار بهذا الزواج والاعتراف به يتم فى أضيق الحدود الممكنة.

الشكل الرابع من الزواج هو ما يسميه الأحباش زواج الدُّموز Dumoz، الذى هو نوع مقنن من المحظيات. هذا الزواج يتم لفترة غير محددة وبشروط

محددة، ويجرى الاحتفال بهذا النوع من الزواج مثل الزواج المدنى، و"الزوج" فى هذا النوع من الزواج يوافق أمام الشهود على العيش أميناً ومخلصاً ومتحداً مع المرأة التى اختارها، وأن يطعمها ويكسوها وأن يعطيها مبلغاً كل شهر أو كل عام، ويكون الضامن مسئولاً عن الوفاء ببنود ذلك الاتفاق، وغالباً ما يقوم قس من القساوسة بمباركة هذا الزواج المؤقت، فى بعض الأحيان، قد يتحول زواج الدُّموز إلى زواج مدنى Bercha وذلك عندما يكبر العاشقان وتربط بينهما المصالح الإنسانية أو المالية، على شكل أطفال أو بناء على تجميع المبلغ الناجم عن الزواج المؤقت.

هناك فئة أخرى من النساء الحبشيات المحترمات يطلق عليهن اسم "محظيات الرؤساء والشخصيات المهمة" Sabaiti Nassen، اللاتى يعشن فى منازل طيبة ويحصلن على أجور طيبة، ويتمتعن باحترام كبير مثل الزوجات القانونيات، أو شريكات الحياة من بين الفقيرات المعدمات اللاتى ليس لديهن شىء يشاركن به فى المال المشترك، ولذلك فهن يعشن مقدرات ومحترمات مع عشاقهن إلى أن يدفعهن تغير حظوظهن إلى الزواج المدنى أو الارتماء فى أحضان رجل آخر، أما المومسات فهن من طائفة مختلفة، لكنهن يحظين باحترام كبير فى الحبشة- التى اعتادت على مر العصور على الحرية أو انعدام الحرية الأخلاقية لنسائها- دونا عن سائر البلدان الأخرى، والمومسات الحبشيات، بعد أن يكسبن بائنات كبيرة، يتزوجن فى معظم الأحيان، ويعشن عيشة شريفة ولا يتركن أية شائبة على صفحات أطفالهن، مشاع الملكية لا يعترف به إلا فى الزواج الدينى والزواج المدنى فقط.

سبق أن أتينا على ذكر الأسباب الداعية إلى الطلاق الدينى، أما فيما يتعلق بالطلاق فى الزواج المدنى، فإن الأسباب قد تكون متسمة بالطيش والرعونة، وقد تكون مجرد نزوة من جانب المرأة، أو قد تكون مجرد التغاضى عن القيام ببعض الواجبات المنزلية، أو قد تكون الأسباب متعلقة بإهمال الزوجة لحماها، أو قد ترجع إلى رفض الزوج تقديم هدية لزوجته، أو ميلاد طفل ميت، الأمر الذى يجلب الشؤم للعشيرة كلها، قد تتغير سياسة الأسرة، وبذلك يكون من الأجدى التحول إلى اتجاه آخر، قد يكون السبب أيضاً راجعاً إلى نشوء نوع من الصراع الدموى، ونظراً لأن الزواج

أمر ليس من شأن العريس والعروس، باعتباره عقداً بين والديهما، فإن هذين الاثنين هما اللذان يرتبان عملية الطلاق، إذا ما انفصل زوج وزوجه، يكون من حق كل منهما، عند الطلاق أن يمنع الطرف الآخر من الزواج من شخص آخر يجرى تحديد اسمه أمام الشهود، إذا ما رغب رجل فى الطلاق، فما عليه سوى أن يرسل زوجته إلى منزل والدها ويطلب منه تحديد يوم لتقسيم المقتنيات والممتلكات، إذا كانت المرأة أو عائلتها هما اللتان ترغبان فى الطلاق، فإن الزوجة تعود إلى منزل والدها بعذر كاذب، ويقوم الوالد بإجبار الضامن على دفع تعويض يومى إلى أن يقوم صهره بتحديد يوم لتقسيم المقتنيات، الذى يجب أن يتم فى حضور ثلاثة محكمين، فى معظم الأحيان، تعود الزوجة، طوال فترة التعليق هذه، إلى بيت زوجها لتطبخ له، والعمل على راحته بشكل عام! وإذا ما طلقت المرأة لسبب غير خطير، أو إذا ما رغبت أرملة عن الزواج، يكون من حقها الإعاشة على حساب زوجها السابق أو أسرته، وتتمثل هذه الإعاشة فى إعطاء هذه الأرملة قطعة من الأرض تزرعها وتعيش منها.

تنص تعاليم فيثا نجاست على بلوغ الرجل سن العشرين والبنت سن الثانية عشرة قبل أن يتزوجا، لكن هذا الشرط لا يطبق إلا فى الزواج الدينى، الذى يعد أمراً جد نادر إلى حد أن الإمبراطورة نفسها تزوجت أربع مرات، ولها ما لا يقل عن زوجين لا يزالان باقيين على قيد الحياة، وقد لجأت إلى الكنيسة فى المرة الأخيرة فقط عندما تزوجت راس جوكسا Ras Gooksa. الزواج المدنى لا يرتبط بسن معينة، لكن الأبناء لا يتزوجون إلا عندما يبلغون سن السابعة، العمل الذى يكون من هذا القبيل يتم بالاتفاق الودى بين الوالدين اللذين تقوم الزوجة بتقسيم وقتها بين كوخيهما، حتى تتمكن من معرفة عريسها دون أن تنسى أسرتها، عندما تبلغ البنت سن الثانية عشرة تذهب للعيش مع زوجها، الذى يبقى فى منزل والده طالما أنه لا يزال قاصراً، ويقوم والده بإدارة البائنة إلى أن يصبح للزوجين بيتهما الخاص، وطالما أن العروسين طفلان ومن سن واحدة ويتزوجان بهذه الطريقة، فإن العادات تعمل عملها لصالحهما، لأن العروسين إذا ما ربيا جنباً إلى جنب، فإن ذلك يتيح لهما فرصة الاهتمام والاعتناء ببعضهما البعض، ولن تكون هناك مبررات

للإصابة بعدوى ارتباطات النضج المبكر غير العادية التى تسهل فى ظل الإهمال الحياتى وعدم المراقبة، وقضاء اليوم بطوله فى الحقول والغابات.

على كل حال، فإن الرجال الذين فى منتصف العمر، يتخذون لأنفسهم، فى كثير من الأحيان، زوجات صغيرات، أو قد يتزوج الأولاد نساء عمر الواحدة منهن يفوق عمر الصبى مرتين أو ثلاث مرات، هناك بنات تتراوح أعمارهن بين اثنى عشر وخمسة عشر عاماً تزوجن زواجاً قانونياً مرات عدة بسبب مشاحنات وطموحات أولياء أمورهن، هذا يعنى أن هؤلاء البنات ربما يكن قد ولدن أطفالاً مليصين(☆) وإن شئت فقل ميتين، وربما كان سبب ذلك هو ضعف بنية هؤلاء البنات، وربما كان السبب أيضاً الارتفاع الكبير للمناطق التى يعشن فيها، وربما كان سوء التغذية سبباً آخر من أسباب هذه المشكلة، التى تصيب سكان الجبال، هذا الإجهاض يهد قوى هؤلاء الزوجات، ومع ذلك يتعين عليهن إنفاق ما تبقى لهن من قوة فى العمل فى المزارع أو الغابات كى يَعُلْنَ هؤلاء الأطفال، يزاد على ذلك أن معدل المواليد فى الحبشة ليس مرتفعاً، وربما كان ذلك راجعاً إلى العمل البدنى الذى تقوم به النساء، تعد الأسرة المكونة من ثلاثة إلى أربعة أفراد شيئاً نادراً فى هذه البلاد؛ معدل وفيات الأطفال مرتفع جداً، والأمراض الوراثية المريعة واسعة الانتشار هنا.

الختان هنا يجرى للذكور وللنساء أيضاً، وربما كان السبب فى ذلك الحد من الرغبة الجنسية التى لا تناسب الحياة الشاقة التى تحياها هؤلاء الفلاحات، قامت الكنيسة فى فترة لاحقة بإلغاء مسألة ختان البنات، لكن التشوه الخلقى الذى لدى الحبشيات، والذى دفع الرجال للبحث عن زوجات من خارج البلاد، جرى رفع حظر ختان الإناث، على الرغم من أن عملية الختان هذه، تجرى فى بعض الأماكن بطريقة بدائية وغير متحضرة وبواسطة أعضاء من الأسرة المحلية، يقال إنهم أخصائيون فى هذه العملية بحكم الوراثة، فإنها تعد احتفالاً يدعى إليه الأصدقاء والقساوسة، وبعد إجراء العملية هذه يُتْرك الطفل للطبيعة، اللهم إلا إذا أوحى صراخه بحتمية وضع مقئ على الجرح مضافاً إليه الفلفل الأحمر!

تُخلع أسنان الطفل اللبنية فى بعض الأحيان لتقوية الأسنان الأساسية،

☆ المليص: الطفل الذى يولد ميتا. (المترجم)

ويبدأ تعليم الطفل اعتباراً من سن القبَّالة(★)، أى عندما يكون عمره أربع سنوات وأربعة أيام، هذا التعليم ليس كثيراً، لأن الحبشى العادى لا يعرف سوى نسب أسرته ومجرد أجزاء صغيرة من الكتب المقدسة، والحبشى يستخدم كاتباً بالأجر ليقوم بعملية الكتابة التى يحتقرها الحبشى ويستخدم بدلاً منها ختماً عليه اسمه، أو قد يستعمل بصمة إبهامه، على سبيل التوقيع، بلوغ الشاب سن الحُلم، وما يترتب على ذلك من حصوله على حقوقه المدنية يعد من المناسبات الاحتفائية التى يجرى خلالها مساندته ودعمه من قبل أربعة من رفاقه الأكبر منه سناً، حيث يقومون بحمايته من عين الحسود ويعملون على تلبية احتياجاته، يرتدى الشاب بعد ذلك مظلته (شملته) Chamma بصفته رجلاً، وتكون الشملة (المظلة) بلا فتحة من الجنب مثل العباءة، وإذا ما كانت أسرة الشاب ثرية، فإنه يشترى غطاء رأس عالياً مصنوعاً من القماش أو الحرير حسب منزلته الاجتماعية.

كانت القوانين المتفق عليها فى الحبشة القديمة شديدة الصرامة، ولم يكن أحد يحمل المظلة أو الشمسية سوى الكبار، أما الآن، فإن المظلات الصغيرة المصنوعة من العشب والشبيهة بالباغوا(★★) أو المسطحة مثل المظلة اليابانية، يمكن شراء الواحدة منها بنصف دولار من أسواق المدن، ولذلك فهى تشيع على حد سواء بين الفلاحين (العبيد) والمواطنين، أما المظلة الأوروبية فلا تزال مقصورة على النبلاء والقساوسة، وبخاصة فى الجزء الشمالى من الحبشة، اللون الأحمر هو لون الحكام، وفى وقت من الأوقات كانت الشملة (المظلة) ذات الخطوط الحمراء محرمة على عامة الشعب. هذا التقليد جرى التنحى عنه، مثلما حدث للمظلة من قبل، لكن الأميرات هن اللاتى يلبسن بناطيل قرمزية اللون، كما أن الإمبراطور وحده أو كبار القساوسة هم الذين يحملون مظلات خفيفة من اللون الملكى ولها حواف مذهبة، السيدات العظيمات يميزن بالتطريز الذى يكون حول عنق وأكمام "قمصانهن"، التى تكون أطول من قمصان الرجال وضيقة الأكمام؛ ويعرفن أيضاً بحليهن

★ القبَّالة: يصح فيه ايضاً – القَبَلة – اى بفتح القاف والباء، وهو تعليم نقلى تصوفى عند اليهود. (المترجم)

★★ معبد بوذى مكون من عدة طوابق. (المترجم)

الذهبية، وأغطية رءوسهن المصنوعة من الحرير الأسود، ولها أطراف وحواف من الذهب، كما يُعْرفن أيضاً بسراويلهن كثيفة التطريز، والتى لا يظهر منها، أثناء سفرهن، سوى شئ بسيط جداً من تحت غطاء خارجى شامل من الصوف الأسود، ومن فوقه تلافيح، وقبعة من اللباد، الحرير والمطرزات أشياء محرمة على عامة الشعب، بغض النظر عن الثراء، وهناك بعض المقاود وأقمشة السُّرج والمعدات ممنوعة أيضاً على عامة الشعب، وعليه هناك رغبة عامة، فى التباهى بالعلاقة بالأسر الكبيرة، بغض النظر عن بعد مثل هذه العلاقة أو القرابة.

الأنساب لها أهمية قصوى بين الحبشيين، لا من منطلق التفاخر والمباهاة الشخصية، وإنما لأنها دليل ملكية الأرض، وعلى القرابة، والنزاعات الدموية، واحتمالية المرض الوراثى، مسائل النسب هذه لها أهميتها فى الخطبة، نظراً لحظر الزواج من الأقارب البعيدين، سواء أكانت قرابة عن طريق الدم أم نوعاً من القرابة الروحية، القانون، بطبيعة الحال، لا يلقى بالاً لهذه القواعد الدينية، لكن يندر تكسيرها، نظراً لأن المذنب أو الآثم يجرى حرمانه من الكنيسة على الفور، والنتائج المادية التى تترتب على هذا الحرمان يمكن أن تكون خطيرة مثل الفضيحة تماماً، لأن الزوجين سيجرى استبعادهما من كومنولث القرية ولن يقيم معهم أحد من المؤمنين أية علاقات سواء أكانت شخصية أم تجارية.

مسألة هجر أب الاعتراف، الذى يتقاسمه أو يشارك فيه كل من الزوج والزوجة، يمكن أن تكون كارثة على أية عائلة أو أسرة من الأسر، نظراً لأن أب الاعتراف يكون معنياً بطريقة لا انفصام لها، وبآمال هذه الأسرة، ومخاوفها، وخرافاتها، ومشاحناتها ومصالحاتها، ورفاهها وبلائها.

إذا ما اكتشف زوج وزوجة قرابة بعيدة، ومن ثم غير معروفة، فذلك يعنى أن ارتباطهما أصبح مفكوكاً، لكن ذلك الفك لا يؤثر على الأطفال، الذين ستكون لهم الحقوق نفسها سواء أكانوا شرعيين أم غير شرعيين. وسواء ولد هؤلاء الأبناء من أمة أو أميرة فإنهم متساوون فى الميراث، اللهم باستثناء مناطق التجرى Tigré، التى للقساوسة عليها سلطان كبير، وعليه فإن الأفضلية تكون للأطفال الناتجين عن الزواج الدينى.

العبودية الداخلية فى الحبشة مختلفة بطبيعة الحال عن المفهوم العام لهذه الكلمة، فى الزمن الماضى، كان القانون الحبشى يقر شراء العبيد من الجيران الوثنيين أو عن طريق أسرهم فى الحروب، لكن القانون كان ينص على أن أيٍ حبشى يحصل على خادم بهذه الطريقة، يتحتم عليه تعليمه إن كان رجلاً، أو تعليمها إن كانت امرأة، تعليماً دينياً، ثم تعميده أو تعميدها خلال أربعين يوماً، وما إن يصبح العبد مسيحياً لا يمكن بيعه من الناحية القانونية، ومن الناحية النظرية، يصبح مثل هذا العبد أو الأمَة واحداً من أفراد الأسرة، كما يصبح مُقْتَنى ثميناً تصعب إساءة معاملته، لكن الواقع أن القانون القديم كان يغمز ويلمز إلى تجارة الرقيق وأسواق العبيد، وقد بدأ منليك Menelike إصلاح مسألة الإتجار فى العبيد هذه، وقد أصبحت، فى هذه الأيام، مسألة الحصول على عبيد جدد حتى عن طريق أكثر الطرق سريةً وكلفة، أمراً بالغ الصعوبة إلى حد أن رؤساء الشمال بدءوا يربون هؤلاء العبيد فى منازلهم من آباء عبيد.

من حق كل عبد التقدم باستئناف للمحكمة، وتقديمه دليلاً على سوء معاملته يعطيه الحق فى تحريره على الفور، جرى العرف على أن يقدم الرجل بائنات لإمائه أو البنات الإماء اللاتى أعتقهن، لكن الإماء يمكن الزواج منهن بموافقة سيدهن، وعادة ما يتزوجن فقط أتباع الأسرة نفسها، نظراً لأن الأبناء الذين ينتجون عن هذا الارتباط يعدون من ممتلكات السيد وجزءاً من الميراث الذى يتركه لورثته، جرت العادة على أنٍ يعتق مالك الأرض أو التاجر، عند وفاته، أحب عبيده إليه سواء أكانوا رجالاً أم نساءً، وأن يترك لهم بعض الممتلكات، والحيوانات، والنقود أو البضائع، لكنه لا يعطيهم الأرض مطلقاً، نظراً لأنها تعد شيئاً مقدساً عند العائلة، وتأسيساً على هذا العرف، فإن قلة قليلة من العبيد هم الذين يرحبون بفكرة العتق على الفور، نظراً لأن حياة هؤلاء العبيد تصبح أمراً لا يطاق فى ظل عدم وجود النقود، والحقول، والبضائع، وفى ظل عدم وجود العمل اليدوى فى البلاد وفى المنظومة الجماعية.

أدى الأمر الملكى الصادر عن راس تفارى، والقاضى بعتق العبيد كلهم عند وفاة أسيادهم، إلى زيادة مشكلات الشرطة فى أديس أبابا، وسبب ذلك أن

عدداً كبيراً من العبيد يجرى عتقهم كل عام وهم أناس جهلة بلا مؤنة، لا يجدون أمامهم مستقبلاً سوى العمل باللصوصية والسرقة.

من الصعب الوقوف على الطرق التى يسلكها الشماليون المتغطرسون فى تحاشيهم الالتزام بذلك القانون، لكن الأرجح، فى معظم الحالات، أن الجهود المبذولة فى ذلك الاتجاه سوف يتعين دعمها بواسطة العبيد، الذين يتمتع السواد الأعظم منهم بعقلية الطفل أو الحيوان الطيب الأليف، ليس هناك فرق بين العبد والخادم. عمل العبيد، وطعامهم وملبسهم واحد، وفى الأسر المتواضعة تكون هذه الأشياء الثلاثة هى أشياء سيدهم نفسها.

مصير الأمَة معقد بسبب مسألة التَّسرى(*) الأمَة التى تنجب طفلاً لسيدها، تعتق على الفور، وعندما يموت رب البيت، فإن العرف يقضى بإعطاء محظياته الحق فى أن يطلبن العتق إذا ما أردن ذلك، جرت العادة أيضاً أن الفتاة الأمَة التى عاشت مع مالكها، تحصل على امتيازات الابنة، هذا يعنى أنها لا يمكن أن تُباع، أو يجرى التصرف فيها، ولا تتزوج بدون موافقة منها، وكان من حقها الحصول على إعاشة من سيدها ومن ورثته أيضاً.

حقوق العبيد فى الشريعة الإسلامية محفوظة تماماً مثل حقوق النساء والأطفال، لكن الأسرة فى الحبشة تبلغ من الأبوية حداً يستطيع معه ربُّها حرمان من يشاء من أطفاله من الميراث، على الرغم من أنه لا يستطيع إعطاء الأرض لأناس ليسوا من سلالته، إذا ما توفى رب الأسرة وترك عقارات، فإن الأطفال المولودين من إماء، يرثون بنص القانون المعمول به فى شُوَا Shoa، مثل الأطفال الأحرار، لكن الأمر يتطلب وجود ثلاثة شهود للإقرار بأبوة المتوفى للأطفال المولودين من إماء.

اللاشرعية الفاعلة لا وجود لها فى الحبشة، لا لأن القانون التقليدى يعتد بكلمة العبد المضمونة وحسب، وإنما لأن القانون يقبل بلا قيد أو شرط ما تقوله أية امرأة حرة، أو زوجة، أو محظية، أو حتى البغى. والمرأة عندما تؤدى اليمين تستطيع بعده أن تنسب أبوة أطفالها لأى رجل من الرجال، وهنا يتحتم على هذا الرجل أن يعول هؤلاء الأطفال، لكن إذا ثبت حنثها باليمين لمرة واحدة يصبح كلامها غير ذى قيمة.

(*) التَّسرى: اتخاذ المحظيات، المعاشرة بدون زواج. (المترجم)

يحق لأبناء العبد والأمَة طلب الإعاشة على حساب سيد والدهم ووالدتهم، لكن ليس من حقهم الحصول على أى شكل من أشكال الممتلكات، والسيد، حسب مكانته فى الحياة، وسواء أكان زوجاً أم أباً يكون مسئولاً عن إعالة الأسرة، بل إنه فى حال أسوأ ارتباط غير نظامى أو مؤقت، يتعين عليه إمداد الأم والطفل بالطعام إلى أن يصبح عمر الطفل ثلاثة أعوام، والأعراف السائدة هى التى تحدد مقدار الطعام الذى تستحقه الزوجة أو العشيقة، ويتضاعف هذا المقدار إذا كانت المرأة زوجة أو عشيقة لرئيس من الرؤساء. المرأة بحق لها أيضاً أن تطلب من زوجها أو عشيقها، عندما تضع حملها أو تعمد طفلها هدايا محددة مثل العطر، والزيت، والملابس، بعض الأطعمة التى من قبيل الدهون، والتوابل والمشروبات الروحية.

فى الطلاق: فإن الأطفال الناتجين عن الزواج سواء أكان دينياً أم مدنياً، شأنهم شأن الممتلكات المنزلية الأخرى، يجرى اقتسامهم بين الزوج والزوجة، ويصبح كل منهما مسئولاً عن قسمه من الأسرة، وإذا ما كان هناك رقم لا يقبل القسمة على اثنين يجرى إعطاء الطفل إلى الأم، لكن الأب يتعين عليه التكفل بتغذيته شهرياً بالتبادل مع الأم، وعندما يحين موعد زواج البنات يشارك الاثنان فى ذلك الزواج حسب استطاعتهما.

هناك أيضاً مسألة الميراث، حقوق المرأة، إذا ما كانت عزباء، فى الميراث محدودة بالإعاشة وبائنة تكفى لضمان أن يكون لها زوج، اللهم إلا إذا كانت هى الممثل الوحيد للأسرة، مع ذلك، قد يفضل الورثة فى بعض الأحيان تقسيم ثروة الأب من المواشى والبضاعة مع أخواتهن غير المتزوجات، بدلاً من تحميل أنفسهم بمسئوليات البائنات الثقيلة، وهذا لا ينطبق مطلقاً على الأرض أو العقارات، التى تعد ملكية خاصة للذكر وحده، قد تكون الأرض منحة من التاج (الذى ينتمون إليه جميعاً) إلى كبار الرؤساء إلى الأزل، وإلى الحكام، أو قد تكون منحة للضباط، وأفراد البلاط، بل وحتى السيدات العظيمات، لفترات قد تطول أو تقصر، لكن فى ظل تغير هؤلاء اللوردات الإقطاعيين، يبقى الفلاح (العبد) فى أرضه طالما كان منتظماً فى سداد الضرائب الثلاثة، ضريبة الحبوب، وضريبة الماشية، ونسبة من عمله الأسبوعى، وحصة الضيافة الحكومية، وإن شئت فقل الضيافة العامة، هذا

يعنى أن الأرض التى كان يزرعها ذلك الفلاح، كانت بمثابة الوسيلة الوحيدة التى يتعيش منها ذلك الفلاح هو وتابعوه من سلالته العرقية، من هنا يدرك أن استفادته من هذه الأرض مرهونة بحياته وأنه يتحتم عليه نقل هذه الأرض بلا مساس بها، مسألة إعطاء امرأة حق الميراث فى هذه الأرض، تعنى نقل الملكية إلى غير بنى عرقه، وتعنى أيضاً تهديد وجود الأجيال المستقبلية. طبقاً للموروث فإن الأرض يتعين أن تكون مستعدة دوماً لتوفير احتياجات الأسرة كلها، هذه الأرض يجرى التحكم فيها أو إدارتها بواسطة رب الأسرة، لكنها فى الأصل ملك للسلالة العرقية، هم (الفلاحون) يقتلعون من الأرض العيش الشاق، والغذاء الاحتياطى، اللذان إذا ما أضيفا إلى الطول الخالى من الحياة، وأيام الصوم، والقذارة، وقسوة المناخ، والأمراض الوراثية، نجد أن ذلك كله يقلل من قوتهم البدنية والعضلية.

هذا النوع من جماعية الأرض الأسرية، يعد وسيلة من وسائل حياة كل الذكور الراغبين فى العمل، وسبب ذلك أن البلاد مخلخلة السكان قياساً على حجمها، وهذا يعنى أيضاً أن الأرض متوفرة، وأن كل سلالة من السلالات السكانية لها منطقتها المعترف بها، ومن سوء الطالع أن هذه الجماعية تحد من الإنتاج، نظراً لأن كل أسرة تعول نفسها بنفسها، وتعد وحدة مكتفية بذاتها، وعائلة لنفسها أيضاً، وإنها تعمل بجد لمجرد الوفاء باحتياجاتها، هذا يعنى أن الأسرة لا تنتج شيئاً أكثر من احتياجاتها، اللهم، ربما كان ذلك إنتاج شئ قليل من الحبوب لمقايضتها بأشياء أخرى فى الأسواق البعيدة، علاوة على أن الأسرة لا تفعل شيئاً من أجل تحسين الأرض، نظراً لأنها لن تستطيع الإفادة من ثمار ذلك العمل الإضافى، الحبشى قليل التبصر بطبيعته، ولو قدر للغابة التى على أرضه ألا تكون ملكاً لأسرته مثل الأرض نفسها، لقام ذلك الحبشى بقطع الأشجار كلها وترك وارثيه بلا أية إمكانيات لبناء كوخ أو شب النار.

هناك فى الحبشة بعض الأقاليم الوقود المتيسر فيها هو روث الحيوانات، وفى تلك الأحياء، نجد أن النساء هن اللاتى يقمن بجمع ذلك الروث، وتجفيفه فى الشمس، ثم يقمن بطحنه وقولبته على شكل أقراص منبسطة، وهن اللاتى يبقين على اشتعال نار بسيطة طول الوقت، وجدنا فى قرية من

القرى التى مررنا عليها ناراً واحدة جماعية، وكانت كل امرأة من النساء تقوم حسب الدور بالمحافظة على اشتعال هذه النار عدة ساعات، حتى يمكن أن تكون النار فى خدمة الجماعة التى ليس لديها كبريت أو عدسة مُجَمِّعة.

إذا كانت المرأة الحبشية ليس لها حق الميراث فى الأرض العائلية، فهى بحكم كونها عزباء، أو زوجة، تعيش فى منزل والدها أو فى منزل الزوج، يكون من حقها الحصول على جزء صغير من هذه الأرض تقوم هى بزراعته بنفسها حتى تتمكن من توفير النقود المطلوبة لتصفيف شعرها! البنت الصغيرة تضفر أطراف شعرها، وتلف هذه الضفائر حول صدغيها، وتترك الجزء العلوى من شعرها منكوشاً، وعلى مر الأعوام يتسع ويكبر إكليل الضفائر إلى أن تتبقى دائرة صغيرة من الزغب فى منتصف الرأس والتى تختفى مع الزواج أو عند بلوغ سن الرشد، المرأة الكبيرة تصفف شعرها على شكل جدائل رفيعة لا تحصى ولا تعد تمتد من جبهتها إلى قفا الرقبة، وكلما زادت مهارة البلاّنة (الماشطة) زاد أيضاً ظهور جلد فروة الرأس الذى بين هذه الجدائل، وفى ضوء جودة أو عدم جودة الحصاد، وإذا ما كانت عملت أم لم تعمل بجد فى قطعة الأرض المخصصة لها، تستطيع هذه الفلاحة جلب ماشطة أو ماشطتين كل شهر، تصفيف الشعر بهذه الطريقة يستغرق يوماً كاملاً، يبدأ من الفجر وينتهى عند غروب الشمس، حتى تتمكن الماشطة من إنجاز تسريحة رائعة على أحدث موضة، وتكون الجدائل فيها رفيعة على نحو تبدو معه مثل حبل رفيع جرى تشبيكه عبر الرأس، الأمر الذى يؤدى إلى احتقان الجمجمة، على نحو يسبب الألم بمجرد لمسها، إلى أن يبدأ نمو الشعر فى تقليل التوتر الواقع على كل شعرة على حدة، الفنانة التى تقوم بهذه المعجزة فى شعر صوفى مفلفل، وفى ظل حالة من القذارة الشديدة، تحصل على دولار واحد نظير كل تصفيفة؛ ويتعين على من يجرى تصفيف شعرها النوم على مسند عنق مصنوع من الخشب إلى أن تصبح قادرة على تحمل وضع مخدة من الجلد الجاف على بشرتها المشدودة، يختلف حجم هذه الجدائل حسب ذوق أو ثراء من يجرى تصفيف شعرها، لكن الحقل هو الذى يوفر الوسائل اللازمة لهذه الجدائل أو تلك. فى بعض الأحيان قد يجرى نقل "أرض التمشيط" هذه من الأم إلى الابنة، على سبيل الهدية، والرؤساء يكافئون خليلاتهم دوماً "بأرض التمشيط" هذه.

من المفترض أن تقوم المرأة الحبشية، فى وقت الحداد، بنزع ضفائر شعرها الجميلة من جذورها، لكنى أرى فى هذه الأيام، بين الحين والآخر، أن من بين المحزونات المجنونات اللاتى تنزف الدماء من رءوسهن، من تستعمل سكيناً أو قطعة من الزجاج أو موسى لتكمل به ذلك الذى بدأته بيديها، الملابس الوسخة تعد أيضاً علامة من علامات الحداد، يزاد على ذلك أن المرأة أو الأم المحزونة تتبع نعش المتوفى وهى تجلد نفسها بشدة بحبل إلى أن ينزف الدم من صدرها أو صدغيها.

الناس كلهم فى الحبشة يعرفون أن الزوج هو قاضى الزوجة الأول، وعليه لا يمكن لأحد مقاضاتها قانونياً إلا بعد الرجوع إلى زوجها، الذى يكون لديه خيار الدفاع عنها علانية أمام المحكمة، وهو بمقتضى هذا الحق يتحمل المسئولية المالية كلها، أو إذا ما وجد أنها مذنبة فإن يتعين عليه دفع تعويض عن قصورها، هذا القصور يتمثل دوماً فى أمور كلامية مثل الحنث باليمن، التعريض بالغير، البلاغ الكاذب، أو القدح فى سمعة الغير، يندر تماماً فى الحبشة أن ترتكب المرأة جرماً خطيراً، نظراً لأن الصراعات الدموية التى تبرر القتل بمختلف صوره، تقتصر على الرجال وحدهم، إضافة إلى أن جرائم الغضب والغيظ يصعب وجودها فى مجتمع مرخص فيه بالعنف إلى مثل هذا الحد، قد تقع المرأة فى مسألة الدَّين أو السرقة، لكن ليست هناك مقاضاة رسمية فى الحبشة، ولذلك يصبح بوسع الزوج، حجب الإعلان عن هذه الجرائم، إذا ما أراد ذلك، باستخدام دولارات ماريا تريزا القوية، تُعَاقَبُ المرأة على خيانتها بالطلاق وخسارتها لبائنتها كلها، أما الرجل فيعاقب، فى أغلب الأحيان، بدفع غرامة يكون الضامن مسئولاً عن الوفاء بها، وإذا ما قام الزوج بضرب زوجته، فإن الضامن يتعين عليه دفع الغرامة المطلوبة، وهنا يحدث تعارض بين حقين معترف بهما، فالرجل مسموح له بمعاقبة زوجته، والمرأة من حقها طلب تعويض عن الضرر، وعليه نجد الرجل فى الأسر حادة الطبع سريعة الغضب، يواصل الضرب فى حين تواصل المرأة تكديس المال.

جرائم العنف التى ترتكب ضد المرأة، تجرى المعاقبة عليها بالغرامة وذلك تأسيساً على قيمة الدم، وإذا فرضنا أن هذه الغرامات تصل إلى ١٢٠ دولاراً، فإن غرامة الاعتداء على فتاة غير متزوجة تصل إلى ستين دولاراً، وغرامة

الاعتداء على امرأة متزوجة ٤٠ دولاراً، ويقل هذا المبلغ فى حال الاعتداء على الأرملة، وربما وصل الأمر إلى مجرد عُشر من ثمن الدم إذا كانت الضحية من بين المحظيات، وإثبات هذه الجريمة يكون بتحليف المرأة اليمين.

يجرى فى الحبشة معاقبة المتمردين واللصوص المحترفين ببتر الأعضاء أو الجلد أو السجن، أما بقية الجرائم الأخرى فيجرى البت فيها على أساس أن حياة الإنسان غالية وتساوى الكثير جداً، وأن شرفه أقل كثيراً من حياته، وأن كل ما يمتلكه الإنسان يمكن تعويضه أو استبداله بمبالغ متباينة، واقع الأمر، أن الثمن يتفوق على القيمة، والضامن هو الذى يلعب دور العدالة المُصَحِّحة، وهو فى عمله هذا يحصل على العون والمساعدة من أفراد أسرته الذين يعدون أنفسهم مشاركين له فى مسئوليته، ليس هناك خصوصية من أى نوع كان فى مجتمع يقوم على أساس من المصلحة المشتركة، التى يصبح كل واحد فيها شرطياً على جاره، إذا لم تقبل الدِّية، فإن القاتل يعاقب فى أغلب الأحيان بالثأر، وليس بالعدالة العامة، وقتل المرأة يحتم الشئ نفسه على أقاربها مثل الرجل تماماً، لكن والد المرأة أو أخواتها هم الذين يتحتم عليهم القيام بالثأر، وليس زوجها، وأن الدية يجب أن تدفع للأب أو الأخوة، السلالة العرقية وليس الزوج هى التى تطالب بدفع التعويض عن المنزل المدَمَّر.

ليس هناك شك فى أن نساء أثيوبيا يتمتعن بقدر أكبر من الاحترام عن جاراتهن، وكلام النساء مصدق، وهذا لا يحدث فى البلدان الأخرى، وذلك من منطلق قبول كلام النساء بلا شاهد أو ضامن، يمتد هذا التبجيل أيضاً إلى شخص المرأة، ذلك أنه إذا ما قام رجل بإمساك ذراع امرأة متزوجة، فى أى نقاش أو مشاجرة، حتى وإن وضع يده على كتفها، فإنها يكون من حقها طلب معاقبة ذلك الرجل، إذا ما لمس غريب امرأة على غير رغبة منها، أو أشار إليها بطريقة غير قانونية، أو هددها بأقل شكل من أشكال العنف، يصبح من حقها طلب تعويض مالى عن مثل هذا العمل، وفى كل هذه الأحوال يكون التعويل على كلام المرأة بدون أى ضامن أو شهود.

المرأة الفلاحة فى الحبشة لا تشارك فى الحياة العامة، لكن السيدة العظيمة يمكنها إدارة الأراضى التى تعطى لها لتزرعها مدى الحياة بواسطة زوجها أو بواسطة حاكم الحبشة Negus، مثل هذه المرأة تتولى إقامة العدالة،

وتجمع الضرائب وتدفعها، وتقوم على أمر الضيافة، وهى التى تخصص المزارع، فى حال نشوب الحرب، فى حين هى التى تحدد نوعية الضباط الذين يتولون قيادة قواتها، كما أنها قادرة أيضاً على إدارة العمليات الحربية من مكان قريب من ميدان القتال، التحيات أو الرسائل التى تصل مثل هذه المرأة، من أى رجل من الرجال، أياً ما تكن مكانته، تكون مليئة بالنفاق، إذ يجرى فى هذه الرسائل اقتباس مقطوعات كاملة من الكتاب المقدس لامتداح جمال وفضيلة هذه المرأة، حتى وإن تعارض الجمال مع الفضيلة، المجاملات أمر لا بد منه فى الحوار بين الجنسين، بغض النظر عن مكانة المتحاورين، شريطة ألا يكونا متزوجين، لكن مسألة التوقير والاحترام تعتمد على المكانة، قد تأخذ الفلاحة الحبشية حقوقها المدنية وحقوقها الأسرية، لكنها بحكم إرهاقها، وسوء تغذيتها، فإن الطبيعة Nature تكون أقسى عليها من الرجل، وعليه فإنها قبل أن تبلغ الأربعين من العمر تكون قد أصبحت مرهقة بدنياً، وذهنياً، وفى أغلب الأحيان أخلاقياً، على نحو يجعلها تعجز عن المطالبة بهذه الحقوق، والمرأة التى ليس لها من عمل سوى إنجاب طفلين أو ثلاثة أطفال، والإشراف على كثير من العبيد، والتى تكون معزولة، وجالسة طول الوقت، اللهم باستثناء تلبية بعض النداءات الجسدية والذهنية، تتوقع الاحترام والتقدير وهى تحصل عليهما فعلاً. هذان الصنفان من النساء حُرَّان بطريقة مدهشة فيما يتصل بشخصيتيهما، لكن عمل الصنف الأول، وممتلكات الصنف الثانى مملوكان للزوج. المال هو الألف والياء فى الحبشة، ومن خلال قانون الوراثة العرفى، بشكله المحدد، والدائم - يقضى بأن تكون الأرض فى أيدى الرجال.

الفصل السابع

فزع دنكالي بين المرشدين

يمتد المرعى من هابرو Habro متدحرجاً نحو الأسفل بصورة متدرجة، نازلاً إلى الأسفل من خلال الحواجز والأبراج الصخرية التى تعترض طريقه، كنا قد بدأنا مسيرنا فى ساعة مبكرة، كانت المنخفضات خلالها أكواماً من بتلات الزهور داخل كوب من الضباب، كانت أشجار الست المستحية شديدة الاصفرار، وكان نبات خباز المستنقعات، بلونه الأرجوانى والأصفر ينمو بجوار حفر الماء، كان الجراد الضخم بأجنحته الحمراء منسوجاً خلال غابة الحشائش على جانبى الممر، وكانت الطيور تمر مسرعة فوق هذا المسار بلمعان شبيه بلمعان المعدن المطلى بالذهب، كنا من حين لآخر، نتجاوز أشجار الجورجو Gorgu بلحائها الرمادى وكتلة من الزهور التى لها لون الجمار مفرودة مثل المظلة، أو على بعض النباتات المتشابكة التى تغطى أغصانها نحو نصف فدان من الأرض، كان البغالة أثناء مسيرنا يتسلقون الأشجار لقطف الثمار الخضراء التى تشبه حبات التين غير الناضج، والمليئة بالبذور السوداء.

خيَّمنا بعد مسير دام أربع ساعات بالقرب من قرية جلامسو Galamso حتى يتمكن أتباعنا من شراء ما يكفيهم من المؤن من السوق المحلية، وبالقدر الكافى للرحلة إلى أنكوبر Ankober التى تستغرق ما بين خمسة أو ستة أيام.

جلامسو واحدة من المحطات الواقعة على الطريق الرئيسى المؤدى إلى أروسِّى Arussi، التى ترتفع تلاله فى اتجاه الناحية الجنوبية، وبين المسيحيين المتشحين بالملابس البيضاء الذين يقايضون الماشية، والذرة، والموز، داخل تعريشات من القش، والتى لا يزيد حجمها عن حجم قبعة من قبعاتٍ جينزبورو Gainsborough، وكانوا جميعاً من الجنسين من سلالة الجَلاَّ،

ويرتدون ملابس من الجلود، هؤلاء الجلا الوثنيون الذين جرى إخضاعهم مؤخراً يمثلون أفريقيا البدائية التى بزغت منها الحبشة الحديثة، لكن لم أرهم مطلقاً على أنهم جزء من الحبشة، البعض من هؤلاء الجلا أثرياء، ويمتلكون قطعاناً كبيرة من الماشية، والبعض الآخر يبلغون من الفقر حداً يضطرهم إلى أكل النفايات، وينازعون فيها الكلاب الضالة التى تتجول بين أكوام الروث، رائحة هذه الطائفة من الجلاّ مميزة، وربما كان ذلك راجعاً إلى الدهون التى يدهنون بها أنفسهم، ونساء الجلا يغطين أذرعهن، ورقابهن، وسيقانهن بحلى كبيرة مصنوعة من العظم أو النحاس الأصفر، لكن مظهرهن يكاد يكون مثل مظهر الرجال، الأطفال البنات أمر غير شائع بين الجلاّ، لأن زواج الابنة مُكلف جداً، وعليه فإن الأطفال البنات يجرى وضعهن فى معظم الأحيان على جوانب التلال ليكن وجبة للضباع.

فى بعض الأماكن يأكل نساء الجلا ورجالهم لحم فرس النهر، ولذلك يحتقرهم باقى الناس بوصفهم أكلة غير نظيفين، الجلا أيضاً يؤمنون بالخرافات، ويعتقدون فى الطواطم والمحرمات، وهم يعبدون روحاً يسمونها "وكوه" Wekweh، ومجموعة أخرى من الأرواح الأقل يسمونها "ساروه" Saruh، والجلا يحيطون قبورهم بجدار من الحجر المدهون، وتجرى حراستها بإقامة مُنشأ من الحطب معلق فيه شرائط من القماش والجلد، يُقال إنها تبعد الأرواح الشريرة عن هذه القبور، فى أيام ازدياد العنف نجد أن عدد الشرائط يشير إلى إجمالى الأعداد الذين جرى قتلهم، لكن هذه الشرائط تمثل فى الوقت الحالى حقيبة المتوفى المصنوعة من جلد الأسد وجلد الفيل.

يعد الجلا الجنوبيون من حملة الرماح والحراب، وهم يأكلون الثعابين والعسل البرى الذى يكون فى طريق مسيرتهم، وهم يؤمنون بالفأل الذى يعينهم أو يعوقهم فى صيدهم، والجلا شأنهم شأن الشعوب غير المتحضرة كلها، يتسمون بالخجل ويرفضون الغرباء، على الرغم من أن ذلك الرفض يكون من باب الدفاع وليس من باب الهجوم.

كل ذلك هو إفريقيا، لكنه ليس الحبشة الأساسية؛ الحبشة التى كانت مسيحية فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا تعبد آلهة النورس(☆) وإن شئت

☆ النُّورس: بتشديد النون وضمها، هم سكان اسكندنافيا القديمة. (المترجم)

فقل الأصنام؛ الحبشة التى لم تهزم طيلة ثلاثة آلاف عام هى عمرها المعروف، على الرغم من تمزيقها بفعل الحرب الأهلية.

فى تلك الأيام قامت بعثة من الإمبراطور جوشينيون Justinian بزيارة البلاط الحبشى، وعليه، بدأ حاكم الحبشة Negus، على امتداد العصور، يتعامل مع أوروبا على قيد المساواة، وفى المقابل سعت البرتغال وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا إلى خطب صداقة ملوك الشّوا Shoa، وباستثناء الحملة التى جردها اللورد نابير Napier على الحبشة لتحرير الأسرى البريطانيين فى مجدالا Mogdala، نجد أن المرة الوحيدة التى دخلت الحبشة فيها فى صراع مباشر مع القوة الأوربية أسفرت عن انتصار وطنى فى بلدة عدوا Adua، التى انهزم فيها الإيطاليون بأيدى المرحوم منليك لقلة عددهم وكثرة عدد الأحباش ولسوء وعدم دقة الخرائط التى كانت معهم، وعليه، وعلى الرغم من احتفاظ الحبشة بأعراق وتقاليد وخرافات عمرها قرن من الزمان، وعلى الرغم أيضاً من فرض الحديث على القديم بصورة طفيفة، وعلى الرغم أيضاً من وجود النظام الإقطاعى، وشريعة سيدنا موسى، وعلى الرغم أيضاً من وجود الأدوات والصناعات الإنجيلية، ووجود شراسة ووحشية العصور الوسيطة بجوار السكك الحديدية ومناطق الحضر، فإن جوهر هذه الأرض، كما يبدو لى، ليس فجاً أو أفريقياً محلياً، وإنما هو حكاية خيالية لتاريخ قديم قدم الزمان، وعليه فإن شمال الحبشة هو الذى كان يجذبنى ويشدنى، ومع كل يوم كنت أقترب فيه من أديس أبابا، كان ذهنى ينصرف إلى ذلك الذى خلف أديس أبابا فى المقاطعات غير المشهورة التى كانت فى يوم من الأيام حجر الزاوية فى ديانتى العالم العظيمتين.

هذه الأرض التى أرسلت ملكة إلى سيدنا سليمان، والتى هزمت الجزيرة العربية، والتى تجرت مع الهند فى زمن المغول Mogulls، والتى آوت أتباع النبى المضطهدين، والتى اختارت الفارس كرستوفيرا دا جاما Christofera da Gama حليفاً لها فى كفاحها الطويل من أجل المسيحية ، والتى كانت مثل رمانة الميزان

بين المطالب المتصارعة لكل من فرنسا وإنجلترا، هذا البلد يتمثل أكثر وبصورة مؤكدة فى مسلات أكسيوم الضخمة، والقصور التى على شكل قلاع فى جُندار Gondar والكنائس الفريدة المبنية من صخرة واحدة فى لالبيلا Lalibela، وليس فى الطقوس والفأل، والأعراف والخرافات التى تتميز بها إفريقيا.

عندما عدنا إلى مخيمنا محملين بالغنائم الحية من سوق جالامسو Galamso وجدنا جبارا جورجس ينظف دجاجة، كان يقبع خلفه شخص ملطخ بالطين يأكل بشهية واضحة المخلفات التى يتخلص منها الطباخ.

أوضح لنا جوطة عندما رأى تعبير وجهى "هو ليس حبشياً، إنه مجرد واحد من الجلاَّ".

زودنا سوق جلامسو تزويداً طيباً بالدواجن، والبيض والبصل المطلوب للمضى قدماً فى رحلتنا، لكنى هنا أذكر البصل بصورة خاصة، لأنه وصل إلينا على شكل أسبات مليئة بالبصل؛ وقد طغت رائحة البصل على المخيم طوال أيام عدة، وكان جابرا جورجس، الذى طار فرحاً بذلك البصل، يقدمه لنا مع كل ما نأكله وما نشربه - ومع القهوة بصورة خاصة.

جاء أصعب أجزاء المسيرة بعد أن غادرنا حافة آروسِّى Arussi، ولم نكن نتوقع ذلك أو ننتظره، لأننا تصورنا أن بوسعنا شق طريقنا حول صخرة لاجاردين Lagardin، وبدلاً من ذلك، وبعد مسير دام بضعة أميال فى مجرى لاجاردين المائى الجاف وسط أيكة من النباتات الخفيضة وأشجار الفربيون، صعدنا فجأة إلى عالم عديم اللون- ومن تحت أقدامنا صوان رمادى اللون، وجذوع رمادية اللون حولنا ومن فوقنا، وستارة من الشوك الأبيض، والبصلى الذى له حواف مدببة يصل طول الواحدة منها إلى ثلاث بوصات، بدت لنا وكأن هذه المنطقة كانت مغطاة بصقيع فضى، كان المطلع شديد التحدر، ولم يكن المسار يتسع سوى لمرور الماعز. تعثرت البغال وسقطت على الأرض، وكانت مناظر ظهورها الملتهبة، ومقدمة السُّرَج، ومفاصل أقدام البغال الخلفية تستثير الشفقة، لكن مسألة التوقف عن السير كان أمراً مستحيلاً، نظراً لعدم وجود ماء فيما بين نُهير منحنى لاجاردين الأول وهواش التى تبعد عنه مسافة مسير نحو اثنتى عشرة ساعة فى شمس السهل الحارقة، وقبل



تناول الغداء واستخدام علب الأفلام مثل طاولة



خَبْزُ الخبز فى المخيم

أن نتمكن من الوصول إلى قمة السلسلة الصخرية، كانت الأشواك قد أطبقت علينا مثل جيش من سناكى البنادق، ولم تحدث مجرد قطع فى ملابسنا بل نتفاً أيضاً من جلودنا على طول الطريق، يزاد على ذلك أن وسادتى الركبتين المصنوعتين من الجلد فى بنطالى تمزقتا أيضاً، يضاف إلى ذلك أن نسيج بنطال هارولد جونز المتين أصيب بعدة تمزقات، فى حين بقينا نحن طوال أيام عدة بعد ذلك نعانى من حدوث خدوش أصابت أجسامنا ومفاصلنا وتورمت بشكل ملفت للنظر، أخيراً وبعد كثير من الإحباطات عبرنا قمة السلسلة الجبلية وبدأنا نسلك طريقنا نازلين إلى الوادى فى الأسفل، من الواضح أن الآلهة القديمة استخدموا لاجاردين ميداناً للقتال وكانوا يمطرونها بصواعقهم، نظراً لأن أرض لاجاردين كان عليها أحجار مبعثرة، سميكة سمك البرد بعد العاصفة، كانت الشمس الحارقة منعكسة إلى الخلف من هذه الأحجار، وعليه غطانا شىء من التراب الأحمر الكثيف، ورحنا نترنح ساعة بعد أخرى، ونحن فى طريقنا نحو الأسفل، وقد احمرت عيوننا، وجفت حلوقنا، وكنا نحس أننا إذا ما ابتسمنا أو تكلمنا فإن شفاهنا ستنفصل عنا أو تتشقق، يزاد على ذلك أن بغلى الأبيض الذى كان "يجرى مثل الماء" كان يتعثر فى كل خطوة يخطوها.

لم نلتق أحداً طوال مسير النهار، اللهم باستثناء امرأة من الجلا، كانت عارية تماماً اللهم باستثناء ياقة من الجلد وسروال من القماش، وكانت تقود جملاً، لم يكن فى المكان أكواخ أو رعاة فى لاجاردين، وكان بلاّم باراسّى يضع القافلة نصب عينيه.

قال : "لا أحد يعيش فى هذا المكان سوى اللصوص، أولئك الذين يستعملون بنادقهم فى البداية وسكاكينهم بعد ذلك". أتى بلاّم باراسى بعض الإشارات الواضحة والمرعبة، وسرنا بعد ذلك وبنادقنا مشرعة، وعندما كان يضل بغل من البغال أو يتخلف بَغَّال عن البغالة، كانت القافلة كلها تتوقف.

ولما كان هارولد جونز، على غير علم بهذه الإجراءات الصارمة، فقد توقف لتعديل وضع نظارة الشمس، وأبصر صقراً يحوم على بعد مدى مغر، وأطلق طلقة من مسدسه الجديد على سبيل التجربة، ونتج عن ذلك شىءٌ شبيه بالزلزال، جعلنى ألوذ بأقرب غطاء، الذى كان كله من الأشواك، قام بلاّم

باراسِّى بتوقيف البغال المحتجة خلفى قبل أن أتمكن من جعل صوتى مسموعاً من الآخرين، أطبق علينا الجنود، وهرولوا جالسين على الأرض وبنادقهم فى وضع الاستعداد؛ أمسك البغالة بأقرب سلاح لهم، بل إن الصبى العبد رفع آنية الطبخ من فوق رأسه، استعدادًا لاستعمالها، حدث شىء من التوتر الشديد والصمت النسبى، وفى وسط كل هذا الاستعداد القتالى وصل هارولد جونز مبتسماً، وكان فى يده نظارته وبعض الريش وفى اليد الأخرى المسدس! كانت التفسيرات معقدة، نظراً لأن جيمس ساقها بالإنجليزية، وترجمها عمر بالفرنسية، فى حين ترجمها جبارا جورجس بالإيطالية التى كان يتفاخر بها، أما أنا وبقية الجنود فقد فهمناها بالعربية، أما بقية القافلة فقد فهمتها بالأمهرية فى اللحظة نفسها.

خيمنا فى أرداجا Ardaga بلا ماء، التى ربما كانت منطقة ليس إلا، نظراً لعدم وجود شىء فى مرمى البصر سوى الأحجار والأشواك، حلق هارولد جونز ذقنه مستخدماً لذلك بوصتين من ماء البطاطس فى كوب من الأكواب، فى حين استفدت أنا من البرافين كمنظف جاف، تفرق الجنود بعد ذلك، والغريب أن الصباح حل علينا وكان هناك شىء من القهوة وقليل من الحليب.

سألت جوطة "كيف حدث ذلك؟"

أجابنى جوطة بتعبيره الناعس "فى بعض الأحيان يكون هناك أناس معهم قرع مجوف أو ماعز"؛ لكنه لم يضف كيف تخفف "الناس" من هذه الممتلكات.

كان الجو شديد الحرارة، وكانت الشبورة عند الأفق، فى الوقت الذى كنا نواصل فيه مسيرنا خلال الأشواك المخيفة، نازلين نحو الأسفل بصفة دائمة، إلى أن وصلنا إلى جارة جم Gara of Gum التى هى عبارة عن صخرة بارزة شبيهة بقمع السكر، ولها قمتان صخريتان متجاورتان، وتقعان خلفنا، أما ابيضاض السهل المشوب بالتراب فكان من أمامنا. كانت نباتات الليلج قرمزية اللون بأوراقها الشبيهة بالصُّبِّير ومشوبة باللون الوردى تقف بين نباتات الست المستحية، وكأنها مساعر(☆) بلغت درجة الاحمرار، بدأت الأرانب البرية تفر هاربة أمامنا، وتجاورنا قطعان الإبل التى يحرسها المتوحشون غير المتحضرين "والمسلحين فقط بالحراب والسكاكين"، على حد قول عمر، كانت

☆ واحدة، مِسْعَار، وهو بشكور حديدى لإنكاء جمرات المدفأة. (المترجم)

صدور النساء مستديرة، وبنيتهن قوية، وترتدى الواحدة منهن تنورة من الجلد تصل إلى ركبتيها، وكانت شعورهن ملفوفة على شكل حلقات صغيرة ضيقة على طريقة المصريين القدماء، حاولت تصوير فتاتين، وكان ظهراهما مثقلين بقربتين مملوءتين بالماء، ولا أدرى إن كانتا قد نظرتا إلى آلة التصوير باعتبارها شيئاً شيطانياً، أو نوعاً جديداً من أنواع الأسلحة النارية، لكنهما جفلتا وابتعدتا عنى وأطلقتا صرخة، ذهبت إلى مدى بعيد، وكان واضحاً أن هذه الصيحة هى صيحة القتال عند أهل هاتين الفتاتين، وهنا قام عمر بدفعى لأركب فوق السرج.

قال عمر: "هؤلاء أناس متوحشون وغير متحضرين، وسوف تحدث بعض المتاعب، لأن الفتاتين حذرتا رجالهما. ويتعين علينا التحرك بسرعة وإلا صوبوا رماحهم إلينا".

استحال على القافلة المضى بسرعة، نظراً لاشتباكها بصورة مستمرة مع النباتات الزاحفة التى كانت تأخذ شيئاً من اللحم وشيئاً من الملابس، والتى تتخللها أفلاء الإبل الضالة، متموجة الوبر وصاحبة الأرجل الطويلة، لكن بعد ساعات قلائل من مغادرتنا آرداجا نزلنا إلى وادى هواش Hawash الواسع العميق، أخرنا عبور هذا النهر بعض الشئ، نظراً لأن البغال كلها حاولت الرقود أرضاً، والماء ينساب بشدة من فوق جلاميد صخرية لزجة مستديرة، ظننت أن حلقى سوف ينشق، قبل أن يسمعنى الآخرون، عندما أوشك جوطة، الذى يحمل آلة التصوير (كاميرا) على كتفه، على التشاجر فى منتصف النهر مع دستا Desta، الذى كان يحمل حامل آلة التصوير الثلاثى، الذى كان قد نسى جوطة عليه عصا على الضفة البعيدة، أخيراً خضت فى الماء إلى ركبتى وجذبت أقربهما إلى الشاطئ، الذى اضطر الآخر إلى الوصول إليه تتبعاً لزميله كى يواصلا النقاش.

جاء طلوعنا من الوادى العميق فريداً فى نوعه، ففى اللحظة التى أدرك فيها مالك البغال أنه سار فى المسار الخطأ، وفى ضوء الجلاميد الكبيرة التى كانت القافلة تتحشر فيهما، أتضح أن القافلة لم تعد قادرة على الصعود إلى قمة الجرف أو النزول إلى الأسفل، وكان هناك على قمة الجرف قطيع من الثيران التى لها قرون أطول من القرون المعتادة، كانت لحظة مرعبة بحق،

فقد بدا أن الراكبين والبغال على حد سواء لابد وأن يتخوزقوا على أطراف هذه القرون المتوحشة التى تتأرجح نحو الأسفل، ألقينا بأنفسنا جميعاً بعيداً عن المسار وفى اتجاهات مختلفة وشديدة الخطورة، وانقلب القسم الأكبر من أمتعتنا، رُفِس الكثيرون منا ودِيسوا فى الأرض، ولكن بمعجزة من المعجزات تمثلت فى شىء من الذكاء والعبقرية من جانب البغال، وبفضل خاصية الفَرْد والطى فى هذه الحيوانات، وإن شئت فقل خاصية الانكماش عند الماشية، استطاعت هذه البغال تخليص نفسها من تلك الثيران ولم يقتل أى منها، وعندما نظرت من فوق القمة، وأنا أنزف وألهث ورأيت المكان الذى تسلقت إليه وأنا أرتدى حذاء الركوب، رحت أعجب لتلك العناية الإلهية التى رعت قدرنا ومصيرنا، كان عمر يقف إلى جانبى لاهثاً بلا عمامة، ومثل أرنب مسلوخ.

قال عمر وهو يتنهد: "الله هو الذى يرأف بالمجانين!"

هواش تقع على خط سكك حديد الحبشة الوحيد، ولوكاندتها الصغيرة المناسبة هى الملاذ الوحيد للمسافرين الذين يقومون على أمر البريد السريع كل أسبوعين، هذه "الرسائل البريدية" تقطع الرحلة على مهل، وتنفق ليلتين على الطريق، تكون خلالهما داير داوا أو هواش مشغولة بتوفير الأسِرَّة المطلوبة للمسافرين، لكننا عندما وصلنا إلى المجمع المكون من عشر دروات مسقوفة، وأكواخ من الطين هى بمثابة هواش التى يسكنها البعوض، كان اليوم مصادفاً ليوم عطلة وبالتالى كانت اللوكاندة مغلقة، كانت الساعة تشير إلى الثانية؛ وكنا قد شُوينا واحترقنا فى الصحراء منذ تناولنا للقهوة فى الصباح، يزاد على ذلك أن أكثر الجنود اسوداداً كان يعترف بالإرهاق والتعب بعد المغامرة التى قمنا بها، وما ترتب عليها من إعادة تحميل أمتعتنا فى الوادى العميق، وعليه، عندما رفضت الشرفة الواسعة هى وأشجار الفلفل الواقعة داخل السلك الشائك أن تكون ملجأ وملاذاً لنا أحسسنا بخيبة أمل عامة.

قال عمر وهو مكلوم حزين "لا يوجد ظل نقيم فيه المخيّم".

تردد صدى مالك البغال هو وجابرا جورجس "لا يوجد علف للبغال" و "لا يوجد حطب للنار"، ألقيت نظرة على الوجوه من حولى وقد أسودت بفعل الشمس، وغبرها التراب، ورفعت نفسى على الجدار، ونزلت من فوق السلك

الشـائك- الذى هو لا شـىء إلى جـانب أشـواك لاجـاردين- ونزلت فـى المكان البَراد الذى حُرمنا منه، وبطريقة منتظمة رحت أدق وبلا استثناء كل باب وكل نافذة فى المكانَ كله إلى أن أيقظت فى النهايةٍ يونانيـاً بهى الطلعة من نومه، الذى ربما كـان عميقـاً! واستقبلنا استقبالاً أحـر مما كنت أنتظر بعد هذا الهجوم.

وبعد أن انتهينا من أول اغتسال (تشطيف) كامل بعد عشرة أيام وجدنا أن من الضرورى العثور على مرشد، والسببٍ فى ذلك أن معرفة عمر بالبلاد توقفت عند هواش، وعلى الرغم من أن بلاّم باراسِّى أكد لنا أنه كان يبحث فى السوق عن مواطن يعرف الطريق إلى أنكوبر، فإنه لم يوفق فى جهوده، ولم تحمل لنا فترة العصر سوى تقارير غير مرضية. كانت البغال مُتعبة، وكانت أرجلِ الجنود ملتهبة، ولم يتمكن أحد من العثور على مرشد؛ إضافة إلى أن أحداً لا يستطيع المغامرة فى "الصحراء الخالية من الماء" بلا مرشِد، ضحكت من ذلك النعت، لأن رمال هواش وحدها تبعد ثمانية عشر ميلاً عن النهر من ناحية الجنوب، وربما تبعد خمسة وعشرين ميلاً شمالاً على الطريق المؤدى إلى التلال. ومن المؤكد أن تاديكا ملكيا Tadecha Melkea لابد أن يكون فيها ماء، وهى تبعد مسافة مسير عشر ساعات فى اتجاه الشمال الغربى، على الرغم من أنها ليست موقعة على الخارطة باعتبارها مدينة، وإنما كمنطقة حول مجرى نهر. أخيراً أدركت أن هناك شيئاً غامضاً حول هذه الاعتراضات، وعليه سرت مع عمر ورحت أسأل كل الذين التقيناهم، إلىٍ أن وصلنا فى نهاية المطاف إلى الخيار بين مرشدين، كان أحدهما جميلاً وحبُّوباً وصاحب ابتسامة طيبة ويرتدى قبعة من اللباد من طراز جينزبورو، أما الشخص الآخر فكان صومالياً، لم يفهم لهجته أحد منا سوى شخص واحد، كان كل منهما يطلب أجر شهرين نظير إرشاده لنا فى الرحلة إلى أنكوبر التى لا تستغرق أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام، وأن أحداً منهما لن يعود وحده، لكنهما أصرا على حتمية الذهاب معنا إلى أديس أبابا، وهنا تحتم على عمر أن يوضح لنا الأمر.

قال عمر: "هؤلاء هم الدناكيل Dankalis، إنهم متوحشون وغير متحضرين ولا يمكن المرور عبر أراضيهم".

أردف الصبى الوسيم هازاً كتفيه فى شىء من الخجل "هناك ثأر وعداء بينهم وبين الأحباش والصوماليين، وهم يقتلون كل من تصل إليه أيديهم".

جرى أيضاً تفسير ذلك التأخير الغامض، كما جرى أيضاً تفسير تعبير الاستياء الصادر عن جابرا سيلسِّى، عندما واجهته باختيارى للمرشدين، يزاد على ذلك أن بلاّم باراسِّى كان أكثر لطفاً وأكثر شحوباً على غير عادته، بينما كان جالساً يهش الذباب عن نفسه باستعمال منشَّة ويستفسر من المرشدين اللذين أحضرتهما، عن معرفتهما بمصادر الماء والمسارات والطرق البديلة، بلغنى بعد ذلك أن بلاّم باراسِّى كان قد أسر إلى راعى اللوكاندة "لقد أمرت بمرافقة السيدة إلى أديس أبابا، وعليه سأذهب معها حيثما ذهبت، ما الذى يمكن أن يحدث إذا ما توفيت أنا؟، لكننى لا يمكن أن أحكم على جنودى بالإعدام، وعليه سوف أرسلهم إلى العاصمة عن طريق القطار". وهذا تفسير عجيب لمهام قوة من الجيش!

حدث حوار استمر مدة ساعة، وشارك فيه الجميع بدءاً من الحمَّال اليمنى، والطباخ الذى يرتدى تنورة وعمامة وردية اللون، وناظر المحطة العربى الذى يرتدى تنورة قرمزية اللون وعمامة صفراء، إلى اليونانى مالك الأرض، وقلة قليلة من رجال السكة الحديد، وعامل التليفون الحكومى، وجميع المرافقين لنا، تقرر بعد هذا الحوار أن يقوم الصومالى وعلى وجه السرعة بإرشادنا، من خلال مسارات غير مطروقة متحاشياً التاديكا، حيث يقبع الدناكيل فى المنطقة القريبة من النهر؛ وتقرر أيضاً تخفيض حمولتنا إلى نحو ستة بغال فقط، وأن نقوم بإرسال بقية صناديق الأفلام إلى أديس أبابا عن طريق القطار، وذلك من باب تخفيف وتسهيل تحركنا فى حال وقوع أى هجوم علينا؛ وتقرر أيضاً أن نضيف رئيس الشرطة المحلية، ونحو ستة من جنوده إلى حملة البنادق الذين يرافقوننا.

قلت لعمر: "ستكون معنا كتيبة على وجه السرعة، وأنا أُعمل فكرى فى الماء الذى تعين حمله معنا، لأهل التلال هؤلاء، الذين يفضلون البقاء فى جبالهم، وأن يتمزقوا إرباً فى الصحراء على القيام بمسيرة تستمر ساعات قلائل دون أن يشربوا الماء، لابد أن يكون بلاّم باراسِّى قد بلغه هذا الكلام، فقد قال بابتسامته المفاجئة التى لا تخلو من السخرية" "عندما كنت شاباً، كنت أنا أيضاً لا أخاف".

اقترحت عليه وأنا أنحنى له "أنت صاحب خبرة".

الدناكيل شعب من البدو المتنقلين، الذين يتجولون بحثاً عن العشب لقطعان ماشيتهم، داخل المناطق التى يتناوب الصوماليون والجلا السيطرة عليها، ولما كانوا شاركوا فى الغزو الإسلامى فى القرن السادس عشر، والذى هدد بإخضاع الحبشة، فإنهم على عداء مع العرق الذى يحكمهم دون أن يقوم بغزوهم أو كسرهم، وهم يرفضون إلى الآن دفع الجزية له، خصائص وسمات العرب الذين يُقال إنهم من سلالة حام تتضارب وتتعارض مع الأساطير التى تتردد عن أصول هؤلاء العرب، هؤلاء العرب عطوفون، لكنهم قساة بطريقة صبيانية، شجعان لكنهم خونة عند الغضب- على الرغم من أنه معروف عن العرب أنهم لا يهاجمون مطلقاً فى الظلام، وهم سريعو الغضب وسريعو المهادنة، وهم يبدون متغيرين ومتقلبين مثل مواقع قراهم المؤقتة.

غادرنا بلاد الهواش إلى بلاد "المتوحشين" (الدناكيل) وعند الساعة الواحدة من مساء اليوم التالى، وفى عز الحر والغبار والقلق نكون قد قطعنا الأميال الستين إلى آليو آمبا Aliu Amba فى غضون ثمان وأربعين ساعة، فى عصر اليوم الأول كان طريقنا يمر عبر صحراء هواش ًالمنبسطة، وكان عزاؤنا الوحيد يتمثل فى بعض الأشواك وشئ من الصيد، شاهدنا الغزال، والوعل الأبيض، وشاهدنا أيضاً حيوان الدايك- دايك Dyke- Ayke الذى حسبناه أرنباً برياً، إلى أن رأينا قرنية الصغيرين، شاهدنا أيضاً طيوراً ضخمة سوداء، فيها بقع بيضاء فى طرف أجنحتها، وكانت ترفرف أمامنا مثل طائر ضخم من طيور اللقلق لكنه قصير القدمين، كما شاهدنا أيضاً النسور الشبيهة بلون الغزال المائل إلى اللون الوردى، والتى أطلق الجنود عليها اسم المرابط Marabout، وكانت تحملق فينا بأعين لا تغمض، واصلنا مسيرنا على وجه السرعة، وكنا نهرول كلما صاح الصومالى فينا، إلى حد أننا بعد نصف ساعة من غروب الشمس، وعندما وصلنا إلى مزارع أوارا ملكيا Ouara Melkea، نخيل الدوم وأشجار الموز، وأشجار الصمغ- اكتشفنا أننا قطعنا مسافة لا تقل عن تسعة أميال، خيمنا تحت شجرة، وكانت الخيام والبغال والنيران فى دائرة نصف قطرها لا يزيد على ثلاثين قدماً، وجرى وضع حراس حول هذه الدائرة، وبقى الحراس طول الليل يدردشون مع الدناكيل الودودين الذين

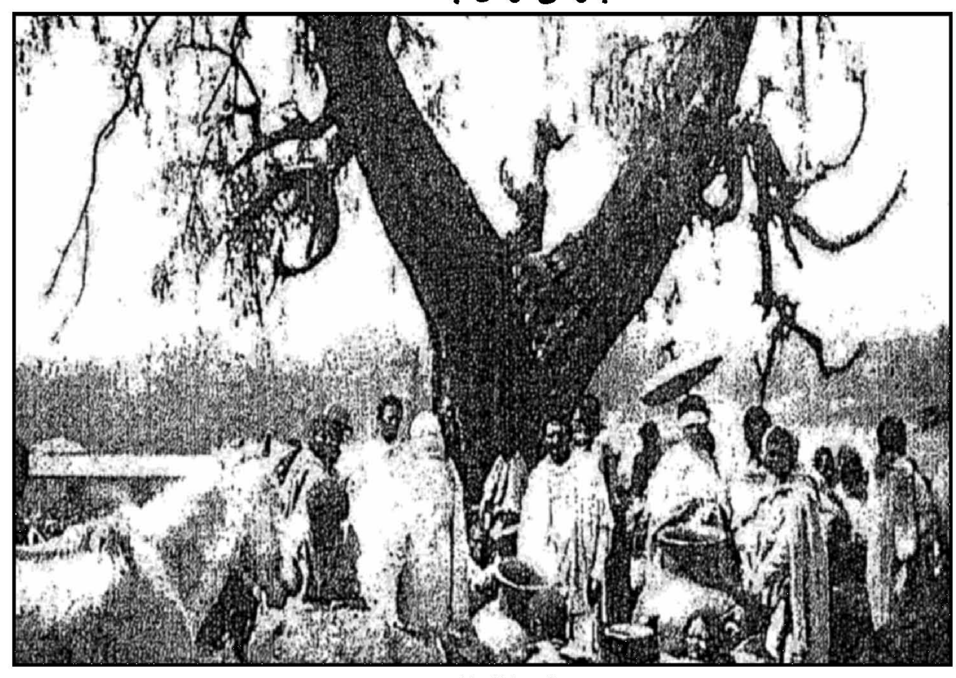
أحضروا إلينا، بصحبة رئيسهم دنان Danan كميات كبيرة من الحليب فى قرع مفرغ ملفوف بالقش الملون ومعلق عليه أصداف.

فى صبيحة اليوم التالى قوَّض البغالة خيامنا قبل أن نخرج منها، وعرفنا أن الصومالى كان يعانى من نوبة القدم الباردة، مما جعله يرفض التقدم إلى أبعد مما وصلنا إليه، واختفى أيضاً بغل من البغال، وأصيب بلاَّم باراسىٍّ بالرعب مخافة ألا يعود الجنود الثلاثة المسلمون الذين خرجوا يبحثون عن البغل الضال، عند هذه المرحلة جاء دانان لإنقاذنا. عندما رأيناه أول مرة فى ضوء النار، وجدنا فَراشاً عدة من فراش الأسنان فى شعره المجعد، وكان يرتدى سروالاً، ثقوب فى أذنيه الشبيهتين بطبقين صغيرين، وكان يلف حول عنقه بعض الأحجبة الجلدية التى يبلغ حجم الواحد منها حجم مظروف من مظاريف الرسائل، ويحتوى كل حجاب منها على تعويذة أو بعض من التربة أو الأوراق المباركة، كشف الصباح عن شىء من التحول، نظراً لأن رئيس الدناكيل ظهر فى بياض الحبشة وهو بُحلِى من النحاس الأصفر فى المواضع التى يجب أن تلبس فيها الخلاخيل، والسوارات والعقود، كان بصحبة رئيس الدناكيل بعض من رفاقه وأتباعه الذين كانوا أقل منه هنداماً، وكانوا مسلحين بالبنادق، أما فيما عدا ذلك فكانوا راضين عن وضعهم الطبيعى، فضلاً عن شريطين من القماش المنقوع فى الشحم الذى تصنع منه الشموع، أحدهما عبارة عن تنورة، والآخر عبارة عن شال، كانت وجوه هؤلاء الأتباع مخيفة إلى أبعد الحدود وعامرة بالتجاعيد إلى أبعد الحدود، كما لو كانت بشرتهم مثنية مثل ثنيات آلة الأكورديون وملصوقة فوق العظام، كانت عيونهم بلون بنى غامق وحمراء، وليس فيها ابيضاض على الإطلاق، قبَّل هؤلاء الناس يدىَّ وشكرونى شكراً جزيلاً على الطريقة الإيطالية، وأكد لنا واحد منهم يدعى ليفة Life بأنه على استعداد لإرشادنا إلى نهاية العالم، وكان يقصد بذلك الجبال.

بدأنا واحدة من مسيرات الليل الكابوسية التى تضطرب خلالها الأمور بلا سبب معروف، بعد أن ابتعدنا نحو تسعة أميال عن أورا ملكيا عبرنا الكابانا Kabana، التى تنساب مجاريها المائية خلال مجرى واسع عميق عامر بالأحجار. كانت تلك الجلاميد الصخرية لامعة وزلقة مستديرة، وكان ديمسِّى



بئر فى أرض جافة



صناع الأوانى

Demessi، الذى كان يحمل جهاز السينما، قد سقط على وجهه هو والبغل، فوق أبشع جلمود من تلك الجلاميد، أفلح هارولد جونز فى إنقاذ آلة التصوير من النهر، لكن ظهر البغل تمزق على نحو جعلنا نضيفه إلى قائمة خسائرنا.

بدءاً من مغادرتنا لاجاردين قاصدين منحدر آرداجا الحاد، كانت الحرارة خانقة، كان الغبار الأسود يثور بفعل تحويل البغال له إلى سحب بسبب مشيها عليه، وكان الجميع تقريباً يعانون من الحمى وارتفاع درجة الحرارة، تهاوينا مرتخين فوق سروجنا، ولم نقو بعد ذلك على السير.

وقعت معركة - كلامية - مريعة فيما بين أحجار كابانا، صرخ مالك البغال قائلاً: إن حيواناته ستنفق إذا ما واصلت السير فى هذا الحر القائظ، صرخ الدناكيل إن الوصول إلى منطقة الماء سوف يستغرق مسير يوم واحد وإننا ينبغى علينا التسريع والتعجيل، هذا بغل من البغال يقلب حمولته للمرة التاسعة، إذ راح يرفس إلى أن سقطت الخيمة والفِراش من فوقه، ثم انهار باركاً فوق هذه الأشياء، امتدت الأفرجة فى الوقت الذى تخلص الحيوان والأمتعة من بعضهما البعض، واشتد الجدل ونحن نحاول الصعود إلى أعلى الوادى العميق، ركبت البغل مدة ساعة أو ساعتين وعيناى مغمضتان وأنا ممسكة بطرف مقدمة السرج، ولما جف فمى بفعل التراب والعطش، لأنى منعت نفسى من الشرب أثناء السير حتى أكون قدوة للمرافقين، الذين كانوا يودون الوقوف فى كل لحظة لشرب المرطبات والمنعشات، وأنا أرى أن الصمت غير الطبيعى هو الذى أيقظنى فى نهاية الأمر، نظرت حولى ووجدت بلاَّم باراسِّى مكروباً.

قال: "لقد ذهب مالك البغال لحال سبيله".

"ذهب إلى أين؟"

رد الجميع "لقد ذهب!" وأردف عمر قائلاً: "والله وحده الذى يعلم".

اختار ليفة Lifa ومعه أمتعتنا طريقاً من بين الطرق المتعددة التى كانت أمامنا وتمتد متعرجة عبر أراضى الحشائش التى تفصلها عن بعضها وديان جافة عميقة، أما دانان Danan، رئيس الشرطة المحلية، ومعه اثنا عشر جندياً ونحن معهم، فقد اختار طريقاً آخر، وبقيت أمامنا مسألة، متى يمكن أن

نلتقى بعضنا بعضاً؟ كان معى شئ من الماء فى زمزميتى، كما كان معى أيضاً علبة من أقراص الحليب المخلوطة بالمولت المستخلص من الشعير؛ أما الآخرون فلم يكن مع أى منهم أى شىء سوى ذكرياتهم عن القهوة السريعة التى تناولناها عند الساعة السادسة صباحاً، هبت علينا ريح فظيعة خارجة من الفرن الأفريقى أحرقت عيوننا ووخذت جلودنا محدثة بقعاً فيها.

قال دنان: "الماء موجود فى آرجوبَّا Argobba، ومالك البغال سيقف بجانبه". لكن عندما سألته عن المسافة، هز كتفيه، ولوح بأصابعه المتعرجة وقال: "قد نصل إلى الماء اليوم".

أغمضت عينىَّ من جديد ومضى، البغل الأبيض فى طريقه خلال الحشائش والأحجار، وكان يهزنى هزاً مؤلماً يجعلنى أفيق عندما كان يتعثر فى المجارى المائية الجافة، هنا، فى هذا المكان كانت قردة البابون تهبط علينا وهى تنبح علينا مثل الكلاب، وهذا هو طائر المائيد Ma-Aed التعيس الشبيه بالماعز، يوحى لنا بالأمل أننا أصبحنا على مقربة من قرية من القرى، كان منظر قردة البابون بشعاً ومسلياً، كانت هناك عائلات كاملة من تلك القردة تتجول على الصخور، وهؤلاء هم آباء العائلات يسيرون فى المقدمة يزمجرون؛ لكن العناية الإلهية لابد أن تكون هى التى أوجدت الطيور أثناء كابوس الليل، نظراً لأنها كلها كانت غير متناسبة، ولها رءوس بارزة يصعب استعمالها أو مناقير متورمة، كما أن الضوضاء الصادرة عن هذه الطيور كافية للتغطية على فرقة من فرق الجاز.

قال هارولد جونز فى آحر ساعات فترة العصر: "ليتهم سلقوا هذه البغال كى يحولوها إلى شىء طرى".

مررنا على نمل الجبال الضخم وتمنينا لو أنه كان إبلاً ترعى، وخلفنا وراءنا أكواخ الدناكيل المهجورة والتى كانت شبيهة بمجمعات الفطائر المستديرة المصنوعة من الطين، كانت تلك الأكواخ صغيرة بشكل يصعب معه حتى على الطفل الصغير أن يقف بداخلها، وعندما ركبنا دوابنا واتجهنا صوب الجبال كنا نصادف فى طريقنا بقايا قلاع عبارة عن مركبات لها جدران من الحجر، أخيراً وعندما أصبح الأحباش بيضاً من تحت سوادهم، وبعد أن تَخَضَّبُّوا بالعرق والتراب اللذين جعلا وجوههم تبدو مثل الشباك،

شاهدنا بعض الدناكيل وهم يشتغلون فى عمل سور من الحطب. عند هذه المرحلة كنا قد تقاسمنا أقراص اللبن المخلوط بالمولت، وأعطينا الماء للجنود باعتبار ذلك البديل الوحيد عن تركهم على الطريق، وعليه اندفعت أنا وعمر ناحية ذلك السور فى محاولة منا لشراء أى شىء على شكل سائل، والحصول على أنباء عن أمتعتنا إذا ما تمكنا من ذلك، ألقيت نظرة خاطفة على حملة الرماح ذوى الشعر الأشعث، كما نظرت أيضاً إلى بعض النساء الجذابات، الرشيقات اللاتى لونهن مثل لون الشاى، وقد لففن حول رءوسهن شرائط من الجلد، وكان ذلك هو كل ما شاهدته، وبقهقهة عالية اقتربوا منا وراحوا يلاطفون بغالنا بضربها بسهولة براحة اليد، وعندما تضايقنا من ذلك، عدنا إلى مكاننا سائرين على شكل صف واحد، ونحن نعانى من أوجاع مختلفة فى أجزاء مختلفة من الجسم وتتميل فيما بين الكتفين.

عند غروب الشمس وبعد أن قطعنا ثلاثة وعشرين ميلاً وصلنا آرجوبا، وهى عبارة عن سلسلة من ثلاث قرى، كل منها مقام على جبل منفصل، فى القرية الأولى عثرنا على بغل من بغالنا، بعد أن أوشك على النفوق؛ الأمر الذى جعل مالك البغال يبيعه باثنى عشر شلناً، وفى القرية الثانية اكتشفنا أثنين من البغالة ومعهما قرعة مفرغة، قام الجنود بانتزاعها منهما على الفور؛ وفى القرية الثالثة حيث يوجد ثقب ماء عميق أسود عثرنا على مالك البغال المتفاخر الذى تنازل قائلاً: "مسير طيب، أليس كذلك؟"

دخل نفس من برد الصحراء إلى خيامنا فى تلك الليلة، لكنا كنا لا نزال متعبين، عندما شرعنا، فى ضوء الوعود التى قطعها "آليو آمبو" بأننا سنصل خلال أربع ساعات، فى تسلق سلسلة الجبال الأولى الواقعة بيننا وبين سلسلة جبال آنكوبر التى يغطيها السحاب، راحت هذه السلسلة من الجبال تكرر نفسها المرة بعد الأخرى، إلى أن بدأت أظن أن البغال لا يمكن مطلقاً أن تعبر أية سلسلة من هذه السلاسل مرة ثانية، كان نبات القطن متفتح اللوز على الجوانب المحمية من المنحدرات، لأننا كنا قد تجاوزنا بلاد الدناكيل وكانت قرى المسلمين تجثم على كل بروز من بروزات أبراج القلاع التى فى الجبال.

كان كل منعطف يعقبه منعطف أخطر منه، الأمر الذى كان يكشف أمامنا سلسلة أخرى من الصخور التى تندفع أمامنا طائرة فى اتجاه قمة أخرى، أو

هابطة إلى أرض منخفضة عامرة بالحشائش القصيرة، كانت الجلاميد المكونة منها هذه الصخور يصل ارتفاع الواحد منها إلى قدمين أو ثلاثة أقدام، وكانت تلك الجلاميد ناعمة بفعل عوامل التعرية، كما كانت زلقة أيضاً؛ وكان فيما بينها أخاديد يصل عرض الواحد منها إلى بضع بوصات، أخذت البغال تنزل ذلك المنحدر خطوة بعد أخرى، وأرجلها الأمامية متصلبة حتى ينكفئ الراكب على مقدمة السرج بصورة مستمرة، وإذا ما قدر للركوبة السقوط فى أخدود من هذه الأخاديد فإن عقبيها سيصطدمان بالصخور مع حدوث خدش يمكن أن يصل إلى الظهر، وفى بعض الأحيان، قد تتسلخ ركبة الحيوان أو وركه عندما ينحشر فى شق من الشقوق، وهنا يفقد البغل توازنه فى معظم الأحيان، وينزلق إلى الخلف، ويضع السرج والراكب فوق كومة من حجر الصوَّان، أحسست بجسمى بعد ست ساعات مضنية من الصعود والهبوط، وكأنه شبيه بالجلى Jelly، كان بداخلى ألم كبير راح ينتشر فى سائر أنحاء جسمى على العكس مما ينبغى أن يكون، وددت لو أنى تحسست رأسى لأتبين ذلك الذى يؤلمنى بداخله.

قال عمر مشجعاً: "من المؤكد أن آليو آمبا سيكون وراء القمة الصخرية التالية". وبعد أن قال عمر هذا الكلام، مررنا على عشرات الأكوام الترابية الربَّانية Olympian، التى كانت كل حبيبة من حبيباتها عبارة عن صخرة، ضخمة مُسَنَّنة، كانت البغال تحملنا وهى متألمة فوق تلك القمة الصخرية، وكان جلاَّن الشخص الوحيد الذى نزل من فوق البغل، ولكن الباقين استمروا راكبين فى شىء من الحرص بمساعدة من الأيدى والرُّكب، وعندما وصلنا إلى قاع الوادى كانت قدماى تنزفان، ونزل جلاَّن عن بغله وسقط على الأرض من شدة المرض وهو يحدث أصواتاً تدل على الألم والمرض.

عند الساعة الواحدة، وصلنا إلى قمة صخرية فيها تل عند نهايتها شبيه بقمع السكر، وعلى قمته القرية المعتادة، واعتباراً من هذه المنطقة انفتحت الأرض وانبسطت أمامنا مثل صفحات الكتاب، كان فى الأسفل وادٍ متسع، ومن خلف ذلك الوادى كانت ترتفع سلسلة جبال آنكوبر بقممها التى يغطيها السحاب، أصبح بإمكاننا تمييز قرية آليو آمبا، التى تعد كبرى قرى هذه المنطقة، بغابتها المحددة وحقلها الواسع اللذين كانا يمتدان فى الأسفل مثل

نقاط الحبر على الخارطة، عن طريق سقف أو سقفين من الأسقف المصنوعة من الصفيح، بعد أن حصلنا على قسط من الراحة، التى فشل التصوير خلالها فى طمأنتنا وتهدئتنا، رحنا نجر أنفسنا نازلين إلى الأسفل عن طريق دولوروسا Dolorosa، وفى كل مرة يجرح فيها حجر قدماً من قدمىَّ، كانت تتوارد على ذهنى صورة ذلك الجسر المحمى إلى درجة الاحمرار الذى يتعين على المؤمن اجتيازه وصولاً إلى الجنة، كانت البغال تتعرق وتقبع من خلفنا، كان آخر جنودنا قد وصل إلى المخيم عند الساعة الثالثة والنصف؛ وكنا قد أقمنا مخيمنا بين الزهور البرية والحشائش الشوكية بجوار الأكواخ الأولى من قرية آليو آمبا، ولم يغادر أحد منا المخيم إلا فى صبيحة اليوم التالى، وبعد أن ضمدنا أنفسنا، ودهنا أجسامنا بزيت المروخ، وبعد أن بدَّرنا أنفسنا ببودرة حامض البوريك، ومع هبوب الريح الباردة، ومع منظر السحب التى كانت فوق الجبال التى كانت ترتفع من فوقنا إلى مسافة ٢٠٠٠ قدم، بدأنا نرتقى فى طريق متعرج نحو الأعلى، كانت كنيسة آنكوبر معلقة بين السماء والضباب فوق قمة الجرف، فى حين كانت العاصمة القديمة تقع خلف هذا الجرف، لم يكن النوم قد طرق جفون هارولد جونز على الرغم من الطبابة الشاملة التى أجريت له.

قال هارولد جونز، عندما توقفنا لنملأ زمازمنا بالماء "إذا ما استمر هذا الطفل فى الصياح، أخشى أن أضطر إلى فتح النار عليه".

رددت عليه "لِمَ لا؟" وأنا أستمع إلى واحد من طيور الليل الذى كان يصدر صوتاً ممتازاً مقلداً صوت الطفل وهو فى مرحلة التسنين.

الفصل الثامن

آنكوبر ووفاة عمر

آنكوبر، عاصمة الشّوا Shoa القديمة التى تخلى عنها منليك Menelik لصالح آديس آليم Alem، والتى سميت فيما بعد أديس أبابا، عبارة عن قرية كبيرة موزعة على شعبى قمة جبل مخروطية الشكل تتقسم انقساماً حاداً فى المنطقة الواقعة تحت القمة، سكان قرية آنكوبر يقدرون ببضعة آلاف وهى مقر لحكومة إقليمية برئاسة دجيز ماتش آسافا Asafa، تدرج القرى بأكواخها المصنوعة من القش، وانتشارها البهيج غير المنتظم، يجعلها تبدو كما لو كانت مبنية الواحدة فوق الأخرى، وسط أيكات الأعشاب المزهرة، وأشجار الموز، ونباتات اليوكالبتوس العطرية ذكية الرائحة، هذا جبل مخروطى متوج بمنزل الحاكم من فوقه، مجموعة من الأكواخ الكبيرة داخل سياج من القصب، والمجموعة الأخرى من الأكواخ تقع فيما بين كنيسة يسوع، وكنيسة مريم، وكنيسة مُخَلِّصنا، وهناك كنيسة رابعة، كنيسة القديس جورج، تقع على الحافة المنخفضة التى تحيط بها أشجار الكوسو kosu التى يصنع من زهور عناقيدها الحمراء المتدلية نقيع شبيه بنقيع الشعير.

تعد قرية آنكوبر السجن السياسى لأولئك الرؤساء الذين تمردوا على الأسرة الحاكمة، وعليه يجرى تعيين حراسة مشددة على الحواف المرتفعة التى بين القمم الجبلية، غير مسموح بمرور أى أحد من الناس من مخروط إلى مخروط آخر بعد الساعة الخامسة والنصف مساء، وإذا ما كسر إنسان هذه القاعدة يجرى إلقاء القبض عليه بواسطة الحراس، الذين يقومون بربطه إلى عمود من الأعمدة، ويترك فى مكانه إلى أن يطلع الصبح، وعندها يكون قد عرف بحق قيمة الوقت.

آنكوبر لا يـأتيهـا أى نوع من التـجـارة، نظراً لأنهـا تقع فى مكان بـعـيـد عن طرق القوافل، متشحة بضبابها وعظمة قداستها، لأن جد منليك هو الذى بنى كنيسة يسوع القديمة من الطين والجبس، يزاد على ذلك أن العُرّج والمشوهين يأتون إلى هذه الكنيسة بحثاً عن الصحة، صعدنا إلى أعلا لنلقى نظرة على المبنى المستدير المصنوع من القش، الذى يقول ستيرن Stern إن فيه صورة للملكة فيكتوريا، مهداة من الملك هايلى مليكوث Haeli Melicoth، يجرى توقيرها منذ زمن طويل على أنها صورة من صور مريم العذراء. الممر الخارجى لهذه الكنيسة مبطن بدعائم بهيجة فى بعض أجزائه، وغشيم فى أجزاء أخرى، ومنحوت فى أجزاء ثالثة، جدران المعبد الرئيسى مرسوم عليها ملائكة وقديسون سود الشعر، ومن بينهم يوحنا ومنليك، وتيودور وغيرهم من أفراد الأسرة المالكة الحبشية الذين جرى تصويرهم وهم متوجون، ومجنحون وفى حراسة جنود مسلحين بالبنادق! وهناك صورة أزرق فى أسود لشيطان ضخم يقرقش العديد من الضحايا، على الرغم من السلاسل التى يتعين أن تخفف من شهيته، كنيسة مريم، بصوت جرسها الرخيم الجميل، هى الكنيسة الوحيدة التى يمكن رؤيتها من الأسفل؛ لكنها كنيسة حديثة، فيها عُمد مدهونة وصليب أصفر عبر سقفها.

سكان قرية آنكوبرِ يشكلون مجتمعاً منفصلاً يعول نفسه بنفسه، ويعتمد على الخشب الذى يُأتى به من الغابة، والحبوب والقطعان التى تأتى من منحدراتهم، والمنتوجات التى تأتى من بساتينهم، وسكان آنكوبر هم الذين يقومون بالغزل والنسيج الذى يحتاجونه، وقد رأينا أمام كل كوخ من الأكواخ نولاً أو اثنين من الأنوال اليدوية الخاصة، التى يستعمل الرجال فيها المكوك على إطار بدائى، وشاهدنا أيضاً المظلات البيضاء وهى تكبر تحت رعاية نساء آنكوبر ومعهن سلالهن المليئة بوبر القطن وموضوعة إلى جوارهن، وهن يقمن بلف هذا الوبر على بكرة ويغزلنه إلى خيوط.

كنا نطلع وننزل فى مسارات طاحونة الهواء، وآلات التصوير مستعدة، عندما أحضر لنا بلاّم باراسِّى رسالة تفيد أن حاكم آنكوبر يود لقاءنا، وعليه، صعدنا إلى أعلى مخروط، ومعنا، جمع من المرافقين السعداء لنا، تجاوزنا سوراً مزدوجاً، واستقبلنا حرس الشرف، وقف حملة البنادق الذين يرتدون

ثياباً بيضاء فى الوضع سلام سلاح، سارع أفراد الحاشية حاملو المظلات (الشملات) أرجوانية اللون بالاتجاه نحونا، وبين جمهور من الخدم كبار وصغار السن، أرشدونا من خلال أكواخ متعددة، مربعة الشكل متينة البناء، لها أسقف محمولة على دعامات، وجدران مبطنة بعيدان القصب، إلى أن وصلنا غرفة الاستقبال الرئيسية، رحب بنا دجيزماتش أسافا Asafa فى تلك الغرفة، وهو رجل قصير ورَبع، بطئ الكلام، لكنه ذكي، جلسنا على وسادات مفروشة بالسجاد وشربنا العسل والماء الذى كان زلالاً تماماً، بينما كنا نتبادل التحيات والأمنيات والتمنيات الطيبة؛ لكن الكشف عن كرم ضيافة سعادته لنا لم يأت إلا فى مرحلة لاحقة عندما جاء إلى مخيمنا، كنت أكتب فى حين كان هارولد جونز يقوم بتعديل وضبط بعض الأشياء فى عدساته من المقاس ست بوصات، بينما كان عمر يتناقش مع مالك البغال، وعندها بدأ يهبط موكب من الجبل أوحى لنا بأفريز لا ينتهى، كان ذلك الموكب قد وصل إلى خيامنا قبل أن نفيق من دهشتنا، وفى غصون دقائق معدودات، لم يكن قد تجمع حولنا عدد من الأغنام، والماعز، والبيوض، والدواجن والخبز المر رمادى اللون، وإنما كان هناك أيضاً عبيد كانوا ينزلون من فوق رءوسهم سلالاً قرمزية اللون، راحوا يخرجون منها أطباقاً مغطاة الواحد بعد الآخر فيها طعام كان لا يزال حاراً.

كان حاكم آنكوبر قد أرسل لنا عشاء حبشياً يكفى اثنى عشر فردا، كما أرسل لنا أيضاً كمية كبيرة من مشروب التدج ومشروب البرز Birrz الذى له حلاوة العسل، كان لعاب جلان يسيل وهو يرتب ويصف هذه الأشياء الثمينة فوق الصناديق التى استعملناها طاولة فى هذه المناسبة، كانت هناك كتل من الدجاج المنقوع فى صلصة البربرى(✩) Berberi، كانت هناك أيضاً خلطة من الشعير والزبد، وشرائح اللحم المشوى والبطاطس، وشرائح من لحم الطّلى والخضراوات، والكبد، وفاكهة صلبة صفراء اللون، ونحو اثنى عشر صنفاً آخر، كلها متبلة ومغطاة بالصلصة على نحو يصعب معه تعرفها، لكنها كانت كلها لذيذة، قمت أنا وهارولد جونز بأخذ قطع مختلطة، من كل صنف من هذه الأصناف، فى طبقين من أطباق الحساء، ولففنا أنفسنا فى بطانيات،

✩ البربرى: نوع من الصلصة الحمراء الحريفة والخطرة على الحلق (المترجم)

لأن الجو كان باردًا كما لو كنا فى كُنِّى Kunni، وجلسنا متعمدين نأكل إلى أن لم يعد بداخلنا متسع لمزيد من الطعام!

لم ندرك الجانب التعس من كرم ضيافة الأسافا إلا فى الصباح، عند الساعة السابعة صباحاً كان المخيم بكامله مخموراً ومصمماً على أن يزداد سُكْرًا على سكره، كان الموقف واضحاً للوهلة الأولى، نظراً لأن مالك البغال هو وبغالته كانوا متمردين داخل خيمتهم، التى قمت بتقويضها على رءوسهم فى الحال، بأن خلعت الأوتاد من أماكنها، وكان الباقون منهم راقدين حول أوان متباينة الأحجام، وقرع مفرَّغ مختلف الأحجام، وقرون حيوانات، وجرار كلها مليئة بمشروب التدج المسْكر، لم تستغرق مسألة قلب هذه الأوانى كلها رأساً على عقب سوى بضع ثوان؛ الأمر الذى كان على مرأى ومسمع من الجميع، على الرغم من اكتشافنا بعد ذلك أن بضعة أكواب من ذلك المشروب خُبئت بعناية خلف شجرة من الأشجار، ومع ذلك، كان من الصعوبة بمكان إعادة الرجال إلى العمل، انسحب البغالة خزياً من تحت كومة الخيش، وصادرنا كل السوائل التى أحضروها معهم، لكن مسألة تحميل البغال استغرقت ساعتين، وتداعت أمتعتنا كلها خلال المائة ياردة الأولى التى قطعناها.

وتحتم علينا وضع عمر الذى كان يشبه قطعة من المكرونة الرطبة، على سرج البغل بواسطة جوطة Gouta، وعندما بدأت الشمس تعمل عملها اضطررنا إلى ربط عمر كما لو كان برميلاً من الخشب للخمر والمخلات فوق البغل لمنعه من السقوط عند أول منحدر، أثبت الصباح أنه كان عامراً بالإحداث التى من هذا القبيل، فقد اضطررنا إلى الدوران الحاد حول الوادى وتسلق سلسلة الجبال المقابلة التى جعلت من آنكوبر قزماً، إلى أن أصبحت صخرتها الأسطوانية شبيهة بالطوربيد المُلَبَّس بالرَّخويات الذى تتعلق به الأكواخ الشبيهة بعيش الغراب فى عناد وإصرار، سقط عمر هو وبغله فى المجرى المائى الموجود فى الغور، لكن الحمام البارد لم يكن تأثيره أكبر من الريح الباردة التى واجهتنا على الهضبة؛ فى ذلك الغور، تركنا نباتات عباد الشمس الضخمة هى وأشواك الجمال التى يبلغ طول الواحدة منها اثنتى عشرة قدماً، والتى لها كرات من الوبر أرجوانى اللون، فى أرض بدت لنا حليقة(☆) تماما.

× المقصود هنا: ان الأرض كانت جرداء تماماً. (المترجم)

استطعنا على بعد مسافة سبعين ميلاً، عبر المخروطات الجبلية، رؤية صحراء هواش البيضاء، فى الاتجاه العكسى، وشاهدنا أيضاً الأراضى المرتفعة غير مطوية ومنبسطة، وكأنها الجمشت(☆) لكنها كانت جرداء مثل الأخاديد والحواف المرتفعة التى تنتج محراثاً هرقلياً مميزاً.

قال بلاَّم باراسِّى، ونحن نتنهد طلباً للتخفيف عن أنفسنا: " الطريق السيئ خلفنا! " نظراً لأن البغال التى أحضرناها من هرر لم يتبق منها سوى ست فقط، بدت وكأنها تذكارات من إحدي المصارعات الإسبانية للثيران، كنا قد اشترينا ثلاثة بغال آخرى من آنكوبر، وبعد مغادرتنا القرية مباشرة، كان حاكم القرية قد أرسل فى إثرنا بغلاً قوياً جميلاً، عمره خمس سنوات، وأصر على أن يكون هدية على أمل "الاحتفاظ بآنكوبر فى قلبى"، انشرح صدرى لهذه الهدية، وكنت ممنونة لها تماماً، لكن مسألة ركوبى فوق هذا البغل استلزمت ثلاثة رجال ووضع غماء على عينى "الهدية"، التى أصابها الرعب والفزع؛ بسبب كل من يحاول ركوبها، لكن ثبت أنها ركوبة ممتازة، وبخاصة على الهضبة نظراً لعدم وجود ما يجعلها تجفل أو تخاف.

كنت سعيدة جداً بخطو ركوبتى الجديدة إلى حد أنى رحت أوزع القروش على كل الأطفال الذين كانوا يجرون بجانبى وهم يصيحون "صدقه، وسوف تباركك مريم(☆☆)" لكنى اندهشت إلى حد ما، عندما جاءنى مواطن مهندم، نظيف ومُزيَّت، ماداً يده إلىَّ.

قال دستا: "هو يريد استعادة ابنه عن طريق شرائه من جديد".

"ماذا تقول! هل ولده عبد؟"

ضحك الآخرون "مرحبا! لا"، وأوضحوا إلى أن الرجل أحياناً ينذر طفله الوليد الجديد لله وبعد ذلك، إذا ما أراد خدماته، فإنه يسترد هذا الابن من الكنيسة نظير تكلفة متباينة، الطفل الذى يتراوح عمره بين خمس سنوات وعشرين سنة يمكن استرداده نظير جنيه واحد إنجليزى وأربعة عشر شلناً،

☆ الجمشت: بفتح الجيم والميم وتسكين الشين: حجر كريم ارجوانى او بنفسجى، والمقصود هنا ان الأراضى المرتفعة المنبسطة مثل لون الجمشت. (المترجم)

☆☆ المقصود هنا مريم العذراء ابنة عمران. (المترجم)

والبنت يمكن إعادة شرائها نظير جنيهين إنجليزيين وخمسة عشر شلناً؛ لكن هذه القيم انعكست فى السنوات الأخيرة، وأصبح الرجل فيما بين سن العشرين والستين، يساوى نحو ثلاثة جنيهات ذهبية بريطانية، فى حين يقل ثمن المرأة عن ثمن الرجل شلنات قليلة.

يعد الإحسان فضيلة أساسية فى الحبشة، وكما هو الحال بين العرب، فإن الشحاذة تعد عملاً مربحاً ومشروعاً، وأى شكل من أشكال التوسل يحظى برد من هذا العرق طيب القلب، لكن طلب الهارب يعد أقوى كل هذه الأمور، شريطة أن يكون ذلك الهارب حر المولد، وأنا أعتقد أن مساعدة أى إنسان على الهرب من العدالة تكاد تكون مبدأً دينياً عند هذا الشعب الطيب غير المنطقى، وربما كان سبب ذلك هو أن مسألة الثأر فى كل أنحاء هذا البلد، أمر معترف به، على الرغم من تسوية مسائل الثأر هذه عن طريق النقود. فى أحوال الثأر يجرى اقتسام الدية على أساس دفع ثمانين دولاراً لأسرة القتيل، وعشرين دولاراً للحكومة، وعشرين دولاراً للسلطة المحلية التى أصدرت الحكم، وفى الظروف التى تكون فيها شهوة الثأر والانتقام هى الأرجح وتتغلب على الحرص المالى الذى يتميز به السواد الأعظم من الأحباش، تجد أن مسألة الثأر تعد حقاً مكروهاً لأنه يطال كل عضو ذكر من أعضاء الأسرة، إلى حد أن الطفل الذكر يمكن أن يُقتل عند مولده بواسطة امرأة شريرة عجوز تجرى رشوتها وتهريبها إلى أسرة ذلك الطفل للقيام بعملية الاغتيال هذه.

تكلم بلاَّم باراسِّى عن عادات أخرى غريبة بينما كنا نواصل سيرنا متلكئين خلال الحشائش المقصوصة، بين بقع الأرض المحروثة، التى كان الرجال يعملون فيها باستخدام مناخيس من الخشب فى حين كانت النساء يتبعنهم ويَرُحْن يقلبن التربة على شكل أكوام مستخدمات لذلك قطعا رقيقة من الخشب؛ لكن عمر سقط فاقداً الوعى، ورأسه مثل الحزمة المتورمة، يزاد على ذلك أن ترجمات الجندى جابرا جورجس Gorgis من الأمهرية التى كان يعرف شيئاً منها، إلى العربية التى لا يفهم منها شيئاً مطلقاً، جاءت مفاجئة على نحو يصعب معه تكرارها.

سرنا نحو ثمانى ساعات، ونحن نحس بانتعاش بفعل ريح لها رائحة الزعتر، وقوة النبيذ، على الرغم من أن هارولد جونز أصر على أنه أحس وكأنه طبق من السُّوفلية(☆) احترق وتجمد فى الوقت نفسه، لم ننزل من فوق دوابنا، نظرًا لأن الأوصياء على القافلة بلغوا من ضيق الأفق حداً جعلهم يظنون أن كل ما ينبغى عليهم عمله هو السير، متناسين تزايد أعداد البغال التى كانت أمامهم، معتمدين فى ذلك على ضرباتهم الطائشة وصياحهم الطائش أيضاً؛ لكن أثناء الركوب كنا نأكل البيض المسلوق، وتقصفت أظافرنا إن لم تكن أسناننا، بفعل آخر رغيف كان معنا من خبز هواش، أعطيت شيئاً مما معى إلى بلاَّم باراسِّى، لكنه نحى تلك الأشياء جانباً بطريقة لطيفة، وراح يذكرنا أن اليوم كان يوم صيام، أيام الصوم هذه يجرى الالتزام بها فى الحبشة المسيحية التزاماً صارماً، وفى أيام الأربعاء، والجمعة، لا يأكل المسيحيون الحليب، أو الزبدة، أو البيض، أو اللحوم، أو السمك، أو الدواجن، أو الحبوب اعتباراً من طلوع الفجر إلى الساعة التاسعة مساء، قيل لى إن ١١٥ يوماً من أيام العام فى الحبشة، والتى تبدأ اعتباراً من اليوم الحادى عشر من شهر سبتمبر، هى عبارة عن صوم أو أعياد فى الحبشة، ومن خلال تجربة القافلة التى استغرقت منى ثلاثة أشهر، اكتشفت أن القسم الأكبر من تلك الأيام سالفة الذكر يقع ضمن هذه التجربة.

فى ضوء الخريطة الإنجليزية التى كانت معنا، فإن المسافة التى بين آنكوبر وأديس أبابا على الطريق الرئيسية تقدر بنحو ٨٨,٥ ميل، لكن سيرنا بمعدل ٧,٥ ساعات كل يوم، جعلنا نقطع هذه المسافة فى أربعة أيام فقط، يزاد على ذلك أن بغال حمل الأمتعة المتعبة لا يمكن أن تسير بسرعة تزيد على ميلين ونصف الميل فى الساعة الواحدة، وعلى هذا الأساس أظن أن المسافة تقدر بنحو ٥,٧٥ ميلاً، وعليه يمكن القول إن آنكوبر تقع فى أقصى الغرب من هواش وذلك على العكس مما هو مبين على الخريطة، وإنها لمصادفة غريبة أن نجد أن الطريق من آنكوبر إلى أديس أبابا كان أقصر بمعدل ١٣ ميلاً عما كنا نتوقع، فى حين أن المسافة بين هواش وآنكوبر كما هى مبينة على الخريطة لا تزيد على ٥٣ ميلاً فى حين أنها تحو ٦٦ ميلاً

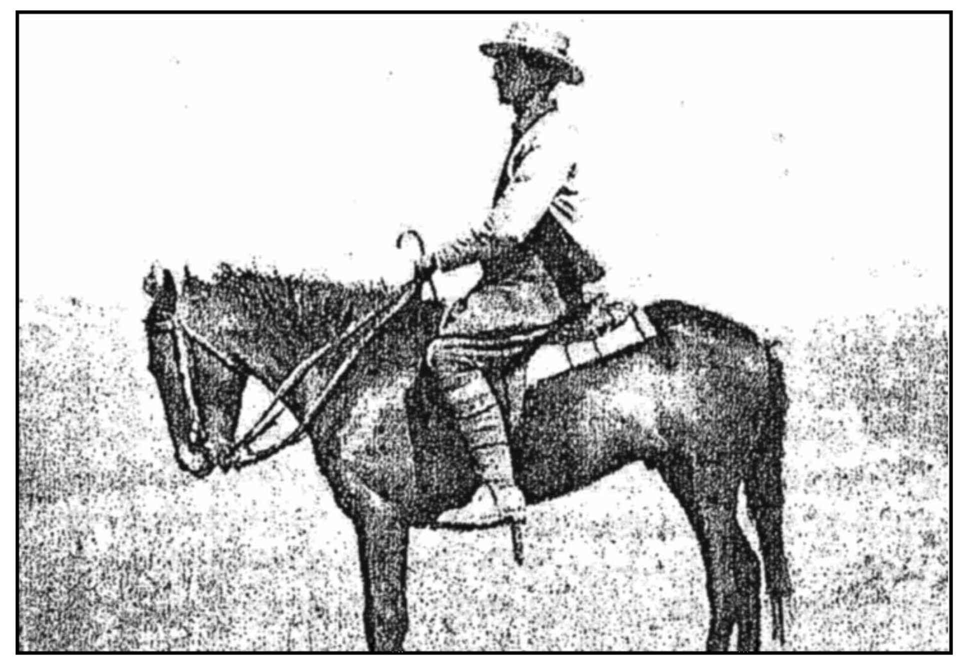
☆ سوفلية : طبق خاص يحتوى على بيض مخفوق بحيث يظل منتفخاً بعد طهيه. (المترجم)

تقريباً، وعليه، وجدنا أن الخرائط لم تزد من جمال رحلتنا، وسبب ذلك أننا لو كنا متصلبين ومعدومى التفاهم، ونعرف على نحو مؤلم أن السرج الحبشى مكون من لا شىء سوى عارضتين من الخشب إضافة إلى صلب الحيوان، لأمكن لنا أن يصبح مبتغانا وهدفنا عند أول منعطف، أو فوق الجبل التالى.

سرنا طيلة أربعة أيام عبر الهضبة، ولم يقطع لونها البنى المائل إلى الاصفرار أى شكل من أشكال الحياة النباتية، كان جابرا جورجس، من باب حكمته، قد أحضر معه حزمة من الحطب من آنكوبر، واستخدم عودين أو ثلاثة فى تسوية قهوة ساخنة، وطبخ على نار هادئة؛ لكن الجنود كانوا يجمعون الروث من الطريق ليستعملوه فى شب نار المساء، وهنا نجد أن الأسوار والأكواخ المبنية من الطين قد بدأت تحل محلها مجمعات سكنية مبنية من الحجر، وكان من بينها مجموعة من المساكن التى لها أسقف من العشب، وأن هذه المساكن كانت لا تزال مستديرة لكنها من الجرانيت والحجر الرملى المحلى، كان كل كوخ من الأكواخ محاطاً بنسخ مصغرة منه، كى يجرى فيها خزن الحبوب، وأقراص الروث المجفف، والبيرة المصنوعة من الشعير، إلى حد أن عيش الغراب بدا وكأنه عائلات تجمعت مع بعضها البعض تحت الطنف الأبوية البارزة التى قلدوها، كانت الأرض كلها ذهبية اللون وفيها محصول الشعير، وكان الحصادون غارقين فيه إلى ركبهم، وفى أيديهم المناجل، وجلود الغنم السوداء كثيفة الصوف تتدلى من أكتافهم، ومربوطة فى أرجلهم من الأمام.

طوال اليوم الأول كانت قرية مونت جمبيد Gimbebid وسط لونين أرجوانى وبنى يميل إلى الاصفرار فى الناحية الجنوبية منا، وعليه خيَّمنا فى تاره Tara بين واديين، حيث كان الماء أسود، كانت القرى التى تحمل أسماء عرقية، كلها مسلمة، ووصلنا إلى مقابرهم المستديرة استدارة أنيقة مثل أحواض الزهور، وكان القبر المخصص للرجال مميزاً بحجرين والقبر المحدد بثلاثة أحجار مخصصاً للنساء،" والسبب فى ذلك أن دفن المرأة يستغرق وقتاً أطول من دفن الرجل".

انحدرت الهضبة نحو الأعلى على شكل رُبى غريبة الشكل، وأوضح بلاَّم



السيد/ هارولد جونز: المصور السينمائى



ونحن على مقربة من اديس ابابا

باراسِّى المكان الذى سبق أن خيم فيه راس تفارى أثناء الحملة التى جردها على ساجالى Sagali ضد رأس ميكائيل Ras Mikael، والد الإمبراطور ليجى ياسو Liji yasuالذى عُزل مؤخراً.

قال بلاَّم باراسِّى مبالغاً "لقد حاربتم فى فرنسا سبع سنوات، أما هنا فى الحبشة فإن المعركة لم تدم سوى يومين، أسرنا بعدها راس ميكائيل، الذى توفاه الله فى السجن".

هذا الرئيس المشار إليه بدأ حياته على أنه راس على Ras Ali، ملك الجلاَّ فى وُلو Wollo، لكن منليك هزمه وخيَّره بين الموت والدخول فى المسيحية وأن يكون ذلك الدخول مصحوباً بالزواج من ابنة الإمبراطور، ووافق «راس على» على الزواج من ابنة الإمبراطور، لكن راس على لجأ إلى السلاح مرة أخرى، عندما جرى عزل ولده الذى أنجبه من ابنة الإمبراطور، بسبب ميولة الكبيرة إلى الإسلام، لصالح الإمبراطورة الحالية.

خلص بلاَّم باراسِّى بطريقة حالمة إلى أن "المعركة كانت جيدة، كان الرجال يضربون بالبنادق وبمدافع الماكينة وحيدة الماسورة التى تُبَرَّد بالماء، وبالرماح والنبابيت بل وحتى بالأحجار التى كانوا يأخذونها من الأرض".

أمضينا الليلة الثانية فى شانو Shano، وهنا تحتم علينا ترك عمر ومعه خيمة والجندى جابرا جورجس حتى يقوم على رعايته، والسبب فى ذلك أن عمر أثناء نوبة الشرب، كان قد خلط مشروب العَرَقى Arakiمع مشروب التدج، وقد أصيب بحمى وبنوبة من نوبات القلب، وفور طلوع النهار قمنا بزيارة أقرب المنازل ورجوناهم توفير مأوى لقائد قافلتنا، وعرضنا عليهم مبلغاً كبيراً، لكن القرويين كانوا بلا رحمة.

قالوا لنا: "سنعطيه النار، والماء والحليب والطعام، لكن ليس عندنا مكان للمرضى؛ وعليه وضعت الدولارات فى يدى جابرا جورجس السوداوين، ونبهته إلى إخفائها فى مكان أمين، وأنْ يقوم بإحضار عمر إلى أديس أبابا بأسرع وقت ممكن حالما يصبح قادراً على ركوب البغل، رد علىّ جابرا جورجس قائلا: "على رأسى وعلى عينى، لا تشغلى بالك، لأنى أنا الذى سأدفنه".

قلت: "تدفنه!"

عدّل الجندى كلامه "إن شفاه الله سأحضره إليك، لكنى أرى الخطر فى عينه".

كان على صواب فيما قال، لأن قائد القافلة توفى بعد ذلك بيومين.

غادرنا شانو ووصلنا إلى تولّوفان Tullofan حيث توجد مجموعة قليلة من نباتات البوكالبتوس وردية اللون، كانت تتلألأ على حافة وادى بولجا Bulga، الذى كان عامراً بالصخور الوعرة حمراء اللون وأرجوانية اللون؛ كان ذلك الوادى يزداد اتساعاً فى اتجاهه نحو الجنوب الغربى صوب السهل، وصلنا إلى ذلك السهل فجأة عن طريق مزلق من مزالقنا الصخرية القديمة، كان نبات الأغرسا Eghersa تنتشر أشجاره الشبيهة بخصلات الشعر حول كنيسة غريبة قديمة على رابية صغيرة، وكانت جبال يرر yerrer هى وزكوال Zucqual البعيدة يشيران إلينا باتجاه العاصمة، جاء مخيمنا الأخير على رقعة من الأرض الواسعة الموجودة أسفل غابة باك مريم Bakke Maryam؛ وركزت بصرى على المنتوجات التى يقوم رئيس القرية الكريم بتوزيعها، لم يصل أى شىء من مشروب التدج، لكننا رحلنا فى اليوم التالى ومعنا نحو ستة من الماعز السمان، التى بلغت من الكبر حداً، جعل الرجال غير قادرين على أكل سوى اثنتين فقط من هذه الماعز، كان من رأى هارولد جونز أن الماعز المتبقية يمكن أن تكون بديلاً ممتازاً، إذا ما انهارت البغال أمام سلسلة صخور برّاك Barrak، التى رافقتنا فى اتجاه الشمال لمسافة عشرين ميلاً، وتحتم علينا عبور هذه السلسلة فى نهاية المطاف.

وافق كل أفراد القافلة فرحين فى اليوم الثالث والعشرين من المسيرة التى بدأناها من داير داوا، والمصادف لليوم الثامن عشر من مغادرتنا هرر على أن "بيننا وبين أديس أبابا أربع ساعات فقط". كان قطيع كبير من طيور اللقلق رمادية اللون يراقب رحيلنا، وحومت الغربان والصقور حولنا، لكن للأسف، وبعد أن كدنا نجف بعد خمس ساعات من المسير فى ريح كانت تدفعنا من الخلف، بدأنا فى تسلق أحجار برّاك المتراجعة بشكل غريب، ومن فوق قمة هذه الأحجار ألقينا أولى نظراتنا على غابات اليوكالبتوس، التى لها لون رمادى ضارب إلى الزرقة، الذى كانت منازل العاصمة تلعب لعبة الاستغماية،

بعد مسير دام ساعتين أخريين التقينا مبعوثاً من قبل راس تفارى؛ كان ذلك المبعوث شخصية محترمة، والذى أظهرت ملابسه شديدة البياض كمية التراب والأوساخ التى كانت على ملابسنا، كان جلاّن وحده، مرتدياً ملابس نظيفة كاكية اللون، يزاد على ذلك أن بلاّم باراسِّى كان يبدو عليه التأكد من أن ملابس جلاّن قد وضعت مؤخراً فى طشت الغسيل.

سألنى هارولد جونز فى شىء من القلق "هل ترين أن من المناسب لى أن أرتدى أو لا أرتدى رباط عنق؟. لكنى كنت مشغولة تماماً بحذائى الذى بدأ يتشقق فى كثير من المواضع".

كان بلاّم باراسِّى شغوفاً باقترابنا من المدينة فى خبب سريع الحركة، يجرى خلاله الجنود فى مقدمة الركب، ومن حول رُكّاب البغال، لكن بغل هارولد جونز خارت قواه وانتهى.

قال صديقنا "أمسك البغل من رأسه؛ لأنه عندما يخفضه إلى الأسفل يتذكر أنه مُتعب".

تجاوب البغل مع لمسة هارولد جونز الرحيمة له على الشكيمة، لكن حياة المدينة كانت قاسية تماماً على أعصاب بغلى، كان اليوم مصادفاً ليوم السوق، ووسط موجة من التراب الخانق مثل ضباب لندن، بدأت تتحرك فى شوارع المدينة جماهير مختلفة الأوصاف، من النقل، والقيادة، والسياقة، ودفع أى شىء من الأثاث إلى الأغنام، أو ذلك الذى يشبه الدَّريس، مع كل شبح جديد، يبدو كما لو كان عجلاً ملفوفاً حول عنق رجل، أو كل حزمة من حزم القصب التى كانت تبدو وكأنها تسير من تلقاء نفسها، كانت راحلتى (ركوبتى) تغوص وترفس، مشتتة بذلك الشحاذين، ومسيئة إلى السواد الأعظم من المواطنين المحترمين لابسى أغطية الرأس السوداء، والمتلفحين والمختفين تحت مظلاتهم، والذين يهزون منشاتهم فى أيديهم، وأصابع أقدامهم مستقرة فى ركابهم، الذين راحوا يتصدرون الموكب مرشدين إيانا إلى المسار الخالى من العقبات، أخشى ألا نكون رصيداً لناصحنا صاحب الخبر، لكن الرجل كان شفوقاً وحانياً للغاية، وبانتهاء الساعة الثامنة، ثبت أن تأكيداته المتكررة كانت صادقة فيما يتصل باقترابنا من الفندق.

مشينا خلال آخر منطقة غابية ذكية الرائحة، عبر منخفض أحمر، وخلال

بدايات ونهايات الشوارع التى كانت المناطق الوسطى منها عبارة عن سدود غير كاملة، جرى إلقاء الحجارة فيها بشكل سائب بحيث تقوم بدو الميازيب، ومشينا أيضاً بين مئات الأكواخ المبنية من الطين، ونحتمى بأشجار الصمغ.

قال جلاَّن متعجباً، وناسياً أنه مسيحى "الحمد لله .. لقد وصلنا إلى الفندق". وبهزة نجم عنها انحراف سرج بغله نحو جنب من جانبى البغل، نزل الرجل إلى الأرض "إن شاء الله سنمكث هنا أياماً كثيرة وسوف لا أراك مرة ثانية!" ثم رفس بغله، الذى رد عليه برفسة مماثلة وأشد.

الفصل التاسع

مدينة الغابة: أديس أبابا

أصبحت أديس أبابا، "الزهرة الجديدة"، عاصمة للبلاد فى العام ١٨٩٦ الميلادى عندما قام منليك بتوسيع القرية التى أنشأها قبل أربع سنوات، بأن منع قطع الغابات، وأمر بزراعة أشجار ومزارع الصمغ على نطاق واسع، على أن تقوم كل أسرة بزراعة ما تستطيعه من هذه الأشجار، تقع أديس أبابا فى طبق محصور بين إنتوتو Entoto على ارتفاع عشرة آلاف قدم، وجبال أخرى تشكل حافة المنحنى المنخفض المعطر الذى فيه آلاف من أكواخ عيش الغراب وعشرات الآلاف من الأشجار، الهواء هنا له حلاوة العسل، وقوى إلى الحد الذى ينسى الإنسان معه ضآلة عدد ساعات النوم التى يمكن أن ينعم بها عند هذا الارتفاع ٨٠٠٠ قدم على وجه التقريب، أشعة الشمس هنا فى أديس أبابا براقة إلى حد ما، لكنها خالية من التقابل بين السواد والبياض فى الضوء الأفريقى، الغابة هنا شبيهة بمجموعة متباينة من الرماح، التى يتلألأ الجزء المعدنى منها فى مهب الريح، وفيما بين زرقتها المعدنية توجد بعض الشامات التى تتمثل فى بيوت بيضاء مبنية من الحجر، ومسقوفة بالصاج المضلَّع، وفيها أيضاً بقع من الطين عبارة عن أكواخ، والتلال الصغيرة، التى تتجمع الطرق عندها مكونة من ربوة صخرية صغيرة وجلمود صخرى أيضاً، فهى تعد أقزاماً إذا ما قيست على قصر الإمبراطورة Gibbe، القصر يعد تكتلاً من عمارة الأسقف، المنبسطة، والمستديرة، والمدببة، ومن الظُّلل، والمنزل والشُّرف، ولكونه يعد أعلى المبانى كلها فهو شبيه بالمعبد اليونانى القديم.

إذا كانت كل مدينة من مدن الدنيا فيها شىء مختلف وروح مختلفة أيضاً، فإن أديس أبابا وبكل تأكيد هى الأكثر روغانا من ذلك، نظراً لأنها لا تعد غير



اديس ابابا، قصر الإمبراطورية من بُعد

متحضرة Barbaric، أو تقليدية، أو خارجة على القانون، أو عديمة الحيوية، وإنما هى شىء مستقل منفرد عن ذلك كله، وهى تفخر بموروث تأخذه أمراً مسلماً به، وهى متواضعة أيضاً على نحو يفوق بريق الارتباك خجلاً أمام الآخرين، أنا لم أمكث فى المدينة الغابة كيما أدرك ما هو أكثر من ذلك، فى التناقضات العنيفة لهذه المدينة وفى عنفها اللطيف، نظراً لأن أديس أبابا تعد صورة من أهلها، أديس أبابا فيها قليل من البنايات الحديثة - فيها فندق، وفيها بنك الحبشة، وفيها المندوبيات الرسمية، وفيها بطبيعة الحال قصور الأسرة المالكة، لكن الأكواخ تفوق كل هذه الأشياء من الناحية العددية، وتكتم أنفاسها مثلما يحدث عندما ترجح كفة بساطة الاكتفاء الذاتى على كل من التأثير الأفريقى والأوروبى، سكان أديس أبابا الذين يبلغ عددهم نحو ٦٠٠٠٠ نسمة فيهم أعداد كبيرة من الليفانتين(☆)، والأرمن، واليونانيين، والسوريين، وفيهم أيضاً بعض الهنود واليمنيين صفر البشرة، لكن هؤلاء جميعاً مفروضون على الحياة الوطنية، ويظلون منفصلين عنها، وإن شئت فقل شيئاً غير مرغوب فيه، على الرغم من أن هؤلاء يسيطرون على التجارة والصناعة فى العاصمة، لو قدر لهؤلاء الأجانب أن يتركوا البلاد غداً فإن أهل أديس أبابا الأصليين لن يحدث لهم أى تغيير.

صحيح أنه فى أديس أبابا نحو ست سيارات، تعمل على الطرق الشبيهة بالخنادق أو الأرض المحروثة فى معظم الأحيان، لكن الجمل هو السيارة رباعية الدفع والبغل هو السيارة الأجرة (التاكسى).

القبعات المصنوعة من الفلين، وكذلك القبعات المصنوعة من اللباد على اختلاف أنواعها موجودة فى أديس أبابا جنباً إلى جنب مع عمائم القساوسة بيضاء اللون، والرأس حليق أو خصل الشعر المربوطة من طرفها بالمظلة أو الشملة، لكن المظلة المصنوعة من الأعشاب تظل جموع الناس، كما لو كانت أشرعة سفن يداعبها النسيم.

تتألف الحياة فى هذه المدينة من الأسواق التى فيها آلاف البشر، بل ومكتظة بآلاف السكان، الفلاحين، والتجار، وسكان الجبال المسلحين بالرماح، والمسلمين؛ والنساء اللاتى يسرن على أقدامهن واللاتى يركبن الحمير؛ وهذا

☆ سكان بلاد شرق البحر الابيض المتوسط. (المترجم)

هو سيد يمضي راكباً فلواً، وتابعوه يسيرون مهرولين عند ركابه؛ وهذه هى سيدة ملفوفة فى ملابسها فوق بغل من البغال- هذه النوعيات كلها مضفورة على شكل سجادة بشرية، لكن هذا المنظر يهيمن عليه قصر الإمبراطورة والكنائس، وعليه فإن الرَّهبنة هى التى تهيمن على هذا العرق المتدين قليل التعليم، لكن تلك الهيمنة تكون فى ظل حكم أو عرش يملك الأرض كلها، وبيده حق الموت والحياة على كل واحد من رعاياه، ومن حقه طلب العمل فى وقت السلم والقتال فى زمن الحرب، هذه منظومة إقطاعية تشكلت بفعل دهاء منليك، الذى وقف على مسألة الراسات Rases الوراثية، إذ كان كل واحد منهم هو الآمر بالحرب فى مقاطعته، ثم راح بعد ذلك وبطريقة متدرجة يستبدل هؤلاء الراسات بحكامه، بحيث يكونون تابعين للسلطة المركزية فى أديس أبابا، لكن المنظومة فى جوهرها إقطاعية يديرها ولى عهد ليبرالى الذهن.

معروف أن أفريقيا بدائية ومعروف أيضاً أن جمار العنف القديم لا تزال متقدة تحت السطح، لكن هنا يمكن القول: إن الحبشة ليست هى إفريقيا، لأن عنف الحبشة لطيف مثل ابتسامات وإيماءات وإشارات أهلها.

هنا فى الحبشة قد يُعدم القاتل على الملأ بطريقة بطيئة وفيها شىء من الإهمال، وقد يسلم لإعدامه بأيدى أسرة الضحية، لكى يكون ذلك صورة طبق الأصل من الجريمة التى ارتكبها القاتل، ومع ذلك فإن الأحباش يكرهون إزهاق الأرواح، والأحباش بدلاً من أن يعدموا حصاناً كُسِرت إحدى رجليه، يتركونه يعرج بلا أية فائدة، هذا فى الوقت الذى لا يحاول فيه أى أحد من الأحباش قتل أى كلب من الكلاب التى تعمل كزبالين فى المدينة، وتجعل ليل المدينة لا يطاق بسبب نباحها المستمر، سمعنا أشياء عن تعذيب جرى فى الزمن الماضى، لكنه أصبح الآن فى طى النسيان، شاهدنا تذكارات لكل هذه الأشياء، لكن على الرغم من حدة وسذاجة العدالة الحبشية، فإن قسوتها لا يمكن مقارنتها بقسوة عدالة الإسلام فى ليبيا المتشددة، وفى عسير أو فى جبال رزيولى Raisuli المغربية.

الناس فى أديس أبابا لا يركبون مطاياهم منفردين، إذ لابد دوماً من وجود ذكر أو عبدين، أو بضعة أفراد من حملة البنادق، أو صبى يحمل منشة

يحركها على الجانبين، ويتباين عدد هؤلاء الحراس حسب أهمية السَّيد، وهنا فى الحبشة لا يمشى أحد على قدميه طالما كان قادراً على اقتناء دابة من أى نوع، وواقع الأمر، أنى أرى أن دفع الناس إلى سرعة الحركة فى أديس أبابا أمر غير مطلوب بل ومنبوذ، يزاد على ذلك أن كبار السن عندما يضطرون إلى المشى بضع خطوات يجرى الإمساك بهم ومساعدتهم عن طريق الإمساك بهم من عند إبطهم، من هنا نجد أن حركة المرور كثيفة وبطيئة فى أديس أبابا، وعليه فإن الانحناء علامة التبجيل والاحترام أكثر شيوعاً من التدافع فى هذا البلد، يزاد على ذلك أن أية رفسة يوجهها أى بغل من البغال لأى أحد من السيَّارة تفضى إلى إدخال راكب هذا البغل إلى السجن، أو قد تقضى به إلى حبل المشنقة، نظراً لأن القتل الخطأ يعامل معاملة القتل العمد.

من هنا، يمكن القول إن أديس أبابا هى خير ممثل للصراع الخارجى والأمان الداخلى، والتناقض بين الثياب البيضاء والأكواخ المبنية من الطين، والتناقض بين إمكانات العلم الحديثة وشبكة الموروث العادات والتقاليد، بل وحتى التناقض بين المسيحية وأفريقيا التى أحرقتها الخرافات، هذه المدينة الغابة معقدة ومحيِّرة شأنها شأن المشكلات التى تحف بعرقها الذى لم يقهر.

أمضينا صباحنا الأول فى أديس أبابا فى دفع مستحقات القافلة، ووقع كل واحد من أفراد القافلة ببصمة إبهامه إقراراً منه باستلام حقوقه، وقد امتد ذلك الإقرار إلى صفحات عدة من اللغة الأمهرية، بعد ذلك أصبحنا احرارًا فى الخروج لتصيد لقطات معينة باستخدام آلة التصوير السينمائى، أديس أبابا مكان يصعب فيه التصوير، نظراً لأن الأشجار تحجب المناظر والرؤية، يزاد على ذلك أن المسافات يبالغ فيها عندما يكون الإنسان راكباً دابة من الدواب، المسافة فيما بين الفندق والمفوضيات تستغرق ساعة تقريباً على ظهر بغل من البغال، وهذه المسافة تمر عبر الجبل من أعلى إلى الأسفل وعبر بعض الأنهار، كما تمر أيضاً بالأسواق، والمركز التجارى؛ هذه المفوضيات لها بساتين جميلة جرى إنشاؤها وسط أميال من الأراضى الغابية، وجدنا كل أنواع الإثارة ونحن فى طريقنا إلى المفوضيات، عندما كنا نصادف سيارة كان الهرج والمرج يصيب راكبى الدواب وهم يقصدون أقرب المنعطفات إليهم

لإفساح الطريق أمام السيارة. الأسوأ من هذا، أن بعض المحدثين المُضلِّين كانوا قد أدخلوا العربة البخارية لأول مرة، وكان منظر هذه العربة من مسافة نصف ميل كافياً لإرباك الحيوانات كلها ويصيبها بالتشنج، وبنهاية أول مصادفة لنا مع العربة البخارية، انثنى هارولد جونز انثناء رشيقاً حول أذنى بغله، وقد تعلق السرج فى عرف البغل، فى الوقت الذى سارعت أنا فيه بالنزول عن البغل، وأنا ممسوكة بطرف من طرفى اللجام، فى حين راح البغل يتأرجح صاعداً إلى الأعلى ونازلاً إلى الأسفل، فى حين كان جُل(☆) الفرس ينزلق إلى الخلف فى اتجاه الذيل مع كل وثبة يثبها البغل إلى أعلى، أسفرت الوثبة الأخيرة عن سقوطى فى الحفرة وأنا متعلقة بلجام البغل.

قال الغريب الوسيم الذى جاء لإنقاذى: "هذا بغل ريفى، إنه ليس من بغال المدينة".

قلت وأنا أنفض التراب عنى بحيطة وحذر: "ربما يكون من البغال الرعوية!"

كانت أحواض الأنهار، التى هى عبارة عن سقوف ضيقة بين الصخور، تسر الخاطر دائماً فى فترة الصباح، عندما يكون السواد الأعظم من السكان مشغولين بعملية الغسل، غسل أنفسهم، وملابسهم، أو حاجيات منازلهم، كانت جلاميد الصخر لامعة بفعل الصابون، إذ كان الماء عليه رغوة من رغوات الصابون، فى حين كانت المظلات (الشملات) البيضاء بياض الثلج متروكة لتجف فى الشمس، وهى فى تناقض غريب مع بشرة أصحابها السوداء، وراح يزداد لمعانها بعد دعكها دعكاً شديداً.

اعتباراً من الساعة الثامنة يبدأ غبار الطلع ذهبى اللون فى التخييم على القطعان وجماعات الماشية القادمة إلى المدينة، والتى يتخللها هنا وهناك ثور طويل القرنين، يروح ينطح على طول الطريق إلى أن بدأت الحبال المتدلية من القرون والأعقاب تتوتر فى اتجاهات مختلفة ومتعاكسة، وكانت تلك هى اللحظة التى تحينتها قافلة من الإبل لتشكل نفسها على شكل الرقم ٨ المفضل عند هذا النوع من الحيوانات، كانت سوق الحبوب مثل خلية النحل حتى وقت الظهيرة، وكانت عامرة أيضاً بالحمير المحملة بجوالات من الجلد مملوءة بالحبوب؛ أما

☆ الجُل: بضم الجيم هو غطاء مزركش لسرج الفرس او البغل. (المترجم)

الحمّالون والعمال اليدويون فى العاصمة Gourages، والذين يبدون أقوياء البنى فى ستراتهم المصنوعة من جلود الأغنام؛ ونساء الجلا، بالزيت الكثيف الذى فى جدائل شعرهن؛ والخيول بظهورها المخدوشة كما لو كان ذلك بفعل الشباك المعدنية؛ وبنات المدينة الجذابات برءوسهن المزيَّنة بالقماش المضلَّع، وقد حملت الواحدة منهن على ظهرها طفلاً أو قرعة مفرَّغة؛ وكذلك المظلات الشبيهة بالتوجا(☆)، وكذلك غيارات ألبسة الفلاحين المدهونة بالزيت.

كانت تتجول فى سعادة وسط هذا الجمع من الناس أزواج كثيرة من المدينين والدائنين، ومن المدعين والمتهمين، وكانوا جميعاً مربوطين إلى بعضهم البعض بسلسلة تكفى لتقييد أربعة أقدام، لا أحد يحبس فى الحبشة إلا بعد ثبوت التهمة عليه، وبذلك تصبح هذه الطريقة وسيلة لضمان عدم هرب المتهم، وإذا ما اتهم رجل امرأة، تعين عليه إحضار قريبة من قريباته لربطها فى السلسلة مع المتهمة لحين صدور الحكم؛ فى حين يكون العكس صحيحاً، بطبيعة الحال، عندما يكون المدين ذكراً أو الدائنة أنثى، فى مثل هذا الحال يظل الاثنان مربوطين بالسلاسل ليلاً ونهاراً، وعادة ما يرسلان للعيش فى منزل صديق للطرفين أو منزل شخص آخر من الأشخاص الثقات.

كنا نمر فى بعض الأحيان، دون إعداد مسبق، على المحاكم، ويروح مرشدنا يوضح لنا ويشرح لنا كثيراً من الأمور وسط جمع من الناس وهو يشير بيديه إلى أشياء مختلفة، فى مثل هذه المناسبات يمكن استدعاء أى أحد من المارين ليكون قاضياً، ويروح يفض النزاع القائم حول ملكية الدواب، أو قضايا السرقة البسيطة أو التلفيات، مثل هذا الشخص يأخذ مهمته مأخذ الجد ويستمع فى صبر وتأن إلى مختلف الشهود، الذين يفيضون فى توضيح قصصهم، محاكين عملية سحب نعجة من النعاج، أو سرقة الحبوب بطريقة مسرحية، قد يطلب من المدعى ومن المتهم إثبات صدق أقوالهم بطريقة مادية، إلى حد أنه إذا قال المدعى: "أراهن على شاة أن كلامى صحيح"، فإن القاضى يسأل المتهم عما يراهن عليه من عسل أو حبوب أو جلود، حتى يثبت صدق كلامه، وهنا لا يخسر الخاسر قضيته فقط وإنما يخسر معها أيضاً الحيوانات أو المنتوجات التى راهن عليها؛ وهنا يجرى دوماً التسليم بما يقضى به ذلك القاضى غير الرسمى.

☆ التوجا: ثوب رومانى فضفاض. (المترجم)

تقدم القضايا المهمة إلى المحكمة، التى يجرى فيها تطبيق القانون المدنى وقانون العقوبات الدينيين القديمين المأخوذين عن شريعة سيدنا موسى، وبواسطة قضاة أكبرهم هو آفانيجوس (*) Afa Negus، ويقوم القساوسة بدور المقيمين، نظراً لأن القساوسة هم الوحيدون الذين يستطيعون فهم لغة الجعزّ التى بَطُل استعمالها، والتى ترجم فيثا نجاست القرن الرابع فى تاريخ لاحق، الملك وحده فى الحبشة هو الذى يقضى بعقوبة الإعدام، وعليه فإن القتلة يجرى إرسالهم إلى أديس أبابا لتجرى محاكمتهم هناك، كما يجرى فى أديس أبابا إصدار المراسيم الملكية التى تقضى بإعدام هؤلاء القتلة بواسطة أقرب أقارب القتيل وبالطريقة نفسها التى جرى بها قتل الضحية، لابد وأن هذا الإجراء كان يستثير الكثير من القسوة، عندما كان يجرى تسليم القاتل لتثأر منه الزوجة الثكلى أو الأب الذى فقد ولده، أما الآن، وفى حال رفض استلام الدِّية، وإذا ما كانت الجريمة من النوع الذى يعاقب بالإعدام على الملأ، فإن المحكوم عليه بالإعدام يجرى اقتياده إلى غور خلف محطة السكة الحديد، ويذهب معه أهله لأخذ جثمانه، وتذهب إلى ذلك الغور أيضاً أسرة المقتول، ويظل إلى اللحظة الأخيرة الجدل يحتدم بينهم، إذ يعرض الأول ويرفض الآخر، ويتزايد حجم الرشوة مع اقتراب الطرفين إلى وادى قبور المجرمين، وبين أولئك وهؤلاء يقوم سدنة القانون بتسليم المحكوم عليه بالإعدام أو المحكوم عليهم بالإعدام، إلى الأسر صاحبة الثأر، ثم يتراجعون خطوات قليلة إلى الوراء ليراقبوا ما يحدث دون إحداث أى تعذيب أو أذى بالمحكوم عليه بالإعدام.

هذه العملية كلها تجرى بسرعة وبطريقة مهذبة، يمسك أقارب المقتول شديدى البأس بالمحكوم عليه بالإعدام، فى حين تقوم أرملة القتيل أو رب العائلة بتوجيه الضربة الأولى بسكين، أو بفتح النار، طبقاً للطريقة التى حدثت بها واقعة القتل الأصلية، وإذا ما تطلب الأمر، إذ ربما تكون الآخذة بالثأر امرأة، يتعين عليها طعن القاتل الذى قتل زوجها، فإن القتل فى مثل هذه الحالة يمكن أن يتم بواسطة قريب آخر، تصل الشرطة بعد ذلك وتسأل عما إذا كان العقاب قد نُفِّذ أم لا، وهنا يقول صاحب الثأر سواء أكان ابناً أم

(*) معنى هذا الاسم الأمهرى: فاه الملوك. (المترجم)

أخاً، باللغة الأمهرية: Menelik Ye، Mutبمعنى "تم، يحتمل الموت الذى يقضى به منليك"؛ بعد هذا القسم الذى يعد أغلظ يمين فى مفردات الحبشة كلها يطالب الآباء المنتظرون الواقفون على مقربة للتأكد من التنفيذ العادل، بجثة القتيل، وإذا ما تصادف أن النفس لا يزال فى الجثة أو فيها شئ من رمق الحياة وهذا يحدث فى بعض الأحيان عندما يكون الجلاد غير محترف أو كبير السن، يجرى حمله إلى أقرب مستشفى، وإذا ما شفى مثل هذا المصاب فهو فى عداد من أنزل به العقاب، لأن الخوف من اليمين المغلظة يعنى أن أسرة القتيل قد أقرت بالتخلى عن الدية.

حدث عندما كنا فى أديس أبابا تنفيذاً لواحد من أحكام الإعدام تلك، فى الغور الذى تغمره أشعة الشمس ويقع خلف أشجار الصمغ، فى تلك الحالة كان المحكوم رجلاً آثماً سيئ السمعة، وحضر تنفيذ الإعدام جمهور يقدر بمائتى أو ثلاثمائة فرد كانوا يقفون عن بعد، وجرى اقتياد المحكوم عليه بالإعدام، وهو مقيد الذراعين خلف ظهره، بواسطة حارسين، لإنزاله من المنحدر، وكان يصيح طوال نزوله معلناً عدد الرجال، والفيلة والأسود التى قتلها، كان يقف بالقرب منه رجل يحمل سيفاً، فى حين قام اثنان من أقارب ضحيته الأخيرة برميه بالرصاص فى رأسه من مسافة قريبة، لم تنطلق البندقية الأولى، لكن الموت كان فورياً وفى الحال. وعلى الفور، تراجع الجلادون، تاركين المكان لأصدقاء القتيل، الذين حملوا الجثة تحت ملاءة حملوها على شكل مظلة، إلى المكان الذى كان حفارو القبور يعملون فيه لتجهيز حفرة الدفن، هذا العمل، البدائى، الوضيع والمؤثر استغرق ثلاث دقائق من بدء ظهور المحكوم عليه بالإعدام إلى حمل الجثمان، لم يكن فى هذا العمل أية إثارة أو فضول من قبل الجمهور، الذى تعود على إنجاز كل أعمال الحياة بصورة علنية وفى الهواء الطلق، ليس هذا فحسب وإنما الناس هنا يفضلون تسوية هذه الأمور بأنفسهم.

أديس أبابا ليس فيها محامون، اللهم باستثناء المحاكم القنصلية، التى تبت فى المنازعات بين مواطنى هذه القنصليات ورعاياها، وفى حال ما إذا كان الأمر يتعلق بأوروبى وحبشى، فإن قنصل الأوروبى يجرى إشراكه باعتباره قاضياً مساعداً، وعندما لا تتفق خلاصته مع خلاصة رئيس المحكمة

الحبشى، تجرى إحالة القضية إلى راس تفارى، الجندى، أو السياسى، أو المصلح الاجتماعى، المسموح له بالقول "أنا الدولة، والدولة أنا".

كنت أتطلع إلى لقاء وريث هذه المشكلات الكبيرة، وربما كان وريثاً أيضاً لفرص كبيرة، لأنى أحسست بأن، كونه ممثلاً لأفضل الحبشيين وأوسعهم أفقاً، ربما يجعله مفتاحاً لحل ألغازها، حضرت حفل شاى فى عصر أحد الأيام، فى منزل كبير يقع على ربوة من الروابى، وفيه غرفة استقبال طويلة على الطراز الأوروبى، جدرانها بيضاء، وقماش قطنى منقوش (شيت) وسجاد سميك، كانت غرفة جميلة تطل على حديقة؛ وكان بعدها بوابة متوجة بأسد، ومجموعة من الحرس الخاص يلبسون الكاكى، كان الرَّاس Ras هو وزوجته، الأميرة منن، جالسين جنباً إلى جنب على أريكة، وكان الرّاس يرتدى عباءة زرقاء ملكية كبيرة، فى حين كانت الأميرة ترتدى عباءة سوداء مركباً على أطرفها قيطان (حافة) أحمر اللون من فوق مظلة (شملة) فاخرة مثل بيت العنكبوت، نهضا واقفين لتحيتى، ووجدت نفسى أمام رجل متوسط الطول، نحيف وقوى، وله يدان جميلتان أمسكتا بيدى بإحكام، معروف أن الأيدى تنبئ عن الشخصية، وشخصية ولى العهد عملية وفنية، لم يستعمل ولى العهد يديه فى الإفراط فى الإشارات، لكنها أعطتنى انطباعاً بالهدوء والثقة بالنفس، كان جميلاً بحق أن أتحدث إلى أمير وأميرة، إذ كان واضحاً أن هناك نوعاً من التعاطف بينهما. كانت اهتماماتهما مشتركة، والأفضل من ذلك كله ضحكتهما، راس تفارى يتكلم الفرنسية والعربية ويستعمل الاثنتين فى أسئلته الذكية المتعلقة بترحالى، لكن الأميرة تتكلم من خلال مترجم، وأنا أذكر أننا ناقشنا سيام، التى زرتها والتى سرتهما باعتبارها مملكة محلية مستقلة، مغلولة بالتقاليد والعادات القديمة، لكنها منجذبة إلى التقدم الحديث.

قلت: "آمل ألا تتطور بسرعة، لأن الموروثات القديمة لها أهميتها".

ابتسم الراس، وتهلل وجهه إلى أن أصبح غير شبيه بملوك جوده Judah، الذين ماتوا قبل ثلاثة آلاف عام، وكانوا أسلافاً له، جاءت ابتسامته جادة وحانية، وكان فيها شىء من الالتماع والإضاءة، وهو يجعل سحر الجديد ينافس القديم، والمفيد والمنتج ينافس المسرف والمبذر والصعلوكى.



موسيقيون فى اديس ابابا



السوق الرئيسية فى أديس ابابا

أحضر الخدم لنا ألذ وأطيب شاى شربته خارج هونج كونج، التى يعد تصليح الشاى فيها طقساً من الطقوس، يتكون من عشرات الحُقّات الصغيرة ونحو ستة أوعية، بينما كنا نأكل الكعك بصفة خاصة، ونحن نحس بالخجل والكسوف، لأن مُضيِّفينا كانا صائمين، خطر ببالى فضول دفعنى إلى مناقشة طرق السيارات والرى مع رجل تؤهله قسماته إلى وضع صورته وطبعها على عملات سليمان المعدنية، أهم ما فى الأمر، أنى وجدت أن الأميرة وأنا كنا متفقتين على تلك الموضوعات المتباينة التى من قبيل الزواج والشخصيات الفلسطينية.

عدت إلى المخيم بعد غروب الشمس، عندما كانت الأشجار سرّاً معطراً، وفيما بينها مئات النيران التى كانت تتلألأ خارج الأكواخ، كان الدخان شبيهاً بالضباب، ومصطبغاً باللون الأزرق بين نباتات اليوكالبتوس، وعلى خلفية البقع البرتقالية الأخيرة تحولت السهام إلى ريش، وكانت أطرافها مشتبكة بشبكة الجواهر السماوية، انتقى البغل مساره برزانة، كانت حوافر البغل تُحدث صوتاً مصاحباً لصوت مستمر شبيه بخفقان القلب، كان ذلك الصوت صادراً عن قيثارة يجرى العزف عليها فى مكان بعيد أعلى الربوة، حيث كان اللهب يتردد ما بين الدخان والخيال، كنت قلقة مخافة أن يخرجنى وقع الأقدام الذى يتبعنى من هذا الوهم، كان أريج الغابة وصمتها مثل زجاج متقزِّح الألوان ويهب على نحو كنت أخشى معه أن يتبدد بفعل نغمة من نغمات الموسيقى.

مررت عبر ميدان السوق، كان القصابون الهنود يغلقون محالهم، كان واحد منهم خارجاً من دكانه حاملاً معه كومة من اللحم النيئ، الذى منعه قانونه من الاحتفاظ بها إلى الغد.

راح القصاب ينادى الكلاب مرة بعد أخرى وهو يقول: "بوشا! بوشا! بوشا!"

قفزت عليه خيالات، جاءه فيضان من الكلاب من كل جانب، موجة إثر موجة من الأشكال المُفرَّاة راحت تتدفق على اللحم الذى ألقاه لهذه الكلاب، كانت هناك زمجرات وهمهمات، وحيوانات تتدافع وتمزق اللحم وتتخاطفه، وهذه مجموعة أخرى من الكلاب تتزاحم، وقلة قليلة هى التى انسلخت هاربة بالفريسة التى حصلت عليها.

تكررت صيحة "بوشا! بوشا!" من جديد.

ردت عليه مئات الكلاب الضالة، وهنا رحت أستحث بغلى كيما يهرول ويسرع الخطى!

كان هناك صوت ينبعث من داخل ظلمة الليل عند مدخل الفندق، ينادى قائلاً: "جاربا جورجس فى السجن".

تساءلت وأنا ألهث "فى السجن؟" عن تلك الجريمة المخيفة التى ارتكبها طباخنا، ضحكت فى شىء من الارتياح عندما تذكرت "نعم، الأحباش غير مسموح لهم بالنزول من الربوة بعد دخول الليل بدون تصريح، وهذا أمر أكيد الآن، لأن جاربا جورجس يعد غريباً على هذا المكان، ولذلك فهو فى السجن". أولاً وقبل كل شئ، معروف أن سحر الوهم يتمثل فى أنه لا يدوم.

من يمن الطالع، أن طلع النهار علينا وقد أُطلق سراح تابعنا الأمين، الذى كان ممنوناً كثيراً لذلك، نظراً لأن المساجين لا يُطعمون من قبل الدولة، وإنما يعتمدون فى طعامهم على المؤن التى يقدمها لهم أصدقاؤهم.

تعجب الطباخ قائلاً: "دار سلام! وأنا لا أعرف أحداً فى المدينة سوى ولد عمتى، وهو متوفى بالفعل!" ظل الطباخ يتابع خطانا كظلنا على امتداد ساعات قلائل، بل إنه رافقنا عندما خرجنا ومعنا آلة التصوير ذات العدسة مقاس ست بوصات لنتصيد بعض اللقطات؛ وقد تمكنا بفضل هذه الآلة من تصيد بعض الصور لباعة العسل وباعة الشمع وهم على سجيتهم، كما تصيدنا بعض اللقطات للتجار وهم يتساومون فى شارع بوند على المظلات المكوَّمة، وللبنات الإماء وهن يثرثرن فى الوقت الذى طفحت فيه جرارهن الفخارية بجوار بئر الماء، حركة المرور بطيئة فى أديس أبابا، نظراً لأن الأصدقاء يقفون للتسامر والتحدث فى وسط الشارع، لكن السقائين الأشداء، أصحاب السيقان الغليظة، حليقى أو متموجى الشعر، هم فى نظرى أكثر كلاماً من أى إنسان آخر، أنا أظن أن الثرثرة هى امتياز ينفرد به العبيد، بينما كنا نلاحظ التدافع على البئر، حيث الماء مجانى للجميع، سواء كانوا من النوع الصبور أم من العجلين الذين يودون الاقتراب منه، مر علينا راس تفارى راكباً، كان يرافق راس تفارى نحو خمسمائة من الضباط والرؤساء الراكبين، فى حين كان حملة البنادق بيض الثياب يجرون بجانبه ومن خلفه، ربما كان

عـدد حـملة البنـادق يصل إلى نحـو ألف رجل، لكنهم كـانوا ضـائعـين بين الجمهور الذى كان يدور من حولهم ويتسرب من خلال صفوفهم، أوقف ولىّ العهد عشرات المرات بواسطة المواطنين الذين كانوا مصممين على التقدم إليه بالتماس، وكان بدوره يرد عليهم بروح طيبة ومدركاً تماماً للشعور الملكى الذى يوليه الناس إياه، هذا رجل قطع الطريق كله سيراً على الأقدام من هرر لكى يقدم التماسه إلى ولى العهد لأن مقاطعة الرَّاس، يسود إحساس بين الناس أنهم ليسوا شعبه أو رعاياه، وإنما هو ملك لهم، وينتمى إليهم، وأنه هو آخر وأوثق محاكم الاستئناف، كما أنه هو الأمير، وهو الأخ والرجل.

كان الجندى الأسود، جابرا جورجس، الذى كان مصراًّ على تفويت أكبر عدد ممكن من القطارات العائدة إلى داير داوا، ينظر إلى الرَّاس باعتباره نوعاً من الإقطاع المقدس، وأن من السهل جداً الاقتراب منه، وأنه أكثر منطقاً من أى مخلوق مقدس، قال جابرا: "لو أمكننى التحدث إليه، فإنه سيعيد إلىَّ عملى من جديد"، وهنا بدأنا من جديد نستمع إلى قصة وظيفة ضائعة ومعقدة لأسباب مختلفة.

تناولنا العشاء فى تلك الليلة مع الراس هو والأميرة منن Menen، قوائم الطعام المضاءة بالكهرباء، والمطلية بالذهب، والتى أحْرُفها من الذهب، والمغلفة بالزهور، والمطبوعة فى مطبعة ولى العهد الخاصة، وكذلك الطعام فائق اللذة، كل ذلك جعلنى أشك أنه جرى جلب رئيس للطهاة من باريس، وذلك من باب تقدير مضيفنا لأوروبا، لكن جمع الخدم الذين يرتدون ثياباً شديدة البياض، وكذلك العباءات الفضفاضة التى كان يرتديها الضيوف الأحباش، وكذلك حضور الدجز ماتش هيلو سليسى Heilu Selessi، عم ولى العهد، وحضور فيترارى دستا دومتو Dumtu، ذلك الزوج الوسيم لابنة ولى العهد البالغة من العمر ثلاثة عشر عاماً، كل ذلك أضفى على حفل العشاء مسحة أفريقية، طوال شربنا للشمبانيا ومشروب التدج، وطوال تناولنا لأروع المخلوطات والمأكولات الشبيهة بالآيس كريم، من كئوس زجاجية مصنوعة فى البندقية، كنا نتجاذب أطراف الحديث عن الحبشة.

قلت: "الحبشة تبدو مكتفية ذاتياً، احتياجكم إلى أوروبا أقل من بلدان أخرى أنا أعرفها".

قال الراس: "نحن بحاجة إلى التقدم الأوروبى فقط بحكم أنه يحيط بها، وهذا بحد ذاته نعمة ونقمة، هذا التقدم الأوروبى سوف يعجل من تطورنا، لكننا نخشى ابتلاعه لنا".

"لا خشية من ذلك، نظراً لأن الحضرى هو القادر على التكيف، أراه شيئاً طيباً، وسيأتيه بالفعل وعلى الفور، لكن فيض الحداثة لا يمكن أن يجرف الريفى أو يزحزحه عن قدميه!"

وافق ولى العهد "هذا صحيح، هناك فرق كبير بين الاثنين، الحضرى لا يخشى الجديد، وهو أقل الناس تشدداً، وعلى استعداد دائم للترحيب بالأوروبيين والاستفادة من معرفتهم".

قلت: "الريف والحضر متشابهان بصورة أو أخرى، الاثنان يتمتعان بخصائص وسمات العرق المسيطر". طلب الراس مزيداً من التوضيح؛ رددت عليه "العرب هم الشعب الذى أعرفه حق المعرفة، وعليه فأنا أحكم على شعوب الشرق بمقارنة هذه الشعوب بالعرب، العرب والأحباش مضيافون وكرماء، لكن العرب يخافون الأجانب ويشكُّون فيهم لأن العربى لا يكون واثقاً بنفسه، فى حين أن شعبك وبخاصة فى الجنوب واسع الأفق فى موقفه من الغرباء والأجانب".

ألمح الراس "الثقة الزائدة بالنفس تقترب من الغرور، والمؤسف أنهم اضطروا إلى معرفة أن هناك مغامرين بين -الرجال الحمر-، كما يصفونكم، لقد حصلنا على معرفتنا أصلاً من أوروبا، من البرتغاليين الفرسان، الذين ساعدونا فى حروبنا الطويلة، وأخذنا معرفتنا أيضاً من اليسوعيين الذين رافقوا البرتغاليين، ومعروف أن اليسوعيين هم أقوى البشر فكرا فى الرهبنة، لكن منذ تلك الأيام الخوالى جاءت صنوف مختلفة من الأجانب إلى هذه البلاد، وتعلم الحبشى كيف يميز بينهم".

اقتبست المثل العربى "المرء يجب أن يتعلم من جيبه".(*)

ابتسم الراس، قال: "المعرفة كلها جيدة" وحكى لى عن الوسائل التى يتبعها

× ليس لهذا المثل علاقة بالمثل العامى الذى يقول: اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب، الذى يوحى بالقدرية والتواكل لكنه قريب جداً من المثل العامى المصرى، قرشك فى جيبك عطا سيدك لكل الناس. (المترجم)

لتشجيع المعرفة، بنى ولى العهد مستشفى بالقرب من منزله من باب دعمه للمؤسسة الأمريكية برئاسة الدكتور لامب Lamb، التى منحها التاج قطعة أرض على سبيل المنحة، كما أن مطبعة ولى العهد مخصصة لنشر الكتب التربوية، لكن من باب استرضاء الأكليروس(☆)، الذين يعارضون التجديد بكل أشكاله، فإن المطبعة لا تطبع حالياً سوى الكتب الدينية.

أقحم أحد الأحباش نفسه قائلاً: "الكنيسة تمثل الحرية، والأكليروس يمثلون العبودية".

يجرى إنشاء كلية تتسع لمائة طالب؛ يجرى التخطيط لمد المدينة بالكهرباء؛ استوردنا مطحناً وآلات لتصنيع الأخشاب، كما استوردنا أيضاً مضخات وأنابيب لإمداد المدينة بالماء، كما استوردنا أيضاً مصنعاً كبيراً خاصاً للقطن، ومكوناً من اثنتين وأربعين ماكينة، مخصصة للتعامل مع مراحل تصنيع القطن كلها. ومبلغ علمى أن فكرة مصنع القطن هذه هى من عنديات الإمبراطورة، التى أحست بكثير من القلق على الشعب، عندما وصل قبل ثلاث سنوات سعر أبى جديد(☆☆) إلى ثلاثة عشر ريالاً(☆☆☆) لوحدة القياس الواحدة Length، أصدرت صاحبة الجلالة أوامرها بزراعة القطن على نطاق واسع وبدأت تخطط لإنشاء مصنع لغزل القطن المحلى ونسجه.

سألت الراس: "هل سيكون ذلك المصنع مجزٍ؟"

رد على: "الجديد لا يجرى مطلقاً، هذه تجربةً تعليمية، أنا أود تعليم الناس قيمة الصناعة، السواد الأعظم من الناس فى هذه الأيام يدفنون نقودهم أو يخبئونها، ليست لديهم أفكار استثمارية أخرى غير إقراض نقودهم لأناس يعدونهم بفائدة أكبر".

"فكرة جعلهم يهتمون بالصناعة، فكرة رائعة".

"هذه بداية، السوق لا تقام سوى يوم واحد فى الأسبوع، ويهجر الناس

☆ الإكليروس: عند النصارى هم رجال الدين المسيحى. (المترجم)

☆☆ ابو جديد :Abu Gedid كلمة امهرية، تعنى القماش الابيض الخشن المصنوع بصفة اساسية فى اليابان او امريكا، والذى تصنع منه البناطيل والقمصان فى الحبشة. (المترجم)

☆☆☆ الريال هو هنا الدولار او الطَّالير Taler, Thaler الذى هو نقد جرمانى فضى توالى إصداره من القرن ١٥ إلى القرن ١٩. (المترجم)

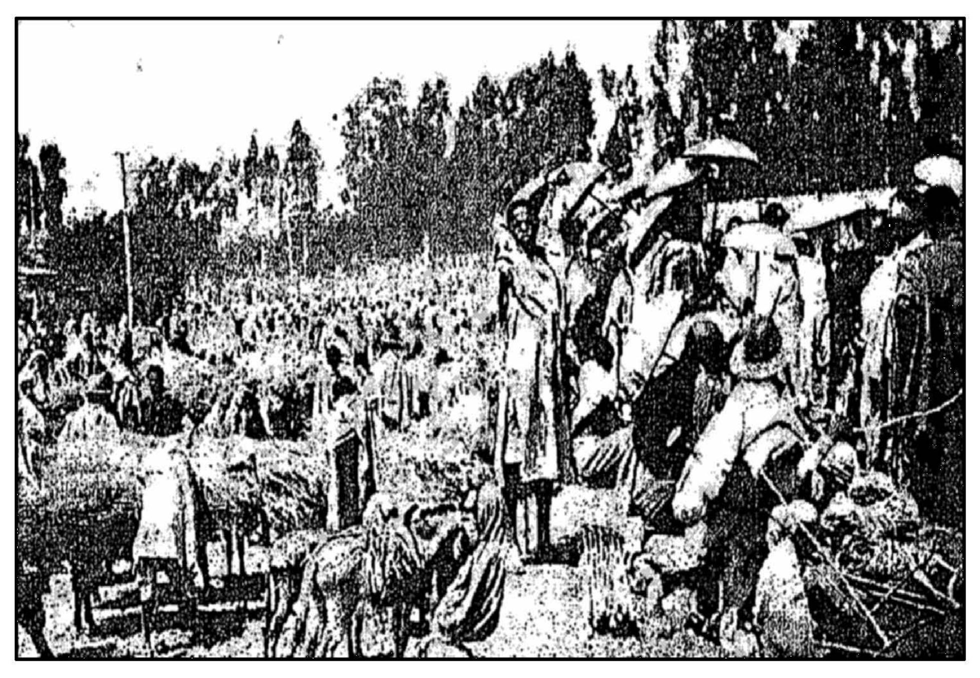
المدينة على امتداد ستة أيام، الآن الشوارع تعج بالتجار، المستعدين للدخول فى العمليات التجارية، أنا أشجع التجارة بكل أشكالها الجديدة، على طريقة الإمبراطور منليك، الذى درج على إلغاء الجمارك على السلع الأساسية التى يجرى استيرادها. لقد أعطى قروضاً للتجار الذين كانوا يريدون أن يبدأوا على هدى من الخطوط التقدمية وقال لهم: أحضروا السلع الجديدة كلها إلىّ، ولا تخافوا التجديدات أو تخشوا منها".

قلت: "لابد أنه كان رجلاً عظيماً".

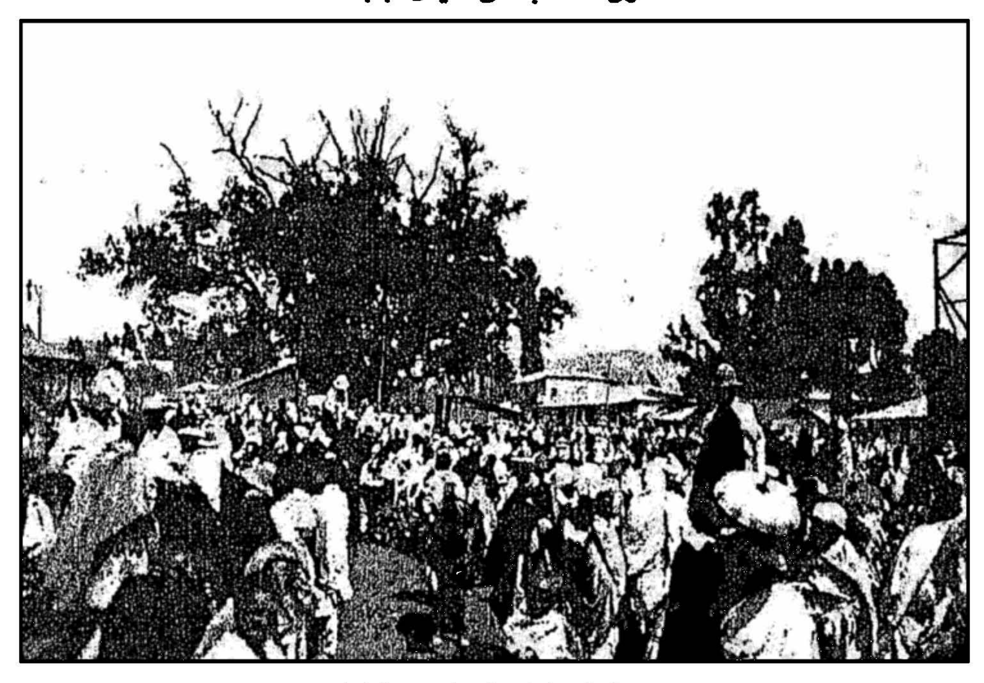
كان كذلك فعلاً، وكانت سلطته كاملة على شعبه، كان بوسعه عمل ما يشاء معهم.

كان منليك، بطبيعة الحال، يحظى بامتياز الغازى، وهذا يعنى الكثير فى الحبشة، التى يعد كل واحد فيها جندياً، لكن على الرغم من أن انتصاراته وقوة شخصيته وحَّدا بلاده فإنه لم يتمكن من أن يجعلها أُمَّة، ترك منليك لخلفه موروثاً من المشكلات، وأولى تلك المشكلات تتمثل فى مسئولية حكم الأعراق التى من قبيل الجلاّ Galla، والدناكيل، والصوماليين، والشناكيل Shanakil، أصحاب الديانات المغايرة، واللغة المغايرة، والعقلية المغايرة أيضاً، لقد خلَّف منليك بلداً واهى الارتباطات على نحو كشف مؤخراً أن عرى ذلك الارتباط الواهى أصبحت واضحة للجميع، ومسألة ثبوت متانة هذه العرى أمر تدور من حوله الشكوك. معروف أن التجرى Tigré والشوا Shoa، والأماهرة كانت ممالك مختلفة منذ قديم الأزل، وأن تلك الممالك كان يجرى بصورة مؤقتة توحيدها، وبين الحين والآخر تحت زعامة إمبراطور أو ملك، إلى حد أن الشكوك تدور من حول ما إذا كان العدو المشترك أو الخوف من الامتصاص الأوروبى، هما اللذان يمكن أن يصهرا هذه الشعوب مكونين منها أمة واحدة، واقع الأمر أن الشُّوانى Shoan لا يدخل ضمن هذه المجموعة، لأنه تزوج من الأعراف غير المتحضرة التى على حدوده، يزاد على ذلك أن الشُّوانى فى دمه شىء قوى من الزنوجة.

على الرغم من أن اللغة الأمهرية هى اللغة الديبلوماسية فى الحبشة فإن كل مملكة من الممالك القديمة كانت لها لغتها الخاصة بها، وكانت لغة الجعز موجودة إلى جانب هذه اللغات؛ معروف أن لغة الجعز هى لغة القساوسة



سوق العشب، فى أديس أبابا،



سوق العباءات فى أديس أبابا

والرهبان؛ ولغة الجعز هذه يتكلمها أيضاً التجرينيون؛ يزاد على ذلك أن اللغة العربية ولغة الجلاّ، معروفتان خارج حدودهما؛ واللغة التيجرية ليست لهجة، وإنما هى أكثر من ذلك، كما أن هناك ألسنة (لهجات) أخرى مثل الجوارج، والهرارى، والدنكالى، فضلاً علي لهجات أخرى.

بصرف النظر عن الأعراق الرعايا، فإن كل ولاية من الولايات الحبشية لها تأثيراتها التراثية ولها أيضاً مصالحها الخاصة، ويؤدى تقليب الأحقاد القديمة سواء أكانت عرقية أم أسرية إلى الإسهام فى الاضطرابات السياسية التى تجرى فى هذه الأيام، إقطاعيو الشمال يرفضون الحد من سلطاتهم، وتركيز السلطة كلها فى أديس أبابا.

من هنا يواجه ولى العهد ليس فحسب مشكلات الحاضر، وإنما أيضاً مشكلات الماضى المُلحَّة، ويتحتم على ولد العهد التعامل مع السمعة والصيت، والطبيعة الإنسانية غير قابلة للتغيير، إلا عن طريق بوتقة الحرب، أو عن طريق الانفعالات الأخرى، الفلاحون الذين هم عمود الحبشة الفقرى إنجيليون فى بساطتهم الرعوية، وقانعون بشمسهم الساطعة، ومناخهم الرائع، وهم ليسوا أذكياء بما فيه الكفاية، وهم مؤدبون ومضيافون، وتراهم أفظاظاً فى بعض الأحيان، ومكفهرين فى أحيان أخرى، حب المال شائع بين السواد الأعظم من القرويين، لكن المال فى المناطق الأقل تحضراً يترجم أو إن شئت فقل، يتمثل فى اقتناء السلاح والذخيرة، أو الضروريات المحلية الأخرى، أهل الحضر عجيبون، ومهتمون بجديد العصر، لكنهم حذرون ويندر أن يكونوا صرحاء، من الصعوبة بمكان إقناع أى أحد من الأحباش بالإفصاح عن نواياه وأفكاره الحقيقية، أحياناً، ومن قبيل التأدب والمجاملة يقول الحبشى: "نعم"، فى الوقت الذى لا يكون دوماً فيه قادراً على تنفيذ ما وعد به، لا أحد من الأحباش يعرف حالياً قيمة الوقت، لأن الغد، والعام القادم كلها سيان عنده.

وصلت قبل أن أغادر الحبشة إلى نتيجة مفادها أن الإمبراطورة الحاكمة، زيديتو **Zaiditu**، ابنة منليك ورثت الكثير من سمات وخصال أبيها؛ فهى لبقة وذكية، كما أنها هى القوة المحركة لكثير من مشروعات التحسين الاجتماعى، وهى أيضاً الوسيط بين القساوسة الذين يمثلون العالم القديم وولى العهد الذى يحث على امتلاك الجديد، الإمبراطورة بارعة فى فن حكمها، فهى فى

الوقت الذى توافق فيه على سياسة التنمية التى يتبعها راس تفارى وتدعم هذه السياسة فهى لا تزال بطلة الموروث، وهى تتعامل بحكمة بالغة مع كبار السن من الإكليروس، الغارقين فى العادات والتقاليد، وهى تقول لهم: "دعونا ننتظر لنرى ما إذا كان ذلك الشئ الجديد صالحاً أم طالحاً". لا أحد ينتقد الإمبراطورة، عندما تكون على انفراد، وبمعزل عن الغير، تكون متعاطفة بعض الشئ، فى إطار ظروف واعتداد يكونان بمثابة خلفية، هى مدركة لقيمتها، لكنها لا تجعل هذه الخلفية تتغلب عليها بأى حال من الأحوال، نظراً لأن الإمبراطورة تشكل قوة لها مغزاها فى الحبشة، وهى تدرك أنها ستكون مسئولة إلى حد بعيد عن تقدم الحبشة المستقل، يقال إنها قالت عند تتويجها: "على الرغم من أنى صغيرة الجسم مثل الملكة فيكتوريا فأنا أطمح إلى أن أكون عظيمة مثلها".

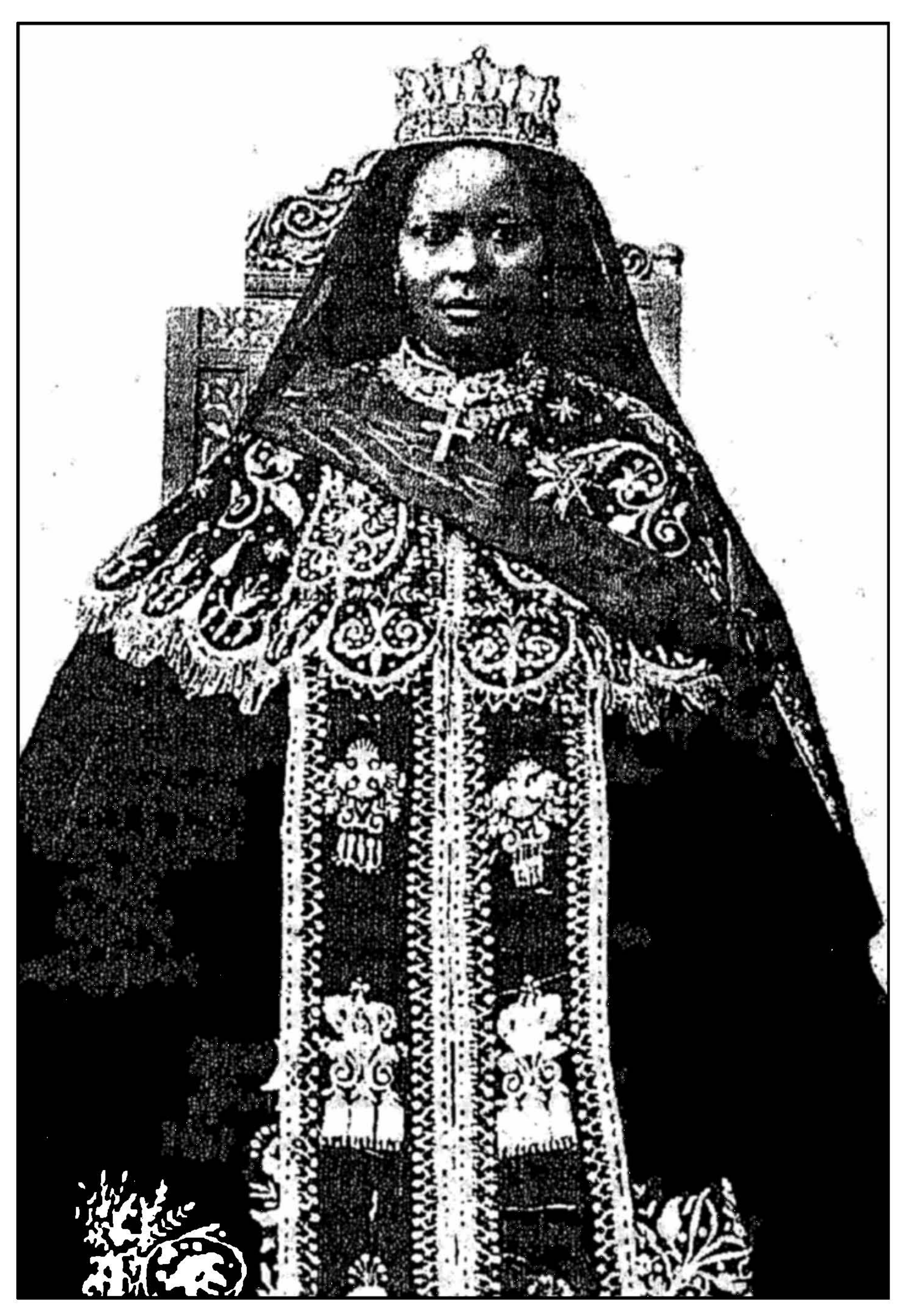
بينما كنا فى أديس أبابا، كانت الإمبراطورة هى وبلاطها فى حداد بمناسبة الذكرى السنوية السابعة لوفاة تاهيتو **Tahitu**، قرينة منليك، التى ستقام فى مناسبة تأبينها وليمة كبيرة يجرى فيها إطعام خمسة أو عشرة آلاف من البشر، التقاليد تحتم على الملك الحاكم المشاركة فى كل شكل من أشكال الحياة الوطنية، وعليه فإن الإمبراطورة مشغولة بالإشراف على استعدادات الضيافة، مما يمنعها من مقابلة أى أحد بما فى ذلك الوزراء، كانت الإمبراطورة تُوَبِّخُ من يريد لقاءها قائلة: "أنا مشغولة فى المطبخ". لكن الأدب الذى هو فضيلة حبشية جعلها ترسل لنا رسالة مفادها، أننا إن أردنا الحضور إلى القصر عند الساعة السابعة من صبيحة اليوم التالى، فإنها سوف تستقبلنا قبل أن تبدأ عمل يوم طويل متباين.

صحونا مع الشمس وركبنا مطيتنا فى ظلال أشجار الصمغ، كانت حبات الضباب منسوجة مع مواكيك الفجر وقد تعلقت باردة بزهور الليلج وألواح الصبَّار، كان عالماً من الزرقة، فى حين كانت الأكواخ بمثابة فطريات رطبة فى الغابة، كان الناس يركبون دوابهم مدثَّرين بعباءاتهم حتى أعينهم، أثناء توجهنا صوب قصر الإمبراطورة **Gibbe**، الذى تؤدى إليه الطرق كلها، مررنا على مئات من العبيد الذين كانوا يحملون على رءوسهم سلالاً حمراء اللون،

الخبز المطلوب لإفطار القصر، أو ربما كان لوليمة الغد، كان الحراس عند البوابة ملفوفين فى أغطية وعباءات، جرى اقتيادنا خلال سلسلة من الأفنية غير العادية ذات الجدران الحجرية، المليئة بحملة البنادق، والبغال المُسَرَّجة بطريقة فخمة، والخدم والمسئولين، بواسطة حاجب استعمل عصاه فى إفساح الطريق لنا، مساحة القصر تزيد على نحو ربع ميل من الأرض، وفى وسط متاهة أفنيته، وبين أفدنة من القش، والطين، والحديد، والحجر، توجد شرفتان، لهما درج خارجى وبلكونتان، وتعيش فيهما الإمبراطورة.

استقبلتنا زيديتو **Zaiditu**، ابنه منليك، أسد يهوذا، ملكة ملوك الحبشة، فى الطابق الثانى، فى غرفة ثمانية الأضلاع شبيهة بالباغودا(☆)، مفروشة بالسجاد الفاخر، ومعلق على جدرانها صورة منليك هو وقرينته، لم يكن فى الغرفة أثاث، غير الكراسى الثلاثة التى وضعت لنا، والكرسى المنخفض الذى كانت الإمبراطورة جالسة عليه، ورجليها على وسادة من القطيفة، ومن خلفها سيدة واحدة، وعلى الجانبين كان يوجد ياورانها وقساوستها، زيديتو، شأنها شأن كثيرات من ملكات التاريخ، صغيرة الحجم، لكن قامتها كانت مفخمة بفعل أسلوبها وطريقتها الهادئة التى تنطوى على شىء من الفتور، عندما قُدِّمنا لصاحبة الجلالة، وجدنا أن الحداد حتم عليها ارتداء عباءة غامقة سادة ولم يظهر منها سوى عينيها وخديها من بين ثنيات الشاش (الطرحة)، حتى اليد التى لمسناها كانت مغطاة أيضاً بنفس القماش الحريرى، لكن العينين السوداوين الواسعتين، الموضوعتين تحت جبهة عريضة كانتا مميزتين، كانت العينان تدلان على الذكاء وكانتا هادئتين، وفيهما حكمة سلالة نسبية عمرها ثلاثة آلاف عام وأمن وسلام ناجمين عن تفكير عميق. كانت المقابلة قصيرة لأن الإمبراطورة أصرت على أن تضرب مثلاً على الجد والاجتهاد أمام خلية منزلها التى تحركت، وطحنت، وخبزت، وشَوَتْ وخمَّرت، وبعد حديث دام دقائق معدودات عن ترحالى والتمنيات الطيبة لنا فى رحلة الشمال، التى بذلت هى وولى العهد كل ما فى وسعهما لتسهيلها، استأذنت وتركتنا نصور المدينة من شرفتها (بلكونة).

☆ معبد بوذى مكون من عدة طوابق ذو تصميم خاص. (المترجم)



زيديتو، إمبراطورة الحبشة

أخيراً عثرنا على المنظر مفتوح الرؤية فى أديس أبابا، وسبب ذلك أن المناطق الواقعة بعد أسطح القصر، تنخفض الأشجار فيها إلى واد عميق ثم تبدأ فى الصعود مرة ثانية، ثم تسير بعد ذلك على شكل صفوفٍ، إلى أن تصل إلى المنازل والأسواق، وتتوج الكنيسة ثمانية الأضلاع ذلك كله ومن خلفها ضباب الجبال. شاهدنا شكل الإمبراطورة الصغيرة وهى تمشى عبر الفناء، ومظلة من القطيفة حوافها سوداء وخضراء، مرفوعة من فوق رأسها، ومجموعة من أفراد البلاط حولها، على جانب من الأجناب كانت أسود بلادها تزأر من داخل أقفاصها، على الجانب الآخر كان أبو قرن(☆) يمشى على الحشيش الأخضر يفرد ريشه فى ضوء الشمس، كانت الأعمال الخشبية مطلية بلون الذهب، كان الجنود يجلسون مكشوفى الرءوس على شكل صفوف فوق كل جدار من الجدران، بدأ القساوسة يترنمون بالقرب من غرفة العرش الكبيرة، التى تطل على جبل منبسط وواد، كانت رائحة البخور فائحة فى الهواء، كما كانت هناك روائح أخرى مُشّهيةً تهب على المكان من داخل مدينة الخيش التى كانت بمثابة صالة للمأدبة، مر علينا صبية صغار، بالغى الأهمية وعليهم أحمال مقمَّطة بالقطيفة، كانت بتلات قليلة من بتلات الزهور ترفرف عند أقدامنا، وهنا خطر ببالى أن الورد شىء مقدس عند التجريين القدماء، الذين كانوا يصنعون البخور من بتلات الورد.

كانت أفنية القصر أكثر امتلاء عما كانت عليه عندما ذهبنا لزيارة مدير الكنيسة الحبشية Itchegue (☆☆) المسئول عن إدارة كل أفراد الإكليروس وممتلكات الإكليروس.

انتهت مأدبة التأبين، مئات القساوسة، آلاف الرؤساء، مسئولون وأتباعهم، كل أولئك تغدوا على اللحم النيئ الذى يصنع المحاربين، والذى بلّعُوه بمشروب التدج المخاتل، كان الرجال المسلمون يبتسمون بلهاء وأصحاب صوت عال، لم يتمكن العبيد من التحكم فى ضحكهم، كان الفم فى كل وجه أسود مفتوحاً عن آخره وأحمر، فى حين كانت العيون المحتقنة توحى بالجرأة، كانت الأسود

☆ طائر ضخم له منقار كبير. (المترجم)

☆☆ إتشيجو: مدير الكنيسة الحبشية المسئول عن إدارة والتحكم فى الممتلكات الإكليروسية والإكليروس انفسهم. (المترجم)

هى الأخرى قد أُتخمت باللحم النيئ، ولم تكن تهتم بالجماهير المارة بجوار أقفاصها، وهؤلاء هم أفراد الحاشية والبلاط فى لباسهم الأبيض يتكلمون متكاسلين وابتساماتهم غامضة، كانت الإمبراطورة قد ترأست منصة عليها ستارة، كانت فى أعلى الخيمة المصنوعة من قلاع المراكب والمفروشة بالسجاد، التى كان يجلس على موائدها المنصبية(☆) آلاف الضيوف؛ كان العبيد يقدمون لحوم الثيران النيئة، التى تتدلى من أعمدة والمغطاة بمفارش من حرير والقطيفة، إلى السكاكين الجاهزة والأسنان المهرة، ها هى الإمبراطورة تعود إلى غرفتها والفناء والشارع يعج بالضيوف الذين يغادرون المكان.

أبتسم أحد الحُجَّاب وهو ينحنى فى أدب، بينما كنا نشاهد الراكبين الذين يلبسون أغطية رءوس لها رفارف، ويسيرون بمطاياهم وسط لمعان مواسير البنادق وعصى الصلاة الفضية وقال: "قداسته فى انتظارك".

رسم القديس تكلا هيمانوت فى القرن الثالث عشر بأن أسقف الكنيسة الحبشية، أو بالأحرى أبونا **Abouna**، ينبغى أن يكون مصرياً ومعيناً من قبل الإسكندرية، باعتباره رابطة بين الكنيسة القبطية المصرية، الوَحَدى طبيعية(☆☆) التى تقر مفهوم العذراء الطاهرة، ولا توافق سوى على الطبيعة الواحدة للمسيح، والتى ترسم أيضاً بحتمية زواج القساوسة مثل شمامسة الكنيسة مرة واحدة طوال حياتهم، والذين أدينوا بالهرطقة فى القرن الخامس من قبل مجلس المجمع المسكونى(☆☆☆)، فى ضوء تخوف تكلا هيمانوت، من أن يباعد الجزء المعزول من بلده بين بلاد هيمانوت والحضارة، اقترح الرجل علاجاً لذلك يتمثل فى استمرار تقديم الثقافة السكندرية، حتى يمكن أن يكون أسقف الكنيسة الحبشية **Abouna**، مصرياً مثلما جرت العادة، ومن دير القديس أنطونيو الصحراوى، ولا يعرف سوى القليل جداً عن

☆ الطاولة المنصبية: طاولة تصنع بوضع لوح خشبى على مِنْصَبية او اكثر. (المترجم)

☆☆ القائل إن المسيح طبيعة واحدة. (المترجم)

☆☆☆ المجمع المسكونى الذى عقد فى العام ٤٥١ ميلادى، فى مدينة شالسدون تلك المدينة الصغيرة فى آسيا الصغرى على البسفور، وقد حرّم ذلك المجلس القول بالطبيعة الواحدة للمسيح. (المترجم)

العادات المحلية. ويترتب على ذلك أن تصبح مهام أتشيجو الذى يطلق عليه فى بعض الأحيان اسم "البابا الأسود" أكثر شمولاً وأهمية، كتابة أتشيجو أو "البابا الأسود" تسرى فى الكنائس كلها فى أرض يُقال إنها تحتوى على مليون متدين، وأنها استمرت معنا منقوشة فى خاتم مذهَّب، لكى تساعدنا فى عملنا.

استقبلنا إتشيجو (مدير الكنيسة الحبشية) فى غرفة مغطاة بالألواح الخشبية فيها رائحة خافتة كما لو كانت ناتجة عن طقس من الطقوس الدينية القديمة، كان يرتدى عباءة من القطيفة، ذات حواف مُذَهَّبة ومطرزة، تتدلى حتى قدميه، كانت عمامته البيضاء العالية مغطاة بقناع مزين بالورود وكان يمسك في يده صليب مُذَهَّب، كانت إلى جواره طاولة محملة بالمخطوطات المجلّدة بجلد طبيعى، وكانت أحرف هذه المخطوطات مرسومة أو منقوشة على الرُّق، كان يقبع فى مواجهة الجدار رهبان عديدون يرتدون عباءات زعفرانية اللون مرسوماً عليها الصليب الحبشى الكبير المربع، وافق الإتشيجو لأول مرة على مشروعنا الخاص بالتصوير السينمائى، وبخاصة كنائس لالبيلا المحفورة فى الصخر فى القرن الثالث عشر.

قال: "إذا كنتما ستصلان إلى هذا الحد فستريان أفضل ما فى بلدنا"، وقد لاحظنا مدى اهتمامه بملاحظته لنا على الرغم من تظاهره بعدم الاكتراث.

قلت لهارولد جونز ونحن على ظهرى بغلينا أثناء السير خلال المسوَّرات التى تحولت فيها البنادق وعباءات المحاربين، والعمائم، وأغطية رءوس القساوسة المصنوعة من الساتان، والمظلات (الشملات) المطرزة الشبيهة بلون القشدة، والسُّرُج المصنوعة من القطيفة ولها حواف مذهبة، أو السُّرُج البيضاء المرسوم عليها صلبان كبيرة قرمزية اللون إلى لوحة من القماش المنقوش فى ضوء الشمس الذهبى.

كان الرَّاس قد أرسل إلينا حصانين على سبيل هدية الرحيل، منهما حصان سباقات جميل، سررت جداً بركوبه، وحصان آخر قوى كستنائى اللون، وبينما كنت أعبر عن خالص شكرى وامتنانى لهذه الهدية الملكية، وصل بلاَّم باراسِّى: ومعه طرود ولفائف عديدة وغريبة.

قال بلاَّم باراسِّى: "هذه الطرود ويزيرو منين **Waizeru Menen**، على سبيل التذكار لزيارتكم".



الجماهير المحتشدة تنتظر نزول الإمبراطورة من فوق الجبل المقدس، إنتوتو

فتحت أكثر هذه الطرود إثارة للاهتمام ووجدت بداخله ثوباً حبشياً رائعاً من البروكار المزين بالورود، ومطرز من الحواف مثل سائر ألبسة البلاط الملكى، تطريزاً أرجوانى اللون، وأزرق وذهبياً، كانت هناك أيضاً مظلة (شملة) مغزولة من أشعة القمر بواسطة عنكبوت خيالى، ومسدودة بلون طاووسى أزرق وأخضر، ولا أدرى إن كان منسوجاً أم مطرزاً، لكنه جميل بشكل لا يصدق، لم يكن بوسعى البقاء كيما أعرب عن شكرى قبل أن أطلب من بلاّم باراسِّى الخروج من الغرفة كيما أقوم بتجريب كنوزى الجديدة، لكنه أستوقفنى ضاحكاً، وأنا أحاول دفعه ناحية الباب.

قال بلاّم باراسِّى: "هناك المزيد، انتظرى"، ثم أخرج من سلة صغيرة عقداً كله من الصلبان القديمة المحفورة فى الذهب، كان ذلك العقد نموذجاً مبهجاً لفن المجوهرات المحلى واللمسات الأخيرة فى تشطيب الفستان.

قلت: "هذا العقد جميل جداً، أنا معجبة به، لكن يتعين عليك الخروج من الغرفة، حتى أبدأ فى ارتداء ملابسى".

تهلل فرحاً ذلك الوجه اللطيف ذى العينين العسليتين الكبيرتين.

قال بلاّم باراسِّى: "وعليه، فأنت أنثى أولاً وآخراً، ظننت أنك بلغت من الخشونة حداً ترفضين معه الاهتمام بالحرير بكل أشكاله"، وقام بإغلاق الباب قبل أن أطلب منه توضيح ما يقول.

لابد وأن يومينا الأخيرين فى أديس أبابا كانا مكونين من عدد أكبر من الساعات التى فى هذين اليومين، فقد ركبنا خلالهما عدداً لا يصدق من البغال التى أعارنا إياها ولى العهد، الذى يعد نفسه من باب الكرم مضيفاً لكل الغرباء الذين يزورون بلده، يزاد على ذلك أننا كنا نبحث عن الصور بشكل جاد وملح، كان سوق السبت بمثابة الحقيبة التى تحتوى على أشياء متباينة، نظراً لأن السوق كان فيه عدد من البشر يتردد بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً يبيعون ويشترون فى الشوارع والميادين وفى الميدان الواقع خلف الأسواق المعتادة، ربما كان مستحيلاً وصف مختلف البضائع التى تباع، لأنها تتردد بين الماشية- مثل الماعز، والأغنام، والثيران، والخيول، والبغال، والحمير، والحبوب والدريس اللذين تأكلهما الماشية، كانت هناك السُّرُج ذات الأغطية الحمراء والشكائم التى تستعمل مع هذه السُّرُج- إلى المظلات

المصنوعة من الأعشاب، والأوانى الفخارية الضخمة، والسلال التى يصل حجم السلة الواحدة منها إلى حجم كوخ من الأكواخ التى يعيش فيها الدناكيل، أو العباءات وأغطية الرأس، والمظلات (الشملات)، وشمع الزَّبَّاد، والجلود، والسيوف، والأعشاب، والتوابل، والكحل، والبخور، والمجوهرات، والرُّقى والتعاويذ، والتروس، وكل أنواع المنتوجات، كانت فى السوق بضائع أوروبية أيضاً، فى صفوف متعددة من الدكاكين الصغيرة، ومن خلف هذه الدكاكين توجد جلود الأغنام، والقرع المفرَّغ، والقطن الخام، والأعشاب التى تدخل فى مشروب التدج، والعسل الذى يباع فى قراب من الجلد، والحبال الجديدة، والسمك الذى يبدو غير طازج، وقصب السكر؛ وكان فى السوق أيضاً صفوف من النساء كبيرات السن يبعن أشياءٍ مطحونة مكومة على صوان من العشب، كانت هناك بهارات أو بالأحرى المُنكِّهات التى كان الطباخ جابرا يُلح فى طلب القروش لشرائها.

عندما خانتنا الأسواق رحنا نستطلع جوانب التلال بحثاً عن الصناعات، وعليه التقطنا صوراً للعاملين فى الأوانى، وصناع مشروب التدج - الذين كانوا يشعلون ناراً فى الأوراق الخضراء فى فوهات جرارهن قبل صب العسل والماء فى الأعماق العامرة بالدخان، كان هناك صاغة الفضة، وصناع قرابات السيوف، وأمهات العائلات اللاتى وافقن عن طيب خاطر على أن يخبزن خبزاً رقيقاً رقة البسكويت الهش فى أفران تشبه لوحين من الصلصال، أو يطحنَّ الحبوب محولين إياها إلى دقيق بين حجرين، على مرأى ومسمع من آلة تصوير هارولد جونز.

سألت هارولد جونز ونحن فى طريقنا عائدين إلى المنزل على ظهور البغال عند غروب الشمس "حسن، هل أنت راض عما فعلنا؟" حل موعدنا الأول محل الإفطار، والغداء، إن كنا قد تناولناه، ولكن ذلك لم يترك فى أي أثر، كانت شفتاى خشنتين بسبب التراب، وكانت الأشياء الأخرى مغطاة أيضاً بالتراب، لقد رفسنى حمار فى السوق وأصابنى التهاب.

"تقولين راض؟ نعم راض، لقد جمعنا مادة جيدة". تحول الوجه القرمزى ناحية السماء «ليت هناك ضوء كافٍ لالتقاط الصور».

قلت: "لا، إذا كان هناك ضوء فذلك يعنى أنى ـ سأموت!"

♦ الفصل العاشر

قدس الحبشة

أمضيت ليلتى الأخيرة فى أديس أبابا فى المفوضية البريطانية، التى تعد أجمل المنازل الداخلية، نظراً لأن المفوضية مبنية حول فناءين صغيرين عامرين بالورود، يعيش فى أول هذين الفناءين بعض من طيور الدرَّه(★) أما الفناء الثانى فيعيش فيه ظبى، الشرفات الخارجية الواسعة فى المفوضية البريطانية محاطة عند أطرافها بجرار من الفخار مزروع فيها زهور السَّلبوت(★★)، وعلى مستوى منخفض من هذه الزهور تمتد أشجار الصمغ زرقاء اللون لتصل إلى منزل السكرتير الشرقى المصنوع من القش والمطلى باللون الأبيض. توجد فى ظلال هذه القرى المفخَّمة سلسلة من الغرف الدائرية اللذيذة التى ترتبط ببعضها البعض عن طريق ممرات؛ كان هارولد جونز يخيم مع بعض من أفراد حاشيتنا الجديدة الذين جرى سحبهم من أحضان عائلاتهم، فى اليوم التالى، وطبقاً لضيافة الوزير البريطانى والسيدة رسل Russel، كما كانت نفسى كارهة لابتعادى عن حماماتهم الساخنة، وأقمشتهم القطنية المنقوشة، وأطباقهم وردية اللون، ولحم الخنزير الطرى المأخوذ من الظهر أو الجنبين الذى يجعل البيض أكثر تشويقاً! تمكنا من تحميل بغالنا بأقل قدر من الضوضاء والتأخير، كان السيد زافيرو Zaphiro، السكرتير الشرقى، قد قام على أمر تنظيم القافلة كلها نيابة عنى، كما زودنا أيضاً بخادم يدعى بالينا Balaina، ومعه ستة زبانية(★★★) -Zabaniers لكى يحلوا محل الجنود الستة الذين كانوا معنا.

★ جنس طير من فصيلة الببغاوات. (المترجم)

★★ جنس نباتات ليفية مدّادة. (المترجم)

★★★ الزبانية: يبدو ان اصل هذه الكلمة قرآنى، وهى مستعملة فى اللغة الأمهرية، وتعنى نوعاً من رجال الشرطة غير الرسميين. (المترجم)

كان معنا فى هذه المرة اثنان من أصحاب البغال هما: آتو بلاكو Atto Belacho وآتو دويتو Atto Daiwitu، كان أولهما ناصحا ومحبا لنفسه فى بعض الأحيان، ويصعب عليه أن يرى إلى ما بعد الثمن أو الربح اليومى، لكن ابتسامة الرجل كانت أخَّاذة، وكان ماهراً فى الحكم على البغال، وعلى مظاهر الضعف البشرى، وكان من السهل عليه معرفة إرهاق بغاله، والتنبيه إلى ذلك قبل حدوثه، كان صديقه مختلفاً تماماً عنه، عندما كان يبلغ السيل الزبى، كنا نرى دويتو الطويل النحيف، خفيف الحركة مثل الجندب، وبلا شعر مثل النملة، فى أكثر من ستة أماكن فى آن واحد، يطلق النكات هنا، ويشجع هناك، مقللاً بذلك من وقع الكارثة عن طريق خفة ظله، لم يبد عليه التعب مطلقاً، ولم يحدث أن تجهم أبداً، على الرغم من قيامه بأعمال أكبر بكثير مما يقوم به الآخرون، كان آتو دويتو، بسبب نشاطه هذا، بارزاً وأساسياً فى معركتنا المطوَّلة مع صخور الحبشة وأشواكها، لكن الرجل لم يكن يهتم بالتمزيق المتدرج لثيابه، إذ كان يقوم بفتل بقايا هذه الثياب على شكل حبل متين، ويروح ينط بعد ذلك هنا وهناك مثل الحشرة البنية التى يشبهها.

كان لمالكى البغال هذين أتباع عديدون، لكنهم كانوا بصفة عامة، إما فى المقدمة على مسافة بعيدة مثقلين بأعمدة الخيام الطويلة وصعبة التناول، الأمر الذى كان يدفع حامليها إلى الانفصال بطبيعة الحال، عن القافلة، أو يروحون يعيدون تحميل بغل من البغال المتمردة، استطاع تخليص نفسه من حمولته عندما كان فى الأيكة، كان من بين هؤلاء الأتباع عبدان أسودان، شبيهان بالقردة والنسانيس إلى الحد الذى يجعل المرء يظن أنهما لا يمكن أن يكونا أكثر من حيوانين ودودين غبيين، كان هذان العبدان قصيرين ومربوعين بشكل لا يصدق، كان رأساهما المدوران اللذان نزع الصوف عنهما فى بعض أجزائهما، مركبين بين أكتافهما دون أن يكون لهما عنقان واضحان، كان فاهاهما بأنيابهما المفلَّجة البيضاء، مفتوحين دوماً، وكانت عيونهما جاحظة تحت شرائط من جبهة ليست سوى مجموعة قليلة من التجاعيد، وكانت مخالبهما، إذ من غير الصحيح أن نقول أيديهما، مفرَّاة وأصابعهما قصيرة، وتتشبث تماماً بكل ما يصادفها من طعام! وفى لحظات القيظ الشديد، عندما يكون الجميع يلهثون طلباً للهواء والغوث السَّحابى، كان هذان العبدان

يضعان على أكتافهما جلوداً فيها أرجل وحوافر وتتدلى منها أذيال، أنا لا أعلم إن كانا قادرين على الكلام بطريقة صحيحة أم لا، لأنى لم أسمع منهما شيئاً سوى همهمتين: Auبمعنى "نعم" و Esheبمعنى "وهو كذلك"، اللهم إلا عندما كانا يشاركان فى الغمغمة غير الواضحة التى تحدث خلال النقاش الذى يدور فى القافلة.

كان الخادم بالينا يعنى ما يقول، كانت نواياه الطيبة مخططة على جبهته إلى أن بدأت جبهته تختفى تماماً بفعل التراب وخصل الشعر المتدلية من رأسه، أدت خصل الشعر هذه إلى اختصار وجه هذا الخادم إلى نوع من اليأس المتشاكى، كما أدى ذلك أيضاً إلى اختزال لغته العربية، التى كان فخوراً بها، إلى كلمتين مميتتين: "إسْتَو" Astowi وكان يعنى بها كل ما هو إيجابى، مثل يعمل، يفعل، يجرى، يتحمل، يُنْزل، يُنَظِّف، يملأ، يَفْرِش، .. إلخ، إلى ما لا نهاية، والكلمة "أجلس" agliss والتى تمثل عنده كل ما هو سلبى، وبالتالى يمكن أن تكون عنده أكبر من كلمة "إستو" العجيبة.

تبلورت تلك النوايا الحسنة فيما لا يزيد علَى إعادة تغطية العلب التى رفعت عنها أغطيتها أو قفل الزجاجات التى رفعت منها فلِّيناتها، واستيائه من الفوضى المترتبة على ذلك؛ أو قد يقوم بوضع صندوق الدواء هو والصناديق الأخرى فى وضعها الصحيح، واقع الأمر أن هذا الخادم لم يكن يلقى بالاً للتوابع الأخرى التى لم تكن ملحومة بالقصدير مع أصولها، هرب بغله مراراً وبصورة منتظمة وكان يمشى معنا صابراً ولساعات طويلة دون تذمر أو احتجاج، كان يجرح نفسه بأتلم الأشياء وأقلها ضرراً وكان يعانى بلا شكوى، فى غضون دقيقتين أصبح قادراً على تدمير الترتيبات النظامية لأية خيمة من الخيام وبصورة أكثر فاعلية من الإعصار نفسه، وبعد ستة أسابيع من التخييم، كان الرجل لا يزال، وبطريقة منتظمة إلى أبعد الحدود، يتعثر فى الحبال كلها، كان يرد على كل سؤال وكل أمر بقوله "طيب" Taib(بمعنى حسن)، وإذا ما طُلب منه إحضار القمر ليكون صنفاً ثانياً فى العشاء، فإنه سيذهب بلا أدنى تردد أو فهم، مسارعاً إلى جابرا جورجس ليسأله من أين يمكنه أن يأتى بالشمس.

كان جابرا جورجس، الطباخ، هو الوحيد من بين أعضاء قافلتنا القديمة

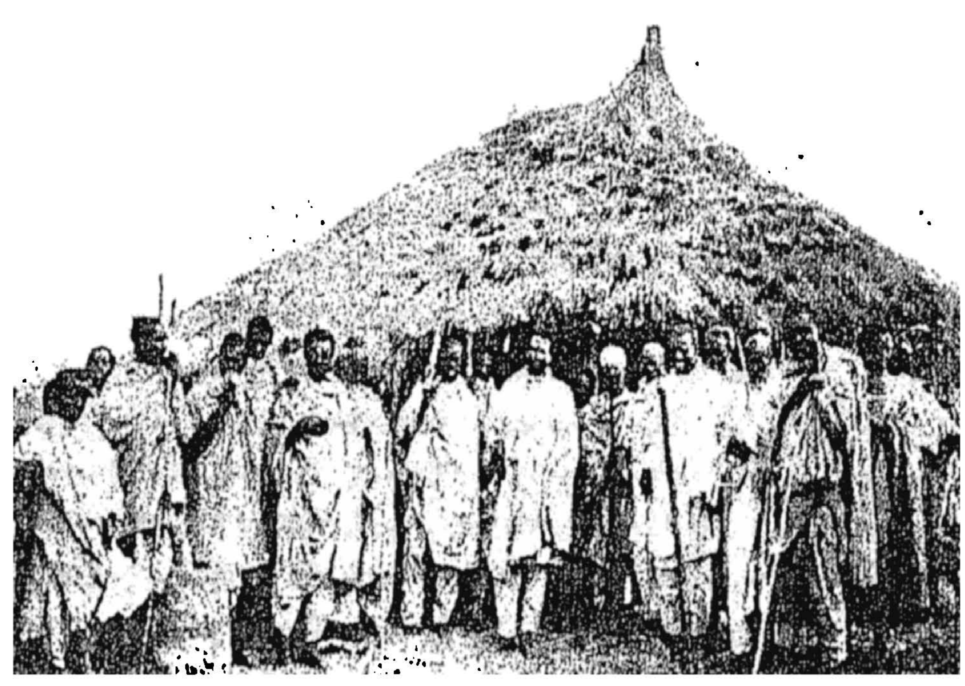
الذى رافقنا فى ترحالنا الجديد، والسبب الرئيسى فى ذلك، على الرغم من طردنا له، وإعطائه أجره وتمنياتنا له بالخير، فإنه رفض أن يتركنا ويذهب لحال سبيله، حل محل المرحوم عمر رجل كبير السن إلى حد ما، ولا يعرف الابتسام، وكان يتكلم إنجليزية سيئة واسمه حاسن Hasen، كان حاسن هذا أبرز أفراد حاشيتنا شديدة الاختلاط، كانت والدة حاسن عربية، وهو نفسه كانت له الملامح الإسلامية البدائية المرتبطة بسذاجة شديدة وأمانة شديدة أيضاً، حاسن هذا من مواليد عدن، وقد زار بلدانا أخرى كثيرة، الأمر الذى جعله يصف إخوانه الأحباش بأنهم "هؤلاء البشر المتوحشين"، وكان أيضاً من النوع الذى يمكن الاعتماد عليه دوماً فى القيام ببذل أقصى جهده فى أى ظرف من الظروف، لكن ذلك كانت تترتب عليه أبلغ النتائج المفاجئة وغير المتوقعة، ولما كنت قد التقطت شيئاً من اللغة الأمهرية فقد اكتشفت أن ترجماته تشكل حرجاً أكبر من النتائج المدهشة المترتبة على أعماله.

كان الزبانية الستة أقل أهمية من حاسن، كان وُلدو سليسِّى ألطف هؤلاء الستة، وكان يعمل سائساً للخيل، وكان هو الحبشى الوحيد من أفراد طبقته، الذى لم يطلب منى أى شىء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة أثناء الرحلة من أديس أبابا إلى أسمرة، كان هناك شخص آخر يدعى ديمسِّى Demessi، وهو ملتح، وبهى الطلعة وكسول، درج دوماً على أن يقدم لى الزهور عندما يكون قد فرغ من القيام بالمزيد عن العمل المعتاد؛ وكان معنا أيضاً أسكافى يدعى هيل Heileماريام، الذى لولا إبره وخيوطه لكنا وصلنا إلى أسمرة وفينا من الثقوب ما يكفى لإنتاج عام كامل من جبن الجرير Gruyére؛ كان من بين الزبانية الستة رجل مسن، ضعيف ومنهك، اسمه آتو هيلو Atto Heiluوهو متعبد وكلىَّ الوجود مثل اسمه، كان من بين الآخرين، شخص يدعى وُلدو جورجس Woldo Gorgis، وقد أحضر معه خادمه الخاص وبغله الذى كان يركبه فى أُبَّهة، أما الشخص السادس فلم أعرف عنه أى شىء غير أنه كان شديد السواد، وكثير الإلحاح فيما يتعلق بمسألة البقشيش والمساومة، كان يحصل على أقصى ما يمكن الحصول عليه من الواهب والبائع، وكان مقتراً جداً فى عمله، لكنه لم يكن كذلك فى وقته.

غادرنا أديس أبابا، ونحن محملون بهدايا التوديع، وكتب وخارطة من

القسيس البروتسَنتى غير الإنجليكانى، وأعواد ثقاب من زوجته- كنت قد نسيت الاحتياجات الباهظة لغليون هارولد جونز، قام زافيروس Zaphiros، فى اللحظة الأخيرة، بتكويم الألسنة المعلبة، والعسل، الكريم سيمون Cremé Simon بين أيدينا- الهدية النهائية التى جرى ادخارها من تقشير ذلك الذى أنا على يقين من أنه كان الطبقة الأخيرة من جلد بشرتى، وسط باقة من الأمنيات الطيبة، وعند الساعة الثامنة صباحاً على ساعتى، التى أظن أنها كانت متأخرة، غادرنا أبواب المفوضية على شكلٍ قافلة، تضم واحدا وعشرين بغلاً وحصانين مسرجين، وأربعة عشر بغَّالاً، وعبيداً، وزبانية، وخدماً، وأصر بلاَّم باراسِّى المخلص على الركوب معنا طوال الساعة الأولى، فى حين كانت حاشيته العديدة المرافقة له تجرى خلفنا مُضفِيةً بذلك لمسة مهيبة على حقائبنا وصناديقنا، افترقنا عند سفح جبل إنتوتو، ونحن فى أشد الأسف نظراً لأن جابرا سيلسِّى بابتسامته المسرفة كان أحن وأكثر رفاق السفر صبراً.

تسلقنا الجبل والسحب وضوء الشمس يتسابقان من فوقنا، وتوقفنا قليلاً فيما بين كنيستى هذا الجبل لكى نلقى نظرة أخيرة خاطفة على ما وراءنا فى أديس أبابا- بعد المسافة والارتفاع الكبير أديا إلى تسطيح تلال وجبال أديس أبابا إلى حد أن الغابة كانت تبدو لنا مثل سجادة قام طفل ببناء بيوت لعب بين أطرافها- ويممنا مسيرنا فى اتجاه الشمال عبر الأراضى المرتفعة، وكانت الحشائش والأعشاب المتدرجة حولنا فى كل جانب، وكانت الريح تكتسح السلاسل الجبلية مستديرة الأظهر، ركبت حصان السباق رمادى اللون، الذى جاءنا هدية من ولى العهد، وبينما كنت أسير فى خفة فى مقدمة القافلة، قررت فيما بينى وبين نفسى أن الرحلة تحتاج إلى أسابيع عدة إذا ما كنا نركب بغالاً، الأمر الذى جعلنى أدرك متعة أن يكون الإنسان راكباً حصاناً أصيلاً، البغل هو والسرج المحلى يشبهان ركوب كتلة من الوزن الثقيل يجرى إضفاء الحيوية عليها من خلال العناد والأوجاع، أحرز هارولد جونز تقدماً كبيراً على الجواد الكستنائى، على الرغم من تأكيده لى أن تلك كانت المرة الثالثة التى يركب فيها خيلاً، وأنه تعين عليه "بصورة مستمرة النظر حوله ليتأكد أنه لا يزال على السرج"! مشى الرجال على ما يرام وكانوا راضين بشكل لا يصدق عندما قلنا لهم إننا نعتزم السير لمدة ثمانى ساعات، لم



رئيس يقف أمام داره



المؤلفة مع الخيول المهداة من راس تفارى

يلتهب ظهر أى بغل من البغال، ولم تتقلب الأحمال، فركنا أعيننا وتعجبنا ما إذا كنا فى حلم، عندما خيمنا عند الساعة الرابعة، وبعد سير ممل فى أرض بلا حدود وبلا أشجار وعلى مقربة من مجرى نهر كاجاواها العميق، وبدأت الخيام ترتفع كما لو كان ذلك بفعل السحر، وراح مالكا البغال يسارعان إلى جلب الماء، وراح رجل آخر يصلح جراب مسدسى، وقام رجل بقطع الحشائش اللازمة لخيولنا.

أبدى هارولد جونز ملاحظة، مشيراً إلى حام ولد سيدنا نوح، قاصداً بذلك مالك البغال الذى أحضرنا بأظهر ملتهبة وفى غضب شديد من داير داوا "أنا لم أفهم قط قبل الآن سوء ذلك الوغد العجوز".

سألته متشككة "هل تعتقد أن ذلك سيدوم؟"

بدأت متاعبنا، وكانت شديدة الخطورة، فى ضوء الأوامر الصارمة لتلك اللؤلؤة بين السكرتيرين الشرقيين، واللذين قاما بتزويد قافلتى إلى آخر حبل فيها، وإلى آخر صندل فيها، وإلى آخر عمود من أعمدة الخيام، وزجاجات الماء، عندما أرسلت حاسن ومعه واحد من الزبانية لشراء بعض من الشعير لخيولنا، وبعد بضع ساعات، وبعد أن أرخى الظلام سدوله تماماً، وبعد أن تعبت أنا أيضاً من دراسة خارطة لم توضح سوى فراغ خال بين جبلى إنتوتو وديبرا لبانوس Debra Libanos، عاد الرجل العجوز شاحب الوجه ومتلعثماً.

قال: "حدثت متاعب كثيرة، كان رئيس القرية غير موجود فيها، وأهل القرية سيئون ورفضوا أن يبيعونى أى شىء، أريتهم تصريح مرورك الصادر من راس تفارى، لكنهم لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة، وأرادوا الاحتفاظ بالتصريح".

مددت يدى بطريقة غريزية لآخذ الورقة الثمينة.

"ألم تحضر أى شىء من الشعير؟" سألت هذا السؤال وكنت قد تعودت على قصص قسوة القرويين، التى ربما تكون ناتجة عن عدم فهمهم للباقة الرجل الحضرى.

غمغم الرجل المذعور "تقولين شعيرا! ليس معى شىء والله يعلم ذلك الذى حدث، لقد أمسكوا بخناقى وضربوا الزبانى وحدثت مشاجرة".

رددت عليه "ماعلش(☆)، ولا يهمَّك" وكنت أتشمم المكرونة الساخنة التى وضعها بالينا Balaina على صناديق الأفلام التى استخدمناها طاولة، على الأقل، أستطيع القول أنكم عدتم جميعاً دون أذى؟

غمغم حاسن: "هذا صحيح، لم ينقص أحد منا". واختفى بأسرع ما يمكن بعد ذلك.

تجاهلت هذا الأمر، على الرغم من إبلاغ هارولد جونز لى أنه سمع صياحاً بعيداً، ورأى بقية الزبانية يتسابقون بعد أن عمَّروا بنادقهم بالذخيرة.

قام جابرا جورجس بتصليح قهوة مضبوطة، وأطال البغاله حديثهم إلى الحد الذى جعلنى أقضى الليل وأنا قلقة، استيقظت على صراعى مع كيس البراغيث المنزلق، ورأيت ذلك الذى بدا لى وكأنه ضوء أخضر خافت من أضواء الفجر، ناديت بنداء استيقاظ الصباح المعتاد، وأنا فخورة بذلك الصحيان المبكر، وسحبت نفسى من داخل الكيس، وقد أصابنى الرعب، فقد نظرت إلى السماء ووجدت قمر منتصف الليل وشاهدت أيضاً الطباخ مندهشاً تماماً!

وصلنى صوت قادم من الخيمة الثنائية الخضراء "هل أصابك كابوس الليل؟"

بعد أن جرى تحميل البغال فى صبيحة اليوم التالى، وكان التحميل جميلاً وأنيقاً، إلى حد أننا كنا جاهزين لاستئناف المسير قبل الساعة السابعة، أقترح المترجم علينا حتمية تقدمه للقافلة كيما يصل إلى القرية الكبيرة قبلنا، وبخاصة أننا سنمر على هذه القرية عند الظهيرة، ويلتقى رئيسها ويشترى شيئاً من الشعير، والدجاج والبيض، وافقت على ذلك، لأننا كنا نعيش على ذكريات إفطار الصوم الكبير(☆☆) من ناحية، واحتمال عدم تناول الغداء من الناحية الأخرى، نظراً لأن جابرا جورجس، تسبب فى هرب الدجاج البيتى الذى كان بصحبتنا عندما تركنا أديس أبابا المضيافة، وينسلخ حاسن عنا بمنتهى السرعة والهدوء، ومعه واحد من الزبانية لحراسته، ولما كان سيسبقنا بمقدار مسير ساعة واحدة فقد أخذ معه التصريح الطلسمانى.

☆ ماعلش: Malesh هذه كلمة عامية مصرية معناها "ما عليك من شىء" بمعنى "ولا يهمك". (المترجم)

☆☆ إفطار الصوم الكبير: يعنى ان الإفطار كان هزيلاً. (المترجم)

ركبنا دوابنا ونحن سعداء ورحنا نسير فى المسار الواسع، كنت أنا وهارولد جونز فى المقدمة، وكانت الخيول ترقص فى ضوء الشمس البارد الذى كان يزحف خلفنا، كان الرجال الثلاثة يحملون المعدات السينمائية، وكان خادم يقوم باقتياد بغلينا ويسير معنا، فى حين كانت القافلة متأخرة عنا بعض الشئ.

شاهدنا فجأة جمعاً من الناس يهرولون نازلين المنحدر، وهم يصيحون ويلوحون بحرابهم، وما هى إلا لحظة حتى طوّقنا جميعاً، امتدت الأيدى وأمسكت بلُجُم الدواب، انهالت الإهانات على مرافقينا، ومن يمن الطالع أن الحصانين كانا حُرَّين.

قلت لهارولد جونز "ابتعد! أبق على مبعدة منى"، قلت ذلك وأنا أخشى أن يخسر هارولد جونز مكانته.

حاول أحد الزبانية ترجمة ما يجرى لنا، "هم يقولون إننا قتلنا رجلاً فى قريتهم الليلة الماضية، وهذا ليس صحيحاً، هم يضربوننا".

ضاع صوت الزبانية فى الهرج والمرج، كان عشرون من الرجال يتصايحون فى آن واحد، قام اثنان أو ثلاثة منهم متوحشون وحمر العيون، بتهديدى برماحهم، لم يجرؤ أحدهم على الاقتراب من أرجل الجواد الرمادى الذى أركبه، لكن الدائرة التى كانت تحيط بى كان يجرى تعزيزها بالمزيد من الأعداء فى كل لحظة، وتواصل ظهور المزيد من الأعداء على جوانب التل، لم أتمكن من إسماعهم صوتى بسبب الجلبة والضوضاء، كان عمل الخادم يتطلب كل جهده، لكنه حاول الاقتراب، موضحاً أنى ينبغى ألا أحاول الاستمرار فى السير.

وصلت القافلة فى نهاية المطاف، وطرح جاربا جورجس نفسه إلى جوارى شاحب اللون بسبب انفعاله، كان مالكا البغال يريدان تجاوزنا لكن عشرات الأيدى أمسكت بهما، رفع رجل بندقيته.

صرخت فيه - "أنزل بندقيتك، أيها الأحمق! ليس بهذه السرعة، نظراً لأن عشرات الرماح بدأت تتلألأ، وأثناء تبادل الضربات الكثيرة سقطت واحدة منها على كتفى، كان ذلك من حسن الحظ، لأن هذه الضربة أخافت مهاجمينا، وخلال فترة التوقف جاءنا رئيس القرية ، ذلك الشاب النحيل

الحليق الذى حاول السيطرة على غضب أهله وناسه، مصراً فى الوقت ذاته على عدم تحركنا.

صرخ جابرا جورجس متسائلاً "أين ورقة راس تفارى؟ هذه الورقة ستنقذنا".

رددت عليه غضبانة "هى فى جيب المترجم، وهو على ما أظن، على بعد أميال منا".

اقترب هارولد جونز منا.

قلت: "ابتعد، يبدو أننا سوف يتعين علينا الفرار فجأة".

تعالت الأصوات بشكل أبشع مما كانت عليه، انفك عقال البغال وزادت من الفوضى.

دفعت جابرا جورجس ليفهم "ما الذى يريدونه بالضبط؟"

"هم مصرون على رجوعك إلى قريتهم والبقاء فيها، وهم يريدون الإمساك بزبانيتنا كلهم واقتيادهم إلى أديس أبابا".

خطر على بالى على الفور، أننا إذا ما عدنا إلى قرية كاجاواها، وكان رجل قد قُتل بالفعل، فذلك يعنى أن نصف سكان الريف سيقومون بتطويقنا، وسيكونون جميعاً معادين لنا، وأننا فى حال عدم وجود جواز السفر الحكومى أو الورقة الخاصة الصادرة عن ولى العهد، سنصبح بلا حول أو طول وعاجزين عن الدفاع عن أنفسنا، حاولت أخذ رئيس القرية على جنب، وتكلمت بهدوء مع كبار السن لكن بلا جدوى، بعد ذلك، ومن باب اختبار الموقف، قلت لهم إن طلباتهم مستحيلة، وطالما أنهم لا يتكلمون كلاماً معقولاً، فأنا لست على استعداد لإضاعة المزيد من الوقت، أخلى الحصان الرمادى مساراً من حوله وانضممت أنا الأخرى إلى هارولد جونز الذى كان يراقب ما يحدث.

قال: "أنا لا يمكن أن أواصل مسيرى بدونك".

"حسن، هيا بنا نجرب لنرى ما سيحدث".

حثثنا حصانينا على الخبب، وفى الحال قفزت الأشكال المحيطة بنا كل إلى نقطة من نقاط الأفضلية، دوت الصيحات محدثة إنذاراً أيقظ الحى كله، وهنا جرى خلفى شاب، كان يستعطفنى ويرجونى.

"لا تمشى! أرجوك لا تمشى!" وبدا الرعب فى عينيه.

عدت لمدة نصف ساعة أخرى، وكان الرعاع لا يزالون يجلدون أنفسهم بكلام قاس غير واضح، ترى، هل كانوا مخمورين قبل أن يأتوا لمواجهتنا؟ بدأ الموقف يزداد سوءاً على سوئه، عند هذه المرحلة قيل إن قرويين ماتا فى قريتيهما نتيجة لمعركة الليلة الماضية، وهنا كنت قد تمكنت من منع صاحبى البغال من تكديس البنادق القليلة المتبقية لدى القافلة، فى الأيدى الغاضبة التى كانت تمتد ناحية صاحبي البغال، أمسكت جابرا جورجس من كتفه، وشققت لنا طريقاً بين الواقفين بغية الوصول إلى كبار السن، الذين كانوا يحاولون جعل الآخرين يسمعون ما يقولون، حاولت إلى تلك اللحظة، التزام الهدوء والأدب إلى أبعد حد ممكن، لكنى وقفت على الركاب ووضعت ذراعى على رأسى وتركت لنفسى العنان إلى حد ما، أقسمت بكل ما أعرفه، بدءاً من السماء إلى راس تفارى، أنى على الرغم من عدم معرفتى أى شىء عن تلك المعركة، فإنى لن أترك خدمى فى أيدى هؤلاء الناس، تزايدت ثورتى عندما بدأت أقف على الآثار الناجمة عن بلاغتى.

كان جابرا جورجس يترجم ما أقوله بصورة أمينة، وعندما توقفت لالتقاط أنفاسى، كان هناك صمت شبه تام، اقترح رئيس القرية ترك أربعة من الجنود ومعهم بنادقهم ليكونوا رهائن، وبذلك تتمكن القافلة من مواصلة سيرها، وهنا وجدتنى أنفجر من جديد، هل ترضون لأنفسكم بترك امرأة شابة، وحيدة، ضيفة على أميرهم، بمواصلة سيرها وحدها فى بلاد غريبة عليها، دون أن يكون معها أحد يحميها أو يخدمها؟ أنا أتخيل أن جابرا جورجس حسَّن الأمر عن طريق الإفاضة فى أهميتنا وحماية الراس الخاصة لنا، تلت ذلك فترة من الهدوء، وانتهزتها أنا ورحت أطلب قلم رصاص وقطعة من الورق، جرى إحضار القلم، لكن الورقة أسفرت عن قطعة من ورق الحلاقة الذى يحمله هارولد جونز، كتبت على هذه الورقة ملاحظة للسيد زافيرو، ووضعت هذه الورقة فى يدى رئيس القرية، وطلبت منه تعرف الزبانيين اللذين يتهمهما بالقتل ويأخذهما ومعه الورقة التى كتبتها ويذهب بهما إلى أديس أبابا، ثم أشرت للقافلة بعد تأخر دام ساعة، بالمضى قدماً أثناء الجدال العنيف الذى دار بعد ذلك، وبعد أن نقص من جنودنا جنديان.

قال هارولد جونز: "مرت بنا لحظات، كنت أحسب فيها أننا سنُعاقب".

قلت: "أم أنك تظن أن المسألة كانت مجرد تعطيل بغية الحصول على بقشيش مقابل التاجين المكسورين؟ وهنا يتعين علىّ الاعتراف بأن أحداً لم يتطرق إلى الحديث عن النقود".

واصلنا سيرنا فى تشكيل متقارب صاعدين إلى الجبال ونازلين منها، بعد ذلك وجدنا رئيس القرية يتتبعنا مهرولاً ومعه الرهائن والرسالة، لم يكن الرجل بعد سكراناً بفعل بلاغته وبلاغة أهل قريته، تدخل فى الموضوع المد البارد الناجم عن رد الفعل، وساءل رئيس القرية نفسه عن مدى تصديق أديس أبابا قصته فى حال عدم وجود الجثتين، كانت هناك تفسيرات متضاربة أخرى زادت من غموض هذه المسألة، وواصلنا مسيرنا ونحن حائرون.

سرنا طيلة سبع ساعات عبر منطقة عامرة بالحشائش، مقسمة إلى سلسلة من الجبال ومنخفض، وتتخللها هنا وهناك بعض الأشجار الشوكية أو رقعة من نباتات الليلج الزاهرة، عندما دخل علينا وقت الظهيرة كنا قد عبرنا غور دوبر Dubber، وسقينا حيواناتنا من نهر هذا الغور، ومضينا من بين صفوف المنازل الرئيسية، لكن لم يكن هناك أى أثر لمترجمنا، وفشلت التحريات الدقيقة التى قمنا بها على امتداد طريق رحلتنا وفى قرى وُشالى Wuchali الكثيرة فى الحصول على أية معلومات عن ذلك المترجم، لقد اختفى الرجل، عندما دخلنا تلك الأرض الخالية من البيوص ومن الدجاج، خيمنا بجوار بعض من الماء العكر الذى قيل لنا عنه إننا مازلنا فى وُشالى؛ عند هذه المرحلة جاءنا اقتراحان من قافلة كئيبة، إما أن المترجم كان مخموراً وفاقداً وعيه فى كوخ أو عش على طول الطريق، أو أنه أصابه الرعب جراء معركة الليلة السابقة، وشمَّع الفتلة عائداً إلى العاصمة، رجحت الفرضية الأولى وأقسمت على الثأر من ذلك المترجم، فى الوقت الذى كنت أساوم فيه القرويين الذين لن يبيعوا شعيرهم إلا نظير "قطعة من القماش الأبيض"، هذا يعنى أنهم يطلبون المستحيل، إذ لم يكن بين أمتعتنا أى شىء أبيض اللون سوى شبكة ممزقة من شباك الناموس، وعليه بقى الحصانان جائعين.

سقط المطر فى تلك الليلة لأول مرة منذ بداية رحلتنا فى الحبشة، أدى

غروب الشمس العاصف إلى خروجنا من خيامنا لنشاهد السماء وهى تذوب على شكل لهب، وبعد ذلك بلحظات، تسابقت السحب وأفرغت نفسها فوقنا، خبت النيران، وجرى جميع الحاضرين، كلٌّ إلى أقرب خيمة له، وراح الأفراد يُكَوِّمون الممتلكات القديمة أمامهم، إلى حد أنى عندما رحت أبحث عن خارطة من الخرائط فى المكان المحدد لها فى جيب من الجيوب الحائطية فى الخيمة، عثرت بدلاً منها على إناء فيه عسل، ويقول هارولد جونز إنه جعل من كيس السكر الوحيد مخدة له.

جلب المطر من بعده دفئاً، الأمر الذى جعلنا نستيقظ عند الساعة الخامسة صباحاً دون ارتعاد أو ارتعاش؛ كما أسفر المطر عن إخماد الغبار السطحى، على الرغم من عدم كفايته لسد الشروح الكبيرة التى فصلت الأرض المعشوشبة وحولتها إلى رواب، سرنا بخيولنا فى مقدمة القافلة مسافة تقدر بنحو سبعة أميال ونصف المِيل، إلى أن بدأ اللون الأزرق الياقوتى يغطى الطريق من الناحية الشمالية الشرقية، محدداً بذلك منخفضاً كبيراً، جدرانه عبارة عن جروف، وأرضيته مُكَسَّرة بفعل الأبراج الصخرية وبفعل المنحدرات التى تتشابك فيها نباتات الصَّبار، وأحواض الليلج الأحمر، نزلنا إلى الأسفل حيث الوادى، الضيق، العامر بالأشجار الكثيفة، والذى يقع أسفلنا، كما لو كان فى أمعاء أرض جرى فتحها عن طريق تمزيقها ثم دعمها عن طريق حواجز من الأعمدة الحجرية المدببة، كان المنظر رائعاً وقام جونز بتشغيل آلة تصويره أثناء نزول القافلة نزولاً مؤلماً، عن طريق الخطوات الملتوية والحواف البارزة، إلى أن ضاعت القافلة تماماً تحت ذروة الجبل المخروطية التى كنا نقف فوقها، على جانب من الجانبين، كانت المنازل المبنية من القش تنتشر بين الأحراش الخضراء التى تتخللها هنا وهناك كنيسة كما لو كانت قطعة من الماس فى صندوق من القطيفة. فيما بعد ذلك كان النهر ينحدر منساباً إلى ما لا نهاية بين القمم الصخرية التى كانت تطبق عليه، وعلى الجانب الآخر، وعبر المساحات المكشوفة التى تتخللها الخيام كما لو كانت نجوماً- نظراً لأن دبرا ليبانوس Debra Libanos تعد قدس (أورشليم) الحبشة ومكاناً من الأماكن التى يحج إليها النصارى- كانت هناك غابات الأشجار وضريح تكلا حيمانوت Tekla Haimanot؛ كل ذلك كان واقعاً فى

ظلال صخرة شامخة ربما كانت هيكلاً لإله قديم، هائل ومن العصور القديمة.

قلت بصوت عالٍ "هذا شىء بديع"، وسمعت من خلفى صوتاً خفيضاً يتمتم "حقاً، يا سيدتى".

كان ذلك صوت حاسن، الذى زاد وجهه تغضنا، وأصبح أقل تعبيراً عما هو معتاد! وقبل أن أتمكن من توجيه أى سؤال إليه، كان قد انخرط فى رواية قصة معقدة فيها طريقان، ومنعطف خاطئ، وركوب استمر إلى أن أرخى الليل سدوله علينا، وبلا طعام، وقد بدت هذه الأمور كلها غير ذى صلة بالقصة التى كان يرويها حاسن.

سألته محتجة: "ألم يكن بوسعك السؤال عن الطريق؟" عندما أصبحت جُمله مضطربة مثل تفسيراته، لم يكن مترجمنا يعرف أية لغة أخرى غير لغة الجلا، وهذه اللغة غير معروفة فى شمالى الحبشة أكثر من اللغة العربية، لم يكن المترجم يعرف من اللغة الأمهرية شيئاً سوى بضع كلمات، أما إذا كانت هذه الكلمات عجيبة مثل إنجليزيته، فإن هذه الكلمات سوف تنجح فى إخفاء ما يقصده هذا المترجم، رضيت بالأمر الواقع، وقبلت ما هو محتم، وأخيراً وعلى الرغم من الروايات الثلاثة المتضاربة والتى لا خير فيها، بسبب انشغال جابرا جورجس على نحو منعه من الترجمة المباشرة عن اللغة العربية، اكتشفنا شيئاً محبباً عن حاسن، كان حاسن عديم النفع بشكل يدعو إلى الدهشة، وأن ذهنه كان شبيهاً بحزمة من الصوف السائب، لكنه كان دوماً يبذل كل ما فى وسعه، الأمر الذى كان يسفر عن نتائج مضحكة.

بينما كان يجرى نصب خيامنا على حافة أخدود من الأشواك، ومن فوقنا صخرة عالية، ركبت فرسى ورحت أتجول بين الجلاميد بحثاً عن توما ليشان Touma Lishan، كبير قساوسة دبرا ليبانوس Debra Libanos، الذى حمَّلنى إليه مدير الكنيسة الحبشية Ttchegue رسالة، كانت بيوت القرى الكبيرة، من النوع الصغير الجميل ولها أسقف ذات حواف أمامية، مررت خلال واحدة من تلك البوابات إلى فناء عامر بالخدم والقساوسة، وكان القساوسة يرتدون عباءات مصنوعة من الجلود، ومهلهلة فى معظم الأحيان، كما كانوا يرتدون عمائم شبيهة بالقبعة العالية السوداء التى لا حافة لها، وهى إما سوداء أو بيضاء.

أكسبتنى الرسالة التى أحملها حق الدخول إلى دروة مبنية من القصب، وكانت منعقدة فيها جلسة من جلسات المحاكم، وكان القضاة مكدسين حول الجدار بأغطية رءوسهم الصوفية سوداء اللون، فى حين كان الشهود واقفين، ومن الواضح أنهم جميعاً كانوا يتكلمون مع بعضهم البعض، بعد دقائق قليلة طلب منى الدخول فى متاهة من الأحواش التى فيها أعمدة مدببة، ثم مررت من خلال كوخين أو ثلاثة كانت بمثابة عقود وإن شئت فقل غرف استراحة أو غرفاً يؤدى بعضها إلى بعض، لأصل فى النهاية إلى غرفة معلق فيها جلود، ومن وسط كومة من الجلود موضوعة أمام ستارة كانت تحجب الكنبة المكسوه بالجلد، وقف توما ليشان للقائى، قيل لى إنه يبلغ من العمر اثنين وخمسين عاماً وأنه أعزب بغض النظر عن شرائع كنيسته، كان يبدو كما لو كان فى الخامسة والثلاثين من عمره، ومهندم، لامع البشرة، وله عينان ضيقتان، وجبهة ضيقة أيضاً، وكان يبدو عليه أنه فرد من أفراد البلاط أكثر منه قسيساً، تحاورنا من خلال زبانى كان يعرف اللغة العربية، وفى ظل وجود أوامر مدير الكنيسة الحبشية أمامه، وافق الرجل، فى شىء من التردد على حد ظنى، لنا على القيام بتصوير الكنائس تصويراً سينمائياً وتصوير الينبوع المقدس، الذى يقال إن ماءه يشفى السواد الأعظم من الأمراض المميتة، عدت إلى المخيم بصحبة حامل من حملة الرماح، وبصحبتى النعجة كانت تجرى أمامى، وعندما كانت النعجة تتعب من السباق مع الحصان وتقف لالتقاط أنفاسها، كان مرشدى يستدير خلفه ويقول: باء Baa، فتردد عليه الغنمة فى الحال.

وجدت هارولد جونز وهو يصور مجموعة من أصحاب البغال أثناء استخدامهم للإبرة والمخراز والخيط بمهارة كبيرة، ولما كانت الساعة لا تزال العاشرة صباحاً، فقد أصررت على الاستكشاف العاجل لقرية دبرا ليبانوس، هذه القرية ليست مقامة على أرض الوادى، ولكن على حرف منحدر فى منتصف الطريق الصاعد إلى القمة الصخرية الجنوبية، هذه القرية بالكامل لا يسكنها سوى القساوسة هم وعائلاتهم والمعيلين، وكذلك مدارسهم الدينية، ومستودعاتهم الجماعية، ومطاعمهم الجماعية، كما يعيش فيها أيضاً عدد متباين من الحجاج المؤقتين، أو المحزونين الذين يأتون إلى القرية لدفن

موتاهم فى الأرض المباركة، هذه المنطقة فيها نحو خمس وثلاثين كنيسة، أكبرها هى كنيسة تكلا هيمانوت الثَّمَانِيَّة؛ لكنى عندما حاولت الوقوف على عدد القساوسة الذين ينتمون إلى هذا العدد من الكنائس وجدت أنه تراوح بين ١٢٠٠ و١٣٠٠ قسيس، وهذا رجل لطيف كبير السن انكمش وتجعد إلى أن أصبح شبيهاً بالقرعة المفرَّغة، أكد لى أن القرية فيها نحو نصف مليون قسيس، لكن جابرا جورجس سارع إلى توضيح الأمر عندما قال لى: إن الناس فى الحبشة يحسبون ١٠٠٠٠ على أنها مليون.

الكنائس مقامة فى بيارات الزيتون، من باب تذكر القدس (الشريف)، الأشجار مقدسة فى هذه المنطقة ولا يمكن قطع أى شىء منها، ولذلك نجد الممرات الحجرية تغوص إلى الداخل وإلى الخارج بين هذه الأشجار من خلال الأعشاب المزهرة التى تغطى سطح الأرض، الجزء الأوسط من القرية فيه مظلتان كبيرتان مسقوفتان بالصفيح ولا يسمح للنساء بدخولهما، وعليه فقد عاد إلىَّ هارولد جونز بوصف لهاتين المظلتين اللتين تمثلان كرار(☆) الرهبان، ومخازن الحبوب، والمخابز، ومعامل البيرة، هاتان التعريشتان وإن شئت فقل المظلتان، بكل مرافقهما تغذيان نحو ٧٠٠ فرد يومياً، وقد شاهد هارولد جونز الخبز، وهو يجرى خلطة فى غدران كبيرة مصنوعة من جذوع الأشجار، وشاهد أيضاً كميات كبيرة من الصلصة الحريفة أثناء طحنها، إلى أن راح القريبون منها يعطسون بسبب هذه المادة الحريفة، كما شاهد أيضاً الفول الرومى وهو يجرى طحنه مع جذور الشمبورا Shimbura.

قبيل دخول المساء، ساعة أن يكون الهواء معطراً برائحة البخور الطيبة، وعامراً بأصوات الغناء الذى ينبعث من كل كوخ من الأكواخ، جاء إلينا موكب من العبيد ليقدموا لنا اللحم، وفولاً جافاً للخيل، وأكواماً من الأنجيرا(☆☆)، فى الوقت الذى كانت فيه أحمال الدريس قد وصلت وموجودة أمام خيامنا على ظهور الحمير، التى لم يكن ظاهراً منها سوى رءوسها وهى تحمل هذه الأحمال، هذه الهدايا كلها كانت من منتوجات أراضى الكنيسة التى تُفلح مثل أراضى التاج، عن طريق العبيد الذين يعملون فى أرض الإقطاعى Serfs،

☆ الكرار: مخزن صغير بقُرب المطبخ لحفظ الأطعمة. (المترجم)

☆☆ الانجيرا: نوع من الخبز شديد المرارة رمادى اللون يخبز على نار الفحم النباتى. (المترجم)

والذين تكون لهم نسبة مئوية من الماشية التى يربونها أو الحبوب التى يزرعونها.

مع رحيل آخر حمّال من الحماليين الذين جاءوا إلينا بالهدايا، وبينما كنت أنحنى ناحية الأرض انجرفت ترنيمة جنائزية نحو الأسفل قادمة من بين الصخور، ونبهتنا إلى خيال فى أعلى القمة الصخرية، كان ناجماً عن موكب جنائزى، كان الجثمان ملفوفاً فى مظلة (شملة) نظيفة، وكان يحمله أربعة رجال على سرير محلى؛ أبلغنى حامل الرمح، الذى كانت معه نعجة مستأنسة، والذى ربط نفسه بنا، أن الرجل ربما كان ميتاً منذ نحو ثلاث أو أربع ساعات.

قال: "أهل الريف لا يحبون الجثامين، وأنهم لا يلقون مطلقاً نظرة على أى وجه من وجوه الموتى، وأن الجثمان يجرى تغطيته قبل أن يخرج منه النفس الأخير من الجسم، ثم يدفن على وجه السرعة فى حفرة عميقة تمنع ابن آوى من الوصول إليه".

كنا قد مررنا على قبور كثير من الفلاحين المكومة عليها الأحجار، المغروث فى وسطها عصا تحمل قطعة من الجلد، وربما كان ذلك لتخويف الحيوانات، أو ربما كانت شيئاً من أشياء الرُّقى والتعاويذ، وكانت تلك القبور على أرض مرتفعة، وغالباً ما تكون على جانب الطريق، لكن فى دبرا ليبانوس، يوضع القسيس بعد موته ساعات قلائل أمام الهيكل، أما الرجل العادى فيوضع فى المكان الذى كان يتعبد فيه، ويقوم جمهور المصلين، والقساوسة، والرهبان، والخدم بتقبيله فى جبهته أو فى قدميه ويودعونه.

هناك أسطورة مفادها أن القديس ماثيو زار الحبشة فى العام الـ٣٠ قبل الميلاد، لكن التاريخ يعزو تحول الحبشة من اليهودية إلى المسيحية، إلى فرومنتيوس Frumentius، الذى كان مقدساً بصفته كأول أسقف لأكسيوم Axumمن قبل أثناسيوس Athanasiusفى منتصف القرن الرابع، اعتنقت الكنيسة بعد ذلك بمائة عام الخط الوحديطبيعى(☆) الذى تلتزم به بصفة دائمة على الرغم من إدانة المجلس المسكونى لذلك. هناك تاريخ طويل

☆ المبدا القائل إن للمسيح طبيعة واحدة. (المترجم)

وحاسم جرى تأبينه فى عدد لا يحصى أو يعد من المخطوطات التى لا تقدر بثمن، وأهم ما فى هذا التاريخ الطويل، والمتعلق بتاريخ كثير من القديسين، وأسفار ملوك الحبشة القدماء قبل وبعد عصر الملكة ماكويدا Maqueda ملكة سبأ، محفوظ فى دبرا ليبانوس، ومن سوء الطالع أن الكثير من هذه المخطوطات التى لا تقدر بثمن جرى إتلافها أثناء الغزو الإسلامى والغزو الجلاَّوى Galla فى القرن السادس عشر، وبعض آخر من هذه المخطوطات أخذته غنيمة تلك الحملة التى جردها اللورد نابير Napierعلى المجدلة Mogdla، هناك نسخة شهيرة من مخطوطة "عظمة الملوك" Kebra Negast أخذت من كلية الملك تيودور؛ وقد أعيدت هذه المخطوطة إلى دبرا ليبانوس بعد أن جرى الاحتفاظ بها سنوات عدة فى المتحف البريطانى، شأنها شأن تاج الملك تيودور، الذى استولت عليه الحملة نفسها، والذى أهداه الملك جورج، هدية توديع إلى راس تفارى بعد آخر زيارة قام بها ولى العهد إلى إنجلترا، وعلى الرغم من قيمة وأهمية المخطوطات التى لا تزال فى دبرا ليبانوس، فإنه ليست هناك مكتبات محددة، فكل كنيسة من الكنائس لها سجلاتها الدينية والتاريخية الخاصة بها، والمرء عندما يزور كوخ كبير القساوسة، يرى رُقًّا يشع نوراً موضوعاً فوق حصير عبارة عن جلد خروف، أو قد يرى مجلدات قديمة أو مهلهلة ملقاة على أرض طينية.

تحتل سجلات قرية دبرا ليبانوس فى معظم الأحيان الفراغات الشاغرة التى بين مزامير داود، يزاد على ذلك أن الأحداث السياسية أو التاريخية المهمة تزين هوامش الأعمال والمؤلفات الدينية، زد على ذلك أن المسائل المتعلقة بالأنساب، وهذا أمر مسلم به، تعد مهمة إلى الحد الذى يجعل الحبشى لا يسلم هذه المسائل إلى الكتابة التى لا يثق الحبشى بها كثيراً بحكم فطرته، هذا يعنى أن مسائل الأنساب هذه يجرى تعلمها عن طريق الحفظ عن ظهر قلب، ويجرى تناقلها من الآباء إلى الأبناء على أنها من الموروثات، وربما كانت هذه الأمور هى أول بل والشئ الوحيد الذى يتعلمه الصبى الصغير؛ هذا يعنى أن هذا الصبى الصغير يتعلم سلسلة أسلافه وقراباته وصلاته إلى أبعد حد ممكن.

صادف يوم وصولنا إلى قرية دبرا ليبانوس واحداً من أيام الصوم التى لا تحصى ولا تعد فى الكنيسة الحبشية، وعليه جلس السواد الأعظم من أفراد

قافلتنا محزونين تحت الأشجار التى يتزايد ضمورها بشكل واضح، وبدأ المطر يسقط فى فترة العصر، وقبيل دخول المساء زاد انهمار الأمطار.

استطاع هارولد جونز بواسطة كاوية لحام ومصباح دخان أن يجعل من خيمته حفرة شبيهة بحفر الفحم، وعليه أمكن دفع السُّرُج تحت سريرى وجرى تكويم علب الأفلام بجوارها، وبينما كنت أتساءل عن المكان الذى يمكن أن أضع فيه رجلىَّ سمعت صوتاً حزيناً ومأساوياً: "إذا لم تتناول السيدة الغداء الآن، فلن يتبقى لها سوى الماء"، وعليه جرى وضع طبق عليه كومة من المكرونة ومعها بعض البيوض، فوق عُلب الأفلام وجرى وضع إناء القهوة على الكراسات التى أدون فيها ملاحظاتى، كنت قد طويت نفسى فى المكان المتاح المتبقى، فى الوقت الذى سارع فيه جابرا جورجس بالدخول إلى الخيمة.

قال جابرا بطريقة هامسة مسرحية: "هناك أناس مهمون جاءوا للقائك، يتعين عليك الخروج إليهم".

كنت قد أعرت معطفى إلى بالينا Balaina، أما حذائى فكان مدفوناً فى مكان ما تحت الأمتعة الشبيهة ببرج إيفل، وفضلاً علي ذلك كانت هناك ثقوب ضخمة فى جواربى، لم أستطع عمل أى شىء سوى وضع قبعتى على رأسى- وهذا من منظور سبب غامض مفاده أن المرأة الأوروبية التى لا ترتدى قبعة تكون فى موضع الشك - وخرجت فى المطر لاستقبال تلك الأشكال المعتمة الملفوفة التى كان موجوداً منها عدد كبير.

قلت لهارولد جونز: "هل يمكن لهم الدخول فى خيمتك؟"

نظر إلى من خلال قماش الخيمة وجه مُسودٌّ.

"أستحلفك بالله، ألا تجعليهم يدخلون الخيمة، لأنى قمت بتفكيك أجزاء آلة التصوير".

أشرت فى شىء من اليأس، إلى كبير القساوسة، بالجلوس على سريرى، جثم خادمه الأمين على طبق المكرونة، أما بقية الأفراد فقد بقوا خارج باب الخيمة، وشاهدت خلفية غير منظمة من الجرار، والأسبتة والأطباق، كانت الجرار بصفة خاصة هى التى شدتنى إلى الكلام- كانت الحركة أمراً مستحيلاً فى هذا المكان المضغوط.

سألت: "هل ذلك مشروب تدج؟"

رد علىّ توما ليشان "هذا الذى أحضره لك قليل جداً، لكنك لم تعطنى سوى مهلة قصيرة، هذا مجرد بعض قليل من البيوض" وقام بوضع نحو خمسين بيضة فى حجرى؛ "ودجاجة أو اثنتين، وشئ من الخبز ومعه أيضاً شىء من البيرة".

شكرته شكراً جزيلاً على كرمه، ورجوته رجاء حاراً أن يعفينا من قبول مشروب التدج، وقمت هنا برسم صورة لوفاة عمر وصورة أخرى لاختفاء حاسن، لكن كبير القساوسة بدا عليه التعب والاضطراب.

قال: "أنا لم أحضر لك سوى القليل، لو أنك أعطيتنى المزيد من الوقت لكنت أحضرت لك ثوراً، ما الذى سيقوله الناس لو أنى عدت ومعى هذه الأشياء القليلة التى حملتها إليك؟"

وأمام هذا المستحيل وجدتنى ابتسم ابتسامة متكلفة.

غمغمت "نحن شاكرون وممنونون لكم"؛ ثم قلت بعد ذلك للمرافقين: "أحضروا الجرار كلها هنا، أقول كل جرة من الجرار!".

أطاعوا الكلام وهم محزونون، وقد اندهش توما ليشان، إذ تعين عليه أن يفسح مكاناً على السرير لنحو ست أوان كل منها مسدود بمجموعة من الأوراق الخضراء، تخيلت أن توما ليشانً كانت فى ذهنه صورة عنى وعن هارولد جونز تفيد أننا - نحن الاثنين - غارقان فى مسألة الشرب والشراب، وأن جالونات ذلك الشراب المسكر المصنوع من العسل المُخمَّر سوف تتناقص وتنضب مع اقتراب طلوع الفجر؛ بسبب جهودنا غير المحُكمة.

قال: "معنا أيضاً خبز حبشى Anjera، وعندما بدأ المطر يزداد انهماراً محولاً الأطباق الكبيرة هى والخبز إلى عجينة، جرى دفع هذه الأشياء أيضاً إلينا فى الخيمة ومن بعدها حزمة من الدجاج".

تساءل جابرا جورجس ""هل تريدين كل شىء داخل الخيمة؟ هناك خروف.

وقبل أن أتمكن من منع ذلك، جرى دفع قرنى الكبش الملتوين إلى داخل الخيمة.

صحت قائلة: "لا، لا، بحق السماء، لا!" قلت هذا الكلام باللغة الإنجليزية،

لكنى لم أستطع التحرك نظراً لوجود البيوض على ركبتى، عند هذه اللحظة كان الدجاج قد قلب وعاء القهوة، وراح الدجاج يتصايح بسبب السائل الحار، إلى حد أن الخادم المخلص لكبير القساوسة هب لإنقاذ الموقف على وجه السرعة؛ الأمر الذى لطخ مؤخرة غطاء رأسه بالمكرونة.

خطر ببالى أن "الأمر يحتاج إلى مصباح كيما يمكننا الخروج من الخيمة"، وخاصة بعد أن جرى دفع الأطباق ووضعها على الأرض، وانكسرت بيضة من البيوض على بيجامتى، وبعد أن احمر وجه الشماس خجلاً أرانى بعض الأجنحة التى تهفهف، وبعض المناقير، وبعضاً من الريش السائب.

قال الشماس: "أظن أنى أحضرت الأشياء كلها"..

قلت مثلما تقول الببغاوات: "أشكرك كثيراً، أنا ممنونة ومقدرة"

بعد ذلك بفترة، وبعد رحيل زوارنا، ومع بقاء العاصفة معنا، قمت أنا وجونز نستطلع بقايا ذلك الذى كان مفروضاً أن يكون عشاءً لنا.

قلت وكلى أمل: "أظن أن الظلام كان دامساً إلى الحد الذى جعلهم لا يدركون التلف الذى حدث".

"عجباً! هل تود شيئاً من المكرونة والمطر، أم تود بيضة مهروسة مع الطين؟"

"هناك بعض من البسكويت تحت سريرى، على ما أظن، احترس، البسكويت موجود بين السُّرُج".

انحنى جونز وراح يبحث عن البسكويت.

"لقد عثرت عليه، لا، إن ما عثرت عليه هو حذاء، يا إلهى، لماذا تحتفظين بأسفنجك هنا- إنه مبتل!"

كان الإسفنج مبتلاً، وكان يحدث جلبة عالية عندما كان يرفرف على رجلى.

قلت على سبيل الملاحظة: "من الواضح أن كبير القساوسة لم يحضر الجرار كلها داخل الخيمة".

بعد ذلك بفترة، وعندما أمُلنا أن يكون المخيم كله قد نام، زحف جونز خارجاً من الخيمة، فى شىء من الحذر التآمرى، وراح يفرغ كل الجرار

والأوعية مما بها من مشروب التدج، إلى حد أن سمعتنا بوصفنا سكيرين عنيدين أدهشت الجميع عندما قام العبيد بإحضار أوعية مشروب التدج الفارغة فى الصباح، تواصلت أصداء مزامير داود إلى منتصف الليل قادمة إلينا من المنحدرات التى كانت فوقنا، ومن خلال الصوف القطنى، الذى حشوت به أذنىَّ، وأنا قلقة بلا نوم، بدا لى أن كل صوت من الأصوات كان يحاول فى غنائه أن يكون أعلى وأسرع من الأصوات الأخرى.

هذه الجوقات المنافسة ذاتها هى التى أيقظتنا فى الصباح، كان المطر قد انتهى إلى ضباب، وبعد أن سرّعنا مسير القافلة المكتئبة والمنقّعة، تحتم علينا الانتظار إلى أن تطلع علينا أشعة من الضوء تكفى لتصويرنا قساوسة تكلا هيمانوت، هذه الكنيسة التى فيها قبة أو ضريح محاطة بنباتات البوكالبتوس، التى كان الشحاذون الجالسون تحتها يطلبون بإلحاح الصدقات باسم مريم (العذراء)، كانت الشرفة ثمانية الأضلاع تغص بالقساوسة المتكئين على عصى الصلاة، فى حين كان هناك جمع من لابسى العمائم فى الفناء الكبير. كان دخان البخور يكاد يحجب لون الأبواب، حيث كان المبخرون يؤرجحون مباخرهم على إيقاع الصلاة. وتنفتح الأبواب الكبيرة فجأة، وتنفرج الستائر فجأة ويظهر موكب كبير تحت مظلات أرجوانية مثل شقائق النعمان(☆)، ومظلات حمراء حمرة زهرة الخشخاش، ونشاهد مرة أخرى الصُّلبان الضخمة، الذهبية والفضية، والعباءات المطرَّزة، والعباءات المزينة بالمجوهرات، والعباءات ذات الحواف المزيَّنة، والصدريات المصنوعة من القطيفة والبروكار، وشاهدنا أيضاً عظمة وأبهة الكنائس كلها المقاتل منها والمنتصر.

فى الوقت الذى كان هارولد جونز مشغولاً بالتقاط صور للنظرات الهائمة التى تتجه صوب السماء، دخلت أنا الكنيسة حيث أرونى الصور المرسومة بالألوان على الجبس قبل جفافه، والتى تمثل الإمبراطورة، راس تفارى، راس كسَّا Kassa، حاكم مقاطعة سلالى، بصحبة الملائكة الذين لهم أجنحة مُنَجَّمة ومُقلَّمة مثل العلم الأمريكى، كانت صورة القديس تكلا هيمانوت موجودة على كل جدار من الجدران، وهو واقف على قدم واحدة، فى حين كانت القدم

☆ نبات مزهر مختلف الالوان. (المترجم)

الأخرى ملقاة أمامه على الأرض؛ لأن هناك أسطورة تقول: إنه بعد أربعين عاماً من الصلاة، كان القديس يقف طوالها فى هذا المكان نفسه، كانت إحدى رجليه قد تعبت إلى حد أنها انكسرت، وأنها سقطت أو تعين بترها، وبمعجزة من المعجزات قويت رجله الأخرى إلى الحد الذى جعله لا يعانى من فقدانه لرجله، وتمكن بفضل ذلك من الاستمرار فى صلاة الوقوف.

عندما كنا نبتعد عن دبرا ليبانوس غطى الضباب الوادى العميق الموجود خلفنا، إلى أن أصبحت القمم الصخرية تبدو وكأنها ملفوفة فى صوف قطنى، وإلى أن اختفى النهر الذى يعد رافداً من روافد نهر أدباى Adabai أو النيل الأزرق، وفور وصولنا الأرض المستوية، بدا لنا من خلفنا، دخان نيران كوكب بلوتو من خلال قطع عميق، يتدفق وكأنه خارج من قلب الأرض، عبرنا الجورة Goura الذى كانت ضفتاه حمراوين بفعل نباتات الليلج الحمراء، وفى البرد والسماوات الملبدة بالسحاب، مررنا مروراً سريعاً على القرى الصغيرة المتناثرة، وعلى المراعى كثيفة الأحجار، إلى أن وصلنا فيش Fiche، عاصمة سلالى Salali، قرية فيش هذه منازلها مبعثرة على عرف تل بيضاوى الشكل، طرفاه متوجان، بكنيسة من القش من ناحية، وبالمنزل، وإن شئت فقل منازل راس كسَّا(☆) Ras Kassa خيمنا على الجانب الآخر من المنحدر، إذ أن منظر المدينة هى وأهل الحضر رائع من هذا المكان، وصل إلينا الموكب بعد ذلك بفترة وجيزة حاملاً معه كل أشكال المنتوجات ويدفع أمامه أو يسحب وراءه الماشية على غير رغبة منها، لكن كرم وضيافة راس كسَّا كانت خرافية، لأنه أرسل لنا ثيراناً مُقتّبة تكفى لتغذية جيش بأكمله، كما أرسل إلينا كل ما يلزمنا من الأشياء الأخرى.

عندما ذهبنا إلى منزله لشكره على كرمه معنا- كان واحد من هداياه، ثوراً صغيراً، فى تلك اللحظة يدعس كل ما يسترعى انتباهه، فى الوقت الذى راح مُلاّك البغال يتراقصون حوله على مسافة آمنة لكنها لا طائل منها- وجدنا مائة جندى واقفين عند بواباته لاستقبالنا، وبين طابور مزدوج من البنادق، أطبق الخيالة علينا، وبين الأعلام الخفاقة فوق عشرين رمحاً، جرى اقتيادنا من فناء إلى آخر إلى المسور الرئيسى، هناك دوماً تناقض عجيب بين بساطة

☆ راس كسًا: هو حاكم إقليم سلالى. (المترجم)

منازل هؤلاء الإقطاعيين وعدد حراسهم وعدد أفراد حاشيتهم، لابد أنه كان هناك ما لا يقل عن خمسمائة أو ستمائة من حملة البنادق فى القصر الإمبراطورى الموجود فى فيش، كل الجدران كانت محاطة بالجنود، كل فناء كان يعج بالجنود، ومع ذلك فإن الصالات التى كنا نمر خلالها فى طريقنا إلى الرجل العظيم كانت عبارة عن تعريشات عالية من القش، مفروشة بالحشائش الخضراء ومفصولة عن بعضها البعض بواسطة ستائر من قماش الساتان الحريرى، والتى كان يجرى فتحها أمامنا، الواحدة بعد الأخرى، بواسطة أمناء التشريفات الذين يرتدون ثياباً بيضاء، بعد مسير طويل وجدنا الرَّاس (حاكم مقاطعة سلالى) فى بلكونة مفروشة بالسجاد، معزولة، ومحاطة بستائر بيضاء حمراء يتخللها نافذة صغيرة واحدة، توقعت رؤيته من خلال تلك النافذة، لأنه كان بجواره نظارة مُكبِّرة، كان يراقب بها مخيمنا على المنحدر المقابل.

كان راس كسَّا واحداً من ممثلى الحبشة فى تتويج الملك جورج، وهذا الرجل يجمع بين الذكاء وسعة الأفق. أحببت الكلام معه، حتى من خلال سكرتير كان يتكلم الفرنسية، وأحببت أيضاً ملاحظة أثر تعبيراته على وجهه المدور إلى حد ما، الجرئ الحليق حلاقة نظيفة، لابد أنه كان محارباً وقائداً للرجال، وكان قصره مليئاً بحق، لا بالعبيد بل بالمقاتلين، كان قليل الكلام أكثر من الحبشيين ولا يعرف اللف والدوران، لم يبتسم سوى مرة واحدة، عندما قال لى: "أنت تركبين مثل الرجال، وتمشين مثل الرجال، توقعت، بعد كل ما سمعته عنك، أن تكونى رجلاً مثل كل الرجال، ما الذى لم تفعليه؟"

هذا يعنى أن النظارة المُكبِّرة جرى استعمالها!

الفصل الحادى عشر

أول لقاء مع النيل الأزرق

بينما كنا نقوض مخيمنا فى صبيحة اليوم التالى، وأثناء تحميل البغال، رأينا أشكالاً بيضاء تجرى على الجانب المواجه لنا من التل، شاهدنا جماعات من راكبى الخيول وهى تختفى داخل أسوار القصر الإمبراطورى، وشاهدنا أيضاً عشرات من حملة البنادق يجرون خلفهم.

سألت هارولد جونز، الذى كان يشرح مستفيضاً للزبانية أن من الخطأ طى خيمة مبتلة ومحاولة إدخالها فى زكيبة، ولا يزال داخل قماش الخيمة مصباح، لم أكن مستأنسة تقريباً عندما اكتشفت أن قبعتى الوحيدة المصنوعة من القش، والتى كنت أحتفظ بها لدخولى أسمرة منتصرة، جرى التعامل معها بنفس الطريقة. ومن سوء الطالع أن مقاومة القبعة كانت أقل من المصباح، وعليه عندما جرى إنقاذها من داخل الزكيبة المسطحة التى جرى ربطها ربطاً محكماً بالحبال، كان المتبقى منها عبارة عن سلك مطوى وعليه بعض القصاصات المعلقة فى ذلك السلك، ركبت حصانى إلى المدينة وأنا فى حالة نفسية سيئة، بصحبة هارولد جونز، الذى كان لديه عديد من الأفكار الساذجة عندما شاهد الموكب البهى الذى كان ينتظرنا.

صاح هارولد جونز فجأة عندما شاهد خيال نحو ألف جندى عند خط الأفق، جاءوا لتحيتنا "لابد أنهم أفرغوا المقاطعة من الجنود أثناء الليل"، وتشكل الجنود فى طابور مكون من ثلاثة صفوف، رافقنا إلى بوابات المدينة.

"يتعين عليك الذهاب والتحدث مع أولئك الرجال الذين يرتدون جلود أسود- أقسم أن لهم طلعة بهية- ويمكنك بعد ذلك الصعود إلى التل والجرى

بالحصان متجهة إلى أعلى التل وهم يجرون خلفك، وسوف أجعل من ذلك صورة رائعة".

قلت "أشكرك" عندما صهل الجواد الرمادى حين رأى أقرب الأشكال غير المتحضرة إليه؛ هل تتخيل بحق أنى لا أستطيع ركوب حصان لأن حزام سرجه أطول من اللازم ثلاث بوصات؟ جرت العادة أن أدور حول نفسى نحو خمس دقائق أتمتم خلالها بالصلاة.

تنهد هارولد جونز، "أليس بوسعك حشره بين بعض من هذه الرماح؟"

رددت عليه: "الأرجح أن يحشر أحدنا على قمتهم".

كان ميدان السوق عبارة عن كتلة من البنادق، ومن خلال حملة البنادق وغابة من الأعلام الصفراء والحمراء الدالة على رتب الضباط، مضينا راكبين دوابنا وقاصدين الأبواب المزدوجة، جرى استقبالنا أمام الأبواب المزدوجة بواسطة أفراد حرس الشرف الإمبراطورى الذين كانوا يرتدون ثياباً حريرية بنفسجية اللون ويحملون مظلات ناعمة نعومة المسحوق، استقبلونا وهم منحنون على عصيهم، وهنا وجدنا أنفسنا نعبر من جديد صالات من الحشائش المغطاة بالسجاد، لكن الفناء الداخلى فى هذه المرة كان زاهى الألوان، كان محاربو سلالى Salali قد خرجوا وهم مرتدون زيهم الحربى الرسمى الكامل، الحرب كما يفهمونها هم- منظر رائع، غير متحضر لكنه ملئ بالعظمة، كانت هناك أغطية مصبوغة ومصنوعة من جلود الأغنام، وكانت ألوانها تنافس ألوان قوس قزح وتتفوق عليها، وكانت هناك أيضاً ياقات وعصابات للرأس مصنوعة من عُرف الأسود، ومشرئبة على شكل ياقات متعددة الثنيات لونها أصفر فيه شىء من الاسوداد. كانت هناك سيوف معقوفة فى جرابات من القطيفة أو مطلية بالذهب، ومرصعة بالجواهر؛ وكانت هناك تروس مصنوعة من الجلد المدرَّع؛ كانت الرماح تتلألأ فوق لهب قرمزى اللون، وبرتقالى وبنفسجى؛ شاهدنا أيضاً خوذات، كانت عبارة عن نصف خوذة ونصف تاج، كان الضباط العظام يرتدون عباءات من جلود الأسود الناعمة، عليها لوحات من الفضة والذهب، كان هناك أيضاً رجالات آخرون من رجال الدولة، يلبسون أحزمة خرطوش مرصعة بالجواهر ويحملون سيوفاً كبيرة تتأرجح على جوانبهم، ويلبسون ثياباً من الحرير بنفسجى اللون،

ومطرزة تطريزاً متيناً، ولها ألفعة من الفرو أو الجلد أو القطيفة الموشاة بالذهب ومثبتة فى أجزاء كثيرة منها، كان راس كسًّا يقف على هذه الخلفية الرائعة، وقفة هادئة مرتدياً ملابس قرمزية اللون ومذهَّبة، وكانت عباءته مطرزة تطريزاً كثيفاً بدت معه وكأنها مصنوعة من المعدن، الذى بدا وكأنه انصهر بفعل حرارة الشمس، بحيث كانت النار تبدو وكأنها تشتعل من كل فتلة ومن كل خيط، أخبرنى هارولد جونز أن عينيه كانتا ترمشان وهو يحرك مقابض آلة التصوير، أما أنا فكنت بحاجة إلى مائة عين مفتوحة لدراسة كل تفصيلة من تفاصيل رداء الراس، وعلى الفور استأذنا من مضيفنا، وشكرناه على مزرعة الماشية، التى كانت تتبع قافلتنا على الرغم من أن اليوم كان مصادفاً ليوم الجمعة، وهو من أيام الصيام، ولا يصح فيه أكل اللحوم أو ذبحها، ووجدنا أنفسنا فى نهاية المطاف فى الميدان الكبير بين جدارين من البنادق.

قال واحد من حرس الشرف الإمبراطورى "سيرسل الراس معك مرشداً، يقوم بتوفير كل ما تطلبينه على الطريق، سافرى مع السلامة، ستصلين إلى دبرا ماركوس Debra Markos فى غضون أربعة أيام".

لم يكن ذلك كله من تفكير المرشد بأى حال من الأحوال، لأنه مجرد ضابط فى الحرس، هو مجرد فرد من أفراد الفيترارى باذاب(☆) Feterari Bazab، كان يركب ركوبته ومن حوله حرس راكب مرافق له فضلاً علي صبيين كانا يجريان خلفه حاملين بندقيته وترسه فى أكياس من الحرير، هذا الرجل حثنا على التوقف والتخييم قبل الظهيرة بوقت طويل.

"العشب طيب هنا، إن ذهبتم إلى أبعد من هنا فلن تجدوا ماء أو قرى".

وأصررت فى أدب جم، مع حزم كامل، على حتمية القيام بمسيرة زمنها ثمانى ساعات، تتخللها وقفات قصيرة، واستمر هذا الجدال طوال النهار.

"بغلى تعبان، لو كنت أعرف ذلك لأحضرت معى ثلاثة بغال".

عرضت عليه الحيوان الرائع الذى أعطانى إياه دجيز ماتش أسافا Dejez match Asafa فى آنكوبر.

☆ الفيترارى باذاب: طائفة من البشر الأقرباء للإمبراطور والمقربين إليه، وهم من اصحاب الهيبة والمقام. (المترجم)

"لكن الرجال هم أيضاً متعبون، وهم ليسوا متعودين على رحلات من هذا القبيل".

كنت أرد على كل اعتراض بأدب واستهزاء، لأرانى أواجه اعتراضات أخرى، كل منها أهم من سابقه.

"ستموت البغال، سيسقط المطر، سيفيض نهر آبَّاى Abbai، الخيول لن تستطيع السباحة فى هذا النهر. النهر فيه وحوش مثل سمك القرش (تماسيح) ستأكل أرجل الخيول".

كل ذلك كان يتم بابتسامة خاطفة وعابرة لأن الباذاب Bazab كان تزِّيينيًّا بطريقة جريئة وواضحة.

عندما أوشكت فترة العصر على الانتهاء، رحت أشير إلى مجموعات القرى التى عند كل منخفض من المنخفضات.

"أعتقد أنك قلت إنه لم يعد هناك قرى". لكن مرشدنا كان ممن لا يعرفون الخزى، أعتقد أن هذا الحبشى يكذب بطريقة تقوم على الأمل الساذج، وإذا لم يصدق كذبه فهو يقبل الموقف هازاً كتفه ويروح يفكر فى كذب آخر أكثر نظماً واستحالة، وعليه، بعد أن أكد أننا أوشكنا على قتل حَمَلَة النقل، بما فى ذلك مالكو البغال، وبعد أن أكد أيضاً أننا لن نستطيع الوصول إلى دبرا ماركوس قبل أسبوع، وبعد أن أكتشف باذاب بنفسه أن بلاغته كانت مثل الماء على ظهر البطة، راح الرجل يلهب ظهر بغله العنيد بالسوط، وابتسم ابتسامة رضا وأبدى ملاحظة "نحن الأحباش، لا نحب العجلة، نحن نريد أن نأكل ونشرب ونتحدث، ونساؤنا يتعبن خلال نصف ساعة، أما أنتم أيها الأوربيون فأنتم مختلفون عنا- ولا تفكرون فى شىء سوى العمل، كم عمرك؟"

أسلمتنا فيش إلى آبوت Abote؛ آبوت هذه منطقة لا نهاية لها عامرة بالقرى التى لا أسماء لها، ونزلنا فى نهاية المطاف، نزلنا من الهضبة إلى الأسفل من خلال مسيرات ملتوية عامرة بالجلاميد المكوَّمة، أنفتح أمامنا وادٍ مستو فيه سلسلة صخور جيرسو Jerso التى تشكل متراساً فى الجانب الشمالى، كانت آخر صخور هذا المتراس على شكل قلعة، عند حافة المنخفض، الذى كان يسير، تحت أسماء كثيرة، موازياً للطريق الذى سلكناه من دبرا ليبانوس.

قال باذاب متاسياً إحباطه السابق "هذا هو آدباى Adabai، وفى غضون ساعة واحدة سنصل إلى ممتلكاتى". وراح يضحك ثم دخل مزرعة على جانب الطريق.

تكلم متصيداً، أو مازحاً "طالما أنك لن تأكلى الثور، فسوف أحضر لك حليباً".

خرج وهو يلوّح بقرعة مفرَّغة، "الإنسان لا يمكن أن يحس بالشبع من الحليب، وعليه فسيكون مسيرك أسرع فى الغد وأنا بدورى سوف أغير بغلى عند كل دار نمر عليها".

وأنا أضيف هنا، إننا عندما خيمنا عند الساعة الرابعة تقريباً، عند النقطة التى تلتقى عندها قريتا آبوت Abote وجرسو، فإن الخيول "المتعبة"، ومعها الحيوانات الحاملة لأمتعتنا، اندفعت كلها خلال حقل من الشعير، ثم هربت بعد ذلك على نحو جعل القرية كلها تجند نفسها للبحث عنها.

كانت السحب الأخيرة قد اختفت عندما بدأنا صعود سلسلة جبال جرسو، وعلى الرغم من أن الساعة تشير إلى السادسة والنصف فقط، فإن الشمس كانت حارة على ظهورنا.

قال هارولد جونز "ستزداد حرارة الشمس أكثر بعد ذلك"، يبدو أن حصانه كان موافقاً على ذلك إذ حاول الرقود مرات عدة، وعندما وصلنا إلى أرض مستوية، جرداء وبعد أن أحرقنا الضمادة الإيطالية الصفراء، جلسنا تحت الشجرة الوحيدة ننتظر وصول القافلة.

بدأ المرشد كلامه "إذا مشيتم الليل بطوله، فلن تصلوا إلى النهر". قال هذا الكلام عندما رأى أننا غير مقتنعين، وراح يعدد على أصابعه الحشرات المؤذية التى فى مجرى النهر، "لا يمكنكم التخييم بجوار الماء. المكان عامر بالذباب والبعوض، والثعابين، والتماسيح، وحيوانات كبيرة مثل الثيران ومتوحشة تماماً".

توقف عن الكلام إما لالتقاط أنفاسه أو لافتقاره إلى الخيال.

سألت المترجم: "هل تظن أنه يقصد فرس النهر اللطيف؟" لكن هارولد جونز، الذى سخُن تماماً وأحس بالضيق، قاطع الكلام قائلاً:

"قل له: إن السيدة تحب الثعابين، وهى عندها ثعبان طوله أربعة عشر قدماً فى غرفة استقبالها".

شهقت عندما ترجم حاسن بصدق هذه الأسطورة لمرشدنا كسير الخاطر.

غمغم قائلاً: "لكن التماسيح". إحساساً منه أن ثعابينه لا طائل منها، وكرْهاً أن يتفوق علىّ، أكدت له أن هارولد جونز عنده تمساح مستأنس فى حديقة منزله، تنقل المرشد ببصره فيما بيننا نحن الاثنين مندهشاً، وربما يكون قد قرر أنه لم يعد له مكان بين كذابين محترفين.

قال هارولد جونز جازماً "لقد أكل تمساحى ثلاثة رجال، بقى فم باذاب مفغوراً".

وهنا رأيت أن الوقت مناسب للتأكيد له من جديد "انتبه؛ ثعبانى أليف جداً- وهو لا يعض أحداً مطلقاً ولا يأكل سوى الحليب."،. لكننا لم نسمع منه شيئاً بعد ذلك عن حيوانات النيل الأزرق المتوحشة، مشى الفيترارى راكباً بغله بجوارنا، إلى أن بدأت تتزايد كثافة مجموعات القرى لتنتهى بعد ذلك إلى قرية واحدة على مسافة بعيدة منا، وأفق منبسط من أمامنا، وعندها استأذن منا ليسبقنا ويرتدى ملابسه.

تساءل هارولد جونز، مُحْبطاً محاولة المرشد لركوب الحصان الكستنائى "ما الذى يريده هذا المرشد، بالله عليك؟" اكتشفنا بعد ذلك بساعة أو ساعتين، ونحن نجرى جنباً بحصانينا خلف القافلة، أننا وصلنا إلى حشد من حملة البنادق والرماح، كانوا يقفون متصلبين بجوار الطريق، كان فى المقدمة كرسى مغطى بالسجاد، وبجوار الكرسى، شكل رائع يلبس قبعة "من طراز ترلبى " Trilbyمصنوعة من اللِّباد وعباءة من جلد الغنم مقطعة إلى أطراف كثيرة ومن تحتها ثوب شديد الزرقة له مشابك من الذهب والمجوهرات، وفى الوقت الذى اندفع فيه هارولد جونز نحو آلة التصوير السينمائى، أحسست بأن أقل ما ينبغى علىّ عمله هو النزول عن حصانى وأصافح ذلك الجانب الجديد من شخصية الفيترارى باذاب، وإن شئت فقل المرشد. وبصورة جادة، ومثلما يفرح الطفل بلبسه الجديد، أرانى باذاب صفاً من البغال والخيول كلها مزينة بزينات ثقيلة من الفضة ومكسية إلى أعقابها بقماش قرمزى اللون، جرى تحريك فُرُش السُّرُج الفخمة مع اقترابنا من المكان، لكن باذاب وهو

يبتسم فرحاً، أشار لهم جميعاً بالابتعاد إلى أن جرى إحضار حصان مكسو بالمعدن والحرير، ركب باذاب ذلك الحصان وأشار إلى أن أتبعه، ثم حنجل الحصان وانطلق به، وراح الحصان يدور على شكل نصف دائرة وعنقه مقوس والزبد يخرج من فتحتى أنفه، والراكب يشجعه من كل قلبه، متناسياً المشكلات التى من قبيل التماسيح والثعابين.

لم يكن عندى من خيار سوى أن أتبعه، ونظراً لأن كل واحد كان قد أحضر معه حصاناً أو بغلاً، فقد سارع الجميع إلى الجرى بالخيول، فى الوقت الذى راح فيه المسلحون يجرون خلفنا وهم يصيحون مشجعين، كنت مشغولة طول الوقت بإبعاد حصانى عن الشروخ والحفر، نظراً لأنى لم أكن أعرف إلى أين نحن ذاهبون، إلى أن وقفنا فجأة بين جذوع بعض الأشجار، ثم اقتربنا من بوابة مسقوفة عند المدخل، كانت بوابة مسقوفة بالفعل، مسقوفة بالقش ولها طرف مدبب، وتؤدى إلى مُسَوَّر دائرى، وجميل فيه أشجار غابية وفيه أيضاً أشجار ذكية الرائحة مثل الصمغ وأشجار الطَّقُّوس أو الزَّنب، كان ميدان سباق الخيل أخضر وناعماً، وكان يوجد داخل الدائرة المبنية من اللبن بطنفها الغريبة المصنوعة، كنيسة قديمة هادئة، هذه الكنيسة القديمة الهادئة، بسقفها المصنوع من القش، وممراتها ذات الدعامات داكنة اللون، وجدرانها التى اسودت وتبقعت بفعل حرارة الشمس، كان لها مسحة من السلام القديم، لمسة من اللمسات البدائية، تجعلها تبدو كما لو كانت جزءاً من الأرض التى بنيت منها جدرانها والتى تنتمى إليها، ورأينا قساً مسنًا، له لحية بيضاء، تبدو عليه الحكمة باركه الله.

"أنا لا أعرف بلدك، لكنى أدعو الله أن يعيدك إليه سالمة".

كان بعض الصبية الشمامسة يرتدون ملابس حريرية باهتة ويمسكون بصلبان فضية مربعة الشكل، فى الوقت الذى كان باذاب يمسك بيدى ويوجهنى داخل تلك الممرات المعتمة شديدة الظلام، التى كانت الألواح والعمد داخلها عبارة عن جذوع أشجار صلبة، فى حين كانت أرضيات هذه الممرات مفروشة بحصير من القصب ومرشوشا عليها بعض الحشائش.

قال: "اخلعى قبعتك، وألق السلام على مريم".

رأيت أن الأسهل هو الطاعة بدلاً من شرح ذلك الذى يجرى فى أوروبا فى

مثل هذه المناسبات، وعليه واصلنا السير ورأسانا عاريان، حول الجدران الخارجية حول المعبد، وكنا ننحنى انحناء كبيراً أمام كل قديس شهيد، الأحباش يُقَبِّلون الأرض، عندما يلتقون صورة "مريم" أو "الأب"، لكنى لم أدقق النظر تماماً النظر، نظراً لأن الصور المرسومة بالألوان على الجبس قبل جفافه كانت واقعية بشكل مخيف، ووسط كثير من الدماء، والأطراف المبتورة، والتعذيب، كانت تلك الصور، وبأدق التفاصيل، تصور الآلام التى أصابت كل معترف وكل تابع من أتباع الزمن القديم.

لاحظت أن عدداً صغيراً من الصبية وبعض الرجال كبار السن هم الذين تبعونا داخل الكنيسة، أما الجمع الكبير فقد بقى خارج الكنيسة، طبقاً لما يحدث أثناء الأعياد والقداسات، وعرفت بعد ذلك أن أحداً لا يمكن أن يدخل كنيسة إلا إذا كان هو أو هى عذراء طوال أربع وعشرين ساعة.

كان ضوء الشمس الذى يلمع بين أغصان الشجر، وتباهى القساوسة والرؤساء فى "بيت المسيحيين"، ذلك الإرث الكنز، قد أعادا إلى الأذهان الطلسم القديم، لم يكن فى الكنيسة شحاذون، فضلاً علي أن أصوات الأحباش كان يجرى إسكاتها عن طريق السحر والجاذبية التى جعلتنى أنظر إلى الخلف من كل طرقة من الطرقات المنخفضة لألقى نظرة خاطفة أخرى على الأسطح بنية اللون، والجدران البنية اللون، التي كانت بساطتها منسجمة مع ألوان ملابس حاملى المباخر المرتوقة، المُبَيَضَّة بفعل الشمس، وملابس القساوسة التى لها لون الزعفران الباهت.

وسرعان ما انكسر ذلك الطلسم، عندما دخل جابرا جورجس بيننا وسط عاصفة من الاحتجاج والتفسير، وبشكل تردد صداه على طبلات الأذن، ومعه اللجام، وحزمة من الدجاج، ومفكوك الرِّكاب، ومعه ملئ ذراعٍ من الحطب، وهو يصيح بصوت عالٍ إن القافلة جرى احتجازها فى سوق كندى بواسطة رجال الجمارك الذينً يودون الاطلاع على جواز سفرى، ويصرخ المرشد فيترارى وهو يلقى بنفسه فوق الحصان وينطلق على شكل دوامة سائب الأطراف والملابس، تبعته لمنع حدوث المزيد من الاضطراب، دخلنا مسرعين وسط جمع من التجار، المشغولين فى عملية بيع المواشى؛ وفى غضون ثانية واحدة، أصيب بالارتباك والفوضى كل من مسئولى الجمارك، والقافلة،

والقرويات- اللاتى كانت ملابسهن مملوءة بالمنتوجات- والشحاذين، والجنود، والقساوسة، وارتعدت فرائص جَمّاع الحطب خوفاً وهلعاً بسبب غضب باذاب الذى فى غير محله، وقع نَبُّوته على ظهور الرعاة الذين لا حول لهم أو طول، وجرى دفع بغالنا فى كل الاتجاهات ما عدا الاتجاه الصحيح، فى الوقت الذى انجرفنا نحن فيه أيضاً مع المد، وكانت آلات التصوير ترتفع إلى الأعلى وإلى الأسفل كما لو كانت أيدى ترفع أو تسحب.

أستغرق عبورنا مئات الياردات القليلة وقتاً طويلاً إلى أن وصلنا إلى القمة الصخرية التى تهبط على مصاطب صخرية وشجيرات تزيد مساحتها على أربعة آلاف قدم، وصولاً إلى نهّر أبَّاى Abbai، ومع ذلك استطعنا الوصول إلى هدفنا على الرغم من أن رءوسنا ورئاتنا كادت توشك على الانفجار بسبب الكفاح الشديد، نزلنا زحفاً خلال المدة المتبقية من فترة العصر، عن طريق مساقط من الجلاميد، موجودة بين الأشجار الماكرة التى كانت تخبئ أشواكها وسط نضارتها وزهورها، كنت أود التخييم قريباً من النهر، حتى نتمكن من التسلق المخيف إلى قرية جوجام Gojam فى فترة بَرَاد الفجر، لكنى وُجهت بالاعتراضات القديمة، قيل إن الماء لن يكون متوفراً بعد الآن، وقيل أيضاً إنه لن يكون هناك عشب للبغال، وإننا إذا ما واصلنا السير إلى دخول الليل فلن نصل إلى مجرى النهر، وعندما اعترضت على المسألة الأخيرة مُصِرَّة، أننا طالما لا نستطيع تسلق خمسة آلاف قدم فى شمس الظهيرة، فإننا يتعين علينا إحراز المزيد من التقدم قبل التخييم، وبذلك أصبح النهر أكثر قرباً بطريقة غامضة.

قال جابرا جورجس: "لقد كنت مخطئاً، لأن المسافة بيننا وبين النهر تقدر بمسير ساعة واحدة".

كان الجو شديد الحرارة، بفعل انعكاس وهج حار علينا من الصخور، كان المنظر أزرق اللون فيه شىء من اللون الوردى وبهيجاً، وكانت الوَهْدة من أسفلنا مغطاة بالضباب، وكانت قمم جوجان الصخرية مُكوَّمة على هيئة أشكال غير منظمة فى المنطقة الواقعة خلف الوهْدَة.

قلت: "حسن، ضع الخيام على الرف الصخرى" موافقة بذلك، وأنا مُنَوَّمة بفعل الجلبة والضوضاء، نظراً لوجود نحو خمسين جندياً من جنود



المنحدر الخطر، طريق صخرى فى الحبشة

الفيتراري، كانوا لا يزالون معنا، ومنوَّمة أيضاً بفعل ذلك الصبى حلو الملامح الذى يصل طول رموش عينيه إلى نحو بوصة، وإسمه جرازماتش بالاى Grazmatch Balai، كان يترأس جماعة كبيرة أوفدت لمرافقتنا بواسطة راس هيلو، أثناء عبورنا لحدوده؛ معروف أن الراس هيلو هو رئيس Chiefجوجام شبه المستقل، وهنا اتفقنا على أن نبدأ سيرنا فى ساعة مبكرة.

قال جرازماتش مصراً: "على ألا يكون ذلك قبل طلوع النهار، لأن هناك لصوصاً بجوار النهر".

قال هارولد جونز: "ثعابين، تماسيح، وعصابات، أنا أتعجب مما يمكن أن يقال لنا بعد ذلك!"

بعد ذلك بدقائق معدودات عُضَّ واحد من جنود مقاطعة سلاَلَى Slalai لأنه كان يجوس غير مكترث خلال الأعشاب الطويلة، حدثت ضوضاء وهرج ومرج، قد يموت الرجل، كانت حيَّة سامة، كان السم لحظياً وفورياً. واقع الأمر، أن الرجل كان قد فارق الحياة! وفى محاولة منى لتذكر العلاج الصحيح لبعض الثعابين، اندفعت إلى صندوق أدويتى عارية الرأس، وعدت ومعى صندوق الأدوية، وأخرجت الميسم على وجه السرعة، وجلست بجوار المصاب، وقيل لى بأدب إن لم يكن بإسهاب، إن المصاب يؤثر تحمل تلكم الشرور التى ألمت به على الفرار إلى شرور أخرى لا يعرف عنها شيئاً! لم يمت المصاب، أنا أتوقع أن الرجل عضته بعوضة من البعوض العنيد عناد كلاب البولدج Bulldog، والذى ينتشر فى هذه المنطقة، أو ربما تكون هناك بعض الأشواك فى تلك الحشائش الطويلة.

عندما زحفنا ببطء نحو الأسفل فى صبيحة اليوم التالى، بدت القمم الصخرية وكأنها تطبق علينا، وفى المناطق التى كانت تلك القمم تنقسم فيها إلى أطراف مستدقة، كنا نشاهد مجموعة من الأشكال جاثمة على تلك القمم المتقدمة كما لو كانت صقوراً، وكانت الشمس تتلألأ على السيوف ومواسير البنادق، كنا نعرف أنه كانت هناك فى الأيام الأخيرة مجموعة من الكمائن وأن القوافل الكبيرة هى فقط التى كانت تمر من هذا الطريق، أدى ذلك إلى المزيد من الاضطراب والفوضى على الطريق الضيق، نظراً لأننا لم يكن معنا

عشرون بغلاً وإنما مائة بغل محملة بالبضائع، والعسل والحبوب، وكانت تطلع وتنزل فوق الألواح والمدرجات المستحيلة، التى كان مسار طريقنا ينقطع خلالها لاهثاً من جسارته ووقاحته، جاءت لحظة مخيفة، عندما بدأت بغالنا تجوس خلال جذوع أشجار مُكسَّرة وجلاميد مُكسَّرة أيضاً، إذ جاء طوفان من الحمُرُ التى تحمل أثقالاً أكثر من حمولتها، وراحت تتجه نحو هذه الجذوع المكسرة والجلاميد المكسَّرة، هذا الطوفان جرى صَدُّه بفعل أوزان أمتعتنا، وتحطمت حمولته، بل إن البعض من مكونات هذه الحمولة سقط من فوق القمة الصخرية، هرول سائقو الحمير لإنقاذ ما يمكن إنقاذه؛ هؤلاء السائقون كانوا مجرد أشكال هزيلة ترتدى عباءات قصيرة مصنوعة من جلود الأغنام كانت مفتوحة من جانب واحد، لكن حيواناً أو اثنين كانا يتشقلبان بالفعل نازلين نحو الأسفل ليصطدما بحافة بارزة من حواف الجبال.

كان عبور النهر طرفة بحق، ونظراً لتصميمنا على التقاط بعض الصور للقافلة وهى تخوص فى طين يطاول ارتفاع سرج الحصان، ووسط جموع من حملة الرماح العراة الذين كانوا يبعدون التماسيح عن طريق إحداث طرطشة كبيرة فى الماء، وذلك عن طريق خضخضة الماء بواسطة رماحهم المعكوسة، رحت أنا وهارولد جونز، نخوض بلا خوف، إلى حد أننا لم يتبق لنا سوى زوج واحد من الأحذية، كانت الصيحات تأتينا من فوق ضفة النهر حيث كانت القافلة تتجمع بكامل قوتها التى تصل إلى مائة فرد، كانوا جميعاً مستعدين إلى النزول إلى الماء على شكل حرف V، بحيث تكون البغال فى المنتصف، لكننا واصلنا تخويضنا إلى أن أوقفنا تيار الماء، وسارع واحد من حملة الرماح لمعاونتنا فى الإمساك بحامل آلة التصوير، تركت هذا الرجل، الذى تناسى التماسيح وراح يحملق ويطيل النظر إلى آلة جونز السحرية، لكن عندما ارتخت الأمتعة فى الفيضان، بدأنا نمشى ببطء فى اتجاه ضفة جوجام، كان الحرس المرافق لنا نشيطاً، على الرغم من غرقهم فى الماء إلى خصورهم، حاول أفراد الحرس المرافق، عن طريق الصياح والقفز والنط، تخويف وإبعاد الوحوش التى ظنوا أنها تنتظر أولئك الذين يمشون وحدهم أو غير الحذرين، وفى منتصف المسافة، وبعد أن رفعت رجلىَّ، وخرجى السَّرْج على شكل كومة فى منطقة البغال، سمعت طلقة بندقية تدوى فوق المنخفض، منعنى عرف

الفرس من السقوط، وعندما نظرت حولى وجدت جرازماتش هو وبعض جنوده يفتحون طلقات بنادقهم فى اتجاه السماء، حاملين البنادق فوق رءوسهم.

شرح لى حاسن "الضوضاء تخيف القروش(★)"، وبعد ذلك بلحظة واحدة، وبصرخة مدوية، قفز رجل فى الماء ووقف بجانبى، وقفت كالمشلولة، ورحت أحملق فى المكان الذى كان الرجل فيه، لكن رفاقه ضاعفوا صياحهم ومجهوداتهم البدنية، إلى أن خرج الرجل ثانية من الماء مبتسماً.

"لقد قفز الرجل على صخرة وجرح قدمه، وظن أن تلك الصخرة كانت قرشاً، الحمد لله!"

أُضيف إلى هذا الحادث لمسة من المرح بوصول راسٍ هيلو فى تلك اللحظة، فى موكب حاملاً معه أحدث مشترياته، سيارة مُقَطَّعة، وهنا قام الحمالون بإسقاط الإطارات وكبُّود السيارة فى الماء وحاولوا الجلوس على هذه الأشياء!

كان تقدمنا بطيئاً خلال قمم جوجام الصخرية التى لا نهاية لها، انفصل نعلا حذائى وانشرخت رقبة فردة من فردتى حذائى من الخلف، كان ذلك احتجاجاً مبرراً، نظراً لأن ذلك الحذاء يرجع تاريخه إلى العام ١٩١١، وقد ارتديته خلال معظم البلدان وخلال أنواع كثيرة من المياه، لكن ذلك أحزننى مثل الزبانية الذين بدأوا يرددون عبارتهم المعتادة "هيا بنا نخيم" ويتمتمون ويغمغمون قبل الوصول إلى مكان منبسط يسمح حتى بوضع طبق واحد، ناهيك عن الخيمة، تناقص اتساع نهر آبَّاى Abbai الكبير، الذى هو الجزء العلوى من النيل الأزرق، إلى ما يشبه شريط من الحرير الملوث بالزيت، وبدأت الحواف الصخرية تتشابك أعرافها مع بعضها البعض متجهه نحو الأعلى، وكانت القرى تبدو كما لو كانت متكئة على كل نقطة من نقاط الأفضلية بواسطة أسيجتها الخشنة، وصلنا أخيراً إلى الأرض المنبسطة التى هى امتداد لجرسو من الناحية الجنوبية، وبدأنا السير خلالها، مصممين على الوصول إلى دبرا ماركوس فى اليوم الرابع بدءاً من مغادرتنا فيش Fiche، تبعتنا صيحة عالية لم نلق لها بالاً، وعليه توقف المرشدون فى الخلف.

★ القروش هنا لا تعنى اسماك القرش، لأن القروش لا تعيش فى الماء العذب، ولكن الأحباش يطلقون اسم "القروش" على التماسيح. (المترجم)

"لن نمشى أبعد من هنا، لقد تعبنا، لا يوجد ماء إلا فى نهر بيشات وهو على بعد مسيرة يوم كامل".

وهنا تذكرت على الفور لفّهم ودورانهم.

قلت: "أشكركم شكراً جزيلاً، الطريق واضح تماماً، وعليه لا داعى أن تتعبوا أنفسكم أكثر من اللازم".

بدا عليهم عدم الاهتمام والفهم، عندما واصلت المسير مع جونز، الذى كان يساندنى دوماً عندما كنا نثير ضجيجاً أو عجيجاً مع الحبشى، ذلك اللاعب الضعيف جداً فى لعبة البوكر الذهنية، وفى غضون عشر دقائق، كانوا فى أعقابنا، ليقولوا لنا فجأة إنهم تذكروا عدداً من الثقوب المائية المنسية، عندما مررنا بآخر ثقب من ثقوب المياه هذه، بدأت "فى صبيحة اليوم التالى" القصة من جديد، الكذبة التى حدثت وتكررت ذات مرة؛ كنا قد سقينا حيواناتنا من قبل، وعندها خيمنا فى رقعة جرداء من الأرض ليست على مقربة من أية قرية من القرى المضيافة، وعليه لم نصغ إلى توسل ورجاء مفاده، أنه أولاً وقبل كل شىء، هناك مجرى مائى (وبلا شك بعض الأكواخ التى تُصَنِّع مشروب التَّلا Talla) فى المنطقة المجاورة.

أمطرت السماء فى تلك الليلة، وعندما وجدنا أن أعمدة خيام الخدم جرى التخلص منها على اعتبار أن حملها يسبب للخدم نوعاً من القلق، وعندما وجدنا أن الزبانية لم يدخروا شيئاً من الوليمة - ثور ضخم ومائة وثلاثين رغيفاً- التى قدمها لنا آخر رئيس من رؤساء القرى التى زرناها، توصلنا إلى قرار مفاده أن التجوال فى الحبشة يتعكر صفوه بسبب تهور القافلة، التى لا يراعى أفرادها راحتهم، وإنما يتوقعون أن يسقط المن والسلوى فى أفواههم "بمشيئة الله"، والكسل المتأصل فيهم، الترحال، إن قُدر له أن يكون آمناً، يتعين أن يكون بمعدل خمس أو ست ساعات فى اليوم الواحد، وعليه ومن منطلق وعينا نحن الاثنين لهذه الحقيقة، مضينا قدماً كى نتحاشى يقين ذلك الذى نسميه "تعبير الساعة الثانية".

♦ الفصل الثانى عشر

ليلة مخيفة

جاء وصولنا إلى دبرا ماركوس بمثابة كابوس مؤلم للنتائج التى ترتبت على اللف والدوران، بعد أن تأكدت من الخارطة ومن ستة من المرشدين أننا كنا على بعد مسافة تقدر بنحو ثمانية عشر ميلاً من عاصمة مقاطعة راس هيلو، بدأنا تحركنا عند الساعة السابعة، وتركنا النهر ووادى بيشات Bechat فى الجنوب، وتجاوزنا إنابى Enabi، التى كانت تبدو لنا من بعد، بعد نحو ميلين، وهدانا المرشد إلى "طريق مختصر" جعلنا نمر عبر أراضى الشعير ذهبى اللون وعبر حشائش أخرى جفت بفعل الشمس، إلى أن وصلنا إلي حفرة مليئة بالطين الأسود، لم تكن تلك الحفرة أكبر من أية بحيرة أخرى من بحيرات الطمى التى عبرناها، وعليه، نزلت من فوق حصانى، ورحت أتحسس طريقى خلال هذا الطين الأسود، ودهشت عندما غاصت قدماى إلى الساق فى آخر مكان وصلت إليه، كنت أزيل طبقات الطين من على حذائى الذى قام بإصلاحه واحد من الزبانية مستعملاً لذلك خيطاً أصفر اللون، عندما سمعت صراخ مالكى البغال، كما سمعت أيضاً صيحة إنذار وتحذير من هارولد جونز، وعندما استدرت، شاهدت طين البركة حياً، وقد تحول إلى أشكال تتحرك؛ أشكال كلها سوداء سواد الأبنوس، اللهم باستثناء قطعة من أمتعتنا أو عرفاً أبيض من أعراف الحيوانات كان ظاهراً مرتفعاً نحو الأعلى؛ كانت تلك الأشكال تتجاوب مع امتصاص المستنقع، كان نصف أعضاء القافلة قد نزلوا معاً فى ذلك المستنقع، وفى لحظة من اللحظات بدا الأمر وكأن هؤلاء الأفراد لن يخرجوا من ذلك الوحل، ومن يمن الطالع أن الجزء العميق من ذلك المستنقع الطينى كان قريباً من الشاطئ؛ أما فيما يتعلق بمالكى البغال اللذين كانا غارقين فى الوحل إلى عنقيهما، فكانا يدفعان، ويجران الحيوانات

ممسكين بها من أعرافها أو أذيالها أو يرفعان أنوفها فوق مستوى الوحل، وأفلح السواد الأعظم من هذه الحيوانات فى الوصول إلى الأرض الصلبة، كانت الحيوانات الثلاثة الأخيرة تحمل أثقال الأحمال، وعلى الرغم من نضال هذه الحيوانات وهى غارقة فى الوحل فقد راحت تغوص ببطء فى الطين إلى أن أصبحت لا يرى منها شىء سوى رءوسها وأصلابها، فصل البغالة الأحمال عن البغال، ومع ذلك بقيت البغال الثلاثة بلا حول أو طول، وبعد المحاولات المميتة التى بذلت لجعل هذه البغال تقف على أقدامها، والتى غرق خلالها مالكا البغال فى الطين مثل حيواناتهما، اقترحت عليهم فكرة استعمال الأعمدة، إذ سبق أن رأيت هذه الأعمدة تستخدم فى رفع الإبل من الرمال المتنقلة، انكسر العمود الأول، أما العمود الثانى، الذى كان ركيزة من ركائز الخيام، فقد جرى تمريره من تحت جسم البغل وقام ستة رجال برفع الحيوان إلى أعلى فى حين كان اثنان آخران يدفعان الحيوان من عرفه وذيله، بعد ذلك قمنا بغسل الأمتعة، على الرغم من أن البغالة كانوا مغتسلين تماماً، وعند الظهر بدأنا تحركنا من جديد، ونحن نتجادل، بطبيعة الحال، حول المسافة.

"إذا سرتم طول الليل فلن تصلوا دبرا ماركوس".

"لا، هذا ليس صحيحاً، ستكونون فى المدينة بحلول الساعة الخامسة".

"إن أكرمنا الله فإن المسافة من هنا تقدر بنحو ثلاث ساعات"، أخيراً وبعد أن غادرنا الأراضى المعشوشبة، التى فيها مجرى مائى يمر أسفل كل سلسلة من السلاسل الصخرية، دخلنا منطقة من أحراش الست المستحية(☆)، "من عرف الجبل القادم تصبح المسافة المتبقية مسير ساعة واحدة، نصل بعدها إلى دبرا ماركوس".

كانت الساعة قد وصلت الرابعة، وكنا متعبين، لكن الأمل المرتقب فى فترة راحة طويلة فى دبرا ماركوس أغرانا، وعليه سارعنا إلى صعود المنحدِر، من بين شجيرات كانت لها زهور صفراء شبيهة بلون بضوء الشمس وقد أمسك به فى شبكة، زهور برية، زهرة شارون Sharon، الظَّيَّان(☆☆)، والياسمين

☆ الست المستحية: نبات مزهر من فصيلة السنطيات. (المترجم)

☆☆ الظَّيَّان: بتشديد الظاء وفتحها وتشديد الياء وفتحها، هو ياسمين البر، وهو نبات معترش. (المترجم)

زكى الرائحة على جانبى الطريق الذى نسير عليه، مررنا عبر كثير من النهيرات الصخرية، إلى أن وصلنا فى نهاية المطاف إلى قمة الجبل، وهنا صحنا قائلين: "حسن، أين دبرا ماركوس؟" وسبب ذلك أن الشمس كانت قد أوشكت على الغروب، والأحباش يكرهون الظلام.

"قريبة! إنها قريبة فعلاً، انظرى، تستطيعين رؤيتها من هنا".

رحنا نحث مطايانا وفى مقدمتنا جرازماتش Grazmatch على أمل الوصول إلى ما يمكن اعتباره مبتغانا الأخير، يا للأسف! ربما تكون منطقة دبرا ماركوس موجودة أسفلنا لكن قراها وأشجارها تقع على قمة جبل بعيد عنا.

كان ضوء النهار قد بدأ يخبو بفعل العاصفة، خيمنا بعد التشاور، وقمنا بجولة على ظهور الدواب إلى القرية فى فترة الصباح، لكن المسافة تكون خدَّاعه فى بعض الأحيان، كما أن عظامنا آلمتنا بسبب تحررنا من السَّرْج مدة ست وثلاثين ساعة.

قال أحدهم: "القافلة قريبة منا فى الخلف"، وأردف هارولد جونز قائلاً: "لابد لمالكى البغال أن يتبعانا، كلهم يودون الذهاب إلى البلدة، وهم يعرفون أنهم لن يكون أمامهم من شىء يفعلونه غداً سوى الأكل والتسامر مع بعضهم البعض"، رددت عليه "هذه هى بداية صوم يستمر أربعين يوماً"، وواصلنا السير ودخل علينا الظلام فجأة، ونحن نثابر على السير فى الأرض المحروثة، الأمر الذى أدى إلى إزعاج مجموعة من طيور الزقزاق راحت تصرخ احتجاجاً حول آذان بغالنا.

قال جرازماتش: "يجب أن أسبقكم، وإلا فلن يدعونا ندخل البلدة".

تخيلت أن الصبى كان يتطلع إلى مأوى وموقد، ولذلك أصررت على ملازمته، وأن أكون لصيقة به، وواصلنا السير، بحيث كان حصانى خلف ركوبته، فى ظلام دامس، ميلاً بعد ميل، إلى أن أشارت الساعة إلى السابعة، وعندها دخلنا منطقة الحشائش والأعشاب الموجودة أسفل دبرا ماركوس.

قال بَالىّ Balai "بوسعكم التخييم هنا، الماء قريب منكم وسوف أحضر لكم بيضاً وحليباً".

أدى وصولنا إلى قريته إلى إيقاظ الكرم الذى يعد أفضل شىء فى الحبشة، واندفع بَالىّ فى جوف الظلام قاصداً السلب والنهب.

نظر إلىّ حاسن الذى كان يتبعنا نظرة تدل على البله وعدم الفهم، كانت النجوم قد ظهرت، لكنها كانت محجوبة بواسطة السحاب، وكانت الحشائش مبللة بالماء، لم يكن معى من شىء سوى معطف مطر خفيف جداً، ورحنا نطلع إلى الأعلى وننزل إلى الأسفل، ونحن ننتظر، فى يأس، وصول هارولد جونز ومعه مالك الخيل، لم يأت أحد منهما، مضت ساعة وكان البرد القارس يخترق أجسامنا، كانت أسناننا تصطك، عندما عاد إلينا جرازماتش وهو يحتضن دجاجة.

قال: "يتعين عليك الدخول فى منزل من المنازل، وستجدين فيه الوفرة وتحصلين منه على ما تشائين".

قلت مصرة: "يتعين علينا مقابلة الجنتلمان أولاً"، وبدأنا بعد ذلك بحثاً لا طائل منه، فقد أرسلنا بعضاً من الزبانية الضالين الذين سبقوا القافلة، معيدين إياهم إلى القافلة، وحركنا الحضر الحائرين إلى البحث عن ذلك الذى بدا لنا وكأنه خليط لا ينتهى من حزم النباتات الكثيفة، والسدود الترابية، والحشائش التى تطاول خصر من يسير خلالها، أو الشروخ المملوءة بالماء، عند الساعة التاسعة كنت خدرة ومرهقة، نظراً لأن الغداء كان عبارة عن لبن رايب وبضع كسرات من الخبز، حثنى جرازماتش على التوجه إلى كوخ من الأكواخ، كانت تنبعث منه دخان نار وقودها روث البهائم.

واصلنا مسيرنا وتجاوزنا بعض الأبقار وعجلاً صغيراً إلى أن وصلنا قرية كبيرة من الطين والقصب (البوص)، كانت هناك نعجة وثلاثة كلاب حول الرماد، حيث كانت توجد امرأة تطبخ شيئاً فى نصف قرعة. كان هناك أيضاً عدد من الرجال والأولاد جالسين بجوار الجدران فى ضوء ناتجٍ عن إحراق بعض الدهون، الموضوعة فى إناء من الصلصال، كان الهواء محملاً بالغبار، والدخان، وتفوح منه رائحة الزيت، وكان هناك أيضاً بعض الحيوانات وبشر غير مغتسلين، ومع ذلك كان الكوخ دافئاً، دُفعت وأنا مبتلة وأرتعد إلى حلبة مغطاة بالحصير، وفوق شئ ما عندما كنت أفرد يدى كى أوازن نفسى، كان واضحاً أن كثيراً من الدجاج وعائلاته كان يتقاسم معى هذه الشلّة، ومن خلف الدجاج كانت هناك بعض أقراص الجلّة والدريس. قدم لى شاب، صاحب البيت، شيئاً من الحليب، وبابتسامة وعن طيب خاطر وضع كل ما لديه تحت تصرفى. وبطبيعة الحال، كان لابد من أخذ السرير، وهذا يعنى أن الرجل هو وأسرته سينامون فى مكان آخر، أصر رب البيت على

ذلك ولاحظت أنا بدورى وجود فراغات منفصلة عن بعضها بعيدان القصب، لكن ثغاء الغنم وعراك الحيوانات كان ينبعث من السواد الأعظم من هذه الفراغات، عند هذه اللحظة حدث اندفاع فى الطرق المؤدية إلى الباب، ودخل جابرا جورجس بطريقة مثيرة، لم يكن ذلك الرجل قادراً على مقاومة الفرص العاطفية كلما تهيأت له، وكان يستخدم يديه دوماً فى التعبير عن ذلك حسب حدة هذه العاطفة. قام جابرا جورجس، ومن خلفه بالينا الصامت والمغلوب على أمره، بإلقاء حزمة تحت قدمىَّ.

قال: "ضاع! لقد ضاع حقاً! جلس أرضاً! كل شىء معه، لا شئ، لا يوجد أى شئ، لا شئ! حصلت على بعض أشياء قليلة من صندوقى، زيت، بن، بسكويت، هذه الأشياء موجودة هنا." طرح نفسه على الأرض، ووسط التراب والوحل راح يفرد بعض المؤن الغذائية المفككة من بعضها.

"ليس لديه فكر، لقد انتهت البغال، ماتت، هو جالس! ليست هناك خيمة، ولا سرير، لقد ضاع كل شىء.؟ ساعتين من هنا، جريت وأعطيت رجلاً ريالاً، أخذته من الحقيبة!"

عقَّب بالينا المسرف "أنا أعرف أن المبلغ كبير".

رفض ذهنى تسجيل أى شىء، لأنى كنت قلقة على هارولد جونز، الذى لا يعرف كلمة واحدة من اللغة العربية أو اللغة الأمهرية، وقد تخيلت أنه ربما يكون قد تجمد فى واحد من المجارى المائية الكثيرة، أو ربما يكون قد تاه فى المقاطعة المجاورة، طالما أن جابرا جورجس لم يمر عليه فيما كنت على يقين من أنه الطريق الوحيد.

قلت وأنا مدركة هباء ما أقوله "لابد من عودتنا جميعاً لننظر ما جرى"، لكن جابرا جورجس دفعنى إلى الوراء.

قال جابرا: "سوف أطهو بيضا، لقد ضاع الخواجة Khawaga ضاع كل شئ، سوف أسَوِّى بيضاً مقلياً".

رأيته وكأنه يضع بيوض شخص آخر فى طبق مستعار، وفى الحال نضج البيض المقلى، ربما كانت هناك فترة زمنية، لكن كما يحدث فى المعجزات، وفى وعاء قذر تماماً، جرى وضع البيض على ركبتى، وعندها دخل هارولد جونز، مصاباً إلى حد ما ويكاد يتصلب بسبب البرد.

"إلى أين ذهبت؟ لقد وقفت أنتظر ساعة كاملة عند البوابة".

قلت فى تواضع وأنا أدفع دجاجة كى أخرجها من قبعتى: "لا أظن أن هناك بوابة".

"أقول لك، إنى انتظرت هناك فترة طويلة، كان هناك جنود وقد أحضروا لى كرسياً، إنها البوابة الوحيدة فى جدار هائل".

غمغمت قائلة "نعم" وأنا أدرى أن دبرا ماركوس لم تكن لها بوابة أو جدار "ألا تريد شيئاً من البيض المخفوق؟"

أكلنا فى صمت، ونحن نحس بالخدر نتيجة البرد، والإرهاق ونتيجة تفكيرنا فى الليل الذى ينتظرنا.

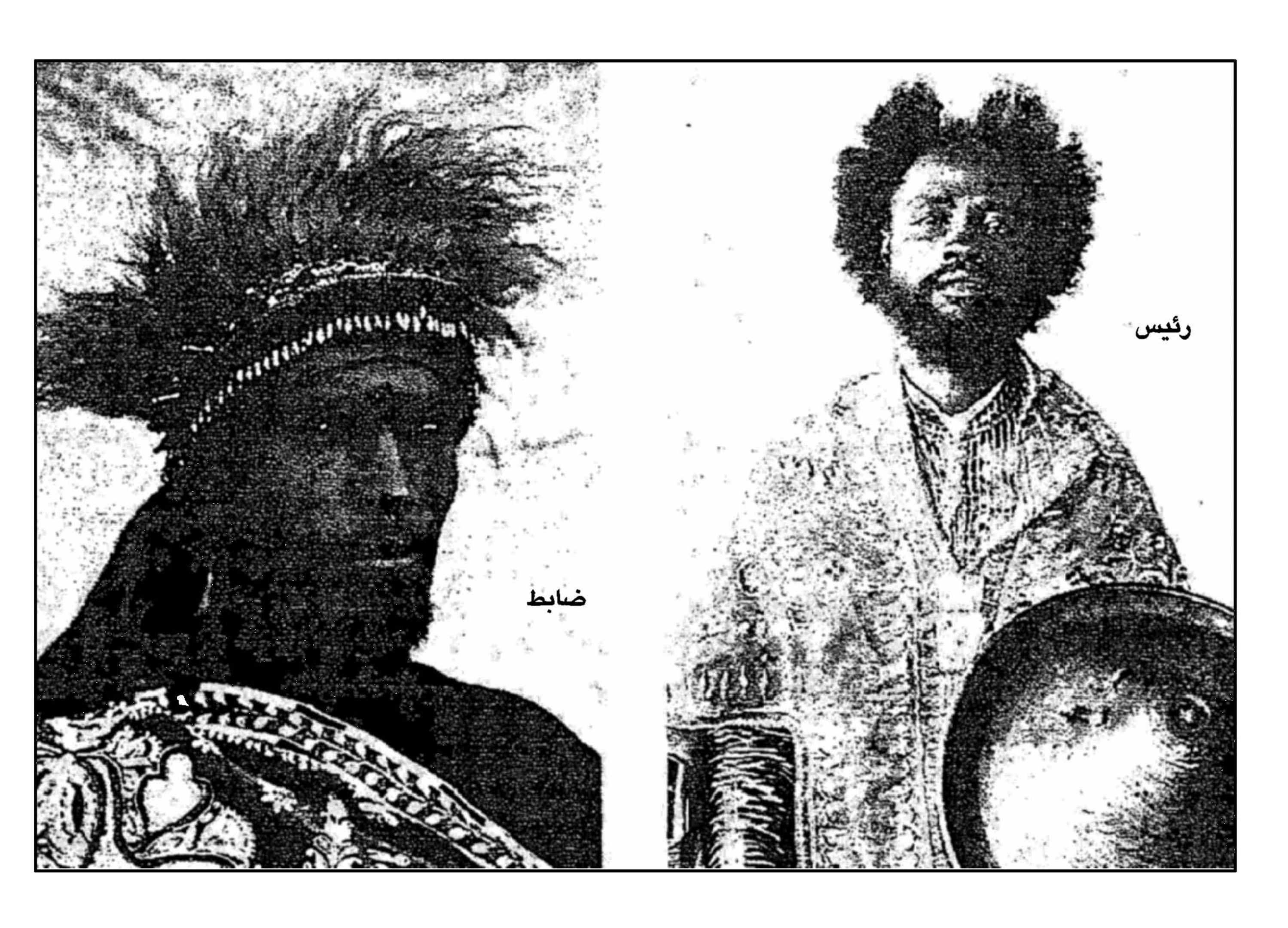
سألت "هل سنتقاسم هذه الحلبة مع الدجاج؟" قلت هذا الكلام وأنا مستأنسة بعض الشئ بسبب الدفئ، على الرغم من أن الدخان الحريف جعل عينىَّ تدمعان "أم أنك تود حُجيرة مع العائلة،؟" لكن هارولد جونز كان مصراً على مغامراته.

لقد رحمك جرازماتش عندما لم يحضرك إلى البلدة، لم يسمحوا لى بالدخول وطلبوا منى نصب خيمة خارج البوابة، لقد سمعت كلاماً كثيراً عن الخيمة Dunquan. إنهم هنا يغلقون البوابات عند غروب الشمس كما هو الحال فى هرر.

وافقت قائلة: "ربما" وأنا أتعجب من مسألة الإسراع فى تغذية الخيول وإعطائها قسطاً كافياً من الراحة حتى أبدأ البحث عن مالكى البغال، كان مستحيلاً تماماً تمضية الليل فى القرية التى أصبحت مزدحمة إلى حد الاختناق، نظراً لأن البغالة قد يمكثون فى مكان مريح على جانب جبل من الجبال، وأننا سوف نستدعى للقاء راس هيلو، ونور الصباح ونحن فى حال مذرٍ من القذارة.

سألت هارولد جونز وأنا أدرس طبقات الطين المختلفة التى على بنطالى "كيف اكتشفت هذا المنزل؟"

"عثر علىّ الجرازماتش وأرسلنى إلى هنا، أظن أن معه تصريحاً أو شيئاً من هذا القبيل، نظراً لأن الجنود سمحوا له بالدخول، كانت هناك قوات من الجنود لابد أن هذا المكان مُحَصَّن بصورة منتظمة".


رئيس
ضابط

اكتشفنا بعد ذلك أن الخادم كان قد وجَّه هارولد جونز مباشرة إلى بوابة القصر، حيث قام المسئولون المُحْرجُون، المأدبون والمُسْتَفَزُّون بذلك القدوم الذى لم يعلن عنه، بمناقشة مسألة نصب خيمة لذلك الأوروبى المُشَرَّد الذى رفض أن يفهم الحقيقة التى مفادها أن الرَّاس لا يمكن إزعاجه فى هذه الساعة المتأخرة، على كل حال، آوى هارولد جونز فى تلك الليلة إلى فراشه ومعه مخدة من الجلد، وبطانية من بطاطين البغال، وهو مصمم على أننا جرى طردنا إلى ضاحية من الضواحى، يزاد على ذلك أنى بلغت من التعب حداً منعنى من أن أعيد القول: إننا كنا على بعد ياردات قليلة من السوق.

كنت قد خلعت حذائى ولففت قدمىَّ فى معطف المطر، لكن بعد عشر دقائق، وأحسست بأنى قد تجمدت بفعل الريح التى كانت تأتى من الباب المفتوح، كانت النار قد ضاعت وسط الدخان، إلى حد أنى لبست الحذاء من جديد، بمساعدة ستة من البشر كانوا مجتمعين حولى، ولففت معطف المطر الرقيق جداً حول كتفى، ورقدت مرة أخرى ورأسى على جوال من البصل، لكن بعد بضع دقائق بدأ كل طرف من أطرافى يؤلمنى، إلى حد أنى شعرت أن جسمى كان متقداً.

قلت لنفسى "هذا شىء عصبى، أنت متعبة جداً، هذا هو كل ما فى الأمر" لكن استيائى تزايد إلى أن بدأت أفكر أن ذلك لابد أن يكون نوعاً جديداً من الحمى، يزاد على ذلك، وعلى حد علمى، بدا ذلك الأمر وكأنه شىء داخلى، هذه مجرد خناقات داخلية ليس إلا، أحسست فى نهاية المطاف، وكأن جسمى كله متقد، أحسست أن رأسى يدق، وقفت ورحت أدقق النظر فى الحلبة منخفضة الحصير وأنا أقول: "هذا خيال، بطبيعة الحال!" لأنه لم يكن هناك متسع لأى شىء غير الدواجن، وأنه ليست هناك دجاجة لا تحترم نفسها يمكن أن تحقق مثل هذه الضوضاء، كانت هناك مجموعة من الأشكال الملفَّعة جالسين بلا حراك وصامتين، بجوار الرماد، وكنت أتعجب ما إذا كان الأحباش ينامون، أعتقد أن الأحباش لا ينامون إن كان لديهم ما يأكلونه أو يتحدثون عنه، شاهد رب البيت تحركى، ومد ذراعه مبتسماً تحت ألواح الخشب الرقيقة وأخرج العديد من الأشكال المفرَّاة الواحد بعد الآخر.

لهثت، متعجبة إن كانت عيناى وجسمى المتقد يخدعاننى "ما هذه الأشكال، بالله عليك؟"

ردَّ على باللغة الأمهرية "هذه قطاط الزبَّاد، فروها يفرز زيتاً". بدا وكأنه سيقوم بعصر شىء من الدُّهن من تلك المخلوقات المفرَّاة، لكنى كنت قد رأيت معصمى فى الضوء، وكنت أطيل النظر إليه وأنا مرعوبة، بدا معصمى وكأنه خارطة مجسمة لبلد من البلدان الجبلية، لأنه لم يكن فى بشرتى نقطة واحدة بلا بقع، إذ كان العض متراكماً فوق بعضه.

همست وأنا خائفة مما يمكن أن يكون قد حدث لبقية جسمى "جونز! هل نمت؟"

تأوه صوت يائس "تقولين نمت! أعتقد أنى غاضب!"

"لا، أنت لست كذلك، كل شىء على ما يرام، لكن بالله عليك، هيا بنا نخرج من هنا قبل أن نُؤكل أحياء".

تعثرنا فى الحيوان وفى الحزم البشرية الملقاة على الأرض، صدمتنا الريح الرطبة عندما وصلنا عتبة الكوخ، لكن برودة الرياح كانت منعشة بعد ذلك الذى لقيناه من ذلك المتكأ المسْكُون.

قلت: "سوف أحضر مالك البغال، الساعة لم تبلغ الحادية عشرة بعد، والخيل أكلت بعضاً من الشعير، هل ستبقى هنا إلى أن أعود إليك؟ أنا لن أغيب أكثر من أربع ساعات".

كان جونز يرتدى صُدْرة خفيفة مصنوعة من الجلد فوق قميصه، وراح يرتعش عندما سقطت علينا زخة من المطر.

"أنا لن أعود إلى ذلك المكان، لابد أن هناك جحافل من البراغيث، وكلها جوعانة! كنت أحسب أن المسألة متعلقة برأسى، إنها الشمس، كما تعلم أنت".

أثبت الزبانية أنهم كيِّسون بشكل غير متوقع، فى الوقت الذى كان جابرا جورجس يصدر فيه تعليماته عن طريق الصياح، ويعود فيعترض على تلك التعليمات، متخذاً الترتيبات اللازمة وهو يشير بيديه بطريقة غاضبة، ومسيئاً إلى أولئك الذين يقومون بتنفيذ هذه التعليمات، وفرحاً بعدم رضاه عن فكرة الاستغناء عن البغالة، عندما ألقيت نظرة على الخيول تأكدت من أنها لا يمكن لها القيام برحلة أخرى طولها نحو اثنى عشر ميلاً فى تلك الليلة، وعليه اقتصرت على القيام برحلة بأبطأ من الرحلة المعتادة بدأنا تحركنا، فى شىء من البؤس، فى حين

كان فانوسان من فوانيس الهوريكا يتقدمان الموكب ويتراقصان، لن أنسى مطلقاً تلك الرحلة، يبدو أن الريح كانت تهب علينا فجأة من كل جانب، وكانت كل هبَّة من هبات هذه الرياح مثل السكين، بدت المجارى المائية لنا وكأنها سبعة أمثالٍ حجمها وبدت أيضاً وكأنها قد تحولت إلى أنهار. كنا نخوض دوماً خلال ماء مثلَّج، نتسلق ضفافاً وننزل ضفافاً، متعثرين بين الأراضى الجبلية، وها نحن من جديد نزعج طيور الزقزاق(★) التى تنطلق مهفهفة، وصائحة بصوت عالٍ وهى تصطدم بوجوهنا، مُبَعْثِرةً بذلك البغال فى جميع الاتجاهات، كنا نخشىً ونهتدى إلى طريقنا، مرتين على الأقل، عن طريق أضواء الفوانيس، ثم نواصل السير متلكئين لفرط التعب، إلى حد أننا عندما اصطدمنا فجأة بخيمة من الخيام لم نستطع التخلص من السُّرُج نظراً لتيبس أطرافنا بسبب البرودة الشديدة، كنا قد بلغنا من البرودة حداً يصعب معه الغضب أو التذمر، رحنا نخلع الأوتاد بالطريقة المعتادة، ومع سقوط قماش الخيمة خرج منها البغَّالة.

قلت: "أحضروا البغال وحمِّلوها".

نظروا إلى شذراً فى شىء من الغباء، لكن الزبانية هم والطباخ ومعهم أيضاً جرازماتش، كانوا يسحبون البغال والتى بلغت من الاندهاش حداً نسيت معه أن ترفس، لم نشغل بالنا بمسألة التحميل، وكنا ندفع بأقرب علبة أو صندوق إلينا إلى أقرب الحيوانات إلينا، ويبدو أن تصميمنا أخمد عناد البغال إذ لم يهرب منها سوى بغل واحد، ليسقط بعدها مباشرة فى حفرة من حفر الماء، وقفت بقية البغال مطرقة رءوسها، فى الوقت الذى كنا نتصارع فيه مع سرج التحميل من ناحية ومع الحبل من ناحية أخرى، فى حين كان مالكا البغال المترددان يحاولان مساعدتنا لمجرد ذر التراب فى العيون، بعد تحميل كل الخيام، وأكياس البراغيث، وحقائب الملابس، وعندما أوشكنا على التحرك، مخلفين وراءنا الأشياء غير المهمة ليُحْضرها البغالة فى الصباح، قفز هارولد جونز، وهو يصيح فرحاً، فوق بطانية شديدة القذارة.

قال: "هذا أفضل مما لو فتحت بقجتى فى الظلام"، كان مصباح من المصابيح قد سقط من حامله فى حفرة، الأمر الذى ترتب عليه عدم استعمال ذلك المصباح بعد ذلك.

★ يسمونه ايضاً طائر التمساح، وهو من الطيور المائية. (المترجم)

نظرت حولي بحثاً عن فريسة، وجَّهتني كومة رمادية اللون إلى المكان الذى يقبع فيه نائماً واحدٌ من العبيد، مرتاحاً مستشعراً الدفء من خلال جلود الأغنام التى عليه، فى الوقت الذى كنا نرتعد فيه فى العراء، وما هى إلا لحظة حتى أصبح ذلك الفرو حول كتفى، فى حين قام صاحب الفرو وهو متدثر ببطانيتين بتتبعى ليرى ذلك الذى حدث لذلك الجلد، وبفضل مساعدة هذا العبد تمكنا من ضبط الأحمال عشرات المرات على امتداد مسيرتنا الطويلة أثناء العودة، وبخطوات جنائزية، رحنا نمشى خطوة خطوة، خلال ظلام حالك، نظراً لأن السحاب كان يخفى النجم الأخير، انهمر المطر علينا، وكانت الحشائش تضرب وجوهنا بلطف عندما كنا ننحرف عن الطريق، كانت البغال ترقد على الروابى ثم تنهض من جديد وقد انحرفت السُّرُج على أجنابها، سقط جابرا جورجس فى مجرى مائى ومعه صندوق من البسكويت، راح يندب ويولول على فقدانه مثل جنيَّة تنوح إنذاراً بالموت، وهذا هارولد جونز، وقد ازرق وجهه، يؤكد لى بين سيل من العطس حاد الصوت أنه لم يكن بارداً بأى حال من الأحوال، تلعثمت وأنا أقول: إنه اعتباراً من النهير الأخير غير المرئى، والذى كان ينبغى ألا يكون موجوداً فإن الجرازماتش أصبح غير متأكد من الطريق تماماً.

أُخرس الأحباش أيضاً، عندما رحنا عند الساعة الثالثة والنصف نتجول على غير هدى، أثناء

العاصفة، خلال مجموعة من الأشجار، ابتعدنا عنها لنجد أنفسنا وسط كتلة من أخاديد وحزم كثيفة من الأعشاب ذكرتنا بأول وقفة لنا فى دبرا ماركوس.

قال بالاى Balai متشككاً ومشيراً إلى ما كشف النهار عنه إنه سوق "القصر لابد أن يكون هنا، هيا بنا ننصب خيامنا هنا، المكان بعيد عن الماء، لكن، الله كريم، ما هذا؟"

هذا مجرد بغل قفز فى مستنقع.

قلت وأنا متجهمة: "أعتقد أننا لسنا بحاجة إلى إشغال أنفسنا بمسألة الماء".

نصبنا الخيام بصورة أو أخرى، وفردنا فيها أكياس البراغيث، وأرسلنا الخدم إلى أقرب الأكواخ إلينا.

"ماذا عن البغال؟"

قال حاسن بطريقة المتدينين: "سيرعاها الله".

"أنا لن أهتم إذا ما هربت البغال إلى أديس أبابا، سيكون ذلك بمثابة برنامج إحمائى للبغال". قلت هذا الكلام لأن منظر وجه جونز كان يقلقنى.

قلت عندما كانت الخيمة تهتز بفعل البَرد المتساقط "أنا أحتفظ بشئ من البراندى فى مكان ما، الأوتاد". أبرزت رأسى من الخيمة، فى شىء من التردد، ووجدت مجموعة من حملة البنادق متجمعين بين حبال الخيمة.

"ماذا تفعلون هنا؟ اذهبوا إلى كوخ من الأكواخ".

غمغموا قائلين: "هنا بعض اللصوص، وأنتم ليس معكم بنادق."

قلت آمره: "لا تلغوا، هيا اركضوا!"

أقفلت طرفى باب الخيمة وأصابعى تكاد تتجمد، وعثرت على البراندى عندما قلبت الحقيبة المخصصة للأفلام وأقراص الحليب، والساعات، والنظارات المكبِّرة والمسدسات التى كنا نحملها معنا على سبيل الهدايا، وفى صمت رحت أنا وحاسن وهارولد جونز نشرب البراندى.

قلت عندما بدأ شىء من الدفء يتخلل أجسادنا: "نستطيع النوم الآن، إذا لم تسقط الخيمة علينا". قال هارولد جونز، وهو ينصرف مع المترجم "أعتقد أن أمامنا ساعتين قبل أن يجئ إلينا أول إنسان كى يسأل عنا وعن أحوالنا". حاولت خلع حذائى، لكن يبدو أنهما كانا ملحومين فى قدمى وعليه توقفت عن محاولة خلع الحذاء، وارتديت فوق الحذاء ثلاثة أزواج من الجوارب القصيرة وجورباً طويلاً، رحت أرتدى كل ما وصلت إليه يداى، بما فى ذلك تلفيحة قمت بلفها حول وركى، ووضعت شبكة البعوض فوق كتفى، وأدخلت نفسى فى كيس البراغيث، والمؤسف، أن ذلك كان اسماً على مسمى، فقد خمنت من الأصوات الصادرة من الخيمة المجاورة أن هارولد جونز كان أَرِقاً مثلى تماماً، بقيت إلى طلوع الفجر أتقلب وأتهرش، جاء أول ضوء ليخرجنَى من بؤس البطاطين الذى كنت فيه، إذ كانت كل بوصة من هذه البطاطين عامرة بتلك الحشرات الجائعة، وقد جلبنا هذه الحشرات معنا من القرية، كنت أرتعش، وبشرتى متجمدة وملتهبة، ثم قمت بحمل الفراش إلى خارج

الخيمة ورحنا نطارد هذه الحشرات، استمرت هذه المطاردة ساعات عدة، وشارك فيها كل أفراد الحاشية، كان بالينا Balaina يفلّى المنطقة ما بين القماش والبطانة، وكان جابرا جورجس يفلّى معطف المطر والحذاء، وكان ينقض بوحشية ممسكاً بهذه الحشرات وهو يقول متعجباً "مسكينة أيتها السيدة! آه، يا له من عمل محزن! آه، من هذا المنزل السيئ!" كنت أنا وجونز داخل الخيمة المغلقة نهرس، وننفض، (وأكره أن أقول) نفقأ تلك الحشرات، السمينة والممتلئة التى كانت لا تزال داخل الخيمة، فضلاً علي وجود بعض الزواحف كثيرة الأرجل، ووسط هذه المطاردة وصلتنا رسالة مفادها أن راس هيلو ينتظرنا فى القصر Gibbe لاستقبالنا.

أنا لا أعرف إلى أى مدى كنا نمثل آثار تلك الليلة البيضاء؛ لكن بعد أن ارتدينا الثياب التى كنا نحتفظ بها للمناسبات الكبيرة، وعلى الرغم من عدم قدرتها على مقاومة التمزق فى منطقة المعصمين والساقين، وصلنا ونحن نتلألأ فى ضوء الشمس وألقينا أول نظرة خاطفة على البلدة التى ثبت خداعها. تتكون بلدة دبرا ماركوس من بضع مئات من الأكواخ المُلّصقة على منحدر من المنحدرات ويهيمن عليها القسم الأكبر من ممتلكات راس هيلو، الذى تعتمد عليه الحياة فى البلدة، سكان البلدة الذين يقدر عددهم بنحو ألفين أو ثلاثة آلاف نسمة كلهم موظفون فى الحكومة المحلية، هم جنود، وأفراد فى الحاشية الملكية، ومسئولون هم وأتباعهم، وهم الذين يقطعون الأخشاب ويجلبون الماء الذى يلبى احتياجاتهم المادية، وبلدة دبرا ماركوس، هى أكثر بلدان الحبشة إقطاعاً، نظراً لأن هذه البلدة لها سيطرة كاملة على الرجال كلهم، والنساء أيضاً والأطفال المقيمين داخل حدود هذه البلدة، راس هيلو رجل ثرى جداً، بالمقاييس الأوروبية، ويقال إن لديه قوة مقاتلة قوامها ٤٠٠٠٠ رجل، لكن الرجل شأنه شأن الإقطاعيين الآخرين فى الحبشة، ليس لديه ما ينفق عليه ثروته، بوسع هذا الرجل أن يطلب من إنجلترا طقماً من أدوات تناول الطعام مصنوعاً من الذهب، ويستطيع أيضاً الأمر بإعداد مائدة طعام يجلس عليها مائة فرد، وبوسعه أيضاً طلب سيارات لا يطلبها أحد مطلقاً، لكن انفاقه الرئيسى ينصب على الإبقاء على جيشه من ناحية والضيافة من الناحية الأخرى، وأنا لا أزعم أن أحداً من الراسات الكبيرة

يمكن أن يقطع بعدد رجاله المسلحين، أحواش وأفنية هؤلاء الراسات تعج بمئات البنادق، وفى ضوء الأوامر التى تصدر من الراس ويحملها المراسلون الراكبون ينساب الآلاف من هؤلاء المسلحين قادمين إلى المدينة من القرى.

هؤلاء المسلحون شأنهم شأن جيش العاصمة مسلحون ببنادق حكومية، لكنهم أفضل حالاً بصورة أو أخرى من القوات النظامية، والسبب فى ذلك أن رواتب الجنود خُفّضت منذ أيام منليك Menelik، بعد أن بدأت بتسعة دولارات فى الشهر، تتقاضى جيوش الإمبراطورة فى هذه الأيام رواتب تتدرج من خمسة دولارات إلى ثلاثة عشر دولاراً حسب الرتبة، تدفع الضرائب المعتادة بواقع معشار الحبوب التى يجرى إنتاجها وأربعة حيوانات عن كل مائة رأس كل عام، وبذلك يمكن توفير الطعام Dergo (الطعام اللازم لمسئولى التاج أو المراسلين الذين يوفدون حاملين أوامر حاكم الحبشة إلى مختلف القرى والبلدان)، كما يشارك الجنود أيضاً فى الضرائب العرفية التى تفرض فى المناسبات التى قد يحتاج فيها الإمبراطور إلى المال فى حالة الحرب، أو بناء الكنائس أو المهور المطلوبة لعائلته.

تمنح الراسات الكبيرة أيضاً قطعاً من الأرض لمسئوليهم، الذين لهم حق العيش على حساب سيدهم عندما يكونون فى عاصمته، كما يحصل الجنود العاديون على الملابس المطلوبة لهم، كما يحصل الواحد منهم على خمسة أحمال بغال من الحبوب فى الشهر، كما يحصل أيضاً على دولارين أو ثلاثة دولارات نقداً، وفيما يتصل بمسألة الطعام، يتفوق جنود الراس على جنود الجيش، الذين يتعين عليهم توفير طعامهم بأنفسهم باستثناء أيام الأحد والعطلات الرسمية التى يجرى خلالها إطعامهم اللحم النيئ وإعطاؤهم مشروب التدج. تُستهلك كميات كبيرة من هذه الأشياء، فقد رأينا نحو ٢٠٠٠ ثور مملوكة لراس هيلو كان يجرى تسمينها استعدادا لعيد القيامة.

تبدو حياة الرئيس الحبشى الذى يكون من هذا القبيل، متباينة بين البساطة الشديدة، المتمثلة فى المسكن، والأثاث، والافتقار إلى الراحة الشخصية، والإسراف الزائد عن الحد فيما يتعلق بطريقة التنقل، والملابس الاحتفائية، والأسلحة والولائم الضخمة التى تقام لجماهير لا حصر ولا عدد لها، هذه الضيافة تقدم لأى غريب يمر على البلدة، وقد بلغنى أن راس هيلو

يستخدم ناهيك عن عشرات الخادمات اللاتى يقمن بعمل مشروب التدج فضلاً علي ستة وثلاثين جزاراً يقومون بتقطيع القطعان إلى أوصال.

المصرف الثانى من مصارف نقود رجل عظيم من هذا القبيل، يتمثل فى البقشيش المستمر الذى يتواصل دفعه بطريقة سيئة للغاية، نفقات الحياة فى الحبشة رخيصة، الرجل يستطيع أن يعيش بدولارين فى الشهر، وبخمسة دولارات يستطيع أن يعول أسرة كاملة، الملبس أيضاً رخيص فى الحبشة، المظلة (الشملة العامة) تكلفه ما بين ٢,٥ إلى ٥ دولارات، والبنطال يكلفه دولاراً واحداً، والقميص يكلفه دولاراً واحداً وربع الدولار، الشئ الوحيد الغالى هو الشراب، ويمكن شراء أربعة جرار من التَّلا (الجعة) كما يستطيع أيضاً الحصول على جرة من مشروب التدج نظير دولار واحد، يوجد فى كل بلد من البلدان بعض المنازل الصغيرة الكئيبة القذرة التى ترقص فيها نساء لطيفات، ويُعْزف فيها على الناى، ويجرى فيها الشرب أيضاً فضلاً علي السهر على تلبية احتياجات الرجل البدنية الأخرى، وإذا ما نحينا هذه الملذات جانباً، نجد أن قيمة النقود قليلة، هذا يعنى أنى لا أستطيع شراء الراحة.

ليست هنالك أعمال تكفى سكان المدن وسكان القرى، وعليه، وعلى الرغم من أن الرجل قد يكسب ثمانية عشر دولاراً فى الشهر من العمل كزبانى Zabanier فى رحلة من الرحلات، أو خمسة وعشرين دولاراً من العمل فى الطبخ، قد يعجز عن الحصول علي عمل على امتداد الأشهر الستة التى تلى ذلك، وبعد أن ينفق نقوده على الشراب، يبدأ فى الاقتراض من جيرانه بفائدة عشرة فى المئة فى الشهر. والنتيجة المترتبة على ذلك هى أن ثلاثة أرباع السكان مدينون ويتحول عدد كبير منهم إلى اللصوصية، للخروج من الدين، أو أن يعيش على البقشيش، نسبة صغيرة جداً من هذا البقشيش هى التى يجرى الحصول عليها نظير العمل، لكن البقشيش ينتشر على نطاق ليس له مصداقية فى أوروبا، إعطاء المال على سبيل البقشيش يكون فى حكم ستة بنسات من حيث القيمة؛ وعندما يسافر راس من الراسات يجرى بعشرة أكياس عديدة من الدولارات فى جميع الاتجاهات، حامل الخبر السار، أو أية هدية من الهدايا يتوقع الحصول على بضعة ريالات، وإذا كانت الهدية مقدمة

من رئيس من الرؤساء فإن حاملها لا يتوقع الحصول على أقل من اثنى عشر دولاراً، والراس عندما يهدى حصاناً لأحد، فإن السايس الذى يقوم بتوصيل ذلك الحصان يعود ويداه مملوءتان، والإمبراطورة عندما تهدى ثوباً ملكياً، فإن مستقبل هذا الثوب يجب أن يعطى المراسل مبلغاً يتراوح بين ٣ أو أربعة جنيهات إنجليزية، فى كل حى أو جزء من الحى، فإن المترحل المهم يكون برفقة مسئول محلى مختلف، الذى يُلمِّح بأنه يود الحصول على مسدس أو بضع مئات من الطلقات، فى الوقت الذى ينتظر فيه العدد الكبير من الجنود الذين يرافقونه، وكذلك الخدم، والمرشدون، والعبيد، والحمَّالون، الذين لا يفعل أحد منهم شيئاً سوى الكلام، الحصول على مبلغ كبير نظير هذه الخدمة الشفاهية، وأنا أقول: إن ما لا يقل عن عشرين من الغرباء العابرين الذين هم رغم ذلك مفعمون بالأمل، حكوا لى قصصاً مؤثرة عن حوادث قتل وقعوا فيها وأنهم مطالبون بدفع دية القتيل لأسرته، ويشفعون ذلك برجاء وتوسل لدفع مائة دولار حتى يتحرروا من الثأر والانتقام منهم، وعازف البوق عندما يحاول الإضرار بطبلات آذاننا يتوقع الحصول على جنيه نظير ما يقوم به، والأشياء الأخرى كلها بنسبة أيضاً، إلى حد أن ما يوزعه الراس من بقشيش يصل إلى نسبة كبيرة من دخل هذا الرجل.

قامت الموسيقى بتحيتنا ونحن نغادر مخيم دبرا ماركوس، وتشكلت فرقة موسيقية من العبيد السود معها طبول وأبواق، على شكل صفين كانا يسيران أمامنا، وفى الخلف كان هناك مائة جندى يمشون وراءنا، فى الوقت الذى كان فيه ضباط هؤلاء الجنود يمشون راكبين خيولهم على الجانبين أمامنا وهم يلبسون على رءوسهم أغطية شبية بعرف الأسد، ولهم ياقات أيضاً مثل عرف الأسد، ويرتدون تروساً ويحملون سيوفاً من الذهب، ويلبسون ثياباً من الحرير ألوانها مثل ألوان قوس قزح، لم نتعرف الصبى جرازماتش إلا بصعوبة بالغة، لولا ابتسامته، ووجهه المدوّر الممتلئ الذى كانت تحيط به عمامة خضراء من الحرير من تحت خوذة من الفضة، فى حين كان الفرو المكشكش الذى له لون أصفر ضارب إلى السُّمّرة، واصلاً إلى أذنيه، كان جابرا جورجس ينظر نظرة حزن وأسى إلى حذائى.

قال جابرا جورجس عند الرحيل: "لم يتبق من الحذاء شئ، أليس معك حذاء آخر؟"

وعدت بالاحتفاظ بقدمى فى الخلف قدر المستطاع، لكنى نسيت هذه المسألة عندما دخلنا أول فناء من أفنية القصر، هناك سلسلة كبيرة من هذه الأفنية، كل منها على ارتفاع مختلف، وفى منتصف أعلى هذه الأفنية يوجد هيكل شبيه بالجرن، هو بمثابة غرفة الاستقبال وصالة الطعام الخاصة بالراس، فى ذلك الصباح كان كل فناء من هذه الأفنية فيه طبقة مختلفة من طبقات البلاط الملكى والجنود، وعليه كنا ونحن نصعد إلى هذه الأفنية نشاهد لوناً رائعاً ومجوهرات ومعادن ثمينة، وقبل الباب الرئيسى كانت هناك عشرات السجاجيد المفروشة التى يقف عليها القساوسة وهم يحملون صلباناً كبيرة، ومظلات من الحرير، أما الضباط فكانوا يرتدون أنجشة(☆) من القطيفة المطرزة بالذهب، الأمر الذى يجعل من الصعب الوقوف على حقيقة ألوان هذه الأنجشة.

تقدم الرَّاس لاستقبالنا، وهو رجل ضخم له وجه ينم عن الذكاء، ويرتدى زياً أبيض من البروكار المذهَّب الذى لا يكشف إلا عن العباءة السوداء الطويلة، المرصعة بالأنواط التى منها أنواط إنجليزية وفرنسية وإيطالية، مضينا معاً من صالة إلى أخرى، والتى يصل طول البعض منها إلى ٢٠٠ قدم، والمفروشة، بسجاد كثيف ومسقوفة بأعلام متباينة الألوان وتتدلى من السقف، وأثناء سيرنا إلى الأريكة المغطاة بمخاد من حرير الساتان المطرز، والموجودة فى نهاية الصالة، مررنا على جُبب فخمة أو حرائر عليها رسوم ملكية، وأحزمة خرطوش، شاهدنا أيضاً فراء موضوعة على شكل ثنيات فوق ملابس من البروكار، وشاهدنا أيضاً جلود الأسود فيها مشغولات معدنية صغيرة، شاهدنا حواف، وشراريب، وقرابات سيوف، ومقابض سيوف، وشاهدنا أيضاً تروسا مستديرة جديدة كلها من الذهب، الذهب الحبشى له حمرة النحاس ولين مثل الحرير، أظن أن الراس قال بعد ذلك إنه كان يتطلع إلى الحديث مع أول إنجليزية زارته فى دبرا ماركوس، لكن مثل هذا الحديث كان صعباً فى ظل وجود ألفى زوج من الأعين المسلطة علينا، بعد أن اختفى حاسن، وهو يلهث ومقطوع الأنفاس من الخوف، جعلت من أحد الجنود مترجماً لى؛ هذا الجندى جثا على ركبتيه عندما رأى الراس، ودون أن ينظر إلى أعلى، أبقى على جبهته ملتصقة بالأرض طول الوقت.

☆ انجشة: واحدة نجاش، بكسر النون وفتح الجيم، وهو سير جلدى بين فَرْعة الحذاء ونعله. (المترجم)

سألت هارولد جونز عندما غادرنا القصر "هل التقطت صورة جيدة؟"

أجابنى "لا أدرى؛ أنا لم أر ذهباً من هذا القبيل طوال حياتى، لقد خطف بصرى ذلك الذهب".

كان هارولد جونز قلقاً فوق سرج حصانه، قال: "أنا لا أعرف ماذا حدث لى، أحس وكأن ملابسى مليئة بالكلابات".

قلت له: "أفضل لك أن تسترخى وتأخذ شيئاً من الأسبرين، مرحباً، ما الذى حدث لمخيمنا؟"

كان هناك جمع كبير من الرجال يرتدون ملابس فاخرة، لونها أخضر مائل إلى الزرقة،

ووردى وفوشيا، تحت شملاتهم (مظلاتهم)، كانوا جميعاً يشاركون فى تشييد خيمة خاصة، كان أربعون أو خمسون من خدم القصر الذين يرتدون ملابس من الحرير، يمسكون بالحبال، فى حين كان بعض آخر يمسك بالعمود الرئيسى، كانت خيامنا تبدو كما لو كانت أقزاماً قياساً على هذا البحر الشاسع، اندفع جابرا جورجس قادماً إلينا.

"هذه هى خيمة الراس الخاصة، وقد أرسلها لك لكى تستعمليها اليوم".

نظرت إلى الفواصل الثلاثة التى جرى نصبها بالفعل، ونظرت أيضاً إلى لفَّات البطانة المُقلَّمة التى تنتظر التعليق.

بدأت أقول: "هذا عطف أكثر من اللازم... أخ!" يبدو أن كلاَّبة كانت تحفر فى ركبتى، دخلت خيمتى على الفور، وهذه آلة حادة أخرى تؤلمنى فى كوعى، وكان صوت هارولد جونز يولول فى الخارج.

"أظن أن هذا المكان مسكون، أو أنى تحولت إلى مِدّبسة، من الأفضل أن تعطينى الأسبرين، أسرعى من فضلك!"

لكنى كنت أبحث عن الكلاَّبات، كانت تلك الكلابات مغروزة فى لحمى، وكنت أخرج بصعوبة بالغة أجزاء من تلك الرءوس السوداء.

صاح حاسن: "سيدتى، سيدتى" عندما كنت أحملق فى البقايا المتوحشة "أخرجى بسرعة! نحن لم نستطع رؤية أى شىء ليلة أمس، وقد نصبنا خيامكم على جحر من جحور النمل!"

تناولنا غداءنا فى عتمة الخيمة الحكومية، التى كانت خليطاً من اللون الأحمر والأزرق؛ ومن هذه الخيمة الحكومية استقبلت موكب مشروب التدج ومشروب الجعَّة، والأغنام، والثيران، وبقرة حلوب، وكميات من الأوانى، والأسبتة، وبالات بقيت محتوياتها سرًّا علينا، كانت هناك جرة بحجم جرة من الجرار التى اختفى فيها الأربعون حرامى، كانت مليئة بالعسل، أخرج جابرا جورجس لفلفة عنق الجرة لفافة من الحشائش وطبقات عدة من الطين، بعد أن قام جابرا جورجس بكشط قشرة سميكة عديمة اللون، بدت من تحتها جالونات العسل الصافى الذى يشبه لونه لون الكهرمان، وكنا نأكل من هذا العسل كلما أتيحت لنا الفرصة على امتداد أسابيع عدة.

جاء راس هيلو بعد ذلك لرد الزيارة التى قمنا بها فى الصباح، كان يركب بغلاً لم يكن يظهر منه رأسه، تحت ملابس التشريفات المطرزة بالذهب؛ ومن باب تأكيد الراس على الطبيعة الخاصة لزيارته ترك كتائب الخيالة وحملة البنادق على مسافة تقدر ببضع مئات من الياردات، لم يكن يجرى خلفه سوى خدمه الخصوصيين، حاملين سيفه، وترسه، وبندقيته داخل حقائب من البروكار، وكانوا جميعاً رافعين مظلاتهم لكى يحموا نزوله من فوق ركوبته من عيون الحاسدين، يعد هيلو الأمير الوريث الوحيد شبه المستقل الباقى فى الحبشة، والسبب فى ذلك أن الغازى منليك أقر بحق والده تكلا هيمانوت فى تسمية حاكم الحبشة Negus، أو ملك كوجام، على الرغم من عدم سماحه لأى رئيس آخر بالاقتراب من وقار لقبه، نيجوس نبراستا Negus Nebrasta، أو ملك ملوك الحبشة، تزوجت ابنة من بنات راس هيلو من ليج ياسو Lij Yasu آخر الأباطرة، المسجون حالياً بالقرب من فيش، ويقال إنه مربوط دوماً بسلسلة من الذهب إلى وصىٍّ من أقرباء الأسرة الحاكمة، يضاف إلى ذلك أن حاكم كوجام الإقطاعى، أقوى وأذكى حكام الإمبراطورة زيديتو Zaiditu، كان يرافق راس تفارى يوم أن قام برحلته إلى أوروبا.

قال هيلو بينما كنا جالسين فى الجزء الخارجى من الخيمة الحكومية، نشرب القهوة، التى رفض ضيفى استعمال السكر نظراً لأن الوقت كان الصوم الكبير، الذى يحترمه كل مسيحى حبشى لمدة أربعين يوماً يعيش خلالها على الخبز والعدس "باريس للعب ولندن للعمل".

واصل ضيفى كلامه "هذا حقيقى، النساء يشترين الملابس والمجوهرات من باريس، لكن البنادق والأحذية تأتى من لندن".

سألته ما إذا كان يحب الأوروبيين.

"نعم أحبهم، أنتم تتذكرون دوماً ذلك الذى قلتوه، مواطنى يقولون شيئاً فى لحظة ثم ينسونه فى اللحظة التالية".

قلت: "ذاكراتهم ليست مدربة".

ابتسم الراس "كتبكم هى ذاكراتكم".

تكلمنا عن السياسة المصرية، ولاحظت أنه باستثناء الإمبراطورة وولى العهد، أن الراس كان أول حبشى يناقش شئون بلاده الخارجية.

قال فى نهاية المطاف: "لقد فعلتم الكثير لمصر، لكنكم لم تعلموها فعل شىء لنفسها". تلى ذلك شىء من الصمت: "أردف هيلو، ليس من صالح أى بلد من البلدان أن يُجلَب بواسطة الغرباء". أذكر أنه على الرغم من ترحيبنا بالرحالة العابرين وإكرامنا إياهم فنحن لا نسمح بالمسائل المالية والأعمال الأجنبية، أو التجار الأوروبيين، أو التجار العرب أو الهنود بالبقاء أو الإقامة فى كوجام، قامت شركة من شركات المشروعات بإرسال حمولة ستين جملاً من "البضائع الجافة" إلى دبرا ماركوس مستهدفة بذلك فتح سوق عامة، قام الراس بشراء هذه الأحمال كلها، وأعاد الجمال ورفض السماح بالدخول لأى أحد من أفراد هذه الشركة.

زد على ذلك أن نقود أديس أبابا لا تسرى فى هذه المقاطعة الغريبة، وقد أُجبرنا على استبدال قروشنا كلها، التى عليها صورة لأسد فاغر فاه، أو مغلقاً إياه، أو بلا أرجل، أو له ذيل مفرّى، بقوالب من الملح، كل قالب من هذه القوالب طوله نحو ١٤ بوصة وسمكه نحو بوصتين وعرضه بوصتان أيضاً، وستة من هذه القوالب تساوى دولاراً واحداً، وكل قالب من هذه القوالب ملفوف بعناية فى بعض من ألياف عيدان القصب؛ وهذه القوالب تشكل حمولة واحد من الحمالين أثناء السير، وعليه يجرى استئجار رجل نظير جنيهين إنجليزيين وستة شلنات فى الشهر، لا لشئ سوى حمل ما قيمته ثلاثة شلنات من قوالب الملح! وعندما يقوم رئيس من الرؤساء بالتجوال فى كوجام،

يتحتم أن يكون معه عدة بغال محملة بقوالب الملح، علاوة على حملة البنادق، والسَّياس الذين يقودون خيوله أمامه، وعبداته اللاتى يحملن جرار مشروب التدج، فضلاً علي صبى أو اثنين من الصبية السود، يحملان سيفه وترسه، هذا يعنى أن الأكياس الدوَّارة تحمل ما قيمته جنيهان أو ثلاثة، أما قوافل الملح التى تأتى من الشمال فهى تتكون أصلاً من خيول النقل الذى يحمل الواحد منها ١٦٠ قالبا، قيمتها أقل من ٥ جنيهات إنجليزية.

وبينما كنا حيارى فى كيفية ومكان تخزين وحزم ثروتنا الثقيلة المتعبة جاءنا مراسل من القصر يحمل إلينا بعض الأسبتة الجميلة التى صنعتها نساء كوجام من الحشائش المحلية المصبوغة، كانت تلك الأسبتة دقيقة الصنع، من حيث الألوان والشكل، لأن البعض منها كانت شبيهاً بالقلاع التى لها أبراج مختلفة، والبعض الآخر منها كان مزوداً بالكبائن علي العكس مما كنا نتوقعه، واكتشفت داخل كبينة من تلك الكبائن قرطاً (حلقاً) من الذهب الطرى الذى يمكن تشكيله على أى نحـو من الأنحـاء، طلبت من بالينا أن يترجم جزيل شكرى وامتنانى، لكن صبينا الذى كان خدوماً ورزيناً وغبياً أيضاً، كان مشغولاً بالبحث فى وجود عيوب فى قوالب الملح.

تأوه الصبى "هذا القالب مشروخ، وأنا متأكد أن هذا القالب الآخر ليس مضبوط الوزن". وهنا حاولت تجميع بعض الكلمات الأمهرية إلى بعضها.

قال المراسل وهو ينحنى ليقبل قدمىَّ: "هذا لا يهم"، "قال الراس: أنا أود أن أعطى الكثير للسيدة، لكنى لا أظن أنها تود أى شىء منى". ابتسم الشاب، "إنه مندهش لأنك قطعت فى يوم واحد مسافة رحلة هو نفسه يقطعها فى ثلاثة أيام".

قلت مُصرة: "لم يكن ذلك عن طيب خاطر، أؤكد لك أن ذلك لم يكن عن طيب خاطر!"

كان الحصان الكستنائى قد برك فى دبرا ماركوس، الأمر الذى جعلنا نقرر التخلى عنه فى هذا البلد، لكن فى زحمة الاستعداد للرحيل فى الصباح أرسل لنا راس هيلو ثلاثة خيول لننتقى منها واحداً بدلاً من ذلك الذى قررنا التخلى عنه، كانت الخيول الثلاثة من النوع صغير الحجم، ومن سلالة محلية، ولها أكتاف جميلة، وفيها لمسة من الخيل العربى وبخاصة فى رءوسها، لكن

كان فيها بعض العيوب فى بعض أجزائها، التى كانت خفيفة وضيقة، اخترت للرحيل يوماً كان أشق وأتعب الأيام، وتحركت فى ذلك اليوم وسط جمع كبير من أناس تمنوا لنا سلامة السفر والوصول، وأسدوا لنا الكثير من المعلومات والنصائح، قيل لنا إننا يجب أن نصل إلى دبرا تابور Debra Tabor خلال يومين، وقال آخرون: إننا لو سرعنا مسيرنا فقد نصلها فى ثمانية أيام، كان الجميع يتكلمون ما عدا مالك البغال، الذى اشترى بغلين جديدين، رفسا كل أمتعتنا، وخسر مالك البغال أيضاً أفضل حيواناته، التى أرجح أنها كانت فى طريقها إلى أديس أبابا، بسبب إهمال عبد من العبيد من ناحية، وعدم احكام ربط هذه البغال من ناحية ثانية.

الفصل الثالث عشر

الأشباح والطمع

انتهت آخر التوديعات، وهذا آخر دعاء "فى سلام الله"، "يسَّر الله خطاكم"، "تحفظكم العذراء"، نظرت إلى الخلف على القافلة، وبدا علينا وكأننا ذاهبون إلى السوق، وبحكم الصيام، لم نستطع أن نفعل أى شىء مع الثيران والأغنام التى أعطيت لنا، كان الأحباش ينظرون إلى الثيران والأغنام نظرة اشتهاء، لكنهم لن يأكلوا منها شيئاً، وعليه كان هناك صف من الماشية ذات السنام، والنعاج السمان يسير خلفنا، نظراً لأن رفض قبول الهدية أو إعادتها يعد من أبشع أشكال سوء الأدب، من يمن الطالع أن هذه الحيوانات كلها أفلحت فى "إضاعة" نفسها أثناء الأميال القلائل الأولى.

قال هارولد جونز لأكثر أفراد الزبانية براءة: «هذا جيد تماماً، أتمنى أن تكون حصلت على سعر جيد لهذه الحيوانات».

كان جرازماتش واسع الحيلة قد رحل، بابتسامة شبابية، وحل محله كوياز ماتس Koyaz match ماكونن Makonnen، الذى فيه شىء طفيف من الأنوثة، وله وجه ناعم مثل وجه البنت، وفم ممطوط، مثل برعم الوردة لولا أنه أسود، كان شديد الكراهية للترحال، وكان كل ما يتحدث عنه هو زوجتيه، حصل على واحدة منهما عن طريق الكنيسة، أما الثانية فكانت محظية على أكبر قدرٍ من الاحترام بلا شك، وكانت هى المفضلة لأنها حملت منه وأنجبت له ولداً، وقد أسبغ على هذا الوليد الذى يبلغ من العمر عاماً واحداً، مجموعة من الأكواخ، التى أشار لنا عليها وهو يتفاخر بذلك. أصر على كلامه "مهما يحدث، لن يستطيع أحد أن يأخذ منه البيت". وعليه اندهشت إذ ربما يكون بينه وبين أسرته بعض من المتاعب.

شاهدنا فى ذلك اليوم خنزيراً برياً وفهداً له جلد أسال لعابى، إلى أن رحت أعزِّى نفسى بأن الموضة ربما بدأت تعاف ذلك الفرو قبل أن أعثر على هذا الفهد، توقف هارولد جونز لتصوير قطيع من طيور الكركى، التى بلغت من الألفة حداً جعلنى أركض حولها بحصانى لأجعلها ترتفع وترفرف بأجنحتها على شاشة آلة التصوير، كانت هناك نسورٌ أيضاً، وغربان بيضاء وسوداء، وكانت هناك أيضاً طيور من طيور البلشون، كما كانت هناك أيضاً صقور ضخمة كانت تحملق فينا طول الوقت، وهى ثابتة فى أماكنها من فوق طرف كل غصن من الأغصان تقريباً.

استدارت الأرض نحو الأعلى على شكل تلال صغيرة، كل واحد منها متوج بكنيسته البدائية المبنية من الطين والقش، وفى بعض الأحيان كان ممر التجفيف عامراً بمخزون القرية من الشعير، صادفنا مرة نحو اثنى عشر قسيساً كانوا يقرءون المزامير من مخطوطة من الورق الرُقِى تحت سياج من الزهور، كان تلاميذ هؤلاء القساوسة عبارة عن صبية صغار تبدأ أعمارهم من سن الإدراك، فى السادسة عشرة ويرتدون ثياباً مصنوعة من جلود الأغنام السوداء، وأغطية رأس صفراء اللون مصنوعة من الجلد تتدلى إلى الخلف من أكتافهم، وينزل ذلك السن إلى العفاريت الصغار الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة والسادسة، وهم عراة اللهم إلا من جلد كامل بنى اللون بوبره وله ذيل ومخالب إلى حد أنهم عندما ينحنون على كومة أو حزمة من القش يبدون وكأنهم ثعالب صغيرة، حاولت تصوير هؤلاء التلاميذ، لكنهم سرعان ما اصطفوا على شكل صف متصلب، مثلما يفعل الأحباش عندما يرون آلة التصوير، والسبب فى ذلك أن الأحباش خجولون، ويحبون التواضع دوماً، لكنهم يحسون بالقلق إزاء الشكل الذى هم عليه، وأنا أعتقد أن الأحباش الحضر لا يدفعون للمصور أجره إلا إذا صوَّرهم ببشرة شقراء، كان جنودنا يرفضون دوماً اللقطات السريعة التى كنا نلتقطها لهم بآلة تصوير عبقرية كانت تحمض الصورة وتنتجها خلال دقيقتين.

كانوا يقولون ساخطين، عندما يواجهون بصورة ممتازة للونهم الشبيه بلون قرون البن "هذه الصورة تجعلنا نبدو سوداً".

بينما كنا نتسلق سلسلة من المنحدرات التى عليها غطاء كثيف من أشجار

الورد، سمعنا غناء ترامى إلى أسماعنا من قرية مجاورة، وتجاوزتنا أيضاً امرأة، كانت تلوى يديها المتشابكتين توجعاً، وتصرخ بصوت عالٍ وهى تتأوه.

سألت حاسن "ما الخبر؟"

"هى ذاهبة لتنوح على شخص توفى".

مر طريقنا على مجموعة من الأكواخ، وأمام كوخ من هذه الأكواخ، كان هناك جمع من الرجال والنساء يقفزون إلى الأعلى وينزلون إلى الأسفل بطريقة رتيبة وهم يلوِّحون بأيديهم من فوق رؤسهم على إيقاع الأغنية التى يرددونها. تزايد الإيقاع بعد بضع دقائق، ثم ظهرت كنبة فوق مستوى الرءوس التى تثب إلى الأعلى، هذه الكنبة كانت مغطاة بشملة (مظلة) لونها خليط من اللون الأحمر والأبيض، كانت تلك الكنبة محاطة بالمحزونين، الذين كانوا يواصلون رقصهم، ويهيلون الرماد والطين على رءوسهم، ويلطمون وجوههم، وجرى نقل تلك الكنبة إلى الكنيسة بعد ذلك، فى الكنيسة جرى تسليم الكنبة عبر الجدار إلى بعض القساوسة، لكن الطقس الدينى الذى بدءوا يمارسونه ضاع وسط البكاء والنحيب والأيدى المتشابكة توجُّعاً.

كان الكوياز ماتش ماكُنُّون Koyaz match Makonnen شاباً صغيراً لا يستطيع تحديد المكان الذى يود التخييم فيه.

قال الكوياز ماتش: "إذا بقينا على جانب الجبل قد يكون هناك لصوص".

رددت عليه "أنا لا أحبذ التخييم بالقرب من قرية من القرى، نظراً لنباح الكلاب طول الليل".

قال ماكُنُّون: "أنا أنتمى إلى المدينة، وأنا تخيفنى هذه الأماكن، إذا ما ذهبت إلى القرية لإحضار الشعير تعين على أخذ اثنين من زبانيتك ومعهما بندقيتاهما لكى يحيمانى".

قلت والمترجم ينظر إلىَّ نظرة تعاطف: "بوسعك أن تأخذ حاسن معك".

"هل ذهابى معه أمر ضرورى، أنا خائف جداً من البغل الجديد، لن يتركنى فى حالى".

ضحكت رغماً عنى، لكن بعد نصب خيامنا على حافة مواجهة لسلسلة صخور آرَّات ماكراك Arrat Makrak بأبراجها الثلاثة، أعطينا أهدأ بغال نقل

الأمتعة إلى حاسن المترجم وأرسلناه إلى القرية محملاً بقوالب الملح وبصحبته كوياز ماتش المتردد.

قال هارولد جونز، وهو يشاهد ماكُونّن يشير إلى قرد صغير مع صبى عبد، ورأس هذا القرد الأصلع محاطة بحافة من الشعر شبيهه بالاستراكان(★) المتموج، عاقداً العزم على مطاردة ذلك القرد ببندقيته الطويلة المتغضنة مثله تماماً: "من الصعب الاعتقاد بأنهم محاربون".

"هم يكونون عال العال لو أن هناك عدداً كبيراً منهم يجتمعون مع بعضهم البعض، أنا أرى أن هذا شكل من أشكال الشجاعة الجماعية".

خطر ببال جونز "عندما يُعبِّرون عن أنفسهم عن طريق الغضب يبدون شرسين، لكنى أرى أن هذه الشراسة لا تدوم طويلاً".

قلت: "إن هذه الشراسة دامت لهم فترة طويلة مكنتهم من غزو السواد الأعظم من جيرانهم، ويجب ألا يغيب عنك أن هذه الشراسة كانت مسنودة بتعصب دينى أو الخوف من المنافس القوى، الأحباش شعب مستقل ومصمم على البقاء مستقلاً".

جلسنا على حافة شرفة من القش ورحنا ننتظر عودة مبعوثينا، لم يعد سوى حاسن وهو يمسك ديكاً أبيض اللون تحت إبطه.

"سيدتى، رئيس القرية غير موجود وعليه فإنهم لن يبيعوا شيئاً، لم أستطع إحضار علف للخيول، كل ما استطعت الحصول عليه هو ذلك الطائر السمين".

راح حاسن يمسك ذلك المحارب الخائف الذى خاض عشرات المعارك، التى خرج منها بعضلاته الصعبة التى لديه الآن.

قلت له متجهمة: "أشكرك شكراً جزيلاً؛ لكن أين كوياز ماتش؟"

"أنا لا أعرف، عندما لا يستمع الناس إلى ورقة الراس، التى تأمرهم بإعطائك الدريس والخبز والبيض، غادر على وجه السرعة.. أنا لم أره".

اكتشفنا أن الشاب المكروب، والذى يعد واحداً من الحاشية أكثر منه محارباً، قد التجأ إلى خيمة الطباخ، حيث قام جابرا جورجس بإطعامه

★ الاستراكان: نوع من الحرير المخملى.(المترجم)

البسكويت، خيم الحزن على المخيم، نظراً لأن حاشيتنا المسرفة وغير المسئولة بعد أن تناولت قدراً غير إنسانى من خبز الانجيرا الحبشى رمادى اللون مر المذاق، فى الليلة السابقة، تخلصت من البقية الباقية من الهدايا التى قدمها لنا الراس هيلو، أفراد الحاشية يجلسون الآن بائسين وخاوين، ينتظرون المنَ Manna، أو أخرج أنا وأشترى لهم بعضاً من الخبز الطازج، وعوضاً عن ذلك وزَّعت عليهم بعضاً من البسكويت الجاف وقدراً كبيراً من النصائح المشددة.

تمثلت العقبة، بطبيعة الحال، فى غياب رئيس القرية، الأمر الذى التمس العذر لأهل القرية، وليس من العدل أو الإنصاف: القول إن أهل القرية لم تكن لديهم السلطة أو المسئولية، جرى العرف فى الحبشة أن كل أمر من الأوامر التى تصدر، يتحتم أن يأتى من حاكم الحبشة أو ولى عهده، ويمر من خلال الحكام المحليين ثم بعد ذلك إلى مرءوسيهم الذين يتكونون من نواب الحكام، وحكام الأحياء الصغيرة؛ ورؤساء القرى المجمَّعة؛ والرؤساء الذين يرأس كل واحد منهم قرية مستقلة بذاتها؛ وبذلك يعتور مثل هذا الأمر شىء من التغير عندما يمر من خلال هذه السلسلة، من هنا فإن أشهر الأمثال الحبشية "الكلب لا يعرف صاحب سيده"- ومعروف أن الكلب يخشى النباح خارج حظيرته! وأنا أرى أن منظومة السُّلم، التى تساند حلبة السلطة المركزية فى أديس أبابا، كانت مقصودة من جانب منليك ثاقب الرأى، حتى يضمن ألا يخاطر أحد من الناس بالخروج من النطاق المحدد له، لكن إذا ما كانت درجة أو اثنتان من درجات هذا السلم مكسورتين، فإن الأمر يتوقف إلى أجل غير مسمى.

بدأنا فى اليوم التالى تسلق مرتفعات شوك Choke وتغيرت البلاد تغيراً مفاجئاً وغريباً، بعد ساعة واحدة أسلمت الرفوف والمنحدرات المغطاة بالحشائش الطويلة، والروابى المتوجة بالقرى، ومجموعات الأشجار التى تشير إلى كنيسة من الكنائس- موهوبة لمريم أو القديس جورج المقاتل- إلى كتلة من أشواك الإبل، ونبات نسرين الكلاب، وعنب الذئب، والمستاردة الصفراء، كانت هذه النباتات كلها تحولت إلى أشجار غابية، إلى حد أن أغصانها وسيقان نباتات نسرين الكلاب كانت فوق مستوى رءوسنا كما لو كانت أبراجاً، وكانت مغلفة بالطحالب وتتدلى مثل أحبال الزينة المصابة

بالعفن، كانت تلك الأشجار شبيهة بالنساء كبيرات السن اللاتى دب الشيب فى شعورهن، وتيبست أوصالهن، واللاتى يرتدين قبعات الربيع المحملة بالزهور الذهبية مع ملابس الشتاء، وصل طول أشواك الإبل إلى اثنى عشر قدماً من حيث الارتفاع، كما أن رءوسها ذات اللون الوردى الغامق ربما بلغ نصف قطر الرأس الواحد منها عدة بوصات، هذه الأشواك تشبه خراطيم الفيلة الضخمة، طرف من طرفيها مغروث فى الأرض، والطرف الثانى يحمل مجموعة من الأوراق الطويلة اللامعة، وهذا نبات غريب آخر، ربما كان نوعاً من نباتات الصبَّار، يرتفع ساقه نحو عشرين قدماً قبل أن ينتهى إلى مجموعة من الأوراق الخضراء، تبدّى لنا بعد ذلك عنقود زهرى ذاو، رمادى واصلنا الصعود إلى أعلى وسط هذه الرماح الميتة عديمة اللون، إلى أن شاهدنا شجرة من أشجار عنب الذئب أسفلنا مثل سجادة من الكهرمان، لم يكن هناك سوى جلاميد صخرية رمادية اللون وضباب رمادى اللون أخذ يزحف فوق القافلة إلى أن بدأنا نرتعد ونلف أنفسنا فى كل السُّتَر المتيسرة لنا.

التقينا فى منتصف هذه الأفدنة من نباتات خراطيم الفيلة قافلة نازلة نحو الأسفل، شاهدنا فى البداية بعض الخيول المزينة بالفضة، وعليها سُرُج من القماش الأحمر، تكاد تصل إلى الأرض، ثم شاهدنا بعد ذلك حملة الرماح وحملة البنادق، ونساء يحملن سلالاً من الخبز وأباريق مليئة بمشروب التدج، وشاهدنا أيضاً عبيداً ظرفاء، يحملون بنادق محشوة بالبارود، كانوا يستعملونها استعمال العصى، كانوا يمسكون البنادق من مواسيرها أو يلوحون بها خلفهم بطريقة عشوائية، وبعد ذلك كله، وعلى بغل أبيض، كان يركب الفيترارى Feterari، والد كوياز ماتش ماكونن الزاهد فى الدنيا، كان عجوزاً لذيذاً يبلغ من العمر سبعين عاماً، متيناً ومتجعد الوجه ورمادى اللون، كان يمضغ قطعة من العشب حلو المذاق، نزل ذلك الرجل من فوق بغله وكان يدفعنى من فوق سرج ركوبتى.

قال: "يا ابنتى، لو كنت جئت إلى منزلى، لكنت فعلت لك الكثير، لكن نظراً لأن التقائى بك جاء على الطريق، فإن ذلك يحتم عليك فى أضعف الأحوال أن تشربى نخبك معى".

فكت امرأة سمراء سمرة الأبنوس قرعة ضخمة وأنزلتها عند قدمى من خلال زاوية مصنوعة من قماش قرمزى اللون وأخرجت منها قارورة من قوارير التدج، ورحنا نشرب منها جميعاً بالتناوب، متبادلين فى ذات الوقت أطيب التمنيات المعتادة.

"باركتك العذراء (مريم)".

"أدام الله عليك صحتك".

نظر إلىَّ القائد العجوز وهو يغمز بعينيه.

"بلغنى أنه لا توجد امرأة مثلك فى الحبشة؛ وأنك لديك القدرة على إتعاب ثلاثة رجال وقادرة على مواصلة الركوب بعد ذلك، لكنك تخيبين ظن من ينظر إليك".

ضحكت متسائلة "ما السبب؟"

قال: "أنت نحيفة جداً، عدينى بالبقاء فى بيتى هذه الليلة، لأنى أحبك حب الأب لابنته، وسوف أجعلك كبيرة مثل سمعتك".

تساءلت هل تستطيع ضيافتك تحقيق ذلك كله لى فى ليلة واحدة؟

أجاب الفيترارى(☆)، "نعم، سأعطيك كثيراً من الزبد (المدخن، والسمن)، وكثيراً من الحليب والعسل إلى أن تمتلئى فى الغد وتصبحى متينة على النحو الذى يقلل من قدرتك على الركوب".

شكرنا الرجل كبير السن، واعترفنا بأن غرضه مغر، لكن سألنا عن المسافة التى تفصلنا عن ممتلكاته، أدار عينيه أكثر، وراح ينًظر إلى الشمس ثم رد قائلاً:

"ليس لدينا ساعات، لكن إن صدقت الحكايات التى يروونها عنك، فستصلين عند الساعة الثالثة، وسوف تعانى بغالك الكثير من الآلام والمتاعب".

تسلقنا حتى وصلنا إلي ارتفاع ١١٠٠٠ قدم وتجمدنا إلى حد أنه على الرغم من وجود فردة حذاء مفكوكة النعل والأخرى فيها ثقوب أكثر من الجلد

☆ الفيترارى: طائفة من البشر الأقرباء للإمبراطور، والمقربين إليه وهم من اصحاب الهيبة والمكانة. (المترجم)

المصنوعة منه، رحت أمشى وأواصل المشى بين الصخور وبين النتوءات رمادية اللون، وبين أنواع جديدة من العناقيد خضراء اللون الشبيهة بعناقيد الأناناس قبل أن ترفعها السيقان الحرشفية إلى أعلى. أخيراً، وبعد أن سرى الخدر فى أصابعنا، تمدد الضباب بفعل هبة من هبَّات الريح وأبصرنا من تحتنا رقعة خضراء، وإثلا مقضباً مثل الحشائش الإنجليزية، تتخلله أشجار وبقع كاملة من نبات نسرين الكلاب، الذى ينصهر متحولاً إلى لون الزمرد والزبرجد.

قال كوياز ماتش، "هذه كلها أملاك أبى، وقد تجلى أحلى ما عنده عندما حثنا على النوم على أكبر كوخ من بين الأكواخ الموجودة داخل سور أنيق من عيدان القصب، والذى تظله وتحميه أجمة من الزهور، كانت القرى تبدو مريحة ودافئة لكن كنا لا نزال نعانى من بعض الالتهابات بسبب ما قاسيناه فى دبرا ماركوس، وعليه وبعد الأعذار التى اختُلِقت بفعل دهاء جابرا جورجس، وحاسن وأنا أيضاً، نصبنا خيامنا على سلسلة صخور فوق المجرى المائى، أحضر إلينا الصبى فى هذا المكان الدرجو(☆) المعتاد مضافاً إليه البصل والعدس، والزيت، والسمن(☆☆) Saman، والقرنفل، كما أحضر أيضاً جرة مليئة بسائل شفاف أبيض".

سألت "ما هذا؟ وكانت عيناى مركزتين على أوانى التدج، التى جرى تخزينها فى خيمة جونز.

ونظراً لأن التوسل والرجاء لم يمنعا مُضَيِّفينا من إرسال الشراب أو إقناعهم بأخذه معهم عند عودتهم، فقد جرت العادة أن أقوم بإعطاء كل عضو من الأعضاء المرافقين لنا شربة واحدة وأقوم بعد ذلك بتفريغ الجزء المتبقى من ذلك الشراب على الأرض أثناء الليل".

كانت عينا جابرا جورجس زائغتين وهو يحمل القرعة.

قال: "هذا من أجل الخدم، إنهم يستخدمونه فى طهو الطعام". كنت سأترك له هذه الجائزة لولا تدخل جونز.

☆ درجو :Dergo حكمة امهرية تعنى الطعام الذى يقدم لمسئولى التاج او اولئك الذين يترحلون حاملين اوامر حاكم الحبشة إلى البلدان المختلفة. (المترجم)

☆☆ السمن: الزبد المحُمَّض: عبارة عن السائل المتبقى بعد تحويل القشدة إلى زبد ويعرف فى مصر باسم "الخلاصة". (المترجم)

قال متعجباً: "أعطنى إياها".

كانت الروح الفعالة غير الجيدة التى تعد مسئولة عن الانهيار الذى أصاب الطباخ فى هرر والمسئولة أيضاً عن وفاة عمر، مخبأة فى أعماق كيس براغيث هارولد جونز، حتى نتمكن من التخلص منها فيما بعد، لكن خيمة جونز جرى السطو عليها وكنا نتناول لحم الضأن والأرز فى ضوء النجوم، بل إن الخيمة جرى السطو عليها مرتين فى تلك الليلة، ساعة أن كان قائماً بعمله، فقد تسلل الرجال إلى الخيمة لأسباب حقيرة وتافهة، وبعيون زائغة ومتحفزة.

عندما خرجت من الخيمة فى صباح اليوم التالى، كان ضوء الشمس قد تجمد متحولاً إلى حوض مصنوع من جذع شجرة، وجرى وضعه خارج خيمتى.

قال بالينا "عسل! لقد أحضرته العبدات من أجل إفطارك وقد أصيبت إحدى يديها وهى تؤلمها

وبحاجة إلى دواء".

قال جونز وهو يخرج من الخيمة ومعه كل الأشياء التى قام بإصلاحها أثناء الليل "حسبت أن ذلك شيئاً يخص الحمام".

هارولد جونز عبقرى فى مسألة التعمير والإصلاح، كل شىء بدءاً من الساعات المعطلة، إلى الزجاج المكسور، وشرائط المصابيح، يمر عبر يديه العبقريتين ليخرج صالحاً للعمل، تناول كل منا فنجانا مليئا بالعسل؛ وبعد أن حاولنا موازنة أنفسنا وإطباقنا على المنحدر، حاولنا قضم البسكويت الذى كانت له مقاومة الصخر، وبينما كنت أعجب ما إذا كانت كسر من البسكويت أم سن من أسنانى هي التى انشرخت، اقتربت منا فتاة وهى تشعر بالكسوف، واضعة ذراعاً من ذراعيها تحت مظلتها (شملتها).

قلت: "مدِّى يدك"، ورحت أضع ركبتى تحت براد الشاى المنزلق، وذهنى مشغول بالإفادة من "فاكس ومسحوق البوريك، وفى الحال جرى سحب الثوب وكشفت البنت عن يدها أمامى، تمنيت لو أن وجهى لم يحمل سوى التعبير عن الهم والغم على ذلك البراد الذى انقلب فجأة رأساً على عقب، لكنى لم

أرغب فى مزيد من الإفطار فى صباح ذلك اليوم، شاهدت من بين كتلة ملتهبة ومشوهة، ومشقوقة من الأصابع إلى الرسغ، وقرمزية اللون من الداخل، شاهدت ما يشبه أملودين أو ثلاثة سوداء اللون لابد أنها كانت أصابع فى يوم من الأيام، والشئ الذى لا يصدقه عقل هو أن البنت كانت ممتلئة وغير مرتبكة".

قلت لها وأنا أفتش فى صندوق الدواء "لابد من عرض نفسك على طبيب".

كنت أغسل وأضمد وأربط، فى الوقت الذى كانت هى تلعب فيه بالصوف القطنى وتقول: "ليس فى بلادنا أطباء سوى الفرانجى(☆) Franji الموجود فى أديس أبابا، والمسافة من هنا إلى هناك طويلة على أية امرأة".

نزلنا فى صمت إلى آخر موقع من المواقع الحدودية فى منطقة شوك Chokeإلى أن بدأت سيقان الحشائش المتدرجة تطاول رُكبنا، وفى بعض الأماكن كانت تطاول أكتافنا أثناء مسيرنا، كانت هناك حركة نقل للملح عن طريق ممر عرضه ثمانى بوصات، كانت البغال تمشى فيه مرتاحة، لكنه أتعب خيولنا، كانت القوافل كلها مكونة من أفراس قزمة قوية، يحمل الواحد منها حملاً يصل إلى حوالى ١٢٠ قضيباً من الملح، لكن كنا نرى فى بعض الأحيان حميراً يحمل الواحد منها نصف هذا الحمل، حوالى ٦٠ قضيباً، أى ما تقدر قيمته بحوالى ٣٠ شلناً، كانت هناك أسرة أو أسرتان تسيران ضمن الموكب، كان رجال هذه الأسر يسيرون فى المقدمة حاملين الرماح والقرع المفرغ، وكانت كل ممتلكاتهم ملفوفة فى قطعة من الجلد يحملها الواحد منهم على رأسه، أما النساء والأطفال والدواجن والماعز الصغيرة فكن يحملن هذه الأشياء فى لفة على ظهورهن، أما سلال الخبز فكن يحملنها متوازنة على جدائل شعورهن.

كانت مؤخرة القافلة ممثلة فى حامل المحفظة المشتركة، الذى كانت ثروته من الملح معلقة فى كتفه فى طرف عصا.

☆ فرانجى: Franji كلمة امهرية وهى ماخوذة عن العربية، والكلمة العربية نفسها ماخوذة عن الكلمة الإنجليزية Francsالتى يترجمها اهل الشام "الإفرنج" او "الفرنجة". (المترجم)

بقينا نتحدث ساعات عدة عن موعد وصولنا إلى موتا Mota، أم أننا لن نصل إليها اليوم على الإطلاق، كان كوياز ماتش يقاطع هذه المناقشة ملحاً بصورة مستمرة، على الخرطوش الذى لم يكن بحوزتنا من ناحية، أو بإصرارى من ناحية أخرى على معرفة أسماء القرى التى كنا نمر عليها، وعندما أقنعنا مرافقنا، الذى كان متضايقاً منا تماماً وعلى استعداد لتركنا عندما يتوفر له المبرر المناسب، إننا لم تكن لدينا ذخيرة زائدة عن حاجتنا، أستأنف من جديد الحديث عن بلدة موتا Mota.

قال: "موتا بعيدة جداً عن هنا، لن نستطيع الوصول إليها اليوم".

"حسن، إذن بوسعنا التخييم، بعد أن نكون قد قطعنا مسير ثمانى ساعات، وعندها سنخيم فى المكان الذى سنكون فيه". أشرت بعد ذلك إلى مجموعة من الأكواخ تبعد عنا نحو مائة ياردة على تل له حافة من الأشجار "ما اسم هذه القرية؟"

قال كوياز ماتش بصوت يعبر عن الدهشة "إنها موتا".

كان الوقت لا يزال باكراً وكان هناك ماء نظيف إلى حد ما فى حفرة بالقرب من بيارة عند بعض من أشجار ونباتات الست المستحية.

اقترحت على رفيقنا "هيا بنا نخيم هناك". ورحت أشير إلى الظل "أعتقد أن هذا المكان سيكون بعيداً عن متناول كلاب القرية".

نظر إلىّ ماكونِّن نظرة فزع ورعب.

قال: "هناك مقابر للمسلمين".

على الرغم من الكآبة التى خيمت على القافلة، التى كانت متحدة ذات مرة- لم يعد حتى من بينها اثنان يتفقان- أصررت على نصب الخيام تحت الأشجار الشبيهة بالمروحة، حيث كان المكان براداً ونظيفاً. كان المكان يبعد مسافة لا تقل عن خمسين ياردة عن السور المكسر الذى كان يحيط بجبلين أو ثلاثة فضلاً علي كوخ مهدَّم؛ وبعد الساعة الأولى من التخوف، التى اتخذ خلالها كل واحد من أفراد القافلة حجاباً(★) خاصاً به، بدأ أفراد القافلة ينسون الاحتياجات المعنوية لصالح الاحتياجات المادية.

★ المقصود هنا "تعويذة". (المترجم)

هذا الرجل المسن الفريد، والقصير الممتلئ، الذى يتمتع بسذاجة وبساطة فولستاف(*) جلب إلى مخيمنا ثلاثة آلاف رغيف من الخبز الحبشى Anjera، ونتيجة للمرح والسرور الذى اختلطت أصداؤه بغروب الشمس، أظن أن بعض الجرَار المختلفة التى فيها الشراب، وكذلك بعض من القرعات المفرغة المخَصصة للغرض نفسه قد هُلِّبت بعيداً عن نظر هارولد جونز الحاد، كان رفيقى فى الرحلة قد أحضر معه نوعاً عجيباً من الصابون، الذى يقضى بصورة فعالة على البق بكل أنواعه، وبدأنا نتعامل باستعمال هذه النوع من الصابون مع سكان هذه القرية من قرى منطقة دبرا ماركوس، والسبب فى ذلك أن سكان هذه القرية كانوا على قدر كبير من العناد والتشبث بالرأى، وقضينا بعد ذلك ساعة مفيدة فى مطاردة أصدقائهم وأسرهم بدءاً من البطاطين إلى الخيش، لم نسمع أى شىء من هذا القبيل فى الجانب الذى كنا فيه فى المخيم سوى "أنا نفسى أستطيع الرفس! لقد تفاديت رفسة كبيرة! عشرين رفسة، لكن البعض منها يكون دقيقاً جداً إلى حد أنه قد يشكل مذبحة لبعض الأبرياء".

وهنا يبدو الاضطراب فجأة على حاسن.

قال حاسن: "أظن أن الكوياز ماتش يشرب ولا يزال".

اندفع الصبى خلف حاسن بصحبة ستة من أصحاب اللحى الرمادية، الذين كانوا ينحنون ويبتسمون وحيونا تحية حقيقية تسر الخاطر، لكن ماكونّن كان مثقلاً بالكلمات، كان نهر آبَّاى(**) Abbai، الذى يعد جزءاً من حدود الراس هيلو يبعد عنا مسير ساعة أو ساعتين، ولذلك سوف يعطينا رجلين يذهبان معنا وسوف يعود هو إلى عاصمته، لم يكن يود أخذ المسدس، الذى قدمته له عن طريق حاسن، على سبيل الهدية جزاء له على مرافقته لنا فى السفر طوال ثلاثة أيام، ولم يسمح لخادميه اللذين رافقانا منذ الصباح، بأخذ الدولارات العشر التى أردت أن أعطيهما إياها.

همس فى أذن جابرا جورجس "هذا ليس كافياً، يجب أن أحصل على خمسين دولاراً وبندقية".

(*) شخصية من الشخصيات الروائية فى الأدب الإنجليزى تتميز بالسذاجة. (المترجم)

(**) نهر آبَّاى: هو الجزء العلوى من النيل الأزرق. (المترجم)

غمغم حاسن المسكين "هو سكران حتى الثمالة"

قلت: "ألا تريد شيئاً من القهوة؟ أنا على يقين من أنك تعبت بعد هذه الرحلة". وحاول جابرا جورجس سحب الشاب إلى خارج الخيمة، وبخاصة أن هذا الشاب كان لديه انطباع مفاده أن الأوروبيين كلهم من أصحاب الملايين وأنهم عبارة عن مصانع أسلحة متنقلة.

كان طباخنا لديه أسلوب يمكنه من إحداث تجديدات ممتازة تماماً فى تنويع الأشكال التى نتناول بها البيوض، ولحم الدجاج والضأن، فقد أعد لنا فى العشاء شيئاً جميلاً جداً من البطاطس المضاف إليها بعض الأعشاب إلى حد أنى لم ألاحظ مدى غرابة تلك الليلة، عندما أطفأنا الأنوار، فتحت جناحى باب الخيمة حتى أتمكن من رؤية السحاب يتخطى القمر الجديد (الهلال)، وأرى أغصان الشجر وهى تبدو على شكل دوامة من الظل والضوء الأبيض، كان الجو هادئاً تماماً داخل المخيم، لم يصدر أى صوت من خيام الرجال، وهنا قلت فيما بينى وبين نفسى إن بوسعى النوم دون أن أحشو أذنىَّ بالقطن الطبى، لكنى ربما أكون قد افتقدت حميمية ذلك الجدل الودى والأغنية الودية اللتين كانتا يتخللهما صياح جابرا جورجس بصوت عال "سكوت، ممنوع الكلام! أنصتوا!"، والذى كان يؤخذ دوماً على أنه إشارة لإحداث المزيد من الضوضاء.

استيقظت عندما أشتد البرد وعندما أحدث الطرق الغريب رنيناً فى جوف الليل، سمعت حفيف الريح وهى تصطدم بخيمتى وكان هناك طائر ينوح بصوت حزين، كان يتكسر على شكل نشيج.

"ترى، ما الذى يطحنونه فى هذه الساعة من الليل؟" ربما خطر ذلك ببالى لأنى كنت أود التأكد أن المسألة ليست سوى قيام هارولد جونز بدق وتد من الأوتاد أو أن صاحبى البغال كانا يكسران ملحهما، خرجت من الخيمة وأنا أرتعد، كان القمر يختبئ خلف سحابة فضية الحافة، لكن النجوم كان لها ضوء رمادى تحت شبكة من الظلال التى كانت تبدو عامرة بالحيوية، ومن خلف هذا المنظر شاهدت كوخ الموت المهجور والأحجار المتساقطة من جدارة.

وجدت نفسى وأنا أطيل النظر إلى الفجوات أقول: "الحماية ليست على ما يرام". المؤكد أن الطرق يأتى من خلف هذه الفجوات، ربما كان الطائر أو قد

يكونان طائرين قد اقتربا من ذلك المبنى الذى تتهاوى جدرانه، لأن الصباح كان يجئ ويذهب من فوق رأسى، وكان واضحاً أن هذين الطائرين حزينان تماماً.

كررت كلامى دون أن أدرى ما أقول: "هذا هراء! هذا هراء!"

مشيت إلى أقرب الخيام، بلغت الخيمة من الهدوء حداً أصبح من الصعب معه معرفة أن هذه الخيمة ينام فيها ستة زبانية، رفعت جناحاً من جناحى باب الخيمة، كانت الخيمة خالية، ومع تزايد ضربات قلبى ذهبت إلى الخيمتين الأخريين، لكنى لم أكن بحاجة إلى النظر داخلهما، كانت الخيمتان مفتوحتين ومهجورتين، وفاغرتين فاهيهما لتلك الخيالات، تزايد الطرق على نحو مؤذٍ وبشكل لا يمكن تعليله، نظراً لعدم وجود أى أحد فى المخيم سوى هارولد جونز، الذى من المفروض أنه نائم، نظراً لأن خيمته كانت مغلقة وصامتة، مشيت بخفة شديدة، خوفاً من إزعاج شىء مجهول، إلى أن أصبحت على مقربة من الجدار المنهار، كانت هناك خيمة منصوبة على بعد مسافة قصيرة من الخيام الأخرى، وفى ظل تلك الخيمة عثرت على بقجة بيضاء اللون، هذه البقجة كانت تهدهد نفسها إلى الأمام وإلى الخلف، وكان واضحاً أن هذه البقجة متلفعة بكفن، وكانت العينان مغلقتين، كانت البقجة تنبس بأغنية من خلال شفتيها، أغنية جافة، وبصوت أجش كان بعضه يضيع وسط أنين الأغصان، وتكسير الفضيات، وبينما كنت ألهث، فلابد أن هذه البقجة قد أدركت اقترابى، فقد صرخت هذه البقجة، وأخرجت أصابعها من أذنيها، معلقاً بها حوالى ستة خيوط من الأحجبة، ثم ألقت بنفسها على شكل كومة عند قدمىّ، وذابت على شكل مظلة (شملة) هى عبارة عن الشكل المرعوب لسائس خيولنا.

تجرعت كما لو كنت أحس شيئاً فى حلقى "ماذا حدث، حسبت أنك". وأدركت بعد ذلك أنه ربما كان من الأفضل ألا أقول ذلك الذى دار فى ذهنى عنه! "ماذا تفعل هنا؟ أين الباقون؟ سألته هذه الأسئلة بحدة إلى أبعد الحدود، حدث ذلك قبل أن يصبح وُلدو سليسى منطقياً.

كرر السائس كلامه مرات عدة "إنها السيدة، ربنا يحفظنا! ساعدينا يا مريم! إنها السيدة!" وراح بعد ذلك يتوسل ببعض القديسين، السواد الأعظم

منهم غير معروفين لى، وبين كل جملة وجملة كان يشرح أنه بعد انتهاء مفعول ضيافة رئيس القرية، راح الزبانية، والخدم وكذلك الحرس المحلى يزحفون عائدين إلى القرية، وقال إنه بقى فى مكانه كيما يمنع بغال صاحبى البغال من أكل الشعير المخصص للخيول.

سألته لكى أعرف ماذا سيكون رده "ألم تخف لكونك لوحدك؟"

"نعم، هذا صحيح بلا أدنى شك، لكن الحصان الرمادى سينحف، إذا ما سطت حيوانات الأمتعة اللصة على نصيبه من الشعير".

وددت لو أنى رَبتُّ على كتفه وهو يقف إلى جوارى مثل كلب لطيف، لكنى اكتفيت بأن قلت: "أنا لم أستطع النوم بسبب الطرق والخبط، حسبت أنكم كنتم لا تزالون تأكلون الخبز الحبشى ولا تزالون تطحنون الملح حتى يناسبه".

نظر إلى نظرة الطفل البرئ.

"أرواح المسلمين هى المدفونة هناك، هذه الأرواح هى التى تدق وتخبط لكى تصعد إلى السماء، لكن السماء مغلقة دونها، لأنها لم تؤمن".

انبعثت نغمة الطائر خافتة، وكأنها نشيج.

قلت لنفسى "هو طائر، بطبيعة الحال".

سأل وُلْدو سيلاسى "ألم تسمعيهم وهم يصيحون، الأرواح محبوسة فى القبور مع أجسادها وهى لا تستطيع الخروج، ليس هناك مكان تذهب إليه هذه الأرواح".

تلت ذلك فترة صمت، تمنيت ألا تطول.

قلت: "الخيول شبعانة". يتعين عليك الذهاب إلى القرية فوراً.

تردد.

كررت كلامى "فوراً، أنا ذاهبة لأنام"، هذا الأخير كنت أعرف أنه ليس حقيقياً.

حاولت فى الصباح أن أحكى لجونز تجربتى غير المتحضرة؛ جونز لندنى من القرن العشرين، يقظ، يفتقر إلى الخيال، وهو أيضاً من النوع العملى، ضحك جونز مما حكيته له، هذا شىء قريب جداً من نخير الخيل!

قال: "لابد أنك كنت تعانين من كابوس".

واقع الأمر أننا أُصبنا بكابوس فيما بعد، عندما أفاق كوياز ماتش من سُكره، ورجانى أنا بإنزال حمولة أحد البغال الذى كان قد سبق القافلة بمسافة كبيرة، كما طلب منى أيضاً فتح حقائبى، وأحضر له المسدس الذي رفض أخذه عندما كان تحت تأثير شراب التدج المسكر. كان الموقف واحداً من مواقف الضّعة والإهانة، وأنا على يقين أن الموقف كان غير عادى، لأنى عندما رفضت، على اعتبار أن يكون عبرة لمن يعتبر من الليلة السابقة، أخذ يتقلب بين العجلة والإساءة إلى أن اضطررنا إلى النزول من فوق الركوبة ونسبقه إلى القرية، فى هذه القرية كان رئيسها ينتظرنا ليرينا كنيسته التى عمرها ثلاثمائة عام، التى كان يتباهى ويتفاخر بها، القرويون يتحدثون عن كنيستهم بطريقة تشرح الصدر، باعتبار الكنيسة منزلاً لصديق يجرى فيه الترحيب بكل من يجئ إليه.

القرويون يقولون "يجب عليك المجئ والسلام على مريم". أو قد يقولون: "تعال وحيى معنا القديس جورج- أنه على طريقك".

الصور الجصِّية الزاوية فى هذه الكنيسة من كنائس موتا Mota، القديمة قدم بساطة هذا المبنى الذى يحتوى عليها هى وكتب القدَّاس كانت كلها مختلطة ببعضها مُشَكِّلة انسجاماً لونياً ناعماً، كان عنصر الاحترام البدائى فى هذه الصور الجَصِّية يفتقر إلى عنصر "التخويف" الذي جرى إدخاله على الرسوم الدينية الحديثة، كان رئيس القرية مرشداً طيباً، عليماً بأساطير القديسين، وخطر ببالى أيضاً بساطة أولئك الحبشيين كبار السن، الذين بغض النظر عن كونهم جنرالات وحكاماً أو قساوسة فى القرى أو رؤساء للقرى، كانوا يتمتعون بشئ من الثقة البسيطة المتحفظة الملكية مثل الغطرسة من جانب صغار السن التى هى بمثابة النقيض، فى الشرق مسألة العمر تعد أمراً معترفاً به، الشباب يدير مهامه ويقبِّل أطراف ملابسه، والرجل "كبير السن" لديه خبرة كبيرة وتجارب كثيرة، وذكريات وحكمة، وهو بسبب كبر سنه، وليس على الرغم منه، يحاط بعباءة الاحترام والتقدير، ويتوج بالإعزاز، وهو يدرك تماماً دلائل حاله هذه، وأنه جدير بذلك كله.

من المحزن التغاضى عن القصص التى رواها رئيس القرية عن الطمع

الجنونى للشاب كوياز ماتش، لقد ركب رئيس القرية دابته معنا خلال السوق الفارغة التى تظلها ثلاث من أشجار الواركا Warka العملاقة، بينما كنا نسير على جنب، خلال التراب وبين النظارة الفضوليين، فى مسارات تتعرج بين أجمات أشجار الليلج، والياسمين، والليغطروم، والتى كانت الأكواخ مدفونة بينها، راح كوياز ماتش يرجو ويتخاصم، ويثور، عسانى أتنازل وأنقذ ماء وجه إخوانه المواطنين من هذا المنظر المشين، لولا حاسن، الذى أصر "كان يطالب كثيراً بالبقشيش، وقد رفض الهدية، على أمل الحصول على ما هو أكبر، ولم يفعل كل ذلك الذى أمره به سيده، فقد أبلغه بالذهاب معنا إلى دبرا تابور Debra Tabor".

قلت بصوت ضعيف: "هو كاره للترحال".

رد حاسن بمثل ما قلت: "هو يحب البقشيش، لقد استمع إلي كثير من الحكايات، وأنا أقول لك إن رجال هذا البلد لا يقنعون مطلقاً بأى شيء يأخذونه، وإذا ما بعثرتِ مئات الدولارات يومياً فلن ترضى أحداً، لا تعطى أحداً سبَّنا أى شئ".

وعليه رجونا ماكوتِّن أن يعود، وشكرناه، وحملناه شكرنا لوالده، وقلنا إنه تلطف وقبل منا الهدية البسيطة التى قدمناها له، لكنها كانت مغلفة ومحملة وعلى بعد أميال منا فى المقدمة، وعليه آثرنا ألا نشغله بشئ تافه من هذا القبيل.

بعد أن أقتنع بفشله فى نهاية المطاف، تخلى كوياز ماتش عن حرصه وعن كرامته وضرب بذلك كله عرض الحائط، صرخ قائلاً: "عجِّلوا! أخرجوا! لقد انتهى دورى معكم، لن أرسل معكم مرشدين، سيروا وحدكم!"

أدار بغله، وكان بوسعه أن يخزه ليزيد من سرعته، لكنى تدخلت.

قلت على وجه السرعة: "أنا خائفة من السماح لك بالتصرف على هذا النحو، لقد قيل لك إن تذهب معنا إلى راس جوكسا Ras Gooksa، وهذا أصبح شيئاً مستحيلاً بعد كل ما فعلت، لكنك سوف ترسل معى مرشدين حالاً، وإلا بلَّغت الراس هيلو عن تصرفك هذا".

تلت ذلك فترة من الصمت.

قال حاسن عن قناعة: "وسوف توضع فى السجن بلا أدنى شك"

بدا الصراع واضحاً فى ذلك الوجه الضعيف الواقف أمامنا، فى الوقت الذى بقيت فيه أنا بلا حراك وغير مبالية، نظراً لأن حالنا قد يكون أفضل فى حال عدم وجود مرشدين غير راغبين فى مساعدتنا؛ وهنا كف كوياز ماتش عن المقاومة.

قال: "سآتى معكم".

"لن تجئ معنا، لن تتنقل ميلاً واحداً بعد الآن مع قافلتى، لكنك سوف توفر لى رجلين يعرفان البلاد، وسوف أقوم بدفع أجرهما، بوسعك أن ترسلهما بعدى".

استدرت بحصانى وانصرفت بعيداً عنه، بعد ذلك بعشر دقائق شاهدت اثنين من حملة الرماح يجريان خلفنا، لكننا كنا قد استأنفنا مسيرنا بالفعل "على حد قول جابرا جورجس، ذلك المتعالم المحلى الذى أقسم بأنه يعرف كل جزء من أجزاء الطريق، وعليه تمكنا من تجاهل أتباع ماكونن.

الفصل الرابع عشر

من النيل إلى شوشا الخالية من الماء

قال هارولد جونز ونحن نستأنف النزول إلى الأعماق البعيدة التى تخفى نهر الأبَّاى وإن شئت فقل النيل الأزرق.

قلت: "واضح أن لديه انطباعاً خاطئاً عن أحوالنا المالية".

رد جونز قائلا: "حسن، أنا لا أعرف من أين جاء له ذلك الانطباع، معطفى الوحيد عليه آثار مختلف أنواع الوحل الذى مررنا به".

"هل قلت وحل **mud** أم وجبات **MEALS**؟"

تجاهل جونز سؤالى.

"فيما يتعلق بك، أنا لا أتخيل ذلك الذى يمكن أن يحدث إذا ما انقطع الخيط".

قلت وأنا أعرب عن أسفى "أنا أعرف ذلك. إنها الأزرار. هذه الأزرار تتخلع أثناء الليل عندما أكون متعبة أو عندما أود الكتابة، وهى تضيع منى فى الصباح".

قال جونز فى شىء من المواساة "لا يزال معنا بعض من الشرائط الطبية اللاصقة"، ثم تساءل "هل ستكتبين لراس هيلر عن ذلك الصبى؟"

"لا، أنا لا أعتقد ذلك، إن أباه رجل لطيف".

" أنا لا أعرف! يا له من سبب أنثوى"!

لكن، أثناء نزولنا من خلال منحنيات ضيقة، كانت تقلل من حركة البغال، وتجعلنا نصاب بالدوار مثل إبرة البوصلة الرخيصة، رحت أتفكر فى مسألة

الترحال فى الحبشة، قوافل الترحال الأوربية لا تزال نادرة، يزاد على ذلك أن مفهوم الضيافة سخى ولا يزال، إلى حد أن ضريبة الدرجو الحبشية **Dergo** (ضريبة الطعام للإنسان والحيوان، تعطى فى معظم الأحيان للصيادين، والمستكشفين وللدبلوماسيين الجائلين). ومن باب التأكد من تقديم هذه الضريبة، يوفر المسئولون مرشداً رسمياً للتأكد من تنفيذ ذلك؛ هذا المرشد تختلف رتبته ومرافقته طبقاً لمكانة الرَّحال، الذى تكون مصاعبه ومشكلاته مناسبة تماماً للتشريف الذى يوليه إياه الحاكم المحلى **Local Ras**، فى ظل عدم وجود ضريبة الدرجو **Dergo** قد يستحيل فى معظم الأحيان الحصول على الطعام طوال يومين أو ثلاثة، لكن يمكن مقابل بضعة دولارات الحصول على مخزون مستقبلى كاف من الدجاج، والبيض والشعير لتغطية الفترات التى تكون من هذا القبيل، طبقاً للعقد الذى يبرم مع مالك البغال(☆) **Nagadi** يتحتم عليه توفير العشب المطلوب لبغاله، بمعدل أربعة أحمال حمار نظير ريال واحد، ويجرى دفع أجر الزبانى والخادم مقدماً بواقع خمسة دولارات فى الشهر نظير طعامه الرخيص والمتوفر، إذ يمكنه شراء مائة رغيف من الخبز الحبشى نظير ريال واحد؛ ورغيفان من هذا الخبز يكفيان الخادم أو الزبانى طول اليوم، وإذا أردنا إطعام كل وحدة من وحدات القافلة، سواء أكانت بشرية أم حيوانية، فإن ذلك لن يتكلف أكثر من ٢.٥ دولار للرجل، وثلاثة دولارات للبغل الواحد فى الشهر، لكن الترحال بإذن مكتوب من الحكومة وتحت رعايتها يزيد هذه النفقات إلى عشرة أضعاف، قبل زمن طويل من تعرف الإنسان الإضافات الأخيرة التى طرأت على الحاشية المرافقة، والتى تتغير مع كل قرية أو حى، وقبل أن يتمكن المرء من زيادة عدد مرشديه الجدد، وقبل أن ينتهى المرء من التعبير عن شكره وامتنانه على ملء قرعة من الحليب، قبل ذلك كله يتعين انسياب الدولارات من كيس من الأكياس السحرية، نظراً لأن البغال لا تقوى على حمل العدد المطلوب من هذه الأكياس، وواقع الأمر أن سخاء الحكومة هو الذى يُقدم للرحالة، لكن الجرازماتش أو الكوياز ماتش هما اللذين ينظمان انسياب هذه السخاء، وهما أيضاً اللذان ينظمان، فى ظل كثير من الانحناء احتراماً وتقديراً، تكديس الفواكه الحمضية أمام الخيام،

☆ **Nagadi**: كلمة حبشية تعنى "مقاول البغال". (المترجم)

من الطبيعى أن المرء يتحتم عليه التعبير عن شكره وتقديره لهذا التقليد الطيب الذى سجّله الزمن ومجَّده، لكن فى البلاد التى تشيع فيها الهدايا على نحو تتناسب فيه قيمتها مع ثمنها يصعب إرضاء الجميع.

"يا لبلاَّم باراسِّى من ملاك"!

تنهدت وأنا أسترجع أدب جبرا سلسِّى **Selessi** الجم.

أردف جونز موافقاً "كان نوعاً طيباً تماماً، لكن لماذا تفكرين فيه فى هذه اللحظة؟ المرجح أن هذه ستكون المرة الأخيرة".

أشار إلى النقطة التى يتوقف عندها الممر، والتى انزلقت عندها صخرة كبيرة انزلاقاً حاداً فى الفراغ.

"هل سنترجل؟"

بعد شىء من التفكير جرى إنزالنا بواسطة الزبانية الأربعة الأقوياء، الذين كانوا يخشون أن ننفلت منهم، إلى حد أننا كنا نتدلى معاتبين، ونرفس بأقدامنا، وكادت مناطق تحت إبطنا تتشرخ، رفض حاسن الافتراق عن بغله، قال، "أنا لا أجرؤ على النزول به وأنا راكب عليه هناك مرة ثانية"، ثم أمسك بمقدمة السَّرْج، وينزلق متدحرجاً، ويسمع صوت فرقعة! انقطع حزام بطن البغل، ويتكوم المترجم والسرج والبغل المدهش فى أجمة شوكية قاومت الالتواء فترة طويلة مكنت من سحب الرجل والحيوان بسلام.

مثلت الخيل لنا أكبر المصاعب، مضى الحصان الرمادى بسرعة كبيرة وبتزييق كبير، الأمر الذى أدى إلى انزلاق أرجل الحصان الخلفية من فوق حافة الصخرة، وكتمنا أنفاسنا عندما قام اثنان من البغَّالة بوضع أنفسهما تحت الجزء المنزلق من الحصان محاولين رفعه، رفض الفرس الكُميت بعد ذلك مواجهة عملية السقوط، وراح يدور حول نفسه، وضاعت منه خطاه وسقط متدحرجاً نحو الأسفل والسائس يُدَوِّم بين الحوافر والأحجار متعلقاً بلجام الحصان.

قلت، عندما نجت الحيوانات بمعجزة "آمل ألا نصادف ثانية حفراً من هذا القبيل، أنا أشعر بالإعياء إلى حد ما".

قال جونز "الحرارة هى السبب، أنا لم أحس شيئاً من هذا القبيل من قبل".

كانت درجة الحرارة المسجلة على الترمومتر ١٠٨ درجات فهرنهايتية، ولما كنا محصورين بين الصخور السوداء، ومخنوقين بسبب التراب الذى كان يكسو كل بروز من البروزات ويملأ كل شق من الشقوق، ويصل سمكه إلى نحو قدم بين الأحجار، أحسسنا وكأننا يجرى إحراقنا.

قال هارولد جونز، عندما هبت علينا ريح حارة "نحن نحترق لكن ببطء، أتمنى لو أنهم أغلقوا الباب واكتفوا بذلك".

استغرق نزولنا من ارتفاع ثلاثة آلاف قدم نحو خمس ساعات إلى أن وصلنا مجرى النيل الأزرق، بعد أن عبرنا خليج آجوم واها **Agum Waha** المتعوج شبه الجاف الذى حسبناه هو النهر، وبعد أن تسلقنا مجموعة مختلفة من الجلاميد، وقد غطتنا الأقذار، وبعد أن عبرنا كثيراً من الأشواك، رأينا شريطاً من الماء الأزرق. كان ذلك الشريط عميقاً ومضغوطاً بين القمم الصخرية التى بدت لنا قابلة للتسلق، لكن بعد تشاورنا فى مسألة الجسر (الكوبرى) البرتغالى، توصلنا إلى مسار كان محدداً فى التراب عبر اللون الأسود، سرنا فى ذلك المسار بأفواه مفتوحة وعيون جاحظة، وبمعدل ميل واحد فى الساعة، كانت الشمس شديدة القسوة طوال فترة العصر، وفى ظل سكون الريح وركودها، وفى ظل عدم وجود سحب فى السماء المنصهرة، واصلنا مسيرنا مكتئبين وفى صمت فى اتجاه أرض مستوية، أوحت لنا بانبساط أرضى لكنه يعلونا بنحو ألف قدم أو ما يقرب من ذلك.

قلت ونحن نتسلق بروزاً بعد آخر "إنه السراب"، لنكتشف أن هناك كومة أخرى من الصخور، الساخنة إلى حد يصعب معه لمسها، وملساء بشكل يصعب معه على الحوافر السير فيه، وقد مشينا الميل الأخير سيراً على الأقدام، وكان أربعة منا يعرجون فى المقدمة وقد أغلقوا عيونهم، فى حين وقعت بعض الإصابات فى بقية القافلة التى كانت تمشى وراءنا، هذا بغل من البغال سقط مما أدى إلى التواء وتره الخلفى، كان معظم ظهور البغال ملتهباً، أصيبت البغال كلها بجروح فى الظهر أو الركبة، أما بالينا **Balaina** فقد نُزِع ظفر إصبع قدمه، وهذا واحد من الزبانية شُق قدمه وهو يلبس نعله، وهذا زبانى آخر خُلعتْ كتفه، وكان السائس يتلوى مما سمَّاه ضلعاً مكسوراً، لكنى عندما هدنى التعب، كنت قد أجهزت على كل ما بداخل صندوق الدواء،

ورحت بعد ذلك أطيل النظر إلى لفة صغيرة مكتوب عليها "أقراص دواء" Tabloid، وإلى إصبع مضغوط مكتوب عليه "ضمادة"، أخيراً رق قلب بالينا وأكد لى أن "الإرهاق يأكل وسطه".

"عند غروب الشمس زحف موكب من العُرّج والمشوهين إلى أول جزء من الأرض المستوية على قمة الصخرة، وجلسوا أيضاً وسط ماشية مرتاحة إلى حد ما، جرى بعد ذلك نصب الخيام، ولا أعرف كيف نصبت ولا من نصبها، دخلت خيمتى، ووجدت فيها مخدة، ورحت فى النوم وقدمى بارزة من بقايا فردة الحذاء البالية، بحلول الصباح درسنا الخارطة وكدنا نمزقها لأنها رفضت الإفصاح لنا عن أننا قطعنا أكثر من اثنى عشر ميلاً"!

قال هارولد جونز "أود أن أحضر ذلك الذى رسم هذه الخريطة واجعله يرسم خطاً مستقيماً من موتا Mota".

وافقت على هذا الكلام وأطلت النظر إلى قريتين توأم: ماجير وولكا اللتين كانتا نقاطا على عشب الزعفران، "نعم، أعتقد أن هذه الخارطة مفيدة للملاحين الجويين".

أبديت ملاحظة، وأنا أتعجب من المدى الذى يمكن أن أصل إليه بهذه القافلة "أُحس وكأن عظامى كلها قد أزيلت وأستُبْدلت بقطن طبى".

"عجيب، عندى عشرات العظام اليوم، هذه العظام بارزة منى، وأنا أبدو كما لو كنت منصهرة عندما تؤلمنى عظامى".

مشينا ببطء عبر الحشائش الجافة، التى تتخللها الأحجار، وتتخللها الشروخ فيما بين الكثبان إلى أن وصلنا مجارى مائية جافة، توجد فى كل سلسلة من السلاسل الجبلية الشبيهة بالسنام قرية لها كنيسة مخبأة وسط مجموعة من الأشجار، كانت قرية جنتا Genta عبارة عن بقعة خضراء عن يسارنا؛ أما تل شيماى Shimie، فكان عبارة عن وهج من أشجار اللبلاب الحمراء التى كانت تخفى أكواخ القرية، يجئ بعد ذلك واد، ذهبى اللون بفعل الدريس، ويخفف من حرارته نهر حقيقى، تترقرق مياهه بين حواف لها خضرة الزيتون، والأشواك، والخلنج المزهر؛ انفتح هذا الوادى أمامنا، هذا الوادى فيه امتداد لرقعة أخرى من أشجار الأثل التى ترعاها الماشية؛ الأمر

الذى وعدنا بشئ من الحليب، وكان هواء المكان معطراً برائحة الزهور، سرنا على ظهور دوابنا لمسافة أميال قليلة خلال هذا الوادى الضيق الذى انحدر متدرجاً ليتداخل مع الأجمات الواقعة على الجانبين، خضنا خلال المجرى المائى الذى كانت مياهه تجرى من فوق الحصى صافية صفاء البللور، وانجذبنا إلى مرج أخضر تظلله أشجار الست المستحية.

قال جابرا جورجس، كاثوليكى الملَّة، وهو يسارع إلى تزويد نفسه بستة أغصان صغيرة، وثلاثة أحجار، وممسكاً بوعاء صنع القهوة، "الحمد لله، مريم المباركة"!

بدأت السماء تمطر عندما كان بالينا يرتب صناديق الأفلام ليجعل منها مائدة للطعام، وفى غضون ثلاث دقائق سقط وابل من الأمطار، دخلت السُّرُج والأطباق وأدوات المائدة وطبق الرَّاجوت **Ragout**، الذى لم نجرؤ على السؤال عن مكوناته! وكذلك دلف جونز إلى خيمتى فى آن واحد مع ذلك الذى بدا لنا وكأنه مطر غزير مفاجئ، كان قماش الخيمة حولنا يبدو كما لو كان جزءاً من شبكة من شباك البعوض! ووسط هذا البرق وهذا الرعد الذى تحول إلى صدام صوتى ولهبى، بدأ المطر ينزل غزيراً علينا، أنطفأ المصباح فى البداية، بعد ذلك، وأثناء محاولتنا إنقاذ ذلك الذى يسمى حساء الراجوت، حدث شد عنيف للحبال أثناء الظلام، وانخلعت أوتاد الخيمة وسقطت الخيمة فوق رءوسنا، وفى غضون دقائق معدودات حولت الريح الخيمة إلى أكوام وكنا جميعاً تحت هذه الأكوام، غَلبنا بعد ذلك وزن الماء، وتحول إلى ما يشبه الحمام الذى كان ماؤه ينصب علينا كلما تحركنا، لم يحظ نداءنا لخيمة الطباخ بطلب العون والمساعدة بأى رد أو اهتمام؛ كنا مشوشين فيما يتعلق بالطعام والأمتعة والفُرش المنهارة، على نحو عجزنا معه عن إنقاذ أنفسنا، بذل هارولد جونز محاولة واحدة، لكن النتيجة كانت كارثة، إذا ما حكمنا عليها بالصوت الذى نتج عنها، أظن أن جونز اصطدم بحافة حادة من حواف علب الأفلام، ثم جثا على سكين من السكاكين، وعليه كان لابد من الاستمرار فى عوائنا غير المحترم إلى أن خطر ببال بالينا أن يرد علينا ويستجيب لندائنا.

قال بعربيته الضعيفة: "يا حرام"! لابد أن تكون الأوتاد قد ضاعت كلها الآن!

خطر ببالى، وأنا جالسة فى بُريكة من القهوة، وأنا مضطربة وقلقة، كثير من الإساءات البدوية لكنى كنت أخشى ألا يكون الصبى بارعاً بالقدر الذى يُمكِّنه من تفهم هذه الحقيقة.

جاء اليوم التالى على النقيض مما كنا فيه تماماً من حيث الطقس والمناظر الطبيعية، أولاً، نفض الوادى المسحور ثيابه الزيتونية ووروده البرية، وتكرمش إلى سلسلة من الجبال عبرناها بالقرب من قرية بُرَّا **Burra**، وعندما بدأت أشعة الشمس تبدد السحاب، وصلنا إلى طبق ذهبى بين التلال التى كان العمال فيها مشغولين بحصاد الحبوب، كانوا على شكل صفوف متتالية، وكل واحد منهم يلف حول وسطه وحول جبهته حزاماً من الجلد، ويمسك فى يده منجلاً (محشَّة) صغيراً، جهز هارولد جونز آلة التصوير وسط نباتات الحبوب التى يطاول ارتفاعها ركبة من يسير خلالها، لكن النتيجة جاءت مدهشة تماماً، نظراً لأن الحشد كله جثوا على ركبهم، وانحنوا مرات عدة، وأغمضوا عيونهم وراحوا يدفنون رءوسهم فى الأرض.

قال حاسن وهو يخاطبهم بلغة أمهرية غير واضحة "هم يظنون أن هذا سحر".

قالت واحدة من النساء مولولة، وهى تحتمى بغطائها غير الكافى "إذا ما نظرت إلى هذا الشئ سوف أموت".

قال جونز "هذه صورة جيدة، الأحباش عرق مُتَعَبِّد".

سألته "هل ستطلق على هذه الصورة اسم، حصاد؟"

ما رأيك فى الاسم "حصاد الشكر"؟ قال هذا الكلام وهو يضحك، ثم أردف قائلاً "أقول، إن المرأة تظن أنها ميتة". والسبب فى ذلك أن حاسن كان لا يزال يحاول طمأنه الضحية من هجوم خيالى.

أسلمتنا حقول الشعير إلى أجمات كثيفة من الأشواك التى شققنا طريقنا خلالها ونحن واضعين أيدينا على وَجُوهنا، وبعد أن خرجنا من واحدة من تلك الأجمات شاهدنا عبر وادٍ عامر بالروابى والمنخفضات قرية مهاديرا مريم **Mahadera Maryam**، تقفً شامخة على قمة صخرة كبيرة، سرنا طوال فترة العصر متجهين صوب كنائس وأكواخ هذه القرية، ووصلناها عندما

استطال خيالنا على الأرض، بعد عثرة أصابت حصانى بالعرج، كانت النساء يسرن على شكل موكب فى اتجاه مجرى مائى لا يحمل سوى اسم واحد هو "ماء غسيل الملابس" **Wash-clothes-water**، كانت النساء يحملن جراراً كبيرة وبقجاً كبيرة أيضاً، فى حين كان الرجال يتكئون على عصيهم الطويلة وينظرون إلى ما يدور.

سألت شاباً كان يجرى إلى جانب أجمل البنات محاولاً استمالتها لتكون له صديقة "لماذا لا تساعدها فى هذا الحمل الذى تحمله؟" ضحك الشاب فى بداية الأمر، وبعد أن كررت السؤال، أجابنى "المرأة للعمل، أما الرجال فعملهم الحرب"، وهنا خطر على بالى ذلك المثل العربى الذى سمعته من شيخ عربى فى اليمن "الرجل يحمل البندقية، والمرأة تحمل الأطفال والمنجل، وهذا هو تنظيم الله" المرأة فى الحبشة وحدها تحمل أيضاً وعاء الجعَّة، وفى أغلب الأحيان يكون الرجال أكثر استعداداً بألسنتهم عنه ببنادقهم.

مهاديرا مريم، "مليئة بالقساوسة، والفقراء، والشحاذين" على حد قول حاسن، ولذلك رفض أهل القرية أن يبيعونا أى نوع من الطعام، على الرغم من عرضنا دفع الثمن بالدولار، أو الخرطوش أو الملح، لم تكن هناك أعشاب أو حشائش على الصخرة، وعليه مضت بغالنا وخيولنا بلا طعام، ونحن أيضاً كنا سنحذو حذو هذه البغال والخيول لولا مرور بنت من البنات، مرت على خيمتى بماء عامر بالطين جرى جلبه من حفرة من الحفر، والسبب فى ذلك، وهو سبب دائم، هو بعد القرية عن الأنهار التى فى الوديان الموجودة على الجانبين، وقفت هذه البنت فترة طويلة تطيل النظر إلى ما أفعله، وقد قطبت جبينها جراء ما يدور فى رأسها من أفكار، ثم هربت بعد ذلك لتعود إلىّ ومعها حفنة من البيض ودجاجة بيضاء، نظرت إلى هذه الأشياء بنهم شديد.

سألت جابرا جورجس: "ألا نستطيع إقناعها ببيع هذه الأشياء لنا؟"

هز الطباخ كتفيه:

"ستكون بحاجة إلى مادة بيضاء أو قطعة من القماش". لكن بعد حوار ثنائى بصوت عالٍ عاد جابرا جورجس إلىّ مندهشاً، قال: "هى تريد صابوناً".

"الحمد لله! سيكون لدينا شىء من العشاء"!

رحت أفتش فى حقيبة ملابسى وأخرجت منها لفافة.

"هى تريد قطعة خاصة مثل تلك التى كنت تستعملينها".

"هذه اللفافة هى من النوع نفسه".

ترجم جابرا جورجس وانشرح صدر البنت وتهلل وجهها وهى تأخذ قطعة الصابون.

"ليس لدينا فى هذا البلد صابون يجعل البشرة بيضاء". قالت هذا الكلام وقبلت يدى، وراحت تتحسس يدها بعد ذلك، ربما يكون تأثير الغسل دائماً، أضافت البنت "فى البداية ظننت أنك لست حقيقية، بعد ذلك رأيتك تستعملين هذا الصابون، وعندها فهمت".

راح جابرا جورجس وأنا ننظر إلى بعضنا البعض فى شىء من البَلَه.

أمرت جابرا "يجب عليك أن تشرح لها الحقيقة، سيخيب أملها عندما لا ينقشع سوادها مع الغسيل"؛ لكن الطباخ كان يشعر بالاحتقار والازدراء.

"هذا لا يهم، يبدو أن الدجاجة سمينة".

لابد أن هذه الدجاجة كانت بيَّاضة، ففى صبيحة اليوم التالى وبينما كانت الدجاجة مربوطة بين صندوقين من صناديق الأفلام على ظهر بغل من البغال، أفلحت فى أن تضع بيضة أثناء سيرنا طالعين نازلين من الصخر المتغير الموجود فيما بين قريتى مهاديرا مريم ودبرا تابور **Debra Tabor**، هاتان القريتان تواجهان بعضهما عبر سلسلة من السلاسل الجبلية المنخفضة، وعلى امتداد ست ساعات واصلنا مسيرنا عبر أراض حبشية أصيلة. كانت تلك الأرض كثيرة الأشجار، وتتخللها بعض صخور الجرانيت المفككة والأحجار الرملية التى نتجت عن التربة، وانهارت على شكل ثنيات حادة لها أحواض نهرية تحت كل جبل من الجبال، وتعين علينا عبور نهر جومارا **Gomara** الموجود فى منتصف الطريق بين القريتين، وكان الطريق الوحيد المؤدى إلى هذا النهر مسدوداً ببغل ميت كبير الحجم، وضعنا المناديل على أنوفنا، فى حين راح الرجال يبعدونه قطعة بعد أخرى.

دبرا تابور، هى عاصمة راس جوكسا **Gooksa**، ولى **Woli**، زوج الإمبراطورة ريديتو، وهو متآمر سياسى، لا يحترم الأمور الداخلية فى الحبشة، ولذلك

فهذا هو الدافع وراء نفيه بعيداً عن أديس أبابا، كما أن قصره يتكون من عدد من الأكواخ الكبيرة، بعضها مربع الشكل، وبعضها مستدير الشكل، حول مربع كبير، يبدو وكأنه معلق على حافة الصخرة الواقعة فى الناحية الجنوبية وتطل على قرية مهاديرا مريم، على أجناب المربع الثلاثة الأخرى توجد المدينة الشبيهة بعيش الغراب، والتى تنتشر أكواخها فى غير انتظام على منحدرات عدة، بل إنها قد تتجمع فى بعض الأحيان على شكل تجمعات محددة المعالم، وقد تكون بين الأشجار والأحراش فى بعض الأحيان، نصبنا خيامنا فى الأسفل بجانب مصدر الماء الوحيد وأرحنا البغال، كانت البغال قد أوشك أن يبدو عليها التعب، وتشككت أيضاً، لأن صاحب البغال فى الليالى التى لم يكن يرسل لنا فيها الطعام المحلى وإن شئت فقل: الضيافة المحلية، لم يشتر علفاً لتلك البغال، كان العقد المبرم مع صاحب البغال ينص على أن يقوم بنقلنا إلى أسمرة فى زمن محدد، وهذا على سبيل التحذير من العادة المحلية التي تقضى بالتخييم فى وقت الظهيرة، لكن، على الرغم من أننا أخذنا تقريباً ضعف العدد المطلوب من البغال لاستعمالهما فى نقل أمتعتنا، وعلى الرغم أيضاً من شراء بغلين جديدين من دبرا ماركوس، فإن التسلق والصعود المستمر أثناء وهج الشمس والحال البشع الذى عليه الطرق، وفوق ذلك كله، الإهمال فى مسألة التحميل فى ظل عدم وجود عرَّاقات(☆) كافية، كل ذلك كان وراء العرج الذى أصاب أرجل البغال والالتهابات التى طالت ظهورها.

خطر على بالى "إذا ما وصلنا إلى جُندار **Gondar** بما لدينا من إمكانات سنكون محظوظين". ثم خرجت بعد ذلك لاستطلاع ما إذا كنا سنجد حيوانات إضافية يمكن استئجارها أو شراؤها فى بلدة تنتعش فيها تجارة الجلود، التى تكرس لها كل حيوان من الحيوانات الحية، سواء أكان ذا أربع أم ذا اثنين.

عندما عدت من البحث الخائب وجدت المخيم مليئاً بالبنادق وبأغطية رأس لها مقدمة سوداء، لقد سمع راس جوكسا عن وصولنا وأرسل لنا تحياته، التى عبر عنها بطريقة جذابة واحد من ضباطه، وجرى التأكيد على

☆ **عرَّاقة: بتشديد الراء وفتحها، هى ما يوضع على ظهر البغل او الحصان او الحمار لحماية ظهره عند التحميل واثناء السير. (المترجم)**

هذه التحيات عن طريق الخوار، والثغاء، والوقوقة، بعد أن عبرنا قدر المستطاع عن ردنا من خلال الوسيط جابرا جورجس، الذى كان مفتوناً بطلاقته وفصاحته على نحو يصعب معه إخفاء ذلك الافتتان، سرت متجهة صوب خيمتى، لأرى هارولد جونز يخرج مندفعاً من خيمته.

تعجب هارولد جونز: "يجب أن تجيئى لإنقاذى، أخشى أن يكون راغباً فى قبعتى".

عندما نظرت داخل الخيمة رأيت شخصاً مشعراً، يرتدى عباءة من الصوف، عارى الرأس، يتحسس بإصبعه لبَّاد قبعة زميلى.

حتى هارولد جونز "هى قبعتى الوحيدة، ولن يتركها أو يتركنى، وعليه، أنا لا أفهم كلمة واحدة مما يقوله".

رددت عليه "أحضر حاسن للتعامل معه، ومن أجل إنقاذك من ضربات الشمس، أنا لا يمكن أن أوافقه على ما يريد".

بفضل محاولتى التى قمت فيها بربط كل حبال الخيمة، وإطفاء المصباح، ثم قولى فى حزم "أنا نائمة" كلما كانت تجئ من الخارج همهمة "هو يقول: افعلى فيه معروفاً، وهو يريد" استطعت إحباط إلحاح الشحاذين، ومحاولات الأشغال وما إلى ذلك؛ وتمكنا من الرحيل فى الصباح ومعنا كل ممتلكاتنا بلا مساس.

بينما كانت القافلة تمضى قدماً، قصدنا القصر لتحية الراس جوكسا، الذى كان مكتئباً لأن إقامتنا لم تطل فى دبرا تابور.

قال الراس جوكسا "يوم واحد ليست له قيمة أو أهمية".

طرقع بأصابعه ليبرز عدم أهمية الوقت، لكنا اعتدنا التعامل مع مثل هذا الأمر، لأننا كنا نسمع هذا التعبير كل ساعة من كل عضو من أعضاء القافلة.

نحن نقول فى إنجلترا: "الوقت أهم من النقود".

قال الراس بصوت أصابه الفزع "كيف ذلك؟ الوقت لا جدوى منه ، أما النقود فلها استعمالات كبيرة".

استدارت عيناه مثل وجهه، الذى بدا شعره مرسوماً حتى الذقن المنكوش، جلسنا فى جرن كبير، له سور من الطين، مفروش بالحشائش، كان سقف ذلك



جسر برتغالى من القرن
السابع عشر، على النيل
الأزرق...

الجرن من عيدان القصب المدهونة بلون بهيج؛ إلى الخلف من المسئولين البيض والسود الجالسين على سجادة واضعين أرجلهم الواحدة فوق الأخرى، كان هناك ديوان من الدواوين(*) الكبيرة المعتادة شديدة الطراوة، ومغطى بمفرش سرير أزرق اللون ومحاط بالستائر من ثلاثة أجناب، لم أر أحداً يجلس على مثل هذه الأريكة سوى الإمبراطورة، وعليه قد يكون ذلك مجرد تمثيل للعرش.

واصل الراس كلامه "لماذا تسافرون بمثل هذه السرعة؟ ليس لديكم متسع من الوقت للطعام أو الشراب".

رددت "بفضل كرمكم، أكل رجالى طول الليل، وأصبحوا متخمين على نحو يصعب معه أن يتحركوا أو يمشوا".

ابتسم راس جوكسا، "من الواضح أنك لم تحذين حذوهم"!

بعد أن كسب نقطة أردف قائلاً: "المشى فى الحبشة ليس طيباً، وقد بلغنى أن حصانك أعرج، وعليه سأعطيك حصاناً كبيراً جداً وسمينا ليحملك إلى أسمرة بالسرعة التى تريدينها".

وعلى الرغم من الاحتجاجات، وبعد أن وصلنا الحوش المَسوَّر ببنادق الحرس، وجدت حصانين محليين يحلان محل حصان السبق الذى كنت أركبه، كان أحدهما فرساً كميتياً راح يتعامل مع شكيمة لجامى وكأنها قطعة من ورق، إلى حد أننا كنا نتعامل مع الأشياء بطريقة ارتدادية، أما الحصان الثانى فكان قوياً وأبيض اللون، ومن النوع الاستعراضى، فقفز الحصان إلى الأعلى وعنقه على شكل قوس وكان على استعداد للدخول فى الحال فى سباق للعدو أو الوقوف على رجليه الخلفيتين.

قال جونز "اشكرى الله، أن لهما عُرفين".

وافقت على ما قاله جونز، وأمسكت بالحصان الذى له عُرف كثيف؛ وتمكنت من التغلب على السَّرج الحبشى حتى لا يتحول إلى طوق لصدر الحصان، وركبنا دوابنا وخرجنا من دبرا تابور وسط جمع من الكلاب والماعز، والأطفال، والجنود، والشحاذين، والياوران، وعجل كان على وشك الاصطدام بفردة من رِكاب سرج حصان جونز.

(*) ديوان: مجلس سلطانى. (المترجم)

كان ذلك اليوم مصادفاً لليوم السابع عشر من مغادرتنا أديس أبابا، ومنذ أن غادرنا أرض الصومال **Somaliland** كنا قد قطعنا مسافة ٦٢٨ ميلاً، كانت هناك تسعون ميلاً أخرى تفصلنا عن لاالبيلا **Lalibela**، وقيل إن هناك "طريقاً مضطرباً جداً". فى طريق ذهابنا إلى هدفنا، وعليه، كنا فى الأماكن التى كان السير فيها هيناً، والغبار الناعم الأحمر فى الفجوات التى بين التلال، نُسرِّع خطونا خلف القافلة، وندركها فى غضون ساعتين، ونبدأ فى السير على خطو البغال طوال الجزء المتبقى من اليوم، وبذلك لم تتح لصاحبى البغال فرصة لاستعمال كلمة "اجلس" **Igliss**، تلك الكلمة المميتة التى تعنى كل ما هو سلبى، وتعنى الوقوف، وإنزال الأحمال، والجلوس أرضاً، كما تعنى أيضاً الحديث حول النار، لابد أن هذه الكلمة مكتوبة فى قلب كل حبشى! خيمنا فوق وادٍ ضيق عميق وجرى إيقاظنا بعد منتصف الليل على صوت ضوضاء مرعبة فى القرية التى تبعد عنا بضع مئات من الياردات، كانت الطلقات كثيرة لكن الأصوات كانت طاغية عليها، خرج زبانيتنا من خيامهم ولباسهم غير مكتمل، وعاقدين العزم على المشاركة فى الهياج العام، أمسكت بأقربهم إلىّ وهو يجرى وشرحت له أن مهمتهم تتمثل فى الدفاع عن المخيم، وليس المشاركة فى أى نزاع محلى.

قال أحدهم "واحسرتاه لضياع هذه البنادق"؛ وسمعنا بعد ذلك صرخة من أصغر الزبانية جسماً وأكثرهم اسوداداً، والذى كان يعمل إسكافياً، ولكنه لم يتمكن من صيد غزالة كانت واقفة على بعد ثلاثين قدماً منه:

"عجباً! ليس معى طلقات، لقد دفعت آخر طلقاتى اليوم ثمناً لشئ من شراب التلاّ".

تلى ذلك صمت غير مريح ولم يقدم له أحد أى شىء من الذخيرة.

غمغم أحدهم "لقد استبدلت السيدة ملحها كله بطلقات فى دبرا تابور، آه، يا سيدتى، اصنعى فىَّ معروفاً، أنا معى قوالب الملح التى أعطيتنى إياها عندما أصلحت لك حذاءك، خذى قالباً وأعطنى طلقة، أرجوك".

رددت عليه "أنت فى مأمن أكثر فى ظل عدم وجود الطلقة".

سخر جونز "ربما، لكن هذه الطلقة لن تحدث شيئاً فى عَدُوِّه".

تضاءلت الغوغاء القادمة من فوقنا، وعرفنا، أنه على الرغم من معرفتنا أن اثنين أو ثلاثة من القرويين قد عانوا من ضربات جيرانهم سيئة التسديد، فإن اللصوص الذين دخلوا فناء رئيس القرية قد هربوا، كنت سعيدة لأنى تمكنت من المحافظة على عملتى الجديدة، نظراً لأن قوالب الملح التى لها قيمة فى جوجام **Gojam** عديمة القيمة فى جُندار أو لاستا، حيث تحل طلقات الخرطوش محل النقود، بواقع ست طلقات خرطوش نظير الدولار الواحد.

تقدر المسافة من دبرا تابور إلى لالبيلا بمسير أربعة أيام، لكن بعد ساعة تقريباً من نصب خيامنا عند معبر نهر يكالو **Yikalo**، سرنا فى الطريق الخطأ، فى هذا الجزء من الحبشة، يصبح الطريق مجرد إحساس بالاتجاه، وهنا قام مرشدنا، ذلك الرجل المسن الذى له وجه شبيه بحبة اللوز التى لها حواف شبيهة بفرو الخروف الفارسى، بالتوجه نحو الجنوب بصورة قاطعة، كنت مندهشة، لأنه على الرغم من أن الخريطة لا تبين طريقاً بين المكانين، فإنها أوضحت أن محطة وصولنا، وإن شئت فقل هدفنا، يقع إلى الشرق من عاصمة الراس جوكسا، لم يتضح خطأ الاتجاه الذى سرنا فيه، إلا بعد مضى ساعتين، عندما أثبتت البوصلة والخارطة صدق هذا الكلام، وعندها طلبت من المرشد تفسيراً لما يدور بعد عشر دقائق تكلم خلالها كل أفراد القافلة دفعة واحدة، لكنهم لم يستطيعوا إعفاء مرشدنا أتو ميكيائيل **Atto Miquael** من الخطأ الذى وقع فيه، اكتشفت أن جابرا جورجس كانت لديه آمال فى الحصول على شىء من النقود، سواء أكانت على شكل منحة، قرض أو مبلغ مستحق له عند رجلٍ كان يعيش على ذلك الطريق الجنوبى، هذا يعنى أن جابرا جورجس رشا أتّو ميكيائيل بهدية هى عبارة عن بقرتى التى قال إنها هربت أثناء الليل، لولا تعب وإرهاق البغال إلى أبعد حد ممكن لتحول الغضب الذى اجتاح القافلة كلها إلى مهزلة بعد انكشاف أمر هذه المؤامرة.

صاح أتو بلاشو **Belacho** "إذا ما واصلنا سيرنا بهذه الطريقة فذلك يعنى أننا سنعود ثانية إلى أديس أبابا"، لكن عندما اقترحت العودة إلى يكالو كنت مدفوعة إلى ذلك بأن شيئاً حظيظاً ومحتملاً سوف يحدث. أقسم ذلك المرشد أن طريقه سوف يتحول بعد فترة قصيرة جداً إلى اتجاه الشمال، وراح

يقسم على ذلك مع كل ميل كنا نقطعه فى اتجاه الجنوب، أخيراً، وبعد توقف الطباخ عن تأكيده لى بأن الطريقين يلتقيان بعد التل القادم أو عند المنعطف التالى، أمسكت بيدى على الأمر كله، وحولت اتجاه البغال إلى زاوية قائمة عبر الأرض المحروثة والعشب، ومن خلال الصخور والأشجار القصيرة الكثيفة، وحافظت على استقامة ذلك الطريق بواسطة البوصلة، كان صاحبا البغال يبحثان عند الأفق عن علامة من العلامات الأرضية المميزة، فى حين كان المرشد الحزين، يأسف لانكشاف عمله الوضيع، لأنه يبدو أنه كان مصمماً على تركنا عندما يصل إلى منزل مدين أو مُحسن جابرا جورجس، ثم يعود إلى دبرا تابور متحججاً بأنه لا يعرف الطريق اعتباراً من هذه المنطقة، وعندما لاحظ أتو بلاشو أن البغل الخامس أصيب بالعرج دخل هو الآخر فى النقاش، فى حين قام أتُّو ميكيائيل بإدارة ظهره لنا.

قال: "لن أواصل السير إلى أبعد من هذا المكان، هذه حماقة لقد ضللنا طريقنا". ثم ابتعد عنا، لكنى أرسلت فى إثره اثنين من الزبانية أخبراه أنه سيوضع فى السجن إلى أن يصل بنا إلى قرية على الطريق الصحيح، يزاد على ذلك أن وجود بندقية على كل جانب من جانبيه كان له تأثير كبير على تصرفاته، ولكن من باب التأكد من انصياعه لنا أخذنا منه بغله، وعبده وبندقيته، وأركبناه على واحد من دوابنا، ومع دخول فترة العصر خاب أمل أفراد القافلة كلهم فى بوصلتى.

قال دايويتو **Daiwitu**، المالك الثانى للبغال "البوصلة لا تستطيع أن ترى إلى أين نحن ذاهبون، لأنها ليست حية، كيف يمكن لها أن تساعدنا؟" وبعد ذلك بدقائق معدودات "بحق يسوع.. إنها مسحورة، هذه هى قرية ماشلاّميا **Mashallamia** ألُّو **Allu**".

نظرت إلى القريتين التوأم على تل موجود أمامنا مباشرة، "هل هما على الطريق إلى لالبيلا؟" انعقد بعد ذلك مؤتمر كئيب، قال أتو بلاشو مؤكداً "على أية حال هما ليستا على الطريق المؤدى إلى أديس أبابا".

علمنا بعد إلحاح كبير أننا كنا فى ذلك الوقت فى طريق يمكن أن يصل بنا إلى مقصدنا فى نهاية المطاف، لكن يتحتم علينا المرور من خلال شوشا التى هى فى طريقنا أيضاً، أما ما هى شوشا تلك فى حقيقة الأمر، فهذا هو ما لم نكتشفه.

قال واحد من البغَّالة "شوشا هذه مكان شرير"، "هيا بنا، نُسرِّع مسيرنا لنجتازها قبل دخول الليل"، غمغم جابرا جورجس مكتئباً لكنه لم يكن مكسوفاً أو خجلاً بأى حال من الأحوال "لا،لا، يجب أن نبقى هنا إلى ساعة مبكرة من صباح الغد". كان الجميع غاضبين من المُشَرَّد إلى حدٍ أنهم لم يسمعوا ما قال، وشرعنا فى سيرنا تحت سماء عامرة بالسحب أملاً فى الوصول إلى شوشا ذلك المكان العجيب، عند الساعة الثالثة كانت المراعى قد انقسمت إلى مضايق ووديان عميقة، لها أطراف مدببة ومن فوقها قمم صخرية مسطحة. بعد ذلك بساعة نزلنا إلى أكثر هذه الوديان عتمة وإظلاماً.

قال أتُّو بلاشو: "نحن أمام البوابة". ومن باب إثبات ذلك، طلع علينا من بين الصخور شكل أبيض وطلب الاطلاع على تصريح الجمارك الذى نحمله معنا، كان هو الآخر، مثل بقية زملائه لا يعرف القراءة، لكن الختم الذى كان على التصريح أثر فيه وأشار إلينا بمواصلة المسير.

أبدى ذلك الشكل ملاحظة "لن تعبرو شاشا قبل دخول الليل، كما أنه ليس هناك ماء".

شوشا عبارة عن شبه جزيرة من الصخور، شكلها شبيه بشكل الأخطبوط، وهى تتصل عن طريق ذراع بالأرض المنبسطة الموجودة بعدها، فى حين تمتد سائر الأذرع الأخرى إلى الأخدود الذى يحيط بشوشا، لكنى لا أعرف السبب الذى يحتم اجتياز هذه العقبة، لكن عن طريق المثابرة المؤلمة، كان المسار الذى سلكناه يتلوى طالعاً نازلاً ودائراً حول كل تل من هذه التلال التى تنتشر فيها الصخور المسننة، دخل علينا غروب الشمس ونحن فى حيرة ومرتبكين بفعل تلك المنعطفات الكثيرة، ومفزوعين من احتمال عدم وجود الماء لسقيا الخيول بعد مسير دام عشر ساعات، كانت الأرض مخيفة، نظراً لوجود أعداد قليلة جداً من الماعز أو الماشية ترعى فوق كل بروز من تلك البروزات الجبلية، فى حين كان هناك رف صخرى يعانى من الجفاف. كان العشب محشوشاً وعيدان الذرة مخزَّنة بطريقة أنيقة فوق كل سلسلة من تلك السلاسل الجبلية التى اكتسحتها الريح، ومع ذلك لم تكن هناك أية دلائل أو إشارات على وجود أكواخ أو أى أثر لحياة البشر. وشاهدنا قافلة تضم نحو مائة قرد كانت تتجول خلال ذلك القش، وراحت تتبح ونحن نمر عليها.

قال بَغَّال خائف: "ربما كانت هذه القردة هى التى تفلح الأرض".

رد عليه أتو بلاشو، مالك البغال: "واقع الأمر، أن هذا بلد عجيب، مزارع على كل الجوانب، لكن المنازل لا وجود لها! الناس لابد أن يكونوا هنا مثل الحيوانات ويعيشون فى جحور تحت الأرض".

عندما دخل علينا الظلام كنا قد قطعنا بضع ياردات من الأرض المستوية، الموجودة تحت واحدة من تلك الكنائس المعزولة المحاطة بالأشجار التى تتوج كل ربوة من روابى هذه الأرض التى يحكمها أحد القساوسة. كانت تلك الأرض مهجورة، وكانت الريح تعوى من خلال التلاعب بالقش ومرجحة الصليب إلى الأمام وإلى الخلف من فوق ذلك السطح المصنوع من القش.

خيمنا ونحن مكتئبون، وتحتم علينا إعطاء الماء القليل المتبقى معنا إلى المرافق الذى تصرف بلا تبصر مثل بنى إسرائيل، الذين شربوا كل ما معهم من ماء قبل دخول وقت الظهيرة، كان لدى أنا وجونز نحو ربع كوب من الحليب لكل منا نحن الاثنين، قسنا هذه الكمية بدقة وكنا حريصين عليها تماماً، واحتفظنا ببضع ملاعق منها للصباح، وبينما كنا ندخن ونحاول التظاهر بأننا لم نكن عطشانين، ظهر على المنحدر المقابل لنا شخص غريب يلبس عمامة بيضاء مرتفعة وغطاء رأس مصنوعاً من الجلد، من خلال ضوء القمر ومن خلال الأعشاب الطويلة، بدا لنا هذا الشكل غير حقيقى، ولم أكن متأكدة أنى لم أتخيله إلا بعد أن رأيت تذبذب الضوء ورأيت شكلاً عجيباً يقترب منه، لم يَرُدّ ذلك الشكل على التحية التى ألقيناها عليه، وقبل أن نتمكن من الوصول إليه أطفئت النار واختفى ذلك الشكل.

جاءت أمتع لحظات المساء، عندما عاد حاسن، الذى كان قد ذهب لإحضار علف للدواب، مسروراً وهو يحمل معه جوالاً من عشب الشمبورا **Shimbura** للبغال.

سألته "هل سرقت هذا العلف؟ أم أنك عثرت على منزل من المنازل؟"

أجابنى "لا توجد منازل هنا، وهذا أمر غريب جداً، لقد رأيت رجلاً جالساً بجوار نار فى العراء يحرس حبوبه، سألته: أين كوخك؟" ولم يجبنى، لكنى عندما أعدت عليه السؤال مرات عدة قال: منزلى بعيد، ولم يتكلم بعد ذلك مطلقاً، وعليه أعطيته قبضة من الطلقات، ولذلك سمح لى بأخذ عشب الشمبورا، لكنه لم ينظر إلىَّ مطلقاً.

قلت لحاسن "سأعطيك أى شىء تريده إذا ما ذهبت إليه ثانية وسألته عن مكان وجود الماء".

ارتعدت فرائص حاسن.

ردَّ علىَّ : "أنا لا أجرؤ على فعل ذلك".

راح الزبانية يفتشون عن الماء فى أقرب المنخفضات إلينا، وفجأة سمعنا صيحة انتصار، "ماء"! لكن كانت هناك بضع بوصات على شكل نز خلال الطين، كان السائل بلون البن ولم يكف لملء زجاجة واحدة.

الفصل الخامس عشر

البيلا الحمراء

صحونا فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ودرنا حول أذرع جبال شوشا قبل أن تنتصر الشمس فى معركتها اليومية ضد الضباب، لكن سرعان ما عرفنا أن الجو سيكون حاراً فى ذلك اليوم، ولم تظهر لنا بعد أية دلائل أو إشارات على وجود الماء، كانت هناك كنيسة أخرى تطيل النظر إلينا من عل من فوق شكل مخروطى، لكن تلك الكنيسة كانت خالية؛ لكن على الرغم من أن القمح والماشية كانا يشكلان مشكلة محيرة، لم نر منزلاً أو أحداً من البشر باستثناء قرد من قردة البابون، إلى أن وصلنا "البوابة" البعيدة لذلك الجبل الغريب، وهنا بدا لنا شخص من بين الصخور والتراب وألقى نظرة على التصريح الذى نحمله وقال بلا مبالاة: "الماء على بعد مسير ساعة من هنا"، ثم يختفى ذلك الشكل بعد ذلك داخل آخر رقعة من رقع الضباب.

كانت الأرض المستوية عبارة عن حشائش ناعمة، وفى بداية الأمر كانت كل مجموعة من الأجمات توحى لنا بأمل العثور على ثقب من ثقوب الماء، التقينا كثيراً من المسافرين سيراً على الأقدام أو راكبين البغال، وكانوا جميعا يطيلون النظر إلينا ويقولون بطريقة غامضة: "هناك نهر فى الأمام، ليس ببعيد"، أو "ستعثرون على الماء فى غضون ساعة على أكثر تقدير،" كان قد مضى أكثر من أربع وعشرين ساعة على آخر مرة سقينا فيها الدواب، وفى حرارة الشمس الحارقة راحت الخيول والبغال تتباطأ فى الخلف، خافضة رءوسها، ومتأرجحة أرجلها، وضعفت همة البغال؛ الأمر الذى حتم علينا تغيير الأحمال مرات عدة، فى حين استبد العطش بالرجال حتى أن أحداً منهم لم يتكلم طوال ثلاث ساعات.

لم نعثر مطلقاً على النهر طوال ذلك اليوم، لكننا وصلنا بعد مسير ست ساعات، إلى ثقب من ثقوب المياه تحت رف من الرفوف الصخرية، ألقت البغال بنفسها فى ذلك الثقب، مستخدمة أحمالها كروافع فى بداية الأمر، ثم استخدمتها بعد ذلك كحاجز صلب، كانت الخيول ستشق لنفسها عنوة طريقاً خلاله مستخدمة فى ذلك أسنانها وحوافرها لولا تدخلنا لمنع حدوث ذلك، واصلنا طوال الفترة المتبقية من فترة العصر، مسيرنا فى أرض منبسطةٍ، وبفضل استعمالنا للبوصلة من ناحية وسيرنا فى المسار الذى حذرنا أتُّو ميكيائيل العجوز، من أنه ليس هو المسار الصحيح، استطعنا الوصول إلى حافة الصخرة الكبيرة الموجودة أعلى وادى جرًّا جرًّا Garra Garra. نزلنا إلى ذلك الوادى عن طريق حلزون حجرى، وبحلول الساعة الرابعة، كنا قد اجتزنا آخر رف من الرفوف الصخرية المدهشة، الذى جعلنا ننحدر انحداراً مباشراً استمر مئات الأقدام إلى أن وصلنا إلى أرض فيها قرى صغيرة والحقول الصغيرة تنتشر فيها الصخور والماعز انتشاراً كثيفاً، أمضينا فى تالجا Talga ليلة بائسة بفعل ملاحظات السكان الودودين الذين قالوا لنا: "إننا شاهدنا جزءاً كبيراً من هذا البلد" أو "أننا قمنا بمسيرة عجيبة"، ومن باب مواساتنا والتعاطف معنا قدموا لنا الدجاج وبيضا غير طازج، كان صيام الأيام الأربعين مسئولاً عن إصابة هؤلاء البشر بالامتلاء الدموى!.

غادرنا تالجا، العامرة بالشحاذين، والجراد والطيور الصغيرة صغر الفراشات ذوات اللون الأزرق المعدنى البراق، وكنا عاقدين العزم على الوصول إلى لالبيلا عند غروب الشمس، كانت البغال تقتات طول الليل على عشب الشمبورا والشعير، ومن هنا راح صاحبا البغال يستحثانها على المضى قدماً عبر أرض جبلية وعرة، كان نصف مجاريها المائية جافة، وكان العشب المحروق أبيض اللون، وكان فحيح الأفاعى يصدر من الشقوق فى الأرض الجافة التى يصل اتساع الشق فيها إلى بوصات عدة، كان السواد الأعظم من الأشواك ذات لحاء قرمزى اللون، وكانت الأشواك الوخاذة تبدو فوق هذا اللون الأحمر العجيب كما لو كانت مسحوقاً من الفضة، شاهدنا طيوراً ضخمة سوداء اللون شبيهة بالديوك الرومية إلى حد ما، كما شاهدنا أيضاً العديد من حيوانات ابن آوى، وعدداً لا يحصى من فئران



من مستوى الأرض فى لالبيلا، صورة توضح الممرين خلال الصخر...

الحقول، التى كان لها جحور متعددة مما جعل الأرض فى بعض الأماكن شبيهة بقطعة الإسفنج.

كان اليوم مصادفاً ليوم السبت، وعليه كان يجرى نقل الملح والخرطوش والجلود على الطريق، لحق بنا رجل كان يرتدى جلد فهد، والرأس يتدلى من كتفه، وكانت جدائل شعره مدهونة بالزبد. وضح أتو بلاشو ذلك بقوله: "هذه إشارة إلى أن هذا الرجل قتل هذا الوحش باستعمال الرمح. فى زمن والدى كان الرجل لا يمسح نفسه إلا إذا قتل أسداً بحربته، لكن هؤلاء الناس يتباهون بأشياء صغيرة!"

ظللنا طول اليوم نسأل كل من نلقاه "هل يمكننا الوصول إلى لالبيلا هذه الليلة؟" وإذا ما كانوا سعداء كانوا يردون علينا، "طبعاً، إنها قريبة". أما إذا كانت أقدامهم متورمة أو كانوا مُتعبين فقد كانوا يقولون لنا "إنها تبعد عن هنا مسير يومين". ظلت سلسلة من الصخور المستوية السطح طولها نحو ١١٠٠٠ قدم تسد الأفق أمامنا، حاولنا الاقتراب من هذه السلسلة عن طريق عبور منطقة بعد أخرى، كانت تعد أقزاماً قياساً على تلك السلسلة؛ وكنا نتطلع دوماً إلى أن يكون هدفنا واقعاً على بروز واضح من بروزات هذه السلسلة المستوية من الصخور، عندما بدأ اللون يتحول إلى لون نحاسى مؤذناً بدخول المساء درنا حول جانب جبل بيفو، وبعد حصيلة من الوعود الكاذبة: "النهر قريب، أمامكم"، وصلنا إلى نهر التكازى Takkazye العظيم، كان مجرى ذلك النهر عبارة عن ملاءة من الأحجار، وفيه نهيرات عدة تنساب خلال أعمق القنوات، كانت هناك خلف ذلك النهر أرض من التلال الحمراء والأشجار الحمراء، وكان هناك على مبعدة منا، جبل على شكل قلعة بدأ الظلام يخيم عليه بالفعل، خرجنا من ذلك الذى يعد فى موسم الأمطار سيلاً جارفاً عرضه حوالى ٢٠٠ ياردة؛ وفى بطء شديد صعدنا متجهين صوب القمة الصخرية لازوردية اللون، أسفل السيل، كانت هناك بعض الروابى، أو ربما الأشجار؛ قال رجالنا: "لالبيلا موجودة خلف هذه الروابى أو الأشجار".

ظهر لنا ثلاث قرى على تلال صغيرة اكتست ملاءة من الورد الجبلى الشوكى؛ وبدون موافقة كلامية تحولنا إلى شريط من الأرض المحروثة أسفل هذه القرى، هنا، وفى هذه المنطقة التى خلت الأرض فيها من خناجرها

نصبنا خيامنا قبل أن تهب علينا واحدة من العواصف الهوجاء، تبلغ قوة الماء فى هذه المناسبات حداً تستطيع معه تسوية كل شىء بالأرض اللهم إلا إذا كانت تلك الأشياء مدعمة بحبال مزدوجة وأوتاد مزدوجة أيضاً.

بدأنا تحركنا فى صباح اليوم الخامس من مغادرتنا دبرا تابور، عند الساعة الخامسة والنصف، ونحن عاقدون العزم على مشاهدة لالبيلا أو الوفاة؛ ركبنا دوابنا، متناسين المسارات التى كانت تستهزئ بنا بفعل تعرجاتها اللولبية، وتركنا القافلة وراءنا، وتسلقنا آخر سلسلة من السلاسل الجبلية، سيراً على الأقدام، وعندما نظرنا إلى الأسفل من الجانب البعيد، رأينا عبر الوادى الأكواخ التى جعلناها هدفاً لنا منذ البداية، كانت تلك الأكواخ مجمعة على رقعة من الحجر الرملى أحمر اللون فيها مجموعة من الأشجار مما يؤكد القحولة الشديدة للأرض المحيطة بتلك الأكواخ.

تأوه حاسن "لا تزال تبعد عنا مسير ساعات" لكننا عثرنا على مسار كان يتلوى فوق منحدر وعر مثل سحلية من السحالى، مندفعاً نحو الأغوار، وصاعداً فوق الصخور، إلى أن وصلنا إلى آخر مطلع من المطالع الحمراء، فى المناطق المتجاورة كانت القرى منتشرة على رواب عدة وقد وصل عددها إلى ما يقرب من ٥٠٠ قرية، لكن الكنائس الشهيرة الشّبيهة بالكهوف تبدو وكأنها منحوتة من التلة المركزية نفسها.

تجاوزنا هذه الكهوف، وألقينا نظرة خاطفة على السقف المنحوت مستوياً مع سطح الأرض والمحاط بفناء محفور فى الأرض كما لو كان خندقاً.

قلت: "ليس فى هذا المكان أى شىء من النباتات، وإذا أردنا لمالكى البغال ألاَّ يقتلونا فما علينا إلا أن نبحث عن الشعير".

تجولنا بين مجموعات الأكواخ بحثاً عن الشعير، ولكن كالعادة، كان رئيس القرية غير موجود، ولم يرغب أى أحد من السكان فى بيع أى شىء لنا سوى قليل من البيض ودجاجة واحدة، أخيراً، عثرنا على شخص، تأثر بلون المظروف الأزرق الفاتح الذى وصلنا فى إتشيجو Itchegue لم يتمكن من قراءة العنوان المكتوب على المظروف، وأخذنا إلى كوخ مكون من طابقين كان الأطفال، والنساء والماعز تطل علينا من طابقه العلوى وهى تتحرك بخفة ومهارة مثل السناجيب، ومن بين جمع من النظّارة الحرانين والمدهونين بالدهون، تقدم رجل شديد السواد وراح يدرس خطاباتنا من كل الزوايا

الممكنة، وكان الوضع المفضل عنده هو وضع الرسالة وهى مقلوبة رأساً على عقب، وأكد لنا أنه عندما يتيسر أحد يقرأ هذه الرسائل، فسينتج عنٍ ذلك تقديم الشعير على الفور، تسلقنا فى شىء من الشك والتردد، تلاً قاحلاً على نحو بدا معه وكأنه حليق، وجلسنا على قمة هذا التل انتظاراً لوصول القافلة.

بدأنا نحس بالقلق بعد مرور ساعة من الزمن، وبعد ساعتين جاءنا زبانى يرتدى ثياباً مهلهلة وبلا مظلة (شملة) أو بندقية.

ترجم حاسن ما قاله الزبانى ترجمة غير أمينة "هناك معركة، لقد ضاعت ملابسهم، هناك رجلان مخموران. وسَكِر أربعة آخرون أيضاً". ودخل حاسن بعد ذلك فى جدال عنيف مع ما بعد آخر تذكار لجيشنا، خطر ببالى أن مررت على خيالين كانا مخمورين إلى حد أنى حسبت أنهما سيسقطان من فوق سرجيهما فى أى لحظة، وكان هناك اثنان مسلحان من حثالة القوم يجريان خلفهما.

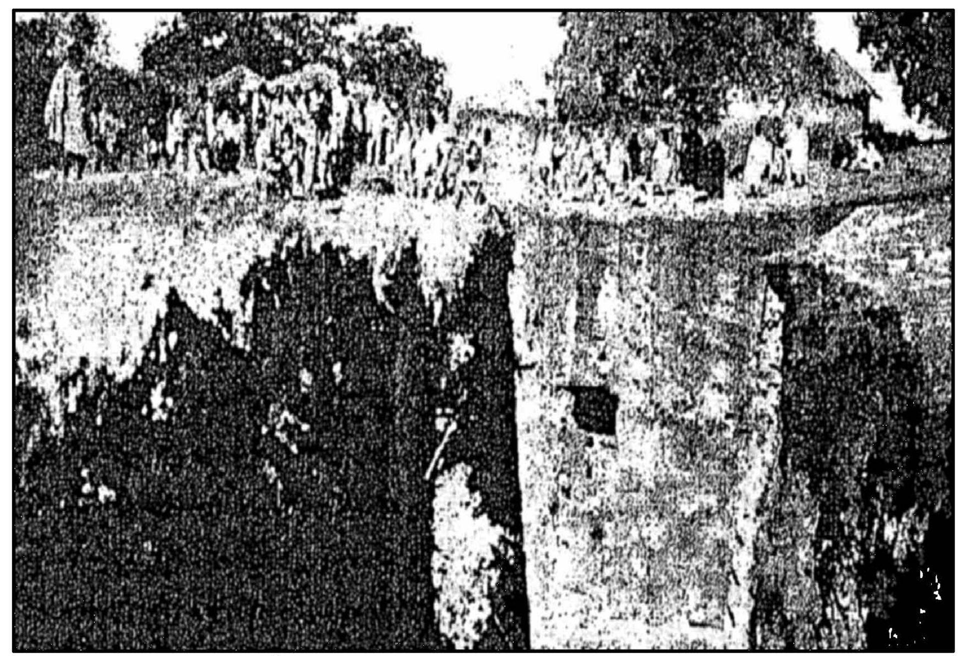
عند هذا الحد كان حاسن هو والزبانى قد بلغا من الانفعال حداً قد يجعلهما يمسكان بخناق بعضهما فى أية لحظة، وهنا تحتم على أنا وهارولد جونز أن يمسك كل منا بواحد منهما ويرجه رجاً عنيفاً قبل أن نحصل على تفسير لما جرى، استطعنا أخيراً، وبفضل تكرار الأسئلة، التى كانت تتخللها هزات عنيفة، اكتشاف أن الزبانية سخروا من السِّكِّيرين، الذين قامت حاشيتهم على الفور بالهجوم على المستهزئين، اختلط الحابل بالنابل فى العراك، الذى جرى فيه استخدام البنادق واستخدام الهراوات، اشترك الغرباء العابرون فى العراك دون أن يكون لديهم أدنى فكرة عن سببه، كان رجالنا، بحكم أنهم كانوا الأقل عدداً، على وشك أن يفقدوا بنادقهم التى اعتبرها الطرف الآخر غنيمة مبررة، لولا وصول مالكى البغال اللذين كانا مسلحين بركائز الخيام، فى اللحظة المناسبة ومشاركتهما فى العراك.

سألت حاسن وأنا أمسك به كما لو كان لعبة من الألعاب النارية على وشك الانفلات فى أية لحظة "حسن، قل لى ماذا حدث فى النهاية؟"

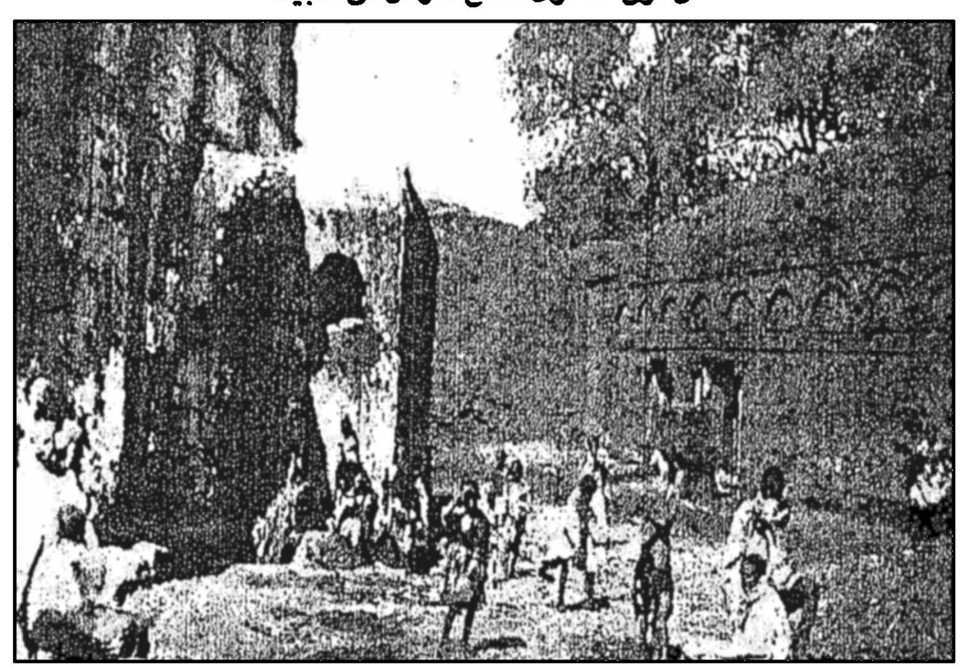
صاح الاثنان "لا يزال العراك مستمراً، هم على بعد مسافة كبيرة! والأحباش كلهم يجرون إلى مكان الحادث!"

لم يكن هناك مبرر للكلام بعد ذلك.

"هيا يا هارولد جونز، سننزل هذا الرجل عند منزل شوم Chum كيما نحصل على شىء من المساعدة ونحن ذاهبون إلى مكان الحادث".



من فوق مستوى سطح الأرض فى لالبيلا.



النظر إلى غدير حول المساكن الصخرية

"كان وُلدو سيلسى قد أحضر حصانين بالفعل، كان الحصانان لامعين، ومعهما مسدسات إضافية، أعطينا واحداً منها لسائسنا، وكنا مستعدين للقيام بحملة إنقاذ، كانت حملقة خمسين طفلا من الأطفال الصغار تلاحقنا إلى قمة الصخرة، التى التقى عندها أول بغال القافلة الصاعدة هارولد جونز، بشكل مفاجئ وغير متوقع إلى حد أنه كاد يسقط من فوق سرج الحصان!"

كان الرجال منتصرين على الرغم من تلوثهم بالطين، لأنهم تمكنوا من دحر بعض الأعداء الذين تزايد عددهم، وكانت الخسائر عبارة عن ثلاث مظلات جرى تمزيقها أثناء العراك، بعد ذلك، وعندما بدأ يهطل مطر فترة العصر المعتاد وبعد أن تحول ذلك المطر إلى عاصفة هوجاء، تعذر معها على الحبال والقماش تحمل ذلك الشد والتوتر الناجم عن العاصفة، وبعد أن تحتم علينا الرقود أرضاً فى أكياس البراغيث أسفل خيام منهارة بسبب العاصفة، كان الأفراد الذين لا ملابس لهم يتعجبون ما إذا كان النصر الذى حققوه مساوياً لهذا البرد القارس.

كانت تلك أقسى الليالى التى مرت بنا، لأنى لم أحس مطلقاً حتى فى المناطق الاستوائية بقسوة الماء على هذا النحو، كان الماء من حولنا شبيهاً بجدار صلب، ولم يقو أى أحد منا على اعتراضه أو تحمله، سرعان ما ابتلت أكياس البراغيث هى وقماش الخيام ابتلالاً تاماً، وبعد ما يشبه فترة لا تذكر من الزحف فى الظلمة الرطبة، هبت العاصفة، وغرق كل ما كان تحت ركائز الخيام الساقطة، فى الماء، بل إننا نضحنا ماءً ارتفاعه نحو بوصتين من تحت الفرش الموضوع على الأرض، هذه الريح التى جاءت لإنقاذنا كانت سبباً فى خسائر أكثر من تلك التى أصابتنا بسبب المطر، لأنه على الرغم من فلاحنا فى نصب الخيام أثناء هبوب هذه الريح، فإن خيمتين أو ثلاثاً تمزقت خلال الساعة الأولى وأمضى جونز القسم الأكبر من الليل فى دق الأوتاد، بعد أن قمنا بتجفيف محفتى قدر المستطاع، وبعد أن كوَّمنا فوقها كراسات الملاحظات والخرائط، جلست فوق هذه الأشياء، وأنا أرتدى كامل ملابسى، وملفوفة بكل قطع القماش التى وصلت إليها يداى، بما فى ذلك الفوط، لكن النوم كان أمراً مستحيلاً، إلا بعد أن توقفت الريح قبل طلوع الفجر بفترة وجيزة.

طلع النهار علينا ونحن متعبون وفينا ضروب مختلفة من الإصابات والأوجاع، أرسلنا القافلة بصحبة الرجل الوحيد الذى كان مستعداً للسير فى طريق مختصر إلى جندار Gondar، ثم نزلنا إلى الأسفل إلى القرية التى تخفى أكواخها كنوزها الأرضية إخفاء تاماً، مررنا ونحن فى طريقنا إلى القرية على صبى كان يجرى ورأسه وكتفاه منحنيان إلى الأمام، ويتأرجح بطريقة عجيبة.

قلت: "انظروا، إنه أعمى!" لكن حاسن رد علىّ "إنه مخمور" إلى أن فهم حاسن معنى الجمهور الذى كان يجرى خلف هذا الصبى.

بقوا على بعد مسافة محترمة، وكلهم فضول لمراقبة ما يجرى، لكنهم كانوا على استعداد للتفرق إذا ما اقترب الصبى منهم.

قال حاسن: "إنها لباسكيا"(☆)، وراح يشرح بطريقته المشوشة المعتادة، لكنى سبق لى أن قرأت وسمعت شيئاً عن هذه الطريقة الشعبية فى إلقاء القبض على المجرمين، دون أن تتاح فرصة مشاهدة ما يجرى خلالها، الأمر الذى جعلنى أواصل سيرى ولا أنتظر لسماع أى شىء.

كان الصبى يتحرك بطريقة الضِّباع وكانت يده موضوعة بين كتفيه وهو متردد بجوار سور المجمع السكنى، امتدت يداه وكأنهما ستمسكان بشئ معين، ثم كتم أنفاسه على طريقة زمجرة الكلاب، واستدار وراح يجرى خلال الفتحة، مقترباً منى إلى الحد الذى تمكنت معه من رؤية شئ من الزبد حول طرفى فمه، كان مفروضاً أن أتابع ما يجرى، لكن امرأة من داخل القرية صرخت واندفع الجمع مثل الكلاب عندما تشم رائحة نتنة.

أعلن وُلدو جورجس فى شىء من الارتياح "لقد أمسكوا باللص!" يجرى قراءة الرُّقى والعزائم على مثل هذا الصبى، فى الوقت الذى يقوم فيه كل من يشهد هذا العمل بلمس تميمته بإصبعه ويروح يدعو بصوت خائف ومسموع، وهنا، وعندما يكون الصبى تحت تأثير المخدر يتخيل النحو الذى ارتكبت به الجريمة ويروح يقتفى أثر المجرم شريطة ألا يكون قد عبر الماء، لأن ذلك يفسد الرقية أو العزيمة، هذا الصبى يعرف، بطبيعة الحال، ذلك الذى ينبغى عمله قبل أن يستنشق الخلطة، ويجب أن تظل معه هذه المعرفة، فى اللاشعور، فى أضعف

☆ لباسكيا Libascia : كلمة امهرية، تعنى إلقاء القبض على المجرمين المعروفين. (المترجم)

الأحوال، ليكون مسئولاً،على الأرجح، عن كثير من حالات إجهاض العدالة، ونقلاً عن الراوى المطلع الذى لقيته فى لالبيلا، فإن هذا الطقس لا يمارسه الصبى سوى مرة واحدة، وإذا ما ثبت أن الصبى موضوع جيد فى هذا الصدد، فإنه يقوم من جديد بإعادة وتكرار حركات المجرم هذه، ويسلك الطريق نفسه الذى هرب منه، إلى أن تطرد أنفاسه ويتعرق، وعندها يقوم بالإمساك بملابس المتهم، ويقوم بدفن وجهه فى هذه الملابس وهو يتأوه.

لم نتوقف لنرى نتيجة اندفاع هذا الوسيط المفاجئ خلال مجموعة الأكواخ، نظراً لأننا كنا مرتبطين بزيارة القديسين العديدين الذين تقع منازلهم أسفل سجادة الأكواخ الشبيهة بعيش الغراب.

لم يزر كنائس لالبيلا الصخرية سوى نفر قليل من الرحالة الغربيين، ومع ذلك فإن هذه الكنائس تندرج ضمن أعظم عجائب الدنيا؛ يزاد على ذلك أن أساطير الإنشاء الإعجازى لتلك الكنائس، وأن الشفاء العجيب الذى تجلبه أيضاً هذه الكنائس بفضل مجرى الجوردان Jordan الصغير الذى يسقى هذه الكنائس، جعلا لهذه الكنائس على مر العصور، مكانة عند المسيحيين الأفارقة مثل مكانة مكة (المكرمة)، يعد الآب الفاريسى Alfarez، ذلك القس اليسوعى، الذى رافق الحملة البرتغالية على الحبشة فى الفترة من ١٥٢٠ - ١٥٢٧، أول أوروبى يرى هذه الكنائس، وبعد أن وصف هذا الرجل تلك الكنائس وصفاً دقيقاً، بدأ يدرك، احتمال عدم تصديق عالم العصور الوسيطة، لذلك الوصف من ناحية والعجائب الغريبة الداخلة فى روايته، مما جعله يردف قائلا: "أنا أحس بالقلق كلما حاولت كتابة المزيد عن هذه الكنائس، نظراً لأنى أحسب أن الناس لن يصدقونى إذا ما كتبت المزيد عن هذا الموضوع، ونظراً أيضاً لأنهم قد يصفون ما كتبت بأنه غير حقيقى، وعليه فأنا أقسم بالله، الذى أستمد قوتى منه، إن كل ما كتبته هو صدق، وأن هناك أيضاً ما هو أكثر مما كتبت وأنى تركت ذلك حتى لا يتهمونى بالزيف والغش"(✯).

✯ المرجح ان توماس دى جانجت، وهو من الرهبان الفرنسسكان، زار لالبيلا فى العام ١٥٢٢ او ١٥٢٣. "توجد فى اوروار Uruwar اثنى عشرة كنيسة، وبعض الرهبان، كما يوجد ايضاً قبر الملك المقدس لالفريكا Lalfreca، هذا مكان مهم من اماكن الحج، كستاوبوزو Castauboso، مؤرخ الحملة التى قام بها دون كريستوفيرا دا جاما Don Christofera da Gama، والتى غادرت مسّاوا Massaua فى العام ١٥٤١ لمساعدة النجاشى Negus فى حروبه ضد الغزاة المسلمين بقيادة امير هرر، الإمام احمد الجران، يصف ايضاً وصوله إلى "جبل اثنى عشر معبداً من معابد الرهبان او الكنائس التى يعيش فيها رجال الدين".

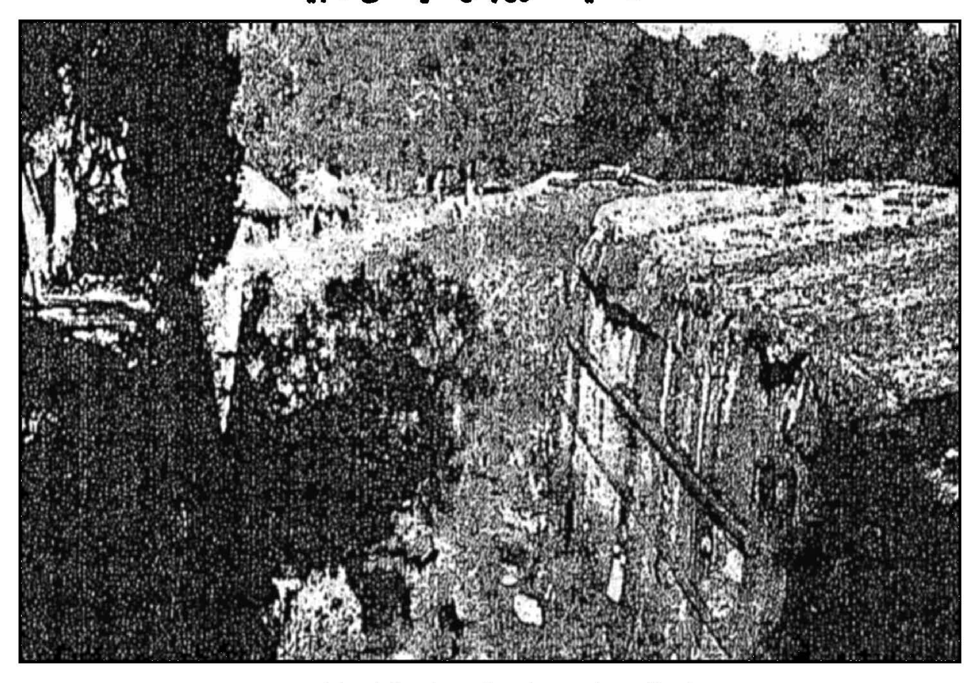
نسى الغرب لالبيلا، طوال ثلاثة قرون بعد الحملات البرتغالية، بعدها قام القنصل الفرنسى فى مسَّاوا، آكيل Achille رافراى Raffray، ومعه جبرائيل سيمون، الذى كان ضابطاً خيالاً من قبل، قاما باختراق جبال لاستا Lasta Mountains، وترك كل منهما تسجيلاً لتلك المدينة فى كتب نشرت فى العام ١٨٨٢ و ١٨٨٥، جاء بعدهما المستكشف الألمانى الشهير، لكن لم تأت أية قوافل غربية أو أمريكية، إلى أن قام الوزير الفرنسى فى أديس أبابا السيد/ دى كوبيت Coppet، هو وزوجته بالمرور خلال لالبيلا وهما فى طريقهما إلى إريتريا فى العام ١٩٢٣، ومن بعدهما جاء هارلان Harlanالأمريكى، ومن بعده هارولد جونز ثم أنا من بعده.

تُعزى بشكل عام الكنائس الصخرية فى لالبيلا إلى ملك يحمل الاسم نفسه، جاء حكمه فى أواخر القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر، لكن الأساطير ومعتقدات القساوسة والناس تعزو وجود تلك الكنائس إلى سبعمائة عام قبل ذلك التاريخ، نقلاً عن بعض المصادر فإن الملك لالبيلا كانت له زوجة عربية تزوجها عندما قام بالحج إلى مدينة القدس، جلب لالبيلا عند عودته العديد من العمال الفلسطينيين، الذين عهد إليهم ببناء هذه الكنائس الصخرية، التى رأى فى منامه مواقعها، القساوسة، لديهم على الرغم من ذلك، مخطوطات بلغة الجعزَّ، وباللغة العربية، وباللغتين معاً، ستثبت، إذا ما اتضح أنها صحيحة، إن مبانى تروجلودايت لها تاريخ أبكر بكثير عما هو سائد فى لالبيلا حالياً.

تقول بعض الروايات إن العمال الستمائة كانوا مصريين، ولم يكونوا عرباً، لكن المصادر المحلية كلها تتفق على أعمال حفر الكتل الواحدة الكبيرة وقطعها من الأرض، ثم حفر النوافذ بعد ذلك، هى والأبواب، والعقود، وكذلك الممرات والأعمدة من الصخر الصلد، تعد كبيرة جداً على الجهد البشرى، وعليه، فإن فيلقاً من الملائكة، كانوا يأتون فى الليل أثناء نوم النحاتين والبنائين، ويروحون يستعملون عددهم ويواصلون العمل فى الظلام، وترتب على ذلك أن العمال كانوا يجدون كل صباح، عاموداً كبيراً قد أضيف إلى الواجهة، أو البدء فى عمل حوش جديد. وعليه كان ضيوف السماء، والغرباء من كل من النيل أو الأردن يعملون بالتناوب طوال سنوات، من هنا، بدأت تكتمل كنيسة بعد أخرى



مدخل كنيسة تروجلو دايت فى لالبيلا



ميدان اليم، اكبر كنيسة صخرية فى لالبيلا...

فى ضوء الشمس وفى ضوء النجوم، كتل وحيدة، كل واحدة منها منحوتة من كتلة منفردة من الصخر، ليست تحت مستوى سطح الأرض وإنما فى مستواه.

كل فناء أو حوش فى تلك الكنائس عبارة عن حفرة مستطيلة الشكل عمقها نحو أربعين قدماً، وفى وسط هذا الفناء مستطيل الشكل توجد الكنيسة، التى توحى خطوطها بالهيبة التى تؤكدها البساطة الجريئة للنحت والزينات، الأرض الموجودة حول الكنائس بصورة ملاصقة، مُسَوَّرة بسياج من عيدان القصب، وتمتد أكواخ القساوسة إلى أن تصل إلى حافة الأحواش الغائرة، التى تتصل أحياناً ببعضها البعض عن طريق خنادق منخفضة لا يستطيع الإنسان السير فيها منتصب القامة، الجدران الطبيعية التى بين اثنين من هذه الخنادق يصل سمكها إلى ما يتردد بين ١٥ و ٣٠ قدماً، والمرء إذا ما وقف على قمة كنيسة من هذه الكنائس، يتولد لديه انطباع عن العمل الذى أنفق فى هذه المتاهة من الممرات، والأحواش، والمداخل الكنسية، وأبهاء الأعمدة المحفورة فى الصخر، كما يستطيع أيضاً مقارنة علامات الفترات المختلفة.

يعزو آكيل رفرارى الذى اطلع على التسجيلات والسجلات، والتى قام بترجمتها كلها، إنشاء كنائس لالبيلا كلها إلى القرن الخامس الميلادى.

كان الملك نجاشى لالبيلا، الملك المسيحى النجاشى الخامس، وثالث الملوك الذين حكموا لالبيلا، هو الذى أمر ببناء هذه الكنائس، كان الملكان اللذان جاءا قبله قد حكما أكسيوم Axum. وكان القديس فرومنتيوس Frumentius هو الذى نصَّر الحبشة وبشر فيها بالإنجيل فى مطلع القرن الرابع الميلادى، وكان لالبيلا هو النجاشى المسيحى الخامس فى لالبيلا، والمرجح أن فترات الحكم كانت طويلة فى تلك الحقبة؛ تقول الأساطير والمخطوطات إن مائة عام مضت على خمس ممالك، وبناء على ذلك يمكن القول إن إنشاء هذه الآثار كانت فى بداية القرن الخامس(☆).

يشير السيد/ آكيل رفراى أيضاً إلى أن الملك استخدم أربعمائة أو خمسمائة عامل أوروبى، وتشير مخطوطة أثيوبية قديمة إن هذا العمل أنجز بواسطة رجال بيض، وهناك مخطوطة أثيوبية أخرى تورد الوصف التالى

☆ هذا الكلام مترجم عن كتاب آكيل رفراى "ترحالى فى الحبشة وفى بلاد الجلا".

لعمل ذلك الملك: أمضى لالبيلا ثلاثة أيام فى وجد وسرور؛ فقد كشف له ملاك الرب أسرار السماء، قال: "بمشيئة الله، أذهب وأبنى عشر كنائس يحصل فيها الخطاءون على العفو". نهض، وحكم، وبنى كما قال له ملاك الرب. صنع من حجر واحد فى البداية منزل مريم، ثم بنى بعد ذلك دبرا سينا Sina؛ وعن يمين دبرا سينا أقام جولجوثا Golgotha، وأقام منزل مسكال (الصليب) عن يسارها، ثم أقام كنيسة ميدان آلم، ومنزل دناغل Danaghel (العذراء)؛ الجدران والأعمدة كلها من الحجر، بنى الملك أيضاً منزل جبريل Gabriel ثم بنى بعد ذلك منزل ليبانوس Libanos. جدار هذه المبانى كلها واحد، وبنى أيضاً منزل ميركيورى(☆)، ثم بنى بعد ذلك منزل إيمانويل وأحاطهما بجدار، وبنى على انفراد منزل جورج، ولم يفعل ذلك الملك شيئاً إلا طبقاً لما أمره الرب به.

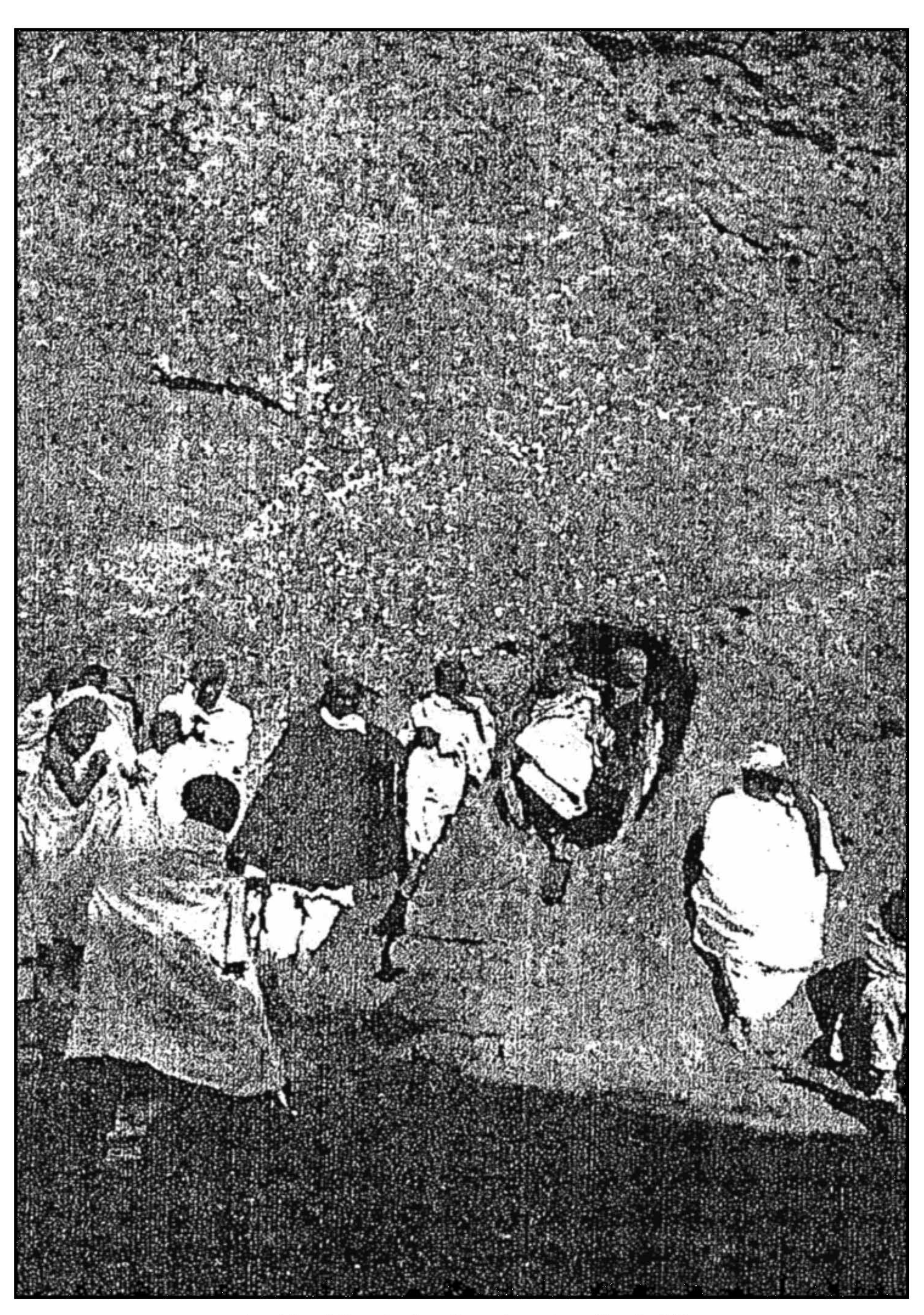
لا تزال هناك مخطوطة فى لالبيلا، فيها صفحة واحدة مكتوبة باللغة اليونانية، واللغة العربية، ولغة الجعِزّ، وهذه الوثيقة التى تعطى الكنائس، والمدينة، والأرض المحيطة بها إلى الرهبان إلى أبد الآبدين، وهذه الوثيقة تحكى أيضاً عن مولد الملك لالبيلا(☆☆) وسلالته النسبية، وقد دام حكمه "أربعين عاماً، كان غذاء هذا الملك هو الزنجادا Zengada وثلاث لقمات من الأونت Onet لم يثبت مطلقاً أنه أخذ لقمة رابعة. فى سن السابعة تعلم القراءة دون أن يلحن فيها؛ بعد عشر سنوات من تتويجه ملكاً كان قد بنى إحدى عشرة كنيسة، أنجز خندقاً واحداً أثناء النهار وصنع له الملائكة أربعة أثناء الليل، وصل ذلك الملك إلى سن السبعين وأنهى كل ما بناه خلال عشرين عاماً".

وهناك أيضاً مخطوطة أخرى تقول:

خلد إلى الراحة، فى اليوم السابع عشر من شهر يونيو، التأمل المبارك للأسرار السماوية، لالبيلا، إمبراطور الحبشة، عندما ولد هذا القديس، علمه والده خشية الله والخوف منه، وعندما كبر وأصبح شاباً، قيل لأخيه

☆ إله عند الرومان يقابل هرمس عند اليونان (كان رسول الآلهة). (المترجم)

☆☆ كان لالبيلا ملكاً من الزاجيوس Zagues، تلك الأسرة المالكة المغتصبة التى لا يعرف عنها الكثير، وُلد هذا الملك فى روها Roha فى لاستا Lasta.



نفق فى الصخر يؤدى إلى الكنيسة فى لالبيلا

الإمبـراطور إنه سـوف يمتلك إمبـراطوريتـه ويجلس علـى عرشـه، وغضب الأخ وزاد حسـده، وأرسل فى طلب هذا القديس وأمر بجلده بالسـوط؛ لكن شـرائط السـوط لم تلمسـه، إذ خلصـه مـلاك الـرب، وهو الملاك الذى كـشف لـه أنه سوف يتعين عليه بناء عشر كنائس، وأنه سيخلد إلى الراحة بعد الانتهاء من بنائها.

يحدد سالت Salt العام ١٠٩٥ الميلادى تاريخاً لبناء الكنائس الرئيسـية، أما سايمون الذى رافق حمله رفرارى، والذى يشترك معه فى أنه كان أول أوروبى بعد الفارز Alvares فى القرن السادس عشر، يقوم برؤية لالبيلا؛ هذا الرجل يؤكد أن العمل فى تلك الكنائس بدأ فى زمن البيـزنطيين فى القـرن الخامس، وأن الفنانين العـرب واصلوا هذا العـمل خـلال القـرنين السـابع والثـامن، وتم الانتهاء من هذا العمل فى القرن الثانى عشر بواسطة الملك لالبيلا.

الكنائس مقسمة إلى مجموعتين مميزتين، وتضم المجموعة الأولى كنيسة مـريم العـذراء، ميدان آلم (منقـذ العـالم)، مسكال (صليب)، وأخيراً جولجوثا وميكائيل (وهما كنيسـتان مـحفورتان فى صـخرة واحدة، أما المجموعة الثـانية فتضم كنيسة جبريل، ليبانوس، مبـركيريوس أما ماركويوس وعمانويل، وكنيسة القديس جورج فتقف لوحدها).

هناك مخطوطة عربية تتكلم عن الحملات التى قام بها الإمام أحمد على الحبشة المسيحية، وقد وردت العبـارة التـالية فى تلك المخطوطة، والخـاصة بالملك لالبيلا، أعد أحمد التجهيزات اللازمة لدخول بلاد التـجرى Tigré .... ثم علم بعد ذلك أن عبدة الأصنام قد تجمعوا بالقرب من الكنيسة التى تدعى لالبيـلا، هاجـمهم أحـمـد عـبـر الجـبـال وسلك طريقـاً صـعـبـاً فى ظل المطر المستمر: مات رجال أحمد بسبب البرد القارس، وصلوا إلى الكنيسة، التى تجمع الرهبان فيها ليموتوا دفاعاً عنها، عاين إمام أحمد الكنيسة ووجد أنه لم ير نظيراً لها مطلقاً من قبل. كانت الكنيسة منحوتة فى الصخر، وكذلك كان حال الأعمدة الحاملة لهذه الكنيسة، لم يكن فى الكنيسة قطعة واحدة من الخشب، اللهم باستثناء الأصنام التى كانت داخل أضرحتها، كانت هناك أيضاً حفرة مقطوعة من الصخر وجمع الإمام الرهبان كلهم وأمرهم بجمع الخشب وإحضاره، وأضرمت نار كبيرة، وعندما اشتد لهب النهار، قال الإمام

أحمد للرهبان "هيا، ليدخل واحد منا وواحد منكم إلى هذه النار" رغبة منه فى الوقوف على ما سيفعلون ومن باب اختباره لهم، وهنا قال رئيسهم "على الرحب والسعة، سوف أدخل أنا"، لكن امرأة كانت تسلك طريق الدين وحياته نهضت وقالت: "إنه هو الذى يشرح لنا الكتاب المقدس، هل سيموت هنا أمام عينى؟" ثم ألقت هى بنفسها فى النار، صاح الإمام «أخرجوها.. أخرجوها من النار».. لكن قسماً من وجهها كان قد حُرق، ثم قام الإمام بعد ذلك بتحطيم أصنامهم الحجرية، وأخذ الأطباق الذهبية كلها والمنسوجات الحريرية التى عثر عليها.

طول هذه الكنيسة ١٢٠ شبراً وعرضها اثنان وسبعون شبراً، سقف الكنيسة يرتكز على خمس دعائم، اثنتان على كل جانب وواحدة فى المنتصف، البهو المُعَمدَّ الذى يحيط بالكنيسة شبيه بالأروقة المعمَّدة فى الكنائس ومنخفض عن جسم الكنيسة ويستطيع المرء النزول من الكنيسة إلى ذلك الرواق: هناك ثلاث نوافذ على كل جانب، والمرء إذا ما نظر (على سبيل الافتراض من الخارج) خلال كل نافذة من هذه النوافذ المواجهة للشمس، يستطيع أن يرى القبر على الجانب الأيمن من مذبح الكنيسة المرتفع. وفى منتصف الكنيسة توجد علامة تدل على باب سرى، هذا الباب مغطى بحجر كبير شبيه بالمذبح المصنوع من الحجر، هم يقولون إن هذا الباب هو مدخل الغرفة السفلى، وأن أحداً لا يدخل هذا المكان، ويبدو أنه لا الحجر ولا الباب يمكن رفعهما، الحجر فيه ثقب فى منتصفه يخترقه بالكامل(☆).

هناك قبر ثان فى هذه الكنيسة ويقال إن هذا القبر صورة طبق الأصل من الضريح الموجود فى القدس ومن قبر آدم، تعرف الأقبية المظلمة والممرات الموجودة أسفل هذه الكنيسة والكنائس الأخرى باسم "جهنم"، ويقال إن المؤمنين وحدهم هم القادرون على الأحجار الثقيلة التى تغلق هذه الأقبية والممرات، ويقال إن قبر لالبيلا جرت تغطيته بالجوخ عندما كنا هناك، وأن لون هذا الجوخ كان أحمر وأبيض، نظراً لأن القبر يبلغ من القدسية حداً لا

☆ يصل عرض هذا الثقب إلى نحو قدم.

يسمح برؤيته، السيد/ هارلان يتحدث عن عمود جرت تغطيته بالطريقة نفسها وللغرض نفسه.

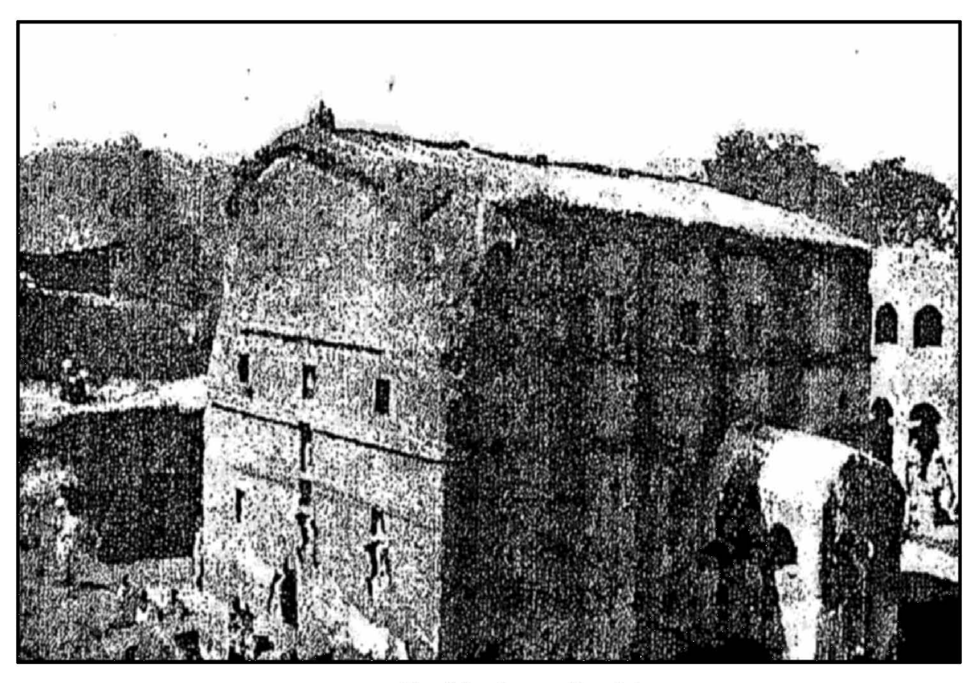
كانت هناك صورتان عظيمتان منحوتتين فى الجدار، بحيث تظلان منفصلتين عن الجدار، أرونى هذه الأشياء كما لو كنت مضطراً إلى الاندهاش عندما أراها، إحدى هاتين الصورتين كانت للقديس بطرس، والثانية كانت للقديس جون، كانوا يوقرون هاتين الصورتين توقيراً كبيراً.

هناك مُصَلَّيان صغيران ملحقان بكنيسة جولجوثا، واحد من هذين المصليين للقديس ميخائيل، وهو مربع الشكل تقريباً وله ثلاثة ممرات، والمصلىَّ الثانى له شكل شبيه ببيت المعمودية، وبجوار النوافذ المربعة، يوجد فى الجدار عدد من الثقوب المسدودة بأحجار توحى بأن هذه الثقوب ربما كانت قبوراً، عندما كنا فى لالبيلا كانت هناك ملاءات معلقة أو ملابس معلقة على سبيل الحداد على واحد من كبار القساوسة، وعليه لم نتمكن من رؤية الجدران لكن السيد دى كوبيت رأى عشرة تماثيل مضطجعة أو واقفة، كما أن هارلان يكتب عن أن الكنيسة مزينة بتماثيل منحوتة نحتاً بارزاً على الجدران، لكن هذه التماثيل ليست منفصلة عن الجدران، يقول: إن هناك عشرة من هذه الأشكال وأهم شكل بينها هو ذلك الشاب المصاب بمرض عضال لأنه رفض الزواج طبقاً لأوامر والده.

ربما كانت كنيسة جورجس Gorgis أهم هذه الكنائس لأنها مبنية على شكل صليب مالطى، إذ أن جانب من جوانب هذا الصليب متصل بالأرض، التى يتساوى مع سطحها سقف الصليب المزين بصليب مزدوج، ومن خلال الفتحة التى مررنا منها إلى المطهر توجد بعض الشامات على وجه الصخرة، والتى يقال إنها آثار أقدام حصان القديس جورج، تقول الأسطورة إن القديس المحارب كان غاضباً لحذف اسمه من قائمة رعاة كنائس لالبيلا التى جرى نحتها مؤخراً، وعليه ركب القديس جواده ذا الحدوات النيرانية، ونزل من السماء مُقْسماً بالثأر، لكنه جرى استرضاؤه بوعد ببيت أجمل من أى بيت من البيوت الأخرى، وسمعت أيضاً أن آثار الحوافر هذه ناجمة عن أقدام حصان لالبيلا أثناء ركوبه حصانه متفقداً العمل، وهذا التعليل أكثر منطقية، فى ضوء وجود هذه الآثار داخل مجرى منحوت بالفعل.



في واحد من الأفنية الصخرية في لالبيلا



كنيسة مريم في لالبيلا........

يجرى الدخول إلى "منزل جورج" عن طريق غرفة تحت الأرض تستخدم غرفة للقساوسة، صعدنا بضع درجات، من خلال باب صخرى، لندخل بعد ذلك غرفة معلقاً على جدرانها صوراً مقدسة مرسومة على لوحة من القماش القطنى الأبيض، ثم دخلنا بعد ذلك مكاناً صغيراً على شكل صليب، على جانب من الأجناب، وعلى ارتفاع نحو ستة أقدام من الأرض وفى تجويف داخل الجدار، يوجد حوض صغير منحوت مملوء بالماء الذى يقال إنه يأتى من ينبوع مخبَّأ، هذا الخزان أو الحوض يرشح ببطء، والأرجح أنه ربما كان من رافد تحت الأرض من روافد نهر الأردن Jordan، الذى ينساب من حول لالبيلا، وربما يكون تسرب هذا النهر إلى بعض الأماكن سبباً من الأسباب التى سهلت عملية النحت، يقال إن ماء هذا المجرى يشفى معظم الأمراض الفتاكة، والتعميد فى هذا الماء أمر مطلوب كما لو كان فى نهر الأردن الحقيقى.

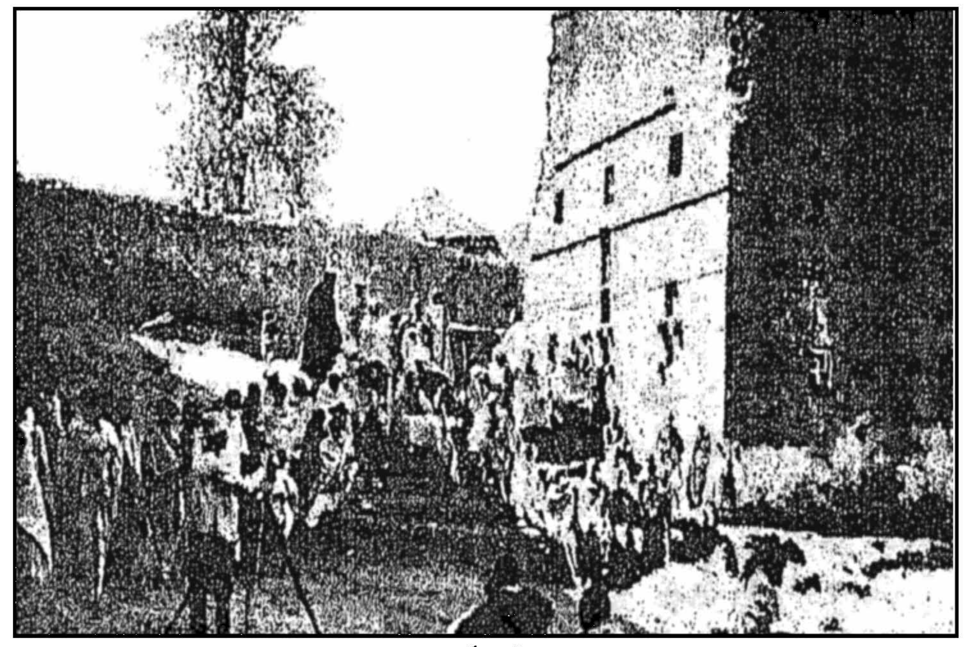
اسم النهر يحدث شيئاً من الارتباك، نظراً لأن أحد الكتاب بعد أن قيل له إن بحيرات مريم فيها "ماء أردنى" Jordan water، راح يعزو ذلك إلى النهر الفلسطينى.

الفناء المحيط بكنيسة القديس جورج ملئ بالمقابر، وأنا أتخيل أن الثقوب كلها الموجودة فى الصخر، شبه مسدودة بالأحجار، التى تنتشر فى سائر أنحاء لالبيلا عبارة عن مدافن، نظراً لأن الناس ينظرون إلى المدينة على إنها مقدسة، وأن الدفن داخل حدودها يعد طريقاً مؤكداً إلى الجنة، وهذا هو سايمون يكتب عن جثامين مجففة فى السراديب الموجودة تحت الكنيسة، كانت ملفوفة فى جلود ثيران أو موضوعة داخل السيقان المجوفة لبعض الأشجار.

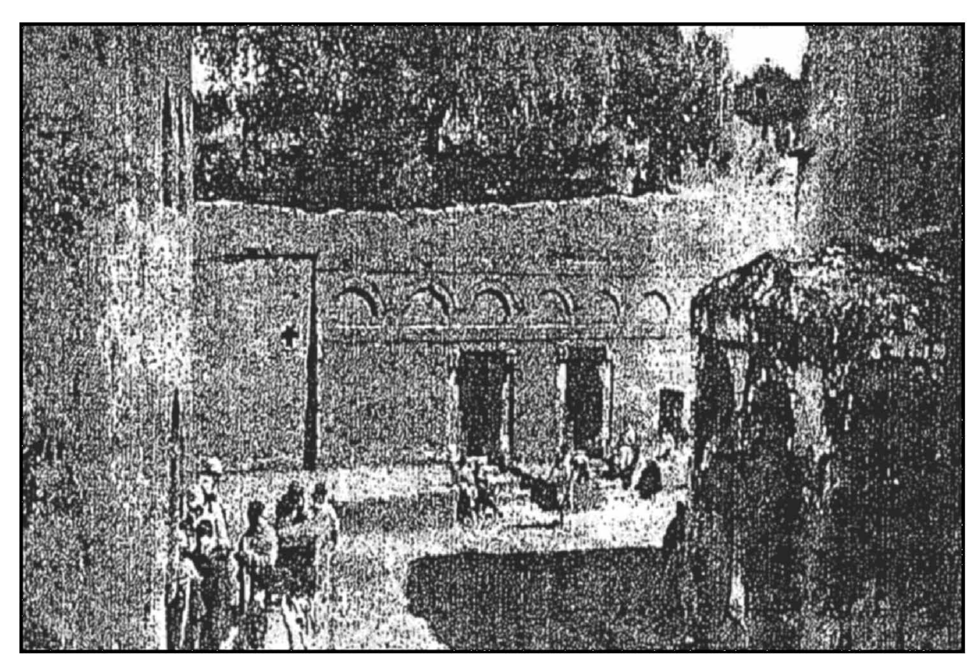
المدخل الذى على شكل عقد والمؤدى من باب الكنيسة إلى داخل كنيسة القديس جورج منحوت نحتاً جميلاً، والنوافذ تعد من بين النوافذ المبتكرة فى لالبيلا، لأن هذه النوافذ تحمل الصليب اليونانى والهلال الإسلامى، وقطر المدخل من الداخل يقدر بنحو أربعين قدماً.

وأنا أعتقد أن أجمل كنيستين هما ميدان آلم (منقذ العالم) ومريم واللتان لا يفصل بينهما سوى برج ناتئ يخترقه من الأنفاق التى تشبه جحور الأرانب، قاعدة الكنيسة الأولى التى تبرز بضعة أقدام أسفل الجدران يصل طولها إلى ثمان وثلاثين قدماً وعرضها سبع وعشرون قدماً، فى حين يصل طول الفناء الذى ترتكز عليه هذه القاعدة إلى نحو ٤٥ ياردة.. أما عرضه فيتناسب مع هذا الطول، قال لنا القساوسة إنه كان هناك ٧٢ عاموداً داخل وخارج هذه الكنيسة، لكن عدداً كبيراً من هذه الأعمدة تحطم، لا يزال هنا بهو مُعَمَّد منحوت من صخور قوية فى الواجهة الشرقية للكنيسة، ولا تزال هناك أيضاً قلة قليلة من الأعمدة فى الطرف الجنوبى من الكنيسة، فى داخل الكنيسة توجد فى البداية غرفة مؤدية إلى غرفة أكبر منها شبيهة بالممر الواسع، وفيها باب ثان يفتح على الممرات الخمس المركزية، هذه الممرات المركزية مقسمة بواسطة اثنتى عشرة ركيزة، ضخمة ومربعة الشكل، تحمل عقوداً مستديرة، البعض منها مزين بلوحة منحوتة ومستديرة، لا يوجد بالكنيسة معبد مركزى، كما هو الحال فى السواد الأعظم من الكنائس الحبشية، لكن ذلك الذى يعد فى أوروبا مكان المُرتِّلين، يكون عبارة عن مكان معزول بين الأعمدة الأربعة الإضافية فى الممرات الجانبية، وتوجد ستارة معلقة عبر الفراغ الموجود فى الوسط، والقساوسة لا يسمحون برفع هذه الستارة، إذ نستطيع أن نرى من فوق هذه الستائر رءوس أربع ركائز أخرى، هى والعقود المستديرة المقابلة لها، والتى تحمل هى الأخرى السقف بدورها. سقف الكنيسة منحوت من الخارج بطريقة توحى بأن هذه منطقة من المناطق التى تكون بين طرفى القوس فى البناء، كما أن خط النوافذ المزدوج بسيط التصميمات التى هى من قبيل الصليب المالطى، وصليب القديس آندرو (الذى يشبه حرف X الإنجليزى)، والصليب المعقوف(☆).

☆ نوافذ الواجهة الشرقية فيها فتحات غير منتظمة مزينة بعقود متراصة فوق صليب يونانى او نموذج من الصلبان.



السيد/ هارولد جونز يُصَوِّر مريم فى كنيسة لالبيلا



فى فناء مريم فى كنيسة لالبيلا...

لا يسمح فى كنيسة مريم، كنيسة العذراء، ولسبب حبشى غير منطقى، سوى بدخول الرجال فقط.

سألت كبير القساوسة، الذى كان بصحبته أحد شماسة الكنيسة ويمسك بيده مذبَّة "لماذا تمنعون النساء من كنيسة موقوفة على واحدة من النساء؟"

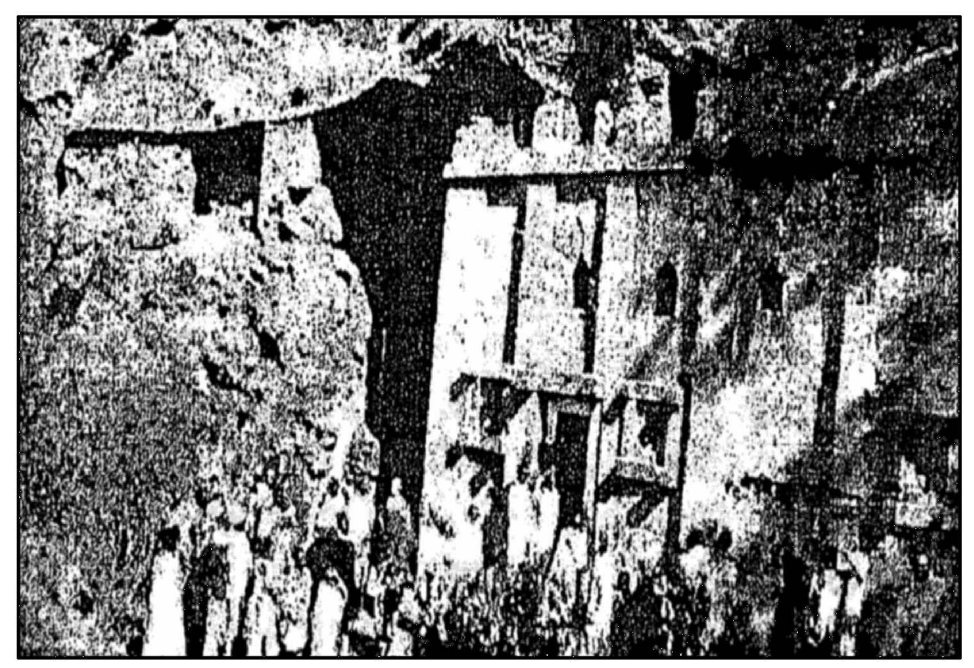
قال: "هذا هو النظام والقواعد".

ماذا يحدث لو أن مريم ظهرت على الأرض وطلبت دخول بيتها (كنيستها)؟

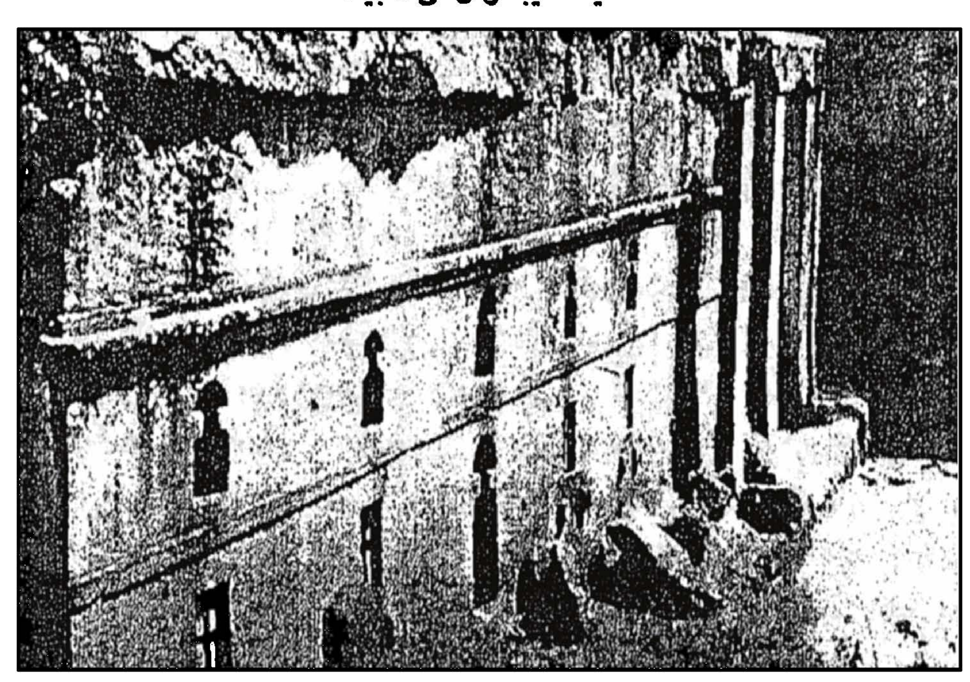
ضحك المتعلم، "هذه نكتة جيدة تماماً! ويتعين علينا معرفتها بطبيعة الحال". قال هذا الكلام بسذاجة مثل سذاجة الأطفال.

"كنيسة مريم" لها ثلاثة مداخل بارزة عن مبنى الكنيسة الأصلى، والكنيسة أصغر بكثير لا من كنيسة ميدان آلم (مخلِّص العالم) المجاورة لها، لكن بالنسبة أيضاً إلى حجم فنائها، الذى يحتوى على بركتين محفورتين وبعض البقايا، أو ربما كان ذلك بداية لحوض المعمودية أو منبراً للوعظ، جدار الكنيسة الشمالى مزين بزينات جميلة على شكل عقود مستديرة غائرة النقوش، وفى الخلف يوجد شىء شبيه بالمستودع، أو برواق الدّير المسقف، الذى ربما قصد به أن يكون كنيسة أخرى.

تقع المجموعة الثانية من الكنائس والتى تضم كنيسة ليبانوس، وكنيسة عمانويل، وكنيسة جبرائيل على الجانب الآخر من لاليبلا، هذه الكنائس الثلاثة منحوتة فى جبل واحد، والانطباع الأول عنها يعطى إحساساً بأنها حصن مستدير هائل الحجم يحيط به خندق يصل عمقه إلى ٤٠ أو ٥٠ قدماً وله جدار خارجى، نزلنا إلى هذا المنخفض، ومن خلال ثقب يبدو أنه مثقوب خلال متراس سمكة نحو ٢٨ قدماً، أو ربما يكون ذلك الثقب قد وصل إلى شكله الراهن وبروزاته الحالية بفعل أقدام المتعبدين التى لا تحصى ولاتعد، والتى داست أرض هذا الثقب، تسلقنا ذلك النفق، وإن شئت فقل الخندق، لندلف بعد ذلك إلى فناء طوله ثلاثون ياردة، فيه كنيسة عمانويل المقامة على حلبة مثلثة طولها ١٩ ياردة وعرضها ١٣ ياردة، والكنيسة من الداخل، شأنها فى ذلك شأن الكنائس الحديثة، مقسمة إلى ممر خارجى، وقدس الأقداس بين أربعة أعمدة مربعة، تحمل عقوداً مستديرة تقع أسفل السقف؛ وهناك أيضاً عدد آخر من الركائز المنحوتة فى الجدران.



كنيسة ليبانوس فى لالبيلا



كنيسة ميدان أليم، فى لالبيلا

أوضح لى واحد من القساوسة، وهو يمسك بيدى، ويقتادنى إلى الركن الأشد إظلاماً ثم راح يبحث فى الأرض "أن منزل (كنيسة) ماركويوس موجودة أسفل المكان الذى كنا نقف فيه". وأنا أزعم أن القس رفع حجراً، وما هى إلا لحظات حتى اختفى رأسه كله وكتفاه.

حثنى القسيس على النزول "هذا هو الطريق، تعالى وزورى ماركويوس"، لكنى إلى أن جرى إحضار شمعة رفيعة، ورحنا بعد ذلك نتحسس طريقنا، فى خطو غير منظم، نازلين إلى ما يقرب من اثنى عشر قدماً، إلى ممر تحت الأرض، يصل ارتفاعه إلى ارتفاع قامة رجل طويل ويتسع لشخصين يسيران جنباً إلى جنب.

كانت الأرض غير ممهدة، والضوء غير كاف لرؤية ما هو أكثر من ذلك، كانت الجدران ناعمة الملمس وبلا زينيَّات، تبعناً جمع من البشر داخل هذا المكان المحكم، وكانت أصوات البشر تدوى كما لو كنا محبوسين فى طبلة، وعندما انتهت الشمعة الرفيعة، فإن الاندفاع، والرائحة، وكذلك الصدى الغريب فى ظلمة المكان، كل ذلك كان كافياً لجعلى أمْتَنُّ لذلك الشخص الذى سحبنى إلى الأمام، والواضح أن ذلك كان فوق جثامين مختلفة غير محمية، سحبونى إلى ركن من الأركان، ثم بعد ذلك إلى الأعلى فى اتجاه وميض ضوئى، كشف لى عن وجود أعداد من الأرجل الحافية، لو تحركت للحظة بعد ذلك الذى وصلت إليه، لأصبحت فى مستوى الجثامين التى على الأرض، كنا فى ذلك الوقت فى رواق ماركويوس، المنحوت نحتاً مجوفاً من الصخرة السطحية، هذا الرواق ليس فيه حوش أو حفر، وكل ما فيه عبارة عن عقود بسيطة محفورة تحت الأرض. كانت هناك عقود أخرى تقسم الكهف إلى ممرين جانبين، إلى حد أن هذا المكان هو عبارة عن كنيسة من الكنائس الكهفية القديمة، التى تخترق الأرض إلى مسافة تتردد بين ٢٠ و ٣٠ قدماً تحت السطح أما سقف الكنيسة فيقع أسفل ذلك بحوالى بضع ياردات قليلة، الضوء يدخل هذه الكنيسة من خلال فجوات فى المقدمة، التى يجرى فيها ملء الفراغات التى بين العقود بالقماش الملون، ويجرى فى بعض الأماكن الأخرى دعم التربة البارزة من سطح الصخرة بواسطة الطوب اللبن.

تسلقنا متراساً خلف كنيسة ماركويوس، وكان ذلك المتراس متوجاً بأشجار

الزيتون والعشب الطويل. ومن فوق ذلك المتراس شاهدنا منظراً مفاجئاً، من الخنادق التى تشكل متاهة من المتاهات، كما شاهدنا أيضاً جداراً بعيداً تتخلله الزهور، وفى حفرةٍ صغيرة رأينا قساً جالساً يطحن الحب، حَبًّا ذهبى اللون مثل جلد كتاب القُدَّاس الموضوع بجانبه، كان جانب من جوانب هذا الفناء البدائى عبارة عن صخرة قانية الحُمرة، محفورة على شكل مدخل ضخم مهيب، القواعد التى يرتكز عليها المدخل هى وعارضته الأفقية صلبتان تماماً مثل السلم المؤدى إلى ذلك المدخل، كما أن بساطة هذه الأشياء البدائية تتماشى مع الجبال وأشجار الزيتون العجوزة، أكثر من مسايرتها للمنحوتات المركبة التى كانت تخترق الواجهة النادرة تماماً لكنيسة ليبانوس المجاورة، وأنا لدى انطباع مفاده، أنه على الرغم من أن واجهة المبنى، التى تفتح على غور ملئ بالأعشاب والأحجار، مصابة بتلف كبير، فإن الكنيسة من الداخل تعد أحسن الكنائس التى فى لالبيلا.

الكنيسة صغيرة، ولها باب يبلغ من الضيق حداً يجعلنا نقول إنه كان باباً لبيت دمية، يزاد على ذلك أن تيجان ركائزه مربعة الشكل، تكشف عن تصميمات بيضاوية الشكل، ومن فوقها إفريز بارز بيضاوى الشكل، له دعامات بارزة.

لم نر بقية الكنائس رؤية كاملة، وسبب ذلك أننا بعد الحماس الذى أبديناه للساعات الحارة، وبعد أن تسلقنا الحصون الصخرية، وبعد تجولنا خلال الأنفاق والخنادق الشبيهة بجحور الأرانب، وجدنا أن القساوسة وصلوا من الألفة حداً ظنوا معه أن هذه المصلحة يجب أن تتمخض عما هو أكثر واقعية من الصور.

تركنا حاسن كى يلبى احتياجات القساوسة المادية، وصعدنا إلى أعلى التل وسط بضع مئات من المتدينين الذين يحملون العكازات بدلاً من البنادق، ونحن مصرون على سيرنا، سألوا ولدو جورجس عما إذا كنا من اليونانيين أو الأرمن، وعندما قيل لهم إننا إنجليز، وقعوا فى حيرة.

غمغم عجوز كبير السن، حوله الزمن ومجمداً إياه إلى شكل لا حراك رمادى اللون "ليس هناك فرق، كلهم واحد". يبدو أن هذا المسن لم يغادر لالبيلا مطلقاً، وكنا نحن الإنجليز الوحيدين الذين رآهم هذا العجوز. واصل غمغمته قائلاً: "لا فرق!" إلى أن أصبحنا بعيدين عن مرمى سماع صوته!

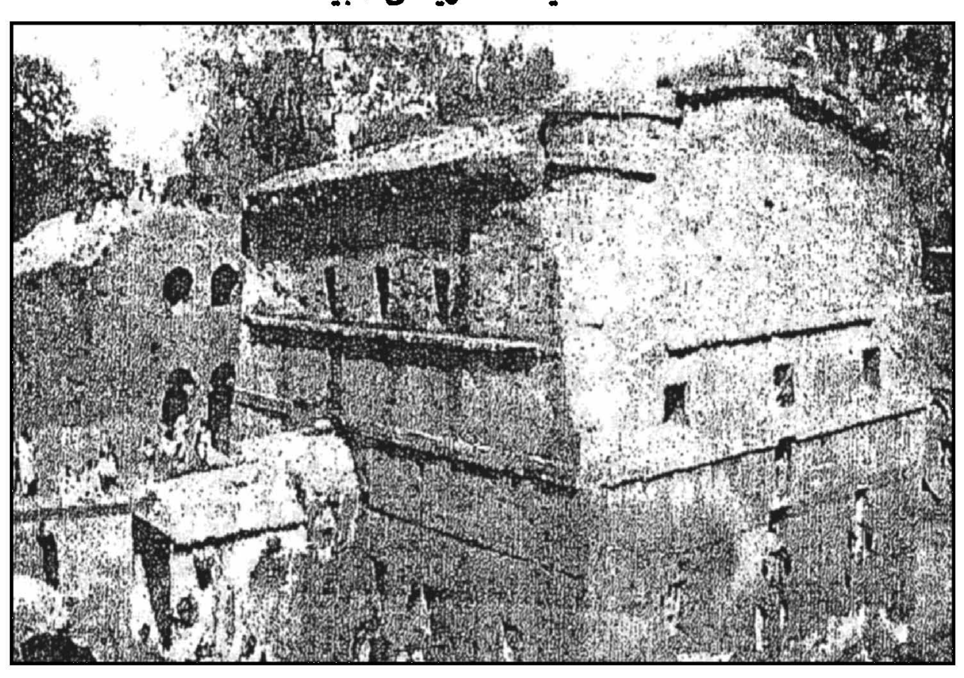
كتب الأب الفارز **Alvarez** عن لاليبلا، فى القرن السادس عشر، "لا يستطيع تاجر الفضة ولا صانع الشموع أن يفعلا شيئاً أجمل من ذلك"، لكن إذا ما نحينا جانباً العلامات الدالة على تأثيرات الفترات والمدارس الصناعية العربية، والمصرية والبيزنطية، نجد أن الانطباع الرئيسى الناجم عن أحجام الكتل الصخرية الضخمة (نظراً لأن الكنائس الكهفية تكون قليلة الأهمية، وأنها تذكرنا بحمرة بلوة بترا (تدمر) الوردية فى الحجاز) يتمثل فى مربعانية كل تفصيلة من التفاصيل، ونحن إذا ما نحينا جانباً مستوى الأرض فوق الحصون والأنفاق، والعقود والمنحنى غير الملحوظ لحواف السطح النازل نحو الأسفل، نجد كل شىء منحوتاً نحتاً جيداً وكاملاً، وإذا ما كان خط الجمال هو المنحنى، فإن لاليبلا لا تعد جميلة، ذلك أن الأفنية، والحُلىَّ المثلثة فى واجهة البناء، وكذلك الكنائس، وأحواض المياه المنحوتة فى الصخر، والنوافذ، والتصميمات الهندسية الخاصة بأطر هذه الأشياء، وكذلك الأعمدة ورءوسها، وأيضاً المداخل المسقوفة، كلها مربعة أو مستطيلة، لا يوجد أى شىء مستدير سوى العقود، والأسقف، وبعض الخنادق والأنفاق الخارجية الأخرى التى تحيط بالجروف الصخرية الضخمة التى تضم منازل (كنائس) قديسى الرب، عندما كان الرجال أو الملائكة يلمسون الحجر فإنهم كانوا يشكلونه إلى زوايا حادة وامتداد لا نهائى لخط مستقيم غريب على الأرض التى اقتطعوه من صدرها، لكنه يجئ مواكباً ومسايراً للسلاسل الجبلية المنسقة، والمخروطات، والركائز الصخرية التى هى نتائج للطوفان البركانى فى هذه الأرض التى كانت محلاً لعنف قديم.

يوجد فوق منحدر أبراج لاليبلا المستدير أثر، قطعته الطبيعة بأزميلها على شكل متراس ومذبح، الذى ربما كان نموذجاً احتذته الكنائس القلاعية فى ظلاله، نظرت إلى هذه الصخرة عندما كانت إلى الخلف منى، ونحن نمر على أكوام الحجارة، التى تتخللها بعض الأغصان، والتى تعد إشارة إلى نهاية حدود الأرض المقدسة.

قلت: "هذه علامة مُميزة على مدى الأيام".

قال هارولد جونز: "سوف نحتاج هذه العلامة". كان هارولد جونز متشككاً فيما إذا كانت الخارطة الصماء التى لا يرجى منها فائدة، فى الوقت الذى كنا

سقف كنيسة صخرية فى لالبيلا



صورة توضح موضع ترميم كنيسة صخرية باستعمال الصخور.

بحاجة ماسة إليها، يمكن الاستعاضة عنها بالبوصلة ومرشد جذاب، لكنه مراوغ فيما يتعلق بالأسماء والمسافات، وعلى نحو يصبحان عنده كافيين لأن نقطع بهما مسافة ١٤٠ ميلاً فى وادٍ وجبل خالٍ من المدقات والطرق إلى أن وصلنا جُندار **Gondar**.

قلت وأنا أحث الجميع "أنا لا يمكن أن أطيق العودة إلى دبرا تابور، المسافة تقدر بمسير تسعة أيام فى ذلك الطريق، فى حين أن مسافة هذا الطريق"..

غمغم حاسن: "قد تصل إلى عشرين يوماً، آخر رجل فى القرية هو الذى قال ذلك".

"هل يعرفك المرشد؟"

قلت وأنا مصرة على كلامى "هو فقط يريد المزيد من النقود، على أى حال، هو طريق جديد وملئ بإمكانيات الوصول إلى مكان ما هذه الليلة".

قال هارولد جونز: "أنت تحبين الأشياء الجديدة، أليس كذلك؟" أتمنى ألا ينفذ تبغى؛ وما هى بالضبط احتمالات وصولنا إلى مكان ما هذه الليلة؟

"آه، اليوم كئيب، هناك مسار مُعَلَّم باسم دامبيتا مريم **Dambeta Mariam**".

"هل سبق للمرشد معرفة هذا الطريق؟"

يتعين على هنا الاعتراف أن وُلدو سبات **Woldo Sabat** صاحب الطلعة البهية، كان متشككاً فيما إذا كانت السلاسل الجبلية بمثابة مسند لكنيسة مريم، لكن الشاب الذى عمل مرشداً لنا إلى أن لحقنا بالقافلة لم يكشف عن أى شكل من أشكال التردد، كان ذلك المرشد يوازن نفسه مثل الماعز على المنحدرات الوعرة، وكان يخشى الطرق والدروب الواسعة التى تكون عامرة بالأفاعى كبيرة الحجم، وهذا هو حصانى الأبيض، بعد أن شفى من رغباته الاستعراضية، وفى ظل خوفه من حد السكين، يسير من خلف هذا الصبى، وقد ركز الحصان رأسه على الطريق بغية السلامة، كان المفروض أن أنزل من فوق الحصان، لكنى كنت متعبة بعد العنف الذى دار أثناء الليل، إضافة إلى أن الشمس كانت حارقة من خلال قبعتى الرقيقة المصنوعة من اللباد، وعليه خاطرت مرة أخرى بركوب الحصان وهو يسير فى مسار حلزونى، كانت بعض حبات الحصى تتفلت من حت حوافر الحصان، تعثر الحصان، وراح يترنح

على الجانبين وصححت أرجله الخلفية وضعها، أحدث الحيوان المرتاح نخيراً، وحدث خلفى سيل من الصراخ، ثم بعد ذلك انزلاق كبير، لم أنتظر إلى أن تنثنى رجلى، ورحت أرفس بعد أن تحررت رجلاى من الركاب، ثم تدحرجت على جانبى الأيسر، من رحمة الله بى، أن بقى مقود الحصان فى يدى، وعليه، وعلى الرغم من وجود لحظة كان رأسى وحافرا الحصان الأمامى لا ينفصلان عن بعضهما، وعلى الرغم أيضاً من وجود لحظة أخرى كنت خلالها مجرورة من فوق الحصان الذى كان يناضل محافظاً على نفسه، فإن قدميه الأماميتين توازنتا وكان إمساكى بلجام الحصان عوناً ومساعدة كبيرة لى، وأخيراً، وبعد نضال وقف الحصان وهو يرتعد على الطريق، لكن مضت دقائق عديدة قبل أن نتمكن من جعله يتحرك مرة ثانية، وعليه، فإن خوف الحصان من القمم الصخرية جعله نذير خطر للقافلة كلها، نظراً لأنه كان يود السير مع بقية القافلة بطريقة الانحراف، إحساساً منه بأنه طالما لا يرى الوقوع أو السقوط فإن أرباعه الضخمة يمكن أن تتحرك بتثاقل مثلما تشاء.

الفصل السادس عشر

أخطار الطريق المختصر

سـرّعنا الخطى فـى ذلك اليـوم خلف مـالك البـغـال، لـكن الرجل كـان قـد ضبط خطو بغاله على نحو جعلها تحافظ على مسافة ثابتة بينها وبيننا، إلى حد أننا عندما كنا نسأل أولئك الذين التقيناهم على الطريق، كانوا يؤكدون لنا: "نعم، لقد رأيت صاحب البغال، رأيته على بعد مسافة كبيرة، كبيرة جداً فى المقدمة". كان سطح هذه المنطقة يتردد بين الصخر والشجيرات القصيرة الكثيفة التى لا تسمح بوجود أية مساحة فيما بينها لاستغلالها فى الزراعة، كنا نسـرع الخطى فى شمس الظهيرة الحارقة، التى كانت تتخللها هفهفة أجنحة طيور الهدهد أو لمعان طيور الأوريول Aurioles ذهبية اللون، دخل علينا غروب الشمس، ونحن نكاد لا نلتقط أنفاسنا وكنا عطاشا، فقد قمنا بالهجوم على سلسلة جبلية ضخمة بدت لنا وكأنها تمزق السماء بحاجزها الصخرى المدبب مثل الأشواك.

قال مرشدنا الصبى: "هناك قرية فى الأعلى فى منتصف الطريق، سوف لا يتجاوز مقاول البغال هذه القرية مطلقاً". لكنه فعل ذلك! شهد شفق الغروب مطاردة، مخافة أن يدركنا الظلام ونحن على الصخور، استسلم بغل هارولد جونز على بعد نحو نصف ميل من قمة الصخرة، ورحت أستحث بغلى على المضى قدماً.

قلت: "إذا لم تكن الأرض منبسطة عند القمة، فذلك يعنى أننا انتهينا، وتحت أى ظرف سيصبح الجو مظلماً إلى الحد الذى يتعذر معه السير".

استطاع بغلى، بجنبيه اللذين كانا على وشك الانفجار، تخطى الجلاميد الصخرية الأخيرة.

صَرَخَتْ قائلة: "جونز! كل شىء على ما يرام، لقد شاهدت ذيل كلب"!

وبعد ذلك بلحظة رأيت الحيوان كاملاً، والواضح أنه يقوم على حراسة قرية من القرى، إذ راح ينبح علىّ، وعلى بعد نحو مائة ياردة كانت هناك ثلاث مجموعات من الأكواخ، وشاهدت فى التجويف الذى بين هذه المجموعات من الأكواخ خيامًا يجرى نصبها بالفعل.

قال مقاول البغال متباهياً: "لقد أخبرتنى بالذهاب إلى دمبيتا Dembeta، وتذكرت الاسم وجئت إلى هنا"!

من الطبيعى أن يكون رئيس القرية غير موجود، يبدو أن رؤساء قرى شمالى الحبشة لديهم حاسة سادسة تنذرهم باقتراب أى مسافر من المسافرين الذين لهم حق الطعام Dergo، ومن ثم فهم يختفون تحت الأرض مثل الأرانب.

سألنا المرشد "أين منزل رئيس القرية؟"

"آه، المنزل بعيد جداً"!

"أين نائبه، إذن؟"

"هو قائم برحلة طويلة" أو "إنه فى أديس أبابا"؛ هاتان هما الإجابتان المعتادتان على السؤال الأخير، لكن دمبيتا كان يود التأكد.

قالوا بطريقة لطيفة: "مات".

"حسن، هل تبيعنا شيئاً قليلاً من الشعير؟"

ترددوا أيضاً فى ذلك البيع، من باب معرفتهم أنهم إن أقدموا على ذلك فهو نوع من دفع الضرائب، لكن بعد نقاش استمر ساعة، وبعد القيام برحلات عدة إلى مختلف الأكواخ تمكنا من جمع نحو جوال من مختلف الحبوب، وهذه أرملة حليقة الرأس تماماً وعلى نحو يجعل الإنسان يحس بالألم عندما ينظر إليها، باعتنا دجاجة بحجم الزرزور نظير طلقة واحدة من طلقات البنادق.

نخر جابرا جورجس بعد أن استنفد كل ما لديه من احتقار لهذا الإجراء "ينبغى عليها ألا تفقد الأمل فى الحصول على رجل آخر، النساء المسنات هن اللاتى يحلقن شعر رءوسهن إشارة لحزنهن، نظراً لأن الأزواج يسهل استبدالهم فى الحبشة، التى جربت النساء فيها أزواجاً عديدين.

فى اليـوم التـالى، وبعـد أن سـرنا مـدة سـاعـة على الطريق، جـرى إبلاغ الدجيزماتش المحلى عن رحلتنا، الذى أوفد فى إثرنا بعض الجنود ليعتذروا لنا عن تصرف القرويين، ويدعونا لقضاء الليل فى ممتلكاته الخاصة".

"هذه السيدة العظيمة ينبغى ألا ترحل بهذه السرعة".

تكرر شـعـار الحـبـشـة مـرة ثانيـة، لكنى صـمـمت على الكشف عن تصميمى وردى المختصر، بأن كررت شكرى مرة ثانية، وعبرت عن أسفى، ورحت أستحث القافلة على إسراع خطاها، خيمنا فى قرية بيركواكوا مريم Berkwakwa Mariam، بعـد صـراعٍ مع الأشـواك اضطررنا خلاله إلى رفعٍ أرجلنا من على سروجنا، كما أن بغلاً من البغال داس على قدمى بعنف محولاً إصبعها الكبير إلى عجينة شديدة الزرقة، لم أستسغ منظر إصبعى، أو الإحساس الذى ولّده داخلى، لكن هارولد جونز، بحكم نجاحه فى اقتلاع سن من أسنان حاسن عن طريق زرَّادية، كان على يقين من قدرته على بتر إصبع الرجل الكبير باستعمال مدّية!

قرية بيركواكوا مريم، شأنها شأن قرى الشمال كلها، سميت باسم الكنيسة التى فيها، توجد فوق كل حلبة مسطحة فى أى جبل أو تل من التلال، عدد من الأكواخ يعد على أصابع اليد الواحدة ومجموعة من الأشجار، وعندما كنا نطرح الأسئلة طلباً للحصول على المعلومات، كنا نجد المرشد أو المار علينا من السكان المحليين يطلقون على الكنيسة اسم "مارى" Mary أو "جورج" George أو "الثالوث" Trinity، لكن عندما ضغطنا طلباً لاسم القرية، كنا نجد المرشد يقول: "لا أعرف" أو "لقد نسيت، وهذا أمر لا يهم". الأحباش كلهم ينصاعون للقساوسة، لكن أهل الشمال، وهذا يعنى أن نصف السكان تقريباً متدينون ويحكمون القرى كلها.

مسيحية الفلاحين الأحباش غريبة جداً، من منطلق أن المسيحية عقائد دينية جوهرية وليست شريعة، والأحباش يرفضون أكل الخبز المسموح به فى الصوم، إذا ما تسلم الصائم الخبز من يد لمست أصابعها

اللحم قبل وقت قصير من إمساكها بالخبز، كما أن الحبشى لا يمر على جدار كنيسة دون تقبيل ذلك الجدار، لكن الحبشى لا تحدد له ملته مستوى سلوكه.

الفارق كبير بين العربى والحبشى فيما يتعلق بالأخلاق، ويتمثل الفارق الكبير فى التزام العربى التزاماً حرفياً بشريعته، فى حين لا يفعل الحبشى ذلك، العربى الصحراوى، من ناحية أخرى، نظيف، وصادق فى كلامه، ومخلص لضيفه، وهو شجاع وكريم وذلك من باب تعويض قسوته، عقيدة العربى الصحراوى (البدوى) هى جوهر حياته ووجوده، وهو يصلى خمس مرات فى اليوم، سواء أكان فى قريته أم وحيداً مع جمله فى الرمال، كما أن حياته فى بساطتها الشاقة تعتمد على الإيمان بقدرة الله العلى القدير، عند العربى، كنت أحسب دوماً أن عقيدة التوحيد أمر مستحيل فى الصحراء، رد علىّ ساخراً "ومستحيل أيضاً أن يكون المرء مؤمناً فى الحبشة". وأنا أرى أن الصحراء إذا كانت تضفى شيئاً من عظمتها على من يعيشون فيها، فإن الجبال هى الأخرى تضيق نظرة الإنسان العامة إلى الحياة، وتعزله داخل عالم صغير عامر بالمصالح الصغيرة، عينا الحبشى متسلق الجبال كئيبتان، بمعنى أن من ينظر إلى عينى الحبشى لا يرى فيهما تلك العزلة الرائعة، التى تولدت نتيجة الوحدة والأفق الذى يصل امتداده إلى مئات الأميال، الأحباش لا وجود لحكمة الجبال بينهم، لكن حكمة الصحراء تشيع بين العرب، الأحباش أعداء لصحاريهم وصخورهم ويخشونها ويخافون منها، فى حين نجد أن العربى تربطه قرابة برماله، فضلاً على رضاه ووده مع تقلبات تلك الصحارى، قد يكون الفرق هنا راجعًا إلى الحقيقة التى مفادها أن الفلاح Peasant الحبشى ليس رحالاً، الترحال عند الحبشى يعنى الفزع من اللصوص، وهو عندما يمضى يومين بعيداً عن موطنه يكون فى "بلاد بعيدة"، ومخفى الاسم وبلا مصلحة، العربى الصحراوى لا يتحدث إلا عن أمرين، الدروب والأبيار، والحبشى يتكلم عن الطعام، والنقود واللصوص، الماء لا أهمية له عند الحبشى، لكنه حيوى عند العربى، الذى يتحتم عليه الوضوء خمس مرات فى اليوم أو التيمم بالرمل فى حال عدم وجود الماء.

نحن لا يمكن أن نلوم القرويين الأثيوبيين على قذارة منازلهم، ولون ملابسهم، الذى يتفق مع لونهم بصورة متدرجة، نظراً لأنهم يبنون أكواخهم فى أماكن تبعد كثيراً عن أقرب مجرى أو حفرة مائية إليهم، وهذا أمر ضرورى فى معظم الأحيان نظراً لأنها تكون جرداء وغير صحية، ولا تصلح إلا للقردة، والباعوض وعصابات اللصوص، أما فى الشمال فإن السكان يتخيرون، فى معظم الأحيان، أعلى المخروطات نظراً لسهولة الدفاع عنها فى حالة الحرب أو الغزو.

كانت قرية بيركواكوا مزودة بمصدر مائى عامر بالطمى، لا يكفى سوى لسقيا بغالنا وتزويدنا ببضعة أكواب من ذلك الذى حسبته قهوة إلى أن أكد لنا بالينا Balaina وهو يبكى إنه كان "ماء، جديداً ونظيفاً".

جاء إلينا رؤساء القرى الشبيهون بالقساوسة مرتدين قمصاناً وأغطية رأس بلون الطمى، وقد بلغوا من القذارة حداً تساووا فيه مع قطعانهم، لكنهم كانوا شغوفين ومؤدبين، أحضر أحدهم لنا دجاجة مهتاجة، سارعت إلى الهرب وراح المخيم كله يبحث عنها مطارداً إياها على امتداد خمس دقائق، الحبشى رجل رياضى بطريقة صبيانية مبهجة، وهو لا يستطيع مقاومة أى شىء بدءاً بقافلة القردة إلى العشاء الشارد، وهو معتاد على فتح النار على أبعد مدى حتى آخر طلقة من طلقاته، حتى وإن كانت هى التى ستمكنه من شراء الخبز أو الجعِّة، على أى شىء بدءاً من الغزال إلى النسر، أو الفهد أو الصقر، لكنى أقر أنى لم أره يصيب شيئاً من هذا القبيل، الأحباش فضوليون من حيث أنهم ليسوا متخصصين فى عملهم، الأحباش مقاتلون بلا شك، ومع ذلك، أثناء السير تجد الزبانى يحمل بندقيته غير مُعَمَّرة، وآخر يسير خلفه على بعد نصف ميل تقريباً حاملاً الذخيرة، مقاولو البغال، لفترات طويلة، وسكان الخيام لا يعرفون طريقة دق أوتاد الخيمة، وهم يدقون الأوتاد مائلة إلى الداخل، الأمر الذى يجعلها تنخلع بأقل قدر من التوتر. والأحباش عند تحميل الأشياء، لا يزنون البنود المختلفة وزناً دقيقاً، إلى حد أنهم، قد يبدأون السير فى توقيت أبكر من توقيت أية قافلة من القوافل العربية التى شاهدتها فى حياتى، والتى تنفق

الواحدة منها ثلاث أو أربع ساعات فى ترتيب الحمولات الأولية، ثم يروحون (الأحباش) بعد ذلك يعدلون كل بند من بنود الأمتعة عشرات المرات على طول الطريق، يزاد على ذلك أن العربى يعد صديقاً شخصياً لكل جمل من جماله، كل بغل من بغال مقاولى البغال الأحباش يعد عدواً شخصياً لذلك المقاول.

ودعتنا قرية بيركواكوا بتحذيرات مشددة من اللصوص، وبينما كنا نمر على آخر بيت "مجاور من بيوت المسيحيين" (كنيسة)، نسيت إن كان ذلك كنيسة مارى أم جورج، وجدنا مخلوقين سيئى الحال يتتبعانا.

قالا: "لقد جئنا لإنقاذكم من لصوص هذا الطريق، هناك عصابة بالقرب من نهر تكَّازى Takkazye ولدى هذه العصابة اثنتان وسبعون بندقية".

رفع هارولد جونز غليونه فى شىء من التأمل، قال: "يجب القول هنا إننا إذا ما أخذنا هذين الرجلين معنا سيكون لدى العصابة أربع وسبعون بندقية".

بعد أن وافقت على ما قاله جونز، تخلصت من المدافعين المزعومين باعتذار سريع مفاده أنى ليس معى شىء من النقود.

لم نقابل اللصوص المزعومين، لكن انطباعاتى عن ذلك اليوم القائظ هى أن الجبال كانت عبارة عن أحجار مفككة، مرتبطة ببعضها عن طريق الأشواك، عبر جونز عن ذلك بطريقة أكثر وضوحاً عندما وصفها بأنها، "جهنم"، مشينا فى شمس محرقة، وبصورة آلية، ونزلنا إلى منحدر من الأحجار وصعدنا منحدراً آخر، لم أستطع المشى بسبب إصبع قدمى الكبير المصاب، من ناحية وحذائى من الناحية الأخرى، حذائى الذى حاول الزبانى الإسكافى إصلاحه عن طريق الزوجين من الأحذية فى زوج واحد، الأمر الذى أسفر عن حذاء ضيق غير مريح مما أسفر عن تمزقه مرة ثانية من الخلف، يزاد على ذلك أن قربوس(★) السَّرج هو واللجام بلغا من السخونة

★ قربوس: الجزء الأمامى من سرج الحصان. (المترجم)

حداً يستحيل معه لمسهما، كانت الأشواك تشكل ستارة ترتفع عن مستوى سرج الحصان بنحو قدم أو قدمين، وعليه كنت أنحنى إلى أن أصل إلى رقبة البغل فى محاولة منى لتجنب الأشواك المدببة، وبعد مسير ثمانى ساعات على هذا المنوال، تصلبت كل عضلة من عضلات ظهرى، وانسلخ جلد ركبتى بسبب جذوع الأشجار التى كانت ركوبتى تمر خلالها، فى الوقت الذى كنت أرفع فيه يدى كى أحمى بهما رأسى، وكان هناك ألم من نوع خاص ينتابنى مع كل هزة نحو الأسفل بفعل نزول الحصان من الأعلى إلى الأوطى؛ ويبدو أن أرجل الحصان فى تلك اللحظات فقدت علاقتها ببقية الحصان، تمزق معطفى المصنوع من الجلد فى نهاية المطاف، وتحول قفازى إلى واق مُخَرَّم للأصابع، وتمزقت قبعتى من أعلاها، كما تمزق المنديل الذى وضعته من تحتها كيما يقينى من الشمس، فى حين تحول بنطالى ورقبة الحذاء إلى وسادة من الدبابيس.

لفح الحر أعيننا، وغطاها التراب والعرق لنصل بعد ذلك إلى قطعة منبسطة من الطمى عليها أكواخ تعد على أصابع اليد الواحدة، نظرت حولى بحثاً عن مكان نظيف، فلم أر شيئاً، ولذلك جلست أرضاً فى المنطقة التى عليها أقل قدر من الأحجار، وكنت لا أعى سوى خليط من أوجاع مختلفة، إلى أن داهمتنى البغال الأولى من القافلة، كانت تلك البغال شبه خائفة مثل المحاربين المنهزمين فى معركة من المعارك، ولم يكن هناك شىء سليم من أمتعتنا سوى الصناديق التى تحتوى على أفلام هارولد جونز، كانت أكياس البراغيث قد مُزِّقت من أطرافها، وانشقت الزكيبة التى تحمل الخيام كما لو كانت أجريت لها عملية فاشلة، اندمرت حقيبة من حقائب الملابس، وضاع قفل حقيبة أخرى، وتمزق غطاء صندوق الأدوية، وتحولت صناديق أدوات الطبخ إلى مجموعة من الأشلاء المربوطة إلى بعضها بحبل من الحبال.

كانت الحاشية مثل الأمتعة بحاجة إلى كثير من الإصلاح، وعليه اغتسلنا مرة ثانية، ومسحنا أنفسنا بالزيت، وحزمنا أشياءنا، وحاولنا لملمة أوجاعنا، التى تركزت على أوجاع فى منتصف ظهورنا، قام جونز بعد ذلك برتق التمزق الذى فى خيمته بصليب من الشريط اللاصق، وراح حاسن ينزع الأشواك منا باستعمال الكماشة، فى حين قام جاربا جورجس بتحويل صناديق عدة إلى

صندوق واحد، واستهلك الإسكافى خيطه فى رتق الأغطية والجوالات، وجرى أيضاً إصلاح معدات مظلاتنا الباغودية(☆) باستعمال الجيائر المصنوعة من أشياء اسطوانية، تزين أيضاً زجاج ساعتى ونظارة شمس هارولد جونز ببعض الأوراق التى التصقت بهما والقدر الأكبر من الزجاج الناجم عن خليط من المربى والبن والمكرونة بعد أن انطحنت مع بعضها.

كان القمر بدراً فى تلك الليلة، كانت الجبال كلها تبدو كما لو كانت لازوردية(☆☆) اللون داخل إطار من الفضة، إلى أن بدأ اللهب يخيف تلك الزرقة بتموجاته الواحدة بعد الأخرى، فى البداية كانت هناك باغودة قرمزية اللون على جبل بعيد، ثم بهتت الخطوط بعد ذلك متحولة إلى إشارة كبيرة التمعت عند منتصف الليل متحدية الحرارة الشديدة لضوء القمر.

كان الفلاحون يحرقون الأعشاب القصيرة لتخصيب التربة التى لم تدرٍ عليهم سوى محصول هزيل، لكن وُلدو جورجس، الذى كان رأسه عامراً باللصوص، أصر على أن تلكٍ كانت إشارة من الإشارات، تشاورنا فيما بيننا مع مقاولى البغال نظراً لأن أتّو بلاكو Belacho كان غير عاطفى.

قال: "هناك لصوص بالفعل؛ وهذا يحتم على القافلة السير مع بعضها البعض، لن يهاجم اللصوص القافلة إذا ما رأوا أوروبيين معها، لأنهم يعرفون أن ذلك يعنى دخول الدولة فى حرب".

قال أتّو دايوتيو Daiwitu متهللاً: "لن ينتظروا معرفة ذلك، نظراً لأن الأوروبيين لا يأتون إلى هذا الطريق، وعليه هيا بنا نستعد".

بدأنا استعدادنا بتعمير مسدساتنا الإضافية، وسلّحنا كلا من الخادم وبالينا مع بقية الأفراد وأصدرنا أوامر بعدم فتح النار على أى شىء سوى العصابة، وأصررنا على تعمير البنادق كلها وأن يحملها أولئك الذين يحملون الذخيرة، فى الصباح بدا الجميع، كما لو كانوا فى استعراض من استعراضات الغرب البرى فى أوليمبيا.

سألنى جونز وأنا أخرج من خيمتى: "ما هو إحساسك الآن؟"

☆ هيكل او معبد صينى او يابانى متعدد الادوار. (المترجم)

☆☆ لازوردى: اللون الازرق الياقوتى. (المترجم)

فكرت لمدة دقيقة، وأنا أتناول بيضة مكسورة، وأخرج جرادة طولها نحو خمس بوصات من العسل.

"لقد تعقدت النتف الباقية من جواربى حول قدمى، وأحس وكأنى نملة تزحف خارجة من مولد كهربائى".

"إحساسك سيئ إلى هذا الحد؟ لقد تعين علىّ الصياح ثلاث مرات هذا الصباح كيما أوقظك فى الصباح، على فكرة، حاسن ليس راغباً فى حمل مسدس، وهو يقول قد ينفجر فى جيبه".

قلت وأنا أشعر بمرارة "واقع الأمر أنه سيخر ساقطاً على الأرض إذا -ما أنفجر- شىء على بعد ميل منه". كانت الجرادة قد خلفت شيئاً منها فى الحسالة المتبقية من العسل الذى شربته؛ وكان قماش السرج الذى كان يتداخل مع عظامى طوال أسابيع عدة قد تحول إلى خرق ممزقة.

بينما كنت أدرس تأثير صناديق جابرا جورجس المرقعة، التى كانت تبرز منها المقابض والبزابيز من أماكن غير متوقعة، تجمع حولنا جمهور كبير طلباً للأدوية، كانوا يحضرون معهم قليلا من الحليب فى قرعات مفرَّغة، ويعتذرون عن صغر الكمية نظراً لجفاف الأرض، وراحوا يكشفون عن التهابات ناتجة عن الجَربَ، كما أرونى أيضاً طفلاً له عظمتان بارزتان فى مؤخرة رأسه، فضلاً عن أشياء سيئة أخرى، وقد اندهشت من أن الجفاف الذى كانوا يشتكون منه، والذى كان بمثابة واق من العدوى، كان أكثر فائدة لهم من الطبابة المراهقة.

سألت الطفل صاحب الجمجمة المكشوفة "هل تؤلمك العظمتان؟"

ردت على أمه "لا تؤلمانه عندما يكون القمر مكتملاً، لكنهما تؤلمانه عندما يكون القمر هلالاً".

وافق الآخرون أن آلامهم تتزايد عند بداية الشهر القمرى أو فى نهايته، كان هناك حالة واحدة ظريفة لعفريت صغير كان يحس ألماً فى وسطه، وكنت على وشك أن أصف له العلاج الواضح، عندما قام أخوه الأكبر بتوضيح الأمر بأن قال: إنه أمسك بطائر صغير وأكله وهو حى.

قال وهو يحرك فكيه تأكيداً لما يقول: "لم يمضغه جيداً، وأن الطائر لا يزال حياً فى داخله، هذا الذى يحسه هو أثر منقار الطائر".

اتفقنا على أن ذلك كان أمراً سيئاً للغاية، وألقى حاسن محاضرة، لا عن القسوة، ولكن عن الاقتصاد، نظراً لأن الحبارى الصغيرة يمكن تشجيعها لتصبح حبارى كبيرة، إذا لم يجر التهامها قبل الأوان.

غادرنا كوا آمبا Kwa Amba ونزلنا فى اتجاه، تكَّازى Takkazye المضللة والمراوِغة، والتى تخفى شريط مائها فى مكان بعيد فى الأسفل فيما بين القمم الصخرية والأجمات الشوكية الملتفة، كانت الأرض مخيفة، وكان جفافها الناجم عن العطش الشديد قد حول لونها إلى اللون الرمادى على العكس من كل ما رأيته ما عدا شجرة الصمغ التى شاهدتها فى أستراليا، كانت الصخور والأشجار الغريبة المتجعدة تبدو وكأنها خرق الزمن، ملفوفة فى عباءة الجفاف، منكمشة وقد تغير لونها بفعل الشمس، كان العشب بلا لون وكان الريف كله أبيض اللون وبلا عصارة، كانت الأشجار منحنية نحو الأرض وعليها كتل من الأغصان المفككة، على نحو يلهم بصورة من الصور العجيبة التى يرسمها راكخام Rackham، كان الناس أيضاً يبدون بلا دم وأجسامهم متجعدة مثل الصخور التى أحرقت جلد بشراتهم المتشققة التى كانوا يلفونها فى جلود الحيوانات، الشعر، والوجوه، والعيون، كلها كانت تبدو رصاصية اللون بشكل عجيب، بسبب التراب المتراكم عليها، جلسنا على صخرة ربما كانت غطاء لفرن من أفران جهنم، وأكلنا جناح دجاجة الذى كان طعمه شبيهاً بطعم ومذاق لحاء الشجر الجاف، ولاحظت أن كل ظفر من أظافرنا كان مشقوقاً.

بعد أن انهزمنا فى صراعنا مع أوتار أرجل الطائر المصنوعة من أمعاء الخيل والحمير والغنم، نزلنا بالقافلة إلى آخر منحدر صخرى، وبعد نزع الشوك من كل أفراد القافلة قررنا على الفور عبور المياه الخضراء البارِدة برودة مستساغة ولذيذة، وهنا رحنا نستمع إلى جوقة من الاحتجاج من وُلدو سمبات، وصرخات وحجج من جابرا جورجس، وصخب وضجيج من باقى أفراد القافلة حول الموضوع نفسه، كان المرشد قد أمسك بدجاجة وربطها بطريقة مريحة فى التجويف فيما بين علبتين من علب الأفلام، مما يعنى ضمان وجود العشاء فى حال عدم مصادفة أية قرية على طريقنا، أطلق المرشد سراح تلك الدجاجة وكان على وشك إلقائها فى النهر، عندما أمسكت أنا بذراعه.

سألت حاسن "هل جُن جنونه؟"

غمغم مترجمنا المزعوم "لا،لا". وبلا أى مبرر راح ذلك المترجم يشارك فى المعركة الكلامية الأمر الذى حتم علىَّ الاستعانة بجابرا جورجس، وعرفت من جابرا أنه جرت العادة عند عبور نهر تكَّازى Takkazye أن تجرى التضحية أما لإله الفيضان القديم أو للتماسيح.

قلت محتجة على هذا الكلام "الماء الذى فى النهر لا يكفى لتغطية سمكة من أسماك الأطروط النهرية، ناهيك عن أى شىء خطير آخر، أنت لست بحاجة إلى التضحية بغدائى فى كل مرة أود فيها عبور حفرة ضحلة بالطريق تمتلئ بمياه المطر".

بدأ الشك يتسرب إلى نفسٍ جابرا جورجس، هز كتفيه وراح يتكلم عن "هؤلاء الناس الجاهلين،" لكنه أنقذ، عندما وجدت أن الحل الوحيد لجعل وُلْدو سمبات يمضى قدماً، يتمثل فى موافقتى على التخلى عن الدجاجة شريطة قتلها قبل إلقائها فى الماء، حدثت مشادة كلامية أخرى حول هذا الموضوع، لكنى بقيت على عنادى، وعليه وفى ضوء الغمغمة والتمتمة حول "الحظ السيئ"، وحول التوسل بالقديسين المسيحيين، جرى تقديم دجاجة ميتة وفاءً بطقس وثنى مثل الخرافة التى بنى عليها.

مشينا فى أعالى حوض النهر مسافة ميل تقريباً، عبرنا خلالها الماء المنحسر مرات عدة إلى أن وصلنا رافداً من روافد نهر تكَّازى اسمه تخن Tekhen، متفرعا من الاتجاه الشمالى الغربى، مشى وُلْدو سمبات فى أعالى ذلك الرافد على الرغم من احتياجات مقاولى البغال الغاضبين، اللذين تتألم أقدامهما من أى نوع من أنواع المسارات والمدقات الجبلية أكثر منها من الأحجار الزَّلقة، المغطاة بالطمى فى هذا المكان الذى كان مجرى مائياً فى يوم من الأيام، سرنا مدة ساعتين ونحن نلهث خلال جو حار وخانق وفاسد الهواء، محققين بذلك تقدماً طفيفاً على الأحجار المستديرة، إلى حد أن الأمر بدا لنا وكأننا نخطو خطوتين إلى الوراء مقابل كل خطوة نخطوها إلى الأمام، بعد ذلك، ومن حسن حظنا، ضل مرشدنا، لم يضل الطريق، وإنما شرد ذهنه، لأن مسارنا انعطف إلى اتجاه الشمال، إلى حد أن المرشد قال لنا وهو مرعوب، إننا سنجد أنفسنا مرة أخرى فى دبرا تابور Debra Tabor،

وافقت على ما قيل فى هدوء وأخرجت خارطة، لم تكن خاصة بالتجوال فى تخن Tekhen، وبعد دراسة مبدئية، أعلنت أن أول ممر جبلى على يميننا سيوصلنا إلى كواليسا Kwalissa، وصلنا كواليسا بالفعل حسبما قلت وخيمنا تحت مجموعة قليلة من الأكواخ التى تحيط بها الأشجار، التى بدت لى وكأنها تحمل بدلاً من الزهور فُرُشا ناعمة ومفرَّاة شبيهة بالقوارير.

بدأت الليالى، اعتباراً من العاصفة التى هبت علينا فى لالبيلا، تصطبغ بحرارة النهارات، وكان البدر يغرق تلك الليالى فى سحر أبيض، كانت الدنيا مشدودة، بل ومتوترة إلى حد السكون، الأمر الذى جعل أغنية الجراد شبيهة بالنغمة الرئيسة التى يقال إن كل جسم بشرى يجب أن يستجيب لها عند نقطة الانفصال، لم ينم أحد منا، وقاسى الجميع من النورالجيا(☆).

بدأ يومنا الخامس من لالبيلا بداية طيبة، نظراً لأنه على الرغم من عدم ظهور الماء رسمياً، كما لو كان يتحدى ويحتقر الخطوط الحمراء الموجودة على الخارطة، فقد خرج من منطقة الأشواك واتسع ليصبح مساراً عرضه نحو قدمين.

قال جونز، الذى كان لا يزال يحلم بنصب خيمة بجوار نهر حقيقى فيه ماء وليس فيه مجرد أحجار وروث المواشى "إذا ما استمررينا بهذا المعدل فسوف نصل إلى زوس جورجس Zos Gorgis فى ساعة مبكرة وسوف أتمكن من الاغتسال". عندما كنا فى دمبيتا Dembeta، قد رأينا من بعد ولأول مرة فى أقصى الشمال الغربى، الأرض المربعة الكبيرة المنبسطة فى منطقة زوس Zos؛ رأيناها هى والصخرة المصاحبة لها التى على شكل الرغيف الريفى، الآن تبدو القمة الصخرية وكأن عليها مفرش بنفسجى اللون، وهناك صف كامل من القمم الصخرية التى على شكل أرغفة ريفية وتمتد بطول السلسلة الجبلية التى يتحتم علينا عبورها ونحن فى طريقنا إلى جوندار.

قلت "لحد الآن، اتضح أن الطريق المختصر كان ناجحاً".

رد جونز الذى كان أمضى ساعات فى نزع سبعة أنواع من الشوك من مختلف أطرافه "نعم، نعم".

☆ النورالجيا: الم حاد فى اعصاب الراس او الوجه غالباً. (المترجم)

صمت جونز لحظة وعيناه مثبتتان على ركبتى العاريتين والمصابتين بفعل التمزق الأخير "البغال كلها عرجاء، ونحن لم تعد معنا قطعة واحدة سليمة من الأمتعة أما فيما يتعلق بملابسنا"

كنت سعيدة لأن وُلدو سمبات آثر الاختفاء فى تلك اللحظة، فى مجرى من المجارى المائية الجافة الخفيضة، التى يَنْشَدُّ إليها على نحو يصعب تفسيره، ولما كان ذلك المجرى الجاف يتجه جنوباً بصورة مباشرة، فقد رحنا نحتج على مرشدنا ونحثه على الرجوع إلى المسار (المدق) الواسع الذى بدا أنه يتجه مباشرة إلى زوس Zos، سار المرشد بائساً فى المسار الذى حددناه، لكنه بعد أقل من ميل واحد، تهلل وجهه، وصم أذنيه عن النداءات كلها ودار حول جانب جبل من الجبال فوق خيط من التراب المدعوس لا يتناسب مع "الطريق" الذى نسير عليه.

"هذا الطريق دائرى، دُر أو أرجع إلى الخلف(☆) Tamallas".

كانت تلك المرة الأولى التى سمعت فيها تلك الكلمة المريعة، التى تملكتنا طيلة أيام بعد ذلك، استعمل وُلدو سمبات هذه الكلمة استعمالاً صحيحاً، نظراً لأن طريقه كان مرناً مثل سمك الانكليس وشديد الروغان، كنت كلما أوضحت له طريقاً مباشراً وأوسع من الطريق الذى نسير فيه، يروح يؤكد لى أن هذا الطريق لا يوصل إلا إلى القرية القريبة.

قلت: "عقله مشروخ".

أردف جونز "أو قد يكون من أهل اليسار".

قدم حاسن التفسير الصحيح عندما بدأت الشمس الاختفاء خلف الأفق، وبعد أن تهنا فى دوامة من الجبال المستديرة، كان كل واحد منها أعلى من سابقه، الأمر الذى حجب عنا رؤية أى شئ.

أعلن المترجم "المرشد لا يعرف أى طريق من الطرق المباشرة، هو لا يعرف سوى الطرق الطويلة عن طريق مجارى الأنهار وعن طريق الصخور، وهذه الطرق لا تقترب من أية قرية من القرى".

قلت معترضة "لكن ما السبب، ما سبب ذلك؟"

☆ اوردت المؤلفة هذه الكلمة باللغة الامهرية Tamallas. (المترجم)

"السبب ببساطة هو أن هذا الرجل منذ سبع سنوات، كان يبيع العبيد عن طريق هذه الطرق الخفية، كان يتحتم عليه التزام الحرص عندما يمسك بالعبيد، ويروح يقتادهم على طول الأنهار وتحت الأجمات، بعيداً عن القرى، التى يلقى فيها رجال الشرطة القبض عليه ويضعونه فى السجن".

هذا يعنى أن مرشدنا كان من قبل واحداً من تجار الرقيق، وأنه أرغم على ترك هذا العمل المربح عندما بدأ سريان القانون الذى يكافح هذا النوع من الاتجار، لكن معرفته بالطرق الفرعية، كانت تناسب العبيد الخائفين الذين لا يستطيعون الاحتجاج أو المقاومة، وكانت تدخله أيضاً فى منازعات شرسة مع القافلة كلها، وسط ضجيج صادر عن ستة عشر صوتاً متنازعاً، اقتربنا من حوض نهر آخر، ومن باب تجنبنا لحوض ذلك النهر، سارعت أنا وجونز ومعنا حاسن، وتسلقنا المطلع العشرين أو الثلاثين من المطالع المفروشة بالشوك، والحشائش ذات الأطراف المدببة، ثم جلسنا فيما بين المطلع الحادى والعشرين أو الحادى والثلاثين، انتظاراً لمجئ القافلة، لكن القافلة لم تجئ.

قال جونز وهو يبدأ عملية اغتساله الصغيرة "إنهم يُسَرُّون عن أنفسهم فى النهر".

رددت عليه "قد نصل جوندار فى غضون ثلاثة أيام، وقد نستطيع الحصول هناك على شئ من الماء".

وصل وُلْدو سيليسِّى بعد ذلك وهو يلهث، ليروى لنا حكاية عجيبة.

"هناك لصوص بجوار النهر، كانت البغال تبحث عن شئ من الماء فيما بين الصخور، واندفع الرجال عليها قادمين من بين الأجمات، وأمسكوا بالبغال وحاولوا سحبها إلى مكان بعيد".

بدت لى فكرة سحب أى إنسان لبغل من البغال أو دفعه، أو إقناعه بأية طريقة فى اتجاه غير الاتجاه المحدد بواسطة مقاولى البغال، على أنها فكرة مضحكة، لكنى قاطعت وُلْدى سيليسى.

"أنتم معكم خمس بنادق، هل خطر ببالكم استعمال هذه البنادق؟"

ضحك وُلدو سيليسى، فى البداية حدث عراك بين مقاولى البغال من ناحية واللصوص المنتظرين من الناحية الأخرى، هذا فى الوقت الذى قال فيه

السايس "تحدثنا معهم لإيقافهم". بعد ذلك، وعندما بدأت البغال تعترض على ذلك الجزء من العظمة التى بين كلبين، راحت ترفس بعد ذلك كل الناس بلا تمييز، وحدث أن كان الزبانيان يحملان بندقيتيهما على ظهريهما، مع انطلاق الطلقة الأولى لاذ اللصوص بالفرار إلى داخل الغابة، وراحت القافلة تهنئ نفسها وتهنئ القديسين بانتصارها، هذا الجهد المحبط كان هو أقصى ما حققته تلك العصابة، والسبب فى ذلك عجلنا فى سيرنا بضعة أميال أخرى، وخيمنا فى موقع استراتيجى، يجمع بين أكبر قدر من المتاعب والتحكم فى جميع المداخل المؤدية إليه، وبقينا فى ذلك المكان بلا متاعب، أضفى حاسن على الموقف شيئاً من المرح، كما هى عادته، لأننا عندما أرسلناه لشراء شىء من العلف من أقرب الأكواخ، أخذ معه كل حملة بنادق القافلة، فيما عدا واحدة من البنادق نظراً لحدوث عطل فيها عندما انحشرت طلقة فى خزينتها، كان المترجم قد عاد عندما انتهى جونز فعلاً من إصلاح ذلك العُطل، عن طريق تفريغ الذخيرة من خزينة البندقية، كان المترجم يلوح بدجاجة وهو يمسك بها من أرجلها، وهنا قام حاسن بوصف الأخطار التى ستترتب على إحضار هذه الدجاجة، وأثناء انهماكه فى حكايته، أمسك بالبندقية وانحنى عليها بطريقة عشوائية وكان إبهامه على ماسورة البندقية، وذقنه متكئاً على الماسورة، وكانت أحدى رجليه تضغط على الزناد.

قال جونز "احترس! هذه البندقية قد تنطلق فى أى وقت، وأنت تعلم ذلك".

بدت الدهشة على حاسن، قال: "أوه، لا، إنها ليست من طبيعة المسدسات التى تحملونها".

الفصل السابع عشر

قصور جُندار

اكتنف شيء من الشك رحيلنا في اليوم التالي، فقد دخل المرشد عمداً إلى حرش راح يَسِمُنا من جديد، أنقذنا صبى صغير، ووضعنا على ما سمَّاه "الطريق المباشر" إلى زوس جورجس Zos Gorgis، بعد مسير ميل واحد ضاع منا ذلك المدق (الطريق) وسط الأجمات الخضراء التي تحتوي على عيدان النباتات المدببة الخادعة، أمضينا شيئاً من الوقت في صراعنا مع متاهة من الأعشاب القصيرة، كان المرشد يبتسم طوالها ابتسامة غامضة تماماً، اكتشف هارولد جونز وأنا أيضاً بعد ذلك مسارات أفقدتنا شيئاً من خيبة الأمل، بعد ثلاث ساعات، بدأ ثلاثة أو أربعة منا يتسلقون جانب الجبل بطريقة مباشرة، ونحن نسحب بغالنا خلفنا، تناهى إلينا قادماً من وسط غيضة من النباتات المدببة، كانت في الأسفل، صوت جوقة من الصفير والصياح.

ترجم لنا حاسن "الأمتعة مقسمة على ثلاث جماعات، لقد ضل آتّو بيلاكو ومعه واحدة من هذه الجماعات، وفقدت الجماعة بغلاً، وضاع أيضاً ذلك الرجل الذي راح يبحث عن ذلك البغل، هذا يعني أن الجميع أصبحوا في عداد المفقودين".

كانت جوقة الشكوى والتوسلات تتناهى إلى مسامعنا من نحو ستة أماكن مختلفة كانت بعيدة عنا تماماً.

راح جونز وأنا أيضاً ننظر إلى بعضنا البعض في شيء من الإحساس بالذنب.

قال فجأة ذلك الشاب الملتحي المتعجل الذي يرتدي معطفاً جلدياً ملطخاً

بالطين وقلشينة متسلٍ الأطراف وبشرته مشلَّخة ونظارته الشمسية مشروخة ويسحب فى ذراعه بغلاً غاضباً.

"لن يصلوا مطلقاً إلى هنا، هذا أمر مستحيل تماماً".

قلت دونما اكتراث "أنا لا يهمنى هذا، سوف أصل إلى القمة لأرى أين نحن".

واصلنا سيرنا بلا كلام، ونحن نلهث وننزلق إلى أن أوصلتنا الصخرة الأخيرة فجأة إلى كومة من الدريس مكومة على حافة الصخرة، كان هناك حقل يمتد خلف هذه الكومة، ومن فوق هذا الحقل يوجد ذلك الجبل غير المرقم الذى ربما كان آخر القمم أو مجرد قمة من سلسلة من القمم لا حصر لها.

من حسن حظنا أن كانت تلك القمة آخر القمم، كانت تلك القمة متوجة بثلاثة أو أربعة أكواخ حقيرة، كانت النساء فيها يرقصن ويندبن يولولن على قريب فقدنه منذ أسبوع، ورحن يطلن النظر إلينا وهن يضربن بأيديهن ويهزونها كما لو كن انتهينا من غسلها، عندما تحدث السائس إليهن، صرخن وهربن، بعد أن أحس السايس بالارتباك، نظراً لأنه كان شاباً صاحب شخصية، ثم نظر إلينا وهو يكشر عن أسنانه.

"هن لسن معتادات على الغرباء".

كنا بالفعل تحت صخرة زوس الضخمة، وقد اكتست سلسلة الصخور التى أمامنا مسحة من الحُمرة لتكشف لنا عن الواجهة الصخرية المنحوتة زوس جورجس، التى هى عبارة عن كنيسة تحت الأرض، بعد أن أوفدنا حاسن ليحصل لنا على مزيد من عينات المرشدين، عدنا لتشجيع القافلة، انتظرنا مدة ساعة على قمة الصخرة، ونحن نصيح بصوت عال لإصدار التعليمات وتشجيع الأفراد.

قلت: "ببساطة شديدة جداً أنا لن أجازف بالنزول إلى الأسفل".

كرر جونز كلامه "أنا لا أود أن أراهم يصعدون إلى الأعلى".

عندما تمكن آخر الدواب، وبطريقة لا تخطر على البال، الوصول إلى القمة، اخترنا من بين المجندين الذين أحضرهم حاسن، أقلهم غباء، وعبرنا

سلسلة الصخور الشبيهة بأقماع السكر، ببطء، بل ببطء شديد جداً، ودرنا خلال الرمل والصخور، وعدد كبير من الروابى المستوية المتوجة كل منها بنباتات الفربيون وقرية من القرى، وصف ذلك اليوم سيكون مرهقاً بكل تأكيد مثل ساعاته التى لم تنته.

أخذنا بالقوة مرشداً جديداً من كل قرية، نظراً لأن المرشد العجوز فقد صوابه، أو ضاع منه الطريق، أو الاثنين معاً، وتَركَنا بصورة مفاجئة، ملوحاً بذراعيه فى اتجاهين، الشمال، الغرب، "جُندار موجودة فى ذلك الاتجاه"، ثم جنوب، غرب، "ذلك هو الطريق، أرجعوا إلى الخلف! الطريق دائرى".

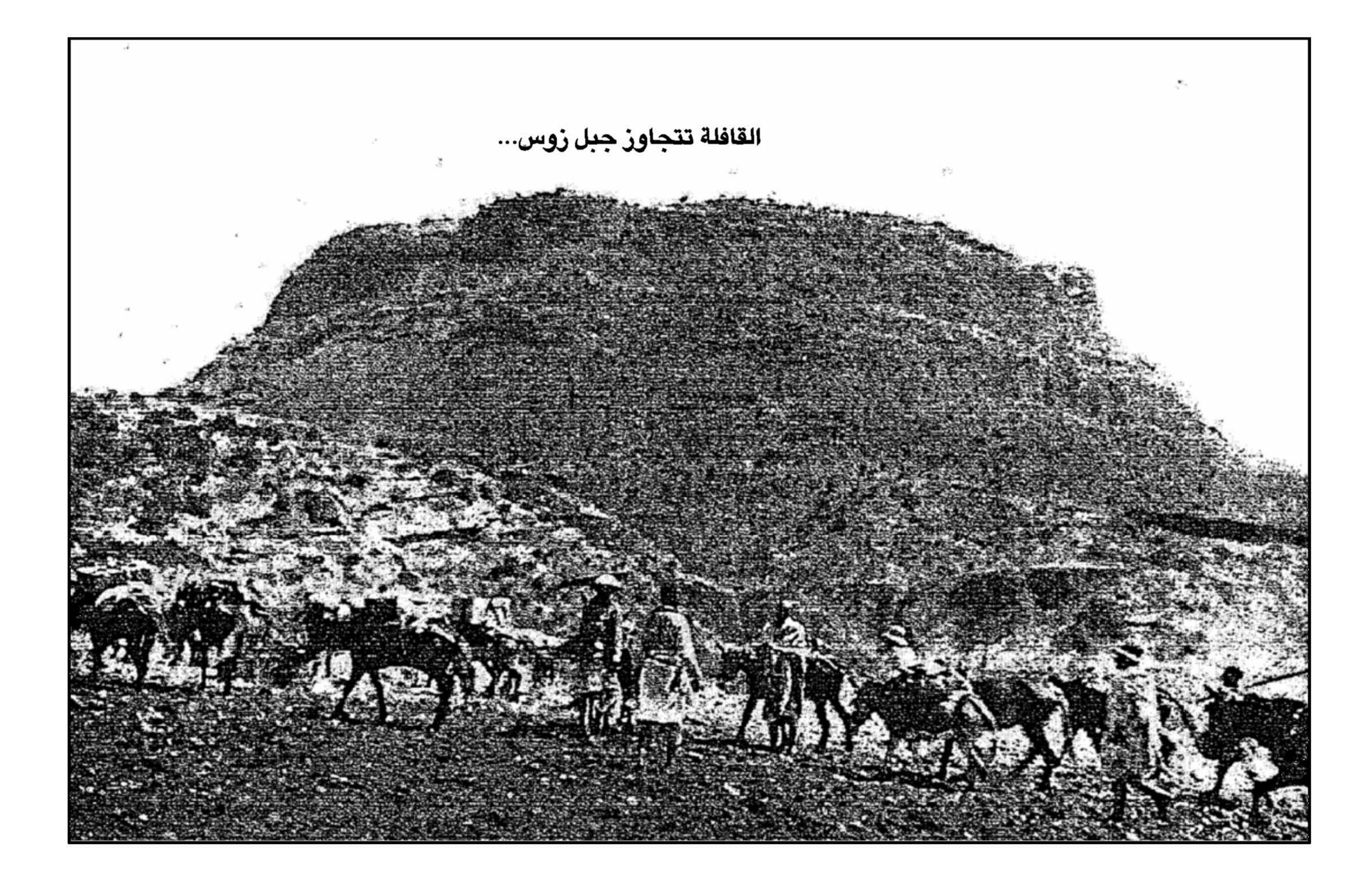
استدار الطريق واستدرنا نحن معه! وعلى الفور، تجولنا خلال ساعة مبكرة من فترة العصر، فى نحو ست قرى، تمكنا من تحديد موقعها على الخارطة عندما أضفنا إلى اسمها ـ ميديرج ـ Mederje مقطعاً ليصبح - ميديردنج– Mederdinje، أخذنا من ميديردنج ثلاثة مرشدين وشرطى، لمدة ساعتين هما الأكثر صخباً فى زمن الرحلة التى تميزت بقوتها الرئوية، وخاصة عندما رحنا نتجول هنا وهناك، وظهورنا أو بالأحرى أكتافنا اليمنى فى اتجاه جُندار، عندما كنت أحدد الاتجاه الصحيح عن طريق البوصلة، كان المرشدون يتفقون معى ويروحون يلوحون بمشاعيبهم(☆) فى اتجاهات ثلاثة مختلفة، ويعلنون فى آن واحد، "هذا هو الطريق الرئيس، استديروا! استديروا"!

عبرنا نهراً آخر وبدأ وُلْدو سمبات يستعيد اهتمامه بالحياة.

قال "صحيح أنى فقدت صوابى بعض الوقت، حدث كلام كثير، أما الآن، وحتى عندما أغلق عينىَّ، لا يمكن أن أضل الطريق إلى جُندار".

سارع وُلْدو سمبات إلى المقدمة، وبينما كان جونز وجابرا جورجس يبحثان بين الأحجار عن جيب من جيوب الماء النظيف، تبعتهما، وبعد مسير ثلاثمائة ياردة اختفى المدق (الطريق) فى رقعة مزروعة بنبات القطن، وبدون اهتمام أو إحساس بقيت ثابتة على سرج الحصان، فى الوقت الذى بدا فيه التردد على المرشد، وشاهدت اثنين أسودين يقتربان منا وسألتهما:

☆ واحدة -مشعاب، والمشعاب عند البدو، عبارة عن عصا، فى اعلاها نتوء جانبى يجعلها على شكل V، (المترجم)



القافلة تتجاوز جبل زوس...

"أين الطريق؟"

تمتم أحدهما "إيه؟"

قال الآخر "أو(*) Au (نعم)"

كرر وُلدو سمبات سؤاله.

قال العبدان دفعة واحدة "استدر، عد إلى الخلف".

خيمنا فى حقل القطن وأمطرت السماء.

بعد ذلك بفترة وعندما أوقفت القهوة هى والأمل المرتقب فى الحصول على مرشد جديد تماماً، إحساسنا بالمزاح، كان جونز قد راح يبدى ملاحظات مريرة على الطريق المختصر الذى وافقت عليه، حدثت جلبة خارج المخيم.

صاح جابرا جورجس "جاء أحد الأعيان لزيارتكم"، تعين علينا ونحن بلا اغتسال وملطخين بالوحل وممزقين استقبال هذه الشخصية، التى ترتدى عباءة شديدة السواد، وتحمل مظلة شديدة البياض، وبنطال غاية فى النظافة؛ ذلك هو الفيترارى تاباجا Tabaja، ومن حوله عشرون بندقية وابتسامة تتلألأ مشرقة مثل مواسير تلك البنادق، تبادلنا أحلى ما عندنا من كلام وتحيات معقدة لمدة نحو نصف ساعة، ثم بدأ حوارنا يصطبغ بصبغة الواقع، لأن الرجل عرض علينا مرشداً.

سأله جونز "ما نوع هذا المرشد؟"

أخيراً اقترح علينا الفيترارى وهو يدخن من باب الفضول سيجارة مذهَّبة الطِّرف، مرافقته عند عودته فى اليوم التالى، إلى منزله على "طريق" جُندار، وافقت على ذلك شاكرة له زيارته وانصرف الزائر إلى حال سبيله، بعد أن أرسل إلىَّ مجموعة من الدواجن، على أن يأخذ فى مقابلها صابونة واحدة، قال "السبب فى ذلك أن خدمى يقولون: إن ملابسهم متسخة تماماً وإنهم سيشعرون بالحرج أثناء المرور أمامك، وأنهم يتعين عليهم الابتعاد". لم ترق لى فكرة لعبة الاستغماية بين التلال مع مرشد عقد العزم على عدم الظهور، وعليه ضاعفت مساهمتى فى عملية النظافة.

كان رحيلنا فى صباح اليوم التالى مؤثراً جداً وقد شاهده القرويون جميعاً؛

(*) Au: كلمة امهرية بمعنى "نعم".(المترجم)

الذين تبعونا إلى مراحل تناسب مقاماتهم، فى البداية انصرف الفيترارى على بغل غارق فى سرج من القماش فضى اللون والقماش قرمزى اللون، ومعه غلام ظريف، أغلب الظن أنه يمانى، يرتدى غطاء رأس مخططا ومن فوقه عمامة تجمع بين اللونين الأبيض والأحمر، وخلفه كان هناك شابان أحدهما يحمل على رأسه قبعة التاباجى التى تحميه من الشمس؛ جرت العادة أن يحمل الشاب هذه القبعة على رأسه الذى يختفى تماماً داخل تلك القبعة؛ أما الشاب الثانى فكان يحمل غطاء رأس صوفياً أسود وفرشاة ملابس، أما الحذاء والبندقية فكان يحملهما زوج آخر من الشبان الأكبر سناً، أما المؤخرة فكانت عبارة عن حملة البنادق والخدم الذى يحمل الواحد منهم نبوتاً طوله ثمانى أقدام.

فى قرية تلاَّ Talla الكبيرة، أكدوا لنا أننا كنا فعلاً على الطريق الرئيسى، لكن، من سوء الحظ أن الناس لم يهتموا مطلقاً بزراعة القطن أو الحبوب عبر هذا الطريق، ولذلك شق علينا التحقق من صحة العبارة، تجاوزنا أعداداً كبيرة من القرى، التى حصلت على أسمائها كلها لمعلوماتى الخاصة، لكن لم تظهر أى قرية من تلك القرى على الخارطة، ولم يستطع أحد بدءاً من الفيترارى إلى أكبر السكان سناً تعرف أى مكان من الأماكن الموقعة على الخارطة باستثناء دابوسج Dabosje وواحة مريم اللتين قالوا عنهما إنهما بعيدتان جداً، وعليه بدأنا نتشكك فى المكان الذى كنا فيه، وبدأنا أيضاً نفكر فى الوقت الذى سنصل فيه إلى جُندار.

عند كوخ من الأكواخ باعنى صبى صغير ربع جالون من الحليب لقاء قلم من أقلام الرصاص، ولما كان الصبى لا يعرف القراءة أو الكتابة تعجبنا من طلبه للقلم الرصاص.

قال حاسن "سيأخذه إلى رجل حكيم كى يكتب له رقية تشفى بطنه".

"ألم يكن أبسط لو أنى أعطيته شيئاً من الدواء؟"

حتى المترجم "أفضل ألا تفعلى ذلك، هؤلاء الناس جهلة تماماً".

خطر ببالى ذلك المجهود الذى بذلته من قبل فى علاج دُمّل، باستعمال مرهم حمض البوريك، عندما جاءنى المريض ليقول لى: إنه لم يعجبه طعم الدواء، لكنه أفلح فى أكل العلاج، أى الأنبوب كله، بأن أضاف إليه شيئاً من العسل!

ابتسمت الأرض لنا فى ذلك اليوم بذهب الشعير والزهور البرية وشجرة بازلاء ارتفاعها نحو ١٢ قدماً، تحمل قروناً مثل البالونات الخضراء، عندما بدأت الجبال الملونة بلون الخريف الأمريكى، هى والأشجار الشوكية قرمزية اللحاء تطوِّق المزارع، كانت تلك المزارع عامرة بالغزال والدجاج الغينى، حاول أحد جنود الفيتراري إطلاق طلقة على قطيع من الطيور السمينة رمادية اللون، عندما كانت تلك الطيور واقفة تراقبه من مسافة خمس عشرة ياردة، أخطأ الجندى هذه الطيور، على الرغم من أن بندقيته كانت ترتكز على شجرة من الأشجار، وكان هو بدوره جالساً أرضاً، وراح يصوب تصويباً دقيقاً طوال بضع دقائق.

قال حاسن "الحبشى لا يستطيع مطلقاً الإمساك بالبندقية محافظاً على ثباتها؛ يده تهتز دائماً، لأنه يتناول قدراً كبيراً من الفلفل والملح اللذين يجعلانه عطشاناً ومن ثم يشرب كثيراً".

وصلنا عند منتصف فترة الظهيرة إلى مقاطعة تباجا، وبعد أن أخفق التباجا فى حثنا على تمضية الليل فى مقاطعته، حتى يمكنه أن يزودنا بكل صنوف الطعام والعلف اللازم للماشية، ترك القافلة تمضى فى طريقها بعد أن قدم لها هدية وداع من البيرة، لكنه أصر على حتمية زيارتنا له فى منزله.

كان منزل التباجا عبارة عن كوخ كبير، فيه قسم معزول ليقيم فيه حمار، ليكون ذيله بمثابة مذبة عندما يجلس الإنسان على ذلك الجانب من نار الحطب، كان ثلث المساحة المتبقية مشغولاً بكمية كبيرة من القطن الخام ونحو ستة براميل كبيرة مصنوعة من الطين ومملوءة بالمنتج نفسه.

"أنا لا أفعل شيئاً لمزارعى، أتركها وشأنها وهى تعطينى ثلاثة محاصيل فى العام، الريف كما ترون الآن يكتسى اللون الأبيض لأن الزرع أصبح ناضجاً، لن أجنى هذا القطن، ما الذى يمكن أن أفعله؟ منزلى مملوء بالفعل بالقطن".

"بوسعك الحصول على سعر طيب لهذا المحصول فى أديس أبابا".

قال تباجا بلا مبالاة : "أديس أبابا بعيدة جداً عن هنا".

جلسنا على قرمة خشبية مغطاة بجلود عدة، إلى أن قام أحد الأشخاص بإحضار كرسى مصنوع من مثلث من الأغصان المغضَّنة، مقعده مصنوع من

شـرائط من الجلد، وفى ركن من الأركـان كـانت تجلس سـمـراء مـثل سـمـرة المكسرات، مـضفورة الشـعـر، عارضـة أعظم الجمـال الحبشى، وجـميلة الرأس، كـانت تنسج سلة مـن الحـشـائش مـتـعـددة الألوان، لـم تلق لنا بـالاً سـوى أنهـا أعطت قـرعـة مفـرَّغـة إلى عـبـد من العبـيـد مع إشـارة منهـا فى اتجـاهنـا، كـان الحليب الموجود داخل هذه القرعة عامراً بمادة غـريبة لكنه كان منعشاً للغاية، سرنا اعتماداً على قوة هذا الحليب، حتى الساعة الرابعة وخيمنا فى الأجمة القريبة الموجودة تحت سلسلة التلال الموجودة فى الخلف، والتى أكدوا لنا أنها جُندار.

قال السايس: "مسير يوم".

قال حاسن متنبئاً "سنكون هناك قبل دخول وقت الظهر".

غمغم آتُّو بيلاكو، الذى أصيب بقطع فى رجله "لن تروا جُندار أثناء الليل".

أغـار اللصوص فى تلك الليلة إغارة ناجحـة على بغالنـا ونجحـوا فى سرقة أفضل هذه البغال، ساعة أن كانت تلك البغال عائدة من السُّقيا، وهذا هو أتُّو بيلاكو، الذى ليس لديه استـعـداد لإضـاعـة ولو طلقـة واحـدة أو حتى ذرة ملح فى سـبـيـل إطعـام القـافلة، مـرتكناً فـى ذلك على العنـاية الإلهـيـة أو علىَّ فى توفير الشعير المطلوب، ينظر إلى هذه الخسارة بابتسامة وهو يهز كتفيه.

قـال: "إنه الحظ". وتركنى مندهشـة من العقليـة التى لن تـخـاطر بشـىء من أجل النجـاح، لكنهـا تقـبل أبشـع أشكال الفشل برباطة جـأش، الحـبـشى مقـامـر سيىء لكنه خـاسـر جيد، أرسلنا على الفـور رسـالة إلى الفيـتـرارى، نطلب منه العـون فى اسـتـرداد بغلنا، وجـاء رده مـقنعـاً لنا إذ أبلغنـا أن الحـبـشى يتـحـمل خسائر الآخرين أكثر من تحمله لخسائره الشخصية.

رد علينا حارس القانون "إن كل ما يضيع فى هذا الحى لا يعود مطلقاً، لأن اللصـوص، والقـرويين، ورؤسـاء القـرى متـحـالفـون فـيـمـا بـينهم ويقـتـسـمـون الأرباح".

لم يكن أمـامنا شـىء سوى الابتـعـاد قـدر المستطاع عن هذه المقـاطعة، وعليه سـرنا مـدة عـشـر سـاعـات ونصف السـاعـة فى اليوم التـالى، تجـاوزنـا خـلالها دنكاز Dankaz عند الظهر، لكن جُندار ظلت بعيدة عنا بشكل غامض.



الجدران المهدَّمة فى جُندار،



العقد الموجود فوق الممر الذى يُطَوِّق الحطام الرئيسى فى جُندار

سألنا فلاحاً عند الظهر "كم تبعد جُندار عن هنا؟"

رد علينا مستبشراً "ساعتين"؛ واستدار ليضيف "لن تصلوا إليها هذه الليلة".

وفى ضوء حيرتنا سألنّا عابر السبيل التالى.

قال "ستكون جُندار على بعد مسير ساعة واحدة من المكان الذى ستخيمون فيه هذه الليلة".

"ما المكان الذى تقصده؟ أين، فى رأيك، المكان الذى من المفترض أن نخيم فيه الليلة؟"

أجابنى "كيف أعرف ذلك، هذا يعتمد على سيركم".

أمضينا فترة الصباح فى الصعود إلى الأرض الضيقة المستوية التى تجثم عليها دنكاز Dankaz التى تهب عليها الريح، شاهدنا بحيرة تسانا Tsana، التى بدت لنا من بعد وكأنها صفحة من الأوبال(☆) والفيروز(☆☆)، وأمضينا فترة العصر فى النزول من الرفوف الصخرية التى على الجانب الآخر البعيد، انهمر علينا المطر أثناء وصولنا لأحد الوديان وإرشادنا للقافلة، ونحن جاهزون لاستخدام مسدساتنا إذا ما تطلب الأمر ذلك، عبر نهر كان يتلوى إلى الخلف وإلى الأمام عبر المسار الذى كنا نسلكه، الأمر الذى كان يوحى باحتمال اصطدامنا باللصوص.

خيمنا فى مكان خال من السحب، مما عجل بحلول الظلام العامر بالبرق المتشعب من ناحية ووميض مصابيحنا التى كانت تتحدى الأعاصير، لكنها كانت تنوء بالحياة الحَشَرِيَّة التى كانت تلوذ بها، كنت أنا وهارولد جونز قد اتفقنا على أن أقوم أنا بقتل الحشرات التى يقل طولها عن بوصتين، فى حين يقوم هو بالتعامل مع "الحيوانات"، التى لا يمكن تسميتها فى واقع الأمر، باسم الحشرات، التى من قبيل أفراد الجراد الكبيرة، وكذلك الأشياء بنية اللون الضارب إلى الحمرة، والتى تعيش فى الوحل، والتى تكون على شكل ديدان كبيرة الحجم، ولها رؤوس شبيهة برؤوس النحل، وأجنحة مثل أجنحة الخنافس.

☆ هو ما يسمونه عين الهر، وهو حجر كريم لبنى متعدد الألوان. (المترجم)

☆☆ الفيروز حجر نفيس ازرق مُخْضرّ. (المترجم)

أيقظت القافلة عند الساعة الخامسة، ورحت أستحثها على الوصول إلى جُندار، وبعد مسير ساعتين ظهرت لنا أول معالم الأطلال البرتغالية القديمة فوق جبل تنتشر فوقه الكنائس، تعجب وُلدو جورجس بشكل واضح؛ "هذا هو المكان نفسه الذى جئت إليه فى المرة الأخيرة"، كما لو كانت قلاع القرن السابع عشر قادرة على القفز فى سائر أنحاء البلاد،

سأله هارولد جونز وهو ينظر إلى ساعته كما لو كانت تقويماً "ماذا عن طريقك المختصر؟"

"لقد وفّر علينا نصف يوم وأعطانا قدراً كبيراً من الخبرة".

"هذا ثمن غال، لقد تمزقت ملابسنا وتعكرت أمزجتنا".

رددت عليه قائلةً: "قد لا تكون الألاشين المصنوعة من الدانتيل، هى والأحذية التى لها نعال طرية، غير مناسبة لهذا المكان؛ لكنها فى كل الأحوال تكون أبرد عن الأحذية الأخرى".

أخيراً وصلنا إلى جُندار، فى اليوم الثلاثين من مغادرتنا لأديس أبابا، المصادف لليوم الحادي والستين من مغادرتنا لداير داوا Dire Dawa بعد أن قطعنا مسافة ٨٧٣ ميلاً .

وتحت أسوار قصور فاسيل، مررنا فى الأسفل على الشجرتين الكبيرتين من أشجار الجميز، والتى تسمى إحداهما شجرة العدالة، والأخرى بالمقصلة التى تتدلى من أغصانها الثمار .

صاح جونز قائلاً: "لقد عثرت على مكان رائع للتخييم، هنا، فى الداخل، خلال هذا العقد"! ودخلنا إلى مكان ربما كان فناء بين قصرين توأمين بُنيا على هذا الجبل.

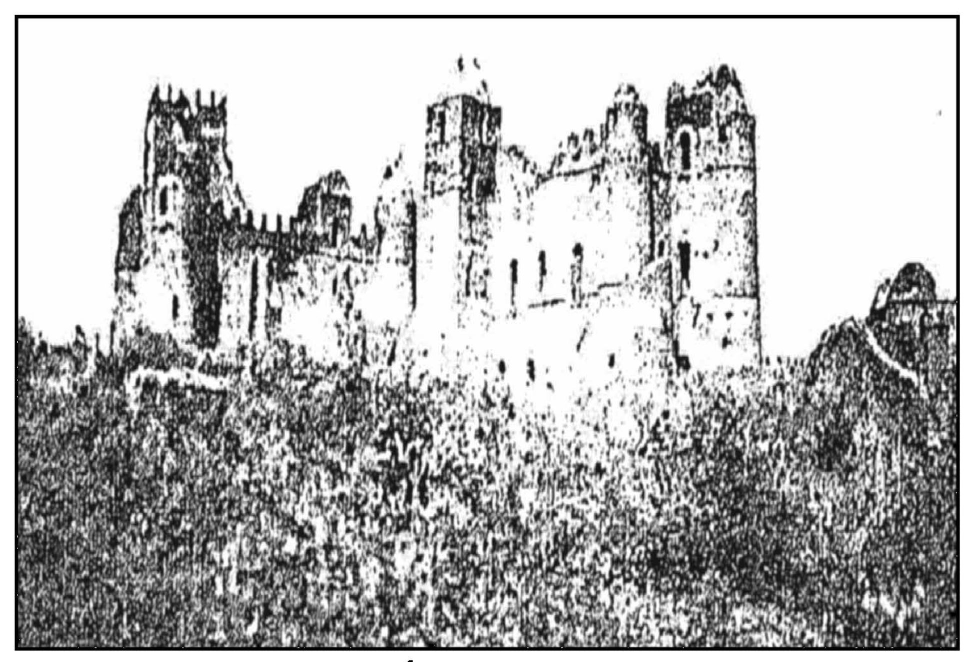
واصل جونز كلامه متناسياً شدته والخدوش المتورمة بفعل الأشواك، وهو ممسك بآلة التصوير ومتجه إلى نقطة الأفضلية، "يا له من خطر رائع، عندما تخيمين هنا ومن ورائك هذه الخلفية".

كانت جُندار مبهجة من الناحية الجمالية، كانت جُندار عالماً من الأنقاض التى تحجبها عيدان قصب السكر والشجيرات المزهرة متعددة الأغصان، كانت القلعتان المغربيتان الكبيرتان تقعان خارج هذه المتاهة من الأسوار

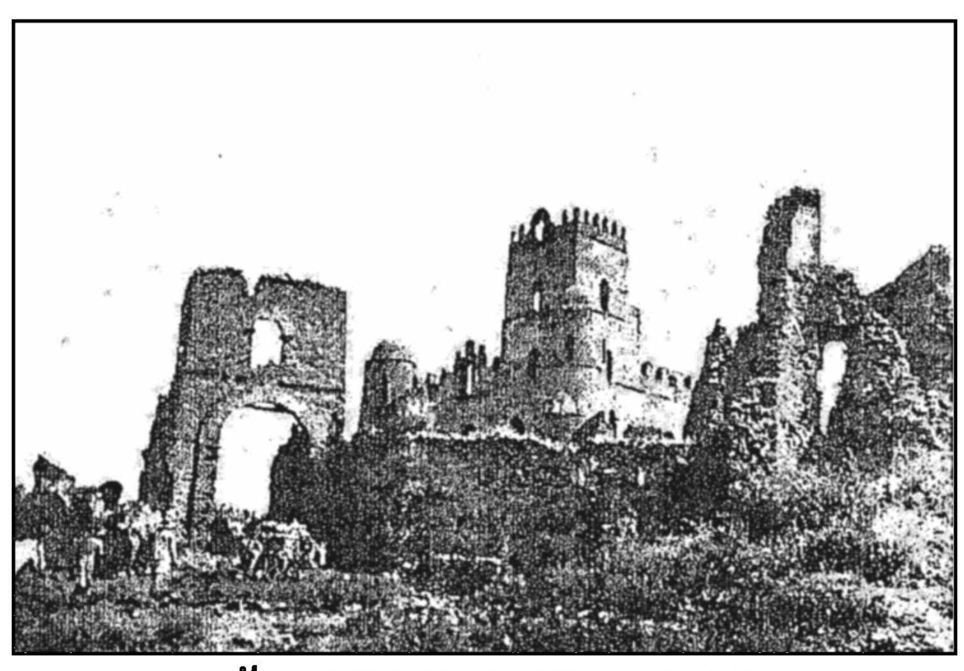
المهدمة، التى فيها أبراج، وأعمدة، وقباب مهدمة مبعثرة هنا وهناك، كان لون القلعتين مثل لون الذهب الشاحب خاصة القباب الصغيرة، والاستحكامات التى كانت على امتداد سطحى هاتين القلعتين فيما بين العقود، المنحوتة والرائعة، والمؤدية إلى مجموعة من درج السلم، المنحنى صعوداً إلى الطابق الأول، حيث النوافذ الشبيهة بالمداخل المؤدية إلى ممرات الكاتدرائية، البوابات الرئيسة الموجودة فى الأسفل مُسَوَّرة هى الأخرى وفيها مزاغل، حتى يمكن الاحتماء بها فى الدورِ الأرضى، فى حال إغارة اللصوص على القلعة، منذ سنوات قلائل، وعندما أجبر الحاكم المحلى Dejezmatch بواسطة رئيس العصابة(☆) على اللجوء إلى الدور الأرضى، ولجأ معه القسم الأكبر من السكان، وراحوا يتفاوضون مع العصابة من خلف الجدار الذى يبلغ سمكه أربع أقدام، هذه البنايات التى تبلغ من العمر ثلاثمائة عام جرى تشييدها من الحجر الغشيم الذى يغطى الجبال، والمثبت بملاط غير منتظم وصلب وشديد التحمل، والذى يجرى تقويته باستعمال الفقاقيع فى بعض الأحيان، عقود النوافذ والأبواب مصنوعة من الطوب اللبن، مدخل القلعة الرئيس يمكن الوصول إليه عن طريق جسر منحنى من فوق ممر غائر ربما كان واحداً من الخنادق التى تملأ بالماء كنوع من الحماية للقلعة؛ وتوجد على جانبى هذا المدخل أبراج على شكل قباب يمر الداخل من خلالها ليدخل القلعة الأولى من هاتين القلعتين المربعتين.

معروف أن الملك فاسيل الشاوى Shoa، سليل سليمان Solomon، استعان بنحو خمسمائة برتغالى فى حروبه ضد المسلمين، وعندما انتهت معاركه فى العام ١٦٤٠ الميلادى لم يحولوا سيوفهم إلى أسنَّة للمحاريث، وإنما صنعوا منها أدوات وعدد البناء وعدد يستعملها العاملون فى التجصيص، بنى هؤلاء المحاربون هذين القصرين التوأم، للسيدات اللاتى فى بلاط راعيهم، كما بنوا أيضاً المنزل المجاور الذى يسمى "منزل الحب الكثير"، ببوابته الجميلة بعقودها الرباعية الشكل، من تحت دروة شبيهة بالدانتيل المنحوت، الكنيسة الموجودة هنا أيضاً ترجع إلى هؤلاء المحاربين، وحال هذه الكنيسة أفضل من حال القلعتين اللتين كانتا ذات يوم مملوكتين لملك عظيم، وفى هذا المكان

☆ بلغ رئيس العصابة هذا من القوة حداً كان يُوصف معه "بملك الجبال". (المترجم)



القلعة التوام فى جُندار،



المدخل الرئيسى المؤدى إلى القلعة التوام فى جُنْدار

أيضاً، يوجد المكان الذى دُفن فيه زيبول Zeboul، أحب خيول الملك فاسيل إليه، وعلى مقربة من مدفن هذا الحصان يوجد أسكوام Usquam، وإن شئت فقل بيت المتعة والفرح الذى كان حاكم جُندار يُسَرِّى فيه عن نفسه بطرق سرية، جانب الجبل فى هذه المنطقة مغطى بآثار صناعة هؤلاء المحاربين، وآثار القلاع الضخمة وآثار جدرانها المسنَّنَة التى تمتد إلى مسافة أميال عدة، والأبراج ذات القباب، والبوابات والجسور، والخزانات، والحصون التى هى على النقيض تماماً من الأكواخ، التى تزحف على المنطقة على شكل مجموعات غير منظمة من حول أقدام هذه الفخامة العظيمة.

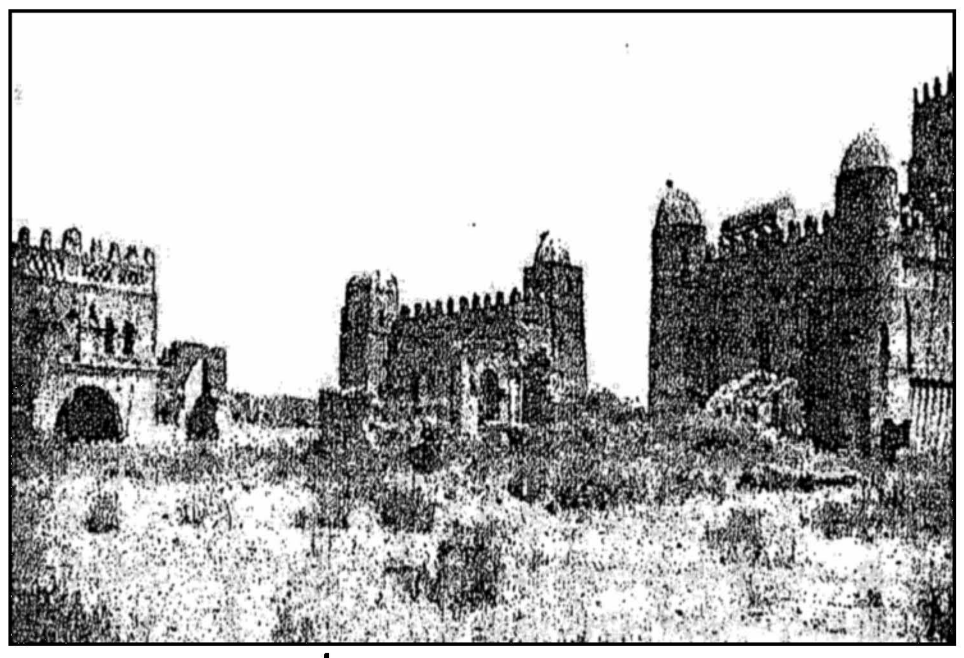
هناك قلعة أصغر من هذه القلاع، مقامة فى مكان منعزل على سلسلة من الصخور؛ هذه القلعة تنتمى إلى تاريخ أقدم، لكن بناتها كانوا من غير المحاربين البرتغاليين الذين بنوا القلاع السابقة، وهم مسئولون أيضاً عن بناء الجسر الذى عبرنا النيل الأزرق من فوقه ونحن فى طريقنا إلى دبرا تابور، كما أنهم مسئولون أيضاً عن مبانٍ أخرى، التى لا تزال آثارها على جانب الجبل، وفى مجرى النهر فى الشمال الغربى من الحبشة، أصبح للبرتغاليين نفوذ كبير فى الحبشة، اعتباراً من العام ١٤٩٠ الميلادى، عندما أرسل بدرو دى كوفلهاو Pedro de Covilhao فى مهمة إلى نجيوس الإسكندر Negus Alexander فى تجيوليت Tegulet، والسبب فى ذلك أن سلسلة طويلة من الجنود البرتغاليين الشجعان والمحظوظين نذروا أسلحتهم لمساعدة الحبشة؛ وقد انتهت هذه المعارك فى العام ١٥٤٣ بهزيمة محمد جران Gran، أمير هرر، جاءت تلك الحملات فى أعقاب هؤلاء المغامرين، والحبشة مدينة للبرتغال لا بعمارتها فحسب التى صنعت عظمة جُندار يوم أن كانت هى الحاكمة، وإنما أيضاً بأفضل أدبياتها الدينية.

جاء مخيمنا بمثابة مكان للأحلام، إذ من المؤكد أن أشباح هؤلاء المحاربين الأجانب، لابد أن تسكن الأحواش والصالات التى بناها أتباعهم ومن جاءوا بعدهم؟ لم يكن هناك قمر فى تلك الليلة، لكن النجوم فيما بين انكسارات السحب كانت تضىء الحواجز الأمامية ومتاريس تلك القلعة شبه الكاملة التى تقع أسفل القصر المزدوج، فى أى لحظة من اللحظات التى تخرج خلالها

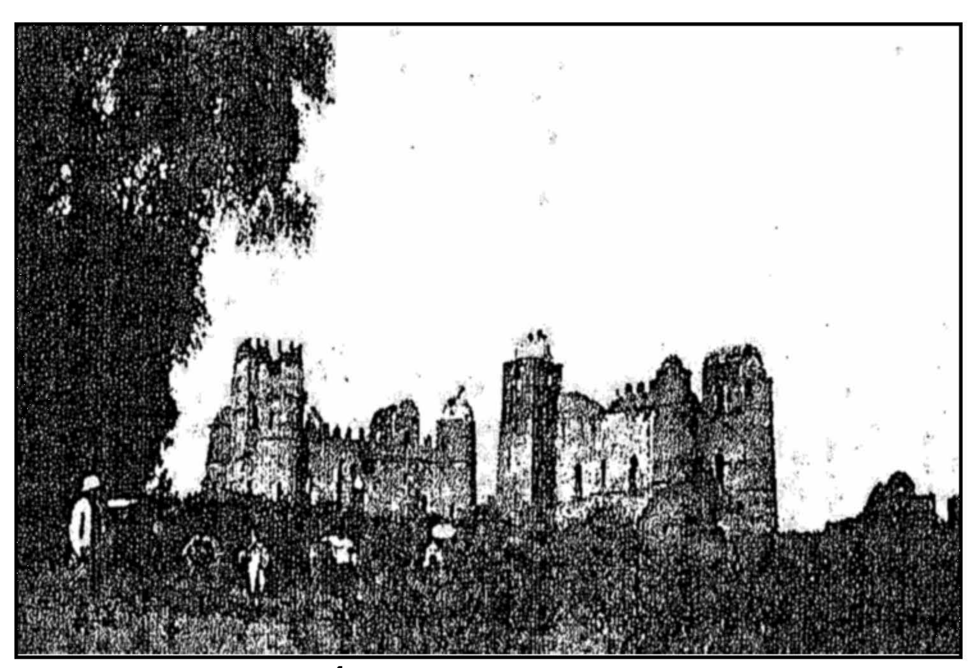
فرقة من الجنود من بيت الحرس الذى على شكل برج، يظهر يشير ومعه بوق فى الممر، أو قد تظهر امرأة منحنية على النافذة المغربية وهى تضع برقعاً أو قناعاً على وجهها، وتتحول هذه الأشباح إلى خيالة من البرتغاليين أو المغاربة، الذين سرق منهم مهندسو جُندار عظمتهم الكبيرة، الأحباش شعب عملى وليس شعباً رومانسياً، وعليه لم يكن منطقياً أن أحاول تصوير شبح حليق أو شبح أشعث من أبراج عاصمة الملك فاسيل.

لم تكن جُندار مقنعة من الناحية العملية، بعد أن استهلكت قافلتنا مقداراً من السكر والقهوة والأرز أكبر مما يجب، كان أفراد القافلة يؤكدون لى أن هناك فى جُندار رجلاً هندياً يمكننى أن أشترى منه كل شىء، استرحت أنا وجونز لهذا الكلام، وعليه عندما كانت القافلة تعرب عن رغبتها فى تناول شىء حلو المذاق، كنا نضع هبابة صغيرة من السكر فى كل كوب من الأكواب، وكان من الطبيعى أن يصبح ذلك الهندى شيئاً خيالياً شأنه شأن تلك المسافات المرنة، كان القنصل الإيطالى قد زودنا بشىء من الخبز، نظراً لأننا قمنا بتوزيع آخر ما معنا من بسكويت، للتخفيف من أثر مجاعة من المجاعات التى نجمت عن عمى بصيرة واحد من الثقات المرافقين لنا، الذى كان يتطلع دوماً إلى أن تكون القرية التالية هى محطة الوصول، أو على حد تعبير حاسن أن "مريم العذراء سترسل لنا الخبز".

كل ما استطعنا شراءه كان خليطاً محلياً من البن والتوابل القوية، والعسل، والبصل، والدقيق المر المحلى. وعندما أردنا دفع ثمن هذه الأشياء بعد أن نفد ملحنا وطلقاتنا، قدم لى وُلدو جورجس بعضاً من اللفافات العجيبة التى كان يحتفظ بها ملفوفة فى خرق من القماش كان يضعها فى جيبه، كانت تلك اللفافات تحتوى على نتف من البخور، وربع بوصة من الكحل، ومجموعة من الحبوب الكبيرة، التى تستخرج النساء منها زيتاً يستعملنه فى دهن شعورهن، لكن القيمة الشرائية لهذه اللفافات كانت كبيرة جداً، ما إن ذاع خبر حيازتى لتلك المعُينات الجمالية، حتى قامت مجموعة من "السيدات الجميلات بتطويق مخيمنا، ورحن يقدمن لنا الدجاج والبيض مقابل ذلك المجدد المؤقت لسحر هؤلاء السيدات وجمالهن، لم تكن القسمات الجمالية واضحة تماماً عند هؤلاء السيدات نظراً لأن وجه المرأة الأفريقية يحمل تعبيراً يدل على



حطام الفناء، قصر السيدات فى جُندار



قلاع الملك فاسيل التوامية فى جُندار

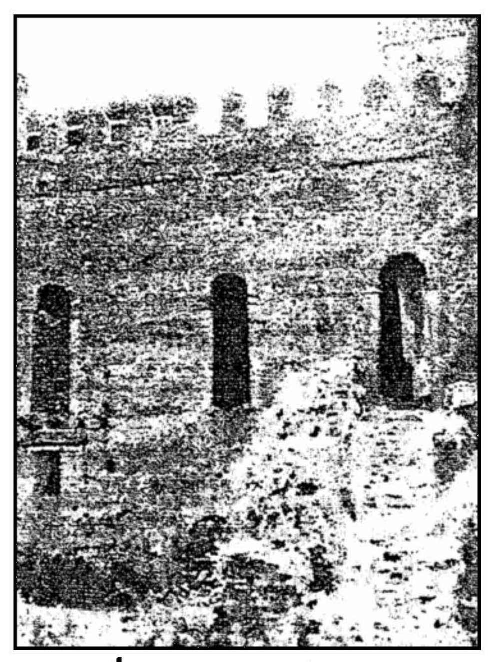
الخوف والفزع خاصة على وجوه البنات الأفريقيات، ربما كان ذلك التأكيد ناجماً عن الدم الشمالى الذى يجرى فى عروقهن؛ وأنا أرى أنه نظراً للتخفف العرقى الناجم عن الزواج من الأجانب، فقد أدى ذلك إلى زيادة حدة السمات العرقية غير المناسبة، معروف أن سكان شمال الحبشة كانوا مستقلين بطريقة فيها شىء من الغطرسة، وغير مبالين، وكثيرى الكلام، ولا مبالين، لم تكن بين أهل الشمال أى إشارة تدل على الرق أو العبودية، كان أعيان أهل الشمال مضيافين ومؤدبين، لكنهم يفتقرون إلى السحر التلقائى الذى يتمتع به الجنوبيون، كان الرجال الصغار جشعين، لكنهم بلغوا من الاستغلال حداً لم يستطيعوا معه كسب أو الحصول على البقشيش الذى كانوا يتحرقون إليه شوقاً، كان من عادة الحاكم أو الريِّس أن يرسل معنا مرشداً؛ لكن هذا الرجل، كان يبدو عليه الضجر، بعد أن يقضى معنا نصف يوم، ويتركنا منحنياً لنا إشارة إلى احترامه لنا، على الرغم من وعدنا له بأننا سنعطيه أجر أسبوع إذا ما أمضى معنا ساعة أو ساعتين أخريين، ومع ذلك كان هذا الرجل نفسه يجلس إلى منتصف الليل مقابل خيمتنا ويروح يطلب منا كل شىء بدءاً من مظلة جديدة (شملة) إلى أعواد الثقاب، أهل الشمال شحاذون متكبرون، يتملقون سادتهم، كما أن عضلات ظهورهم تمكنهم من الانثناء احتراماً بصورة دائمة، ومع ذلك يفلحون فى البقاء بلا قيود، هم أناس مرنون، ومستعدون للتمرد على سيد من سادتهم من أجل أن ينادوا بسيد آخر، قال لنا واحد من أولئك المرشدين، غير الراغبين فى الاستمرار معنا، والذى كان موفداً من قبل الحاكم المحلى، والذى عقد العزم على عدم الانتقال أو التحرك إلى ما بعد الجبل التالى: "أنا أقاتل من أجل هذا الحاكم، لكنى لست عبداً له".

حدثت فى صباح اليوم الذى غادرنا فيه جُندار مشاجرات كثيرة ومعقدة بين القافلة وأهل المنطقة إلى حد أننا وجدنا صعوبة بالغة فى التحرك، كان الإيطالى قد أكد لنا أن المسافة إلى آدوا Adua تستغرق مسير خمسة عشر أو ستة عشر يوماً، وذلك اعتماداً على الطرق والمدقات الوعرة أصررت على أنه لا يمكن أن يكون هناك ما هو أسوأ من السكك الصاعدة النازلة والعامرة بالأشواك فى منطقة الخروج من لالبيلا، وأصررت أيضاً أن تسع مسيرات

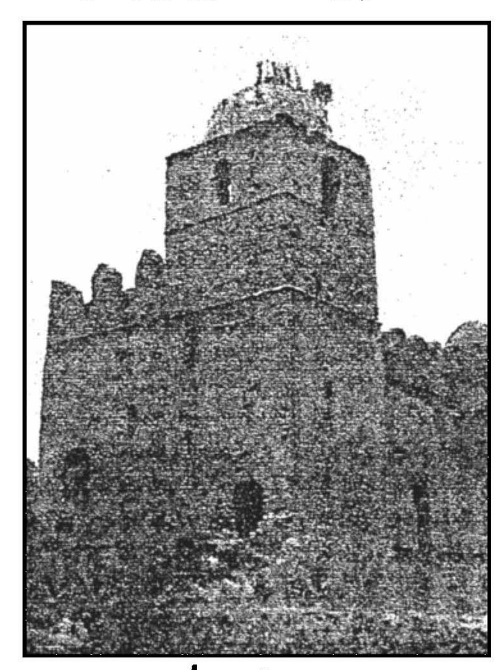
ستكفينا تماماً ونصل بعدها إلى آدوا، نظراً لأننا كنا نقترب من نهاية الفترة المحددة لتحميض الأفلام، كان هارولد جونز قلقاً وراح يعد الأيام اعتباراً من اللقطات الأولى فى داير داوا Dire Dawa، مما جعلنى أكرر عشرات المرات سؤالى عن الوقت الذى ستستغرقه هذه المسافة، سواء أكان ذلك بطريق البر أم بطريق البحر، حتى يمكن أن نصل إلى الحضارة، التى كان يعنى بها العثور على غرفة مظلمة وأميال من أحواض هيبوسلفات الصوديوم التى تستخدم فى التحميض.

بدت القافلة عند الساعة الثامنة صباحاً وكأنها فى مأزق لا فكاك منه مع رجال يتصايحون ونساء يصرخن، أنقذت آتو دايويتو Atto Daiwitu من جمهور من الناس أرادوا أن يبيعوه بغلاً بثلاثة أضعاف ثمنه ويشترون منه بغلاً من بغاله المرهقة بتسعة شلنات، كما أنقذت السايس أيضاً من وغدين عرضا عليه شراء خيولنا الثلاثة نظير أربعة عشر شلناً لكل واحد منها، من منطلق أننا لن نستطيع استعمال هذه الخيول فى الجبال، ارتفع صوت بالينا الحاد مغطياً على الأصوات كلها، هذه سيدة وقور كبيرة القسمات وقوية البنية كانت تحاول جذب بالينا من فوق حصانه، فى الوقت الذى كانت فيه امرأة شابة، شديدة البأس، قد أمسكت بلجام جابرا جورجس، ولما كنت غاضبة بسبب تجوال البغال المحملة على غير هدى من الأنقاض، كنت على وشك ترك الأفراد لحال سبيلهم، اقتناعاً منى بأن جرائمهم هى التى عرتهم وكشفت أحوالهم، رأيت بعد ذلك مباشرة، الدقيق الذى كنت قد اشتريته للزبانية يجرى سحبه بشدة من السرج الخلفى ويجرى أيضاً فى شملة Chamma (مظلة) جرى سحبها بعنف هى الأخرى من فوق كتفى الطباخ، ومن حسن الحظ أن تغير شكل تدخلى عندما شرح لى حاسن، أنه على الرغم من قيامى بدفع ثمن الدقيق فإن جابرا جورجس كان قد سرق الجوال!

تخلصنا فى نهاية المطاف من المفسدين، والشىء المحزن أننى كانت تراودنى شكوك حول هؤلاء المنهوبين، ووسط هذه الشروح والاتهامات، والتعليقات التى توحى بالازدراء والاحتقار بين الحين والآخر من حاسن "هذا هو الأسلوب الحبشى"، واصلنا مسيرنا عبر التلال والجبال، هذه هى أسكوام Usquam، تبدو



مدخل إلى احد القصور فى جُندار.



برج بوابة فى جُندار

لنا للحظة واحدة من داخل بيارتها، مثل مئذنة وحيدة جميلة، ثم تختفى بعد ذلك بين الأشجار، لكن بعد ذلك بساعات، وبينما كنت أنظر إلى الخلف أثناء توديع المرشد لنا "أشكرك، حفظك الله يا جُندار،" رأيت القلعتين الحارستين، وهما وحيدتان على الجبل الذى جرى بناؤهما عليه.

كان يوماً من أيام النظرات الخاطفة التى ألقيناها على تسانا، بحيرة الأوبال، التى بدت لنا مثل قوس قزح عند الأفق، وهذه أنتلوب Antelope وقد أومضت بين الأجمات، رأى مرشدنا عصابة من اللصوص، وأنا لا أعرف كيف تمكن المرشد من معرفة أن تلك كانت عصابة، لكن الرجل سارع وخلع نعله ليجد قصاصة من الورق مطوية بحرص فى كل فردة من فردتى نعله.

سألت حاسن "ما هاتان القصاصتان؟"

"هاتان تعويذتان كتبهما أحد القساوسة، هو يعتقد أن هاتين التعويذتين تمنعان الأحجار من إيذاء قدميه، وتجعلانه يسير على الطريق الرئيسى، وبذلك يستحيل عليه أن يضل طريقه".

"لكن هل هاتان التعويذتان تساعدانه أيضاً على مقاتلة العصابات؟"

ارتسم الشك على وجه حاسن، "أظن أن هذا أمر مرجح، لأنهما طالما هما فى حذائه فسوف يساعدانه على الهرب"!

◆ الفصل الثامن عشر

المعارك مع الشماليين

انتهت الجبال الحجرية التى لها أفرع تمتد مرتفعة مثل قرابيس سُرُج الخيول عبر الممر، عند بلدة أجريف Agrif، وواصلنا سيرنا راكبين دوابنا بعد أجريف، مدة يومين عبر منطقة ريفية معشوشبة، تحولت تدريجياً إلى سلاسل جبلية مريحة كان الفلاحون يزرعون فيها حبوبهم وسط أكوام شبيهة بالدوائر، أو وسط أجمات تختفى فيها المجارى المائية، هذا واحد من البغال أصيب بالعرج بسبب الصخور، وتمزق ظهره بسبب سقوطه على الأرض، وكان من المحتم علينا إعدامه رمياً بالرصاص، اشترينا بغلين جديدين نظير أسعار أكدت أن الحبشة كانت يهودية فى أساسها، وتخلصنا من خيولنا كلها نظير ثلاثة جنيهات إنجليزية دفعها لنا شخص ساذج قال لنا: "أنا أبيع بثمن كبير وأشترى بثمن قليل جداً". وهذا أسلوب من أساليب الأحباش.

قلت له: "هذا شىء طيب، وعلى سبيل الافتراض، وطبقاً لما تقول: أنا أشترى بغلك بثمن قليل جداً"!

ضحك.

"لكن هذه ليست طريقة إنجليزية".

"هل تعرف الكثير من الأساليب والطرق الإنجليزية؟"

"أنت أول من رأيت من الإنجليز، لكن والدى يقول لى، بع دائماً بسعر مرتفع للرجل الأوروبى".

كان الطعام هو الشئ الذى لم نستطع شراءه، كانت مخزوناتنا على وشك النفاد، كانت الأبقار أيضاً جافة(☆)، وكان الدجاج لا يبيض، ولم يكن أحد من

☆ بمعنى "لا تعطى حليباً". (المترجم)

أهل الريف على استعداد حتى لبيع ديك عجوز لاستعماله فى عمل الحساء، والمؤسف أننا تناولنا المكرونة والأرز فى الإفطار، وأرزاً ومكرونة فى الغداء، وكلاهما كان له مذاق الماء المحمل بالغرين الذى اضطررنا إلى استعماله فى سلق هذا الأرز والمكرونة، كان مذاق البن المحلى الذى حصلنا عليه من جُندار حريفاً مثل الفلفل، إلا أننا تعجبنا إذ ربما يكون حاسن قد حدث لديه خلط وهو يسوى لنا القهوة، بين الفلفل والبن، كل من شرب الكوب الأول أحس بالعطش.. أما الكوب الثانى فقد جعله يحس بالإعياء والمرض، كنا أكثر حظاً فيما يتعلق بالدقيق، تلك المادة التى يشبه لونها لون الشاى الثقيل، وبفضل ذكرياتى عن أستراليا، أريت جابرا جورجس طريقة صنع عجينة غير مخمورة يجرى تسويتها فى الرماد المتخلف عن النار، والتى تؤكل ساخنة، وتكون مقبولة الطعم، على الرغم من ثقلها والآلام التى تنتج عنها ويحس بها الإنسان فى صدره.

قلت لهارولد جونز: "لا تقلق، هذه الكعكة لا تؤذى، ومرشدنا يعرف كيف يصنعها، مرحباً! هذا هو أكبر طائر شاهدته فى حياتى".

رأيت مخلوقاً ضخماً رمادى اللون تطاول قامته قامة عجل من العجول الصغيرة، وأرجله مغلفة ببنطال محكم من الريش الأسود، وذيله مكون من قضيبين طويلين مدببين فى نهاية كل منهما لفافة بيضاء، وكانت هناك حول رأس هذا المخلوق لمسة قرمزية اللون، وكان يقف فى طريق مرورنا.

لاحظت ونحن كنا لا نزال نتناقش حول النوع الذى ينتمى إليه ذلك المخلوق أن "ريشه كان شبيهاً بمعطف تم تفصيله تفصيلاً جيداً". ومررنا من خلال قرى ديفارك Devark لنجد أنفسنا نواجه من جديد تلك العادات والتقاليد الأمية، أبرزت بلا مبالاة التصريح الممزق الذى كنا نحمله ورحت أركز على أختام الحكومة، وأنا أشير إلى القافلة الحاملة لأمتعتنا بالتقدم، لكن لامبالاتى اختفت: أعلنت ستة أصوات أنها لا علاقة لها بالحكومة، ولم يلقوا بالاً للتصريح، وأصروا على ورقة موقعة من حاكمهم المحلى، الذى لم أسمع عنه قط، وبعد شد وجذب دام ساعة، تشكلت حلقة من البنادق حول أمتعتنا، فى الوقت الذى أصبحت فيه أنا موضع الخلاف بين اثنين من رؤساء القرى وأتباعهما الآخذين فى التزايد، اتضح لنا أن منزل الحاكم كان على بعد

مسافة مسير يوم واحد، بعيداً عن الطريق المعتاد، وأننا لابد من احتجازنا رهائن إلى أن يعود إلينا رسول بأوامر تفيد إطلاق سراحنا أو القبض علينا وحبسنا، كان من الصعب علينا تحمل ذلك كله والصبر عليه، وهنا وجدتنى أتخلى عن التفسيرات المعقولة كلها ورحت ألجأ إلى اللف والدوران.

رحت أقول بلغة حماسية "أنتم لا تجرؤون على لمس أى شخص إنجليزى يتنقل فى بلادكم بتصريح كتابى من حكومتكم".

"سنحافظ على متاعكم".

"سأذهب وحدى إلى الحاكم".

"لن نتركك تذهبين".

"لن تستطيعوا إيقافى إلا إذا فتحتم النار علىّ، وأنتم لن تجرؤوا على فعل ذلك".

"جرى حوار غير مفهوم بين الفيترارى ماكونن، الذى هو من النوع السيئ تماماً، كما أنه جشع وعنيد وحليفه بازاب Bazab الذى بدا عليه الخوف".

"انصبوا خيامكم هنا، وسوف نضع حولها كثيراً من الجنود، وسوف نوفد رسولاً راكباً إلى الدجيزماتش (الحاكم)، وعندما يصلنا رده سيكون بوسعكم المضى إلى حال سبيلكم".

كنت عند هذا الحد قد وصلت من الغضب حداً يمكن أن تحدث معه معركة لو لم يختف الزبانية هم ومقاولو البغال فى وسط حشد من الناس كان من الصعب إنقاذهم منه، أمضينا ساعتين أخريين فى جدل لا طائل من ورائه، كان كل طرف يلف ويدور ويهدد، لكن الموقف بقى على ما هو عليه، لم يحدث أى شىء سوى زيادة عدد الدهماء والشد والجذب، وزيادة فى الجلبة والضوضاء، تقدم اثنان من المجادلين وقد ربطا نفسيهما بشملتيهما، وكان كل واحد منهما يمسك بعرف الفرس الذى كانا يطالبان به، ووضعا نفسيهما هما والحيوان المناضل أمام الفيترارى، وحاولا أن يكون صوتهما أعلى من أصوات الجمهور، ترتب على تفرق الجمع المحيط بالبغل الذى كنت أركبه وتمكنت من شق طريق لى فى اتجاه هارولد جونز، الذى كان يقف على الأطراف ومعه آلة التصوير السينمائى.

قال هارولد جونز: "هيا بنا نُشَمِّع الفتلة".

رددت عليه "على بغل"، لكن على الرغم من أن الجنود كانوا يجرون بجانبنا، مانعين مرورنا ببنادقهم، فإن أحداً منهم لم يمسنا أو يلمسنا بسوء.

تأوه حاسن، وهو يلوح بيديه من فوق رأسه "يجب أن تبقيا"، زاد صراخ جابرا جورجس من الضوضاء والجلبة، كانت بعض أجزاء من كلام كل من وُلدو جورجس، آتّو بيلاكو، تركز على أهميتنا وعلى الاستقبالات الحارة التى لقيناها من قبل كبار المسئولين، كان وُلدو سيلاسِّى هو الوحيد الذى أحتفظ بهدوئه.

همس لى وُلدو سيلاسى "الذى حدث أنهم، سمعوا أنكم أناس عظماء وخلقوا من ذلك مشكلة للحصول على مبلغ كبير على سبيل البقشيش، لكن المرشد لا يجرؤ على أخذ البقشيش لأن هناك كثيرين يراقبونه، وعليه غضبوا ويودون أن ينزلوا بكم الضرر، يزاد على ذلك أن الجنود كلهم منفعلون، وعندما يوجد عدد كبير منهم مع بعضهم البعض، فإن هؤلاء الناس غير المتحضرين يفتحون النار بلا أى تفكير".

رجانى حاسن قائلاً: "لا تعرضى البقشيش الآن، فإن الأمر سيبدو كما لو كنت أرتكبتِ خطأً ما".

كدت أستَشيط غضباً "تقول بقشيش! لن أعطى مليماً واحداً لأى أحد منهم"!

وبشئ من الإلهام تاولت من الحقيبة التى أعلقها على ظهرى، جواز سفر إنجليزياً مستعملاً ورحت ألوِّح به فى وجه الفيترارى بازاب(*)، ضعيف الشخصية الذى يود التملص من الشجار، يبدو أن جواز السفر كان وثيقة لها أهميتها، فقد كان مختوماً، ومُعَلَّماً بكثير من الأحبار مختلفة الألوان، وفيه تأشيرات لنصف دول أوروبا والشرق بكامله، ومن حسن الحظ أن أقل البلاد شهرة كانت هى الأكبر مساحة فى تأشيرتها. تأثر الفيترارى بمنظر جواز السفر لكنى لست متأكدة ما إذا كانت أسود تشيكوسلوفاكيا أو أن طلاسم بلاد فارس هى التى دفعته إلى التحرك، كان خاتم العراق أخضر اللون قد أسكت شريكه المتواطئ معه، قال الفيترارى بازاب "أمامى رحلة طويلة يجب أن أقطعها، وأنا سوف أعود إلى منزلى".

(*) واحد من البشر الأقرباء للإمبراطور والمقربين إليه وهم من أصحاب الهيبة والمكانة. (المترجم)

انسل المرشد خفية ومعه حملة البنادق التابعين له، فى حين أدرك ماكونن أن الشئ الوحيد المتبقى له هو الوفاء بتهديده والكتابة إلى الحاكم المحلى.

تمنيت لو أنى استطعت قراءة الرسالة التى كلفته نصف ساعة من التفكير، وهو جالس على الحشيش الأخضر بجوار كاتب يحمل نباتاً زنبقياً متخشباً، أسفرت كتابة ماكونن لتلك الرسالة عن هدوء الرجل بما فيه الكفاية مما جعله يسمح لوُلدو جورجس بمرافقة رسوله إلى الحاكم المحلى.

قلت بصوت عال "بلّغ الحاكم المحلى أن الحكام كلهم استقبلونا استقبال الأمراء، لكن هذا الرًجل الصغير تعامل معنا كما لو كنا لصوصاً". عاتب المرشد صديقه.

قلت غاضبة "إذا كنت تعتقد أن ليس من حقنا الترحال فامنعنا منه، وإلا قُم بمرافقتنا لبضع ساعات قلائل، طالما أنك تقول أن الرُّسُل سيعودون قبل دخول الليل".

ربما كان المرشد، لا يزال أسيراً لخطته الأصلية، على الرغم من اختلاف تحقيقها اختلافاً كبيراً عن مفهومها، ويتطلع إلى إشباع جشعه عندما يصبح معنا على انفراد، قام المرشد فى شىء من الصعوبة، واستعراض القوة بتفريق الجمع، وأخذ حصاناً من متسكع متردد، ومضينا فى طريقنا بعد تأخير وصل إلى نحو أربع ساعات، ومعنا اثنا عشر جندياً يحرسون أمتعتنا، وعدد مماثل كانوا يجرون خلف رئيسهم، لم ينطق أحد بكلمة واحدة، كنت أنا وهارولد جونز ساخنين وجائعين إلى الحد الذى لم نطق معه رؤية المزاح الذى انطوى عليه ذلك الموقف، كنا واعيين تماماً لتوتر الموقف إلى حد أننا سحبنا بعضاً من حبوب الأرز الوسخة المنظر من بين الأشياء التى فى الحقائب التى نحملها على ظهورنا ورحنا نمضغ تلك الحبوب على الملأ، قام المرشد بمحاولة فاترة أوقفنا فيها فى المنطقة التى نفضت الأرض المنبسطة عن نفسها عباءتها الخضراء وانحدرت بصورة مفاجئة عند حافة صخرة أولكفت Ulkefit.

"هذا جبل شديد الارتفاع، والبغال يمكن أن تنزل الواحد بعد الآخر، ويتعين إنزال الأحمال كلها، ويتعين على الرجال حمل كل هذه الأحمال".

وبلا رحمة ودون أن أنظر إلى معذِّبينا، رحت أسوق القافلة أمامى، وراحت

الحيوانات تنزل الواحد بعد الآخر، من فوق هذا المنحدر غير العادى، وكنا نلاحظ الحيوانات وهى تهتز فوق قطع الأحجار الضخمة، وهى تنزلق وتتعثر كما لو كانت قطعاً من فلين فى بحر عاصف.

وتتفتح أمامنا أروع المناظر الطبيعية الحبشية، عندما نظرنا عبر واد عميق بين جبلين، كان المنظر عبارة عن ظل بنفسجى اللون لقمم سِمين Simyen، منذ آلاف الآلاف من السنين عندما كان الأرباب القدماء يحكمون الحبشة، لابد أنهم كانوا يلعبون الشطرنج مع هذه الصخور الضخمة، لأننا شاهدنا فلّوسات(☆) الأساقفة منحوتة فى حجر لازوردى، وشاهدنا قلاعاً لها حُمرة الشمس الغاربة على الأبراج الصغيرة التى على أسطح هذه القلاع، ورأينا أيضاً فارساً من الزمرد فى المنطقة التى زحفت الغابة فيها على الصخر، وعن بعد شاهدنا، ملكاً، متوجاً من حجر الياقوت يحرسه صف من العسكر، وعندما استبدل الأرباب لُعبهم بالترس والدرع كى يحاربوا الرجال الجدد الذين يصيحون أمام بواباتهم، حولوا قطع الشطرنج إلى جبال، هذه القطع تقف مسحورة فى سمين Simyen، إلى أن تعود الدنيا إلى الوثنية من جديد، وتنزِل التيتانات(☆☆) وآلهة الأرض من ضفاف السحاب الهائلة لكى يراهنوا علَى نجم أو نجمين فى رياضتهم.

تعين علينا النزول من فوق جبل أولكفت Ulkefit مستخدمين فى ذلك ما تبقى لنا من أقدام، كانت رجل من رجلىَّ قد تشوهت بسببٍ رفسة البغل، لكن على الرغم من أن هارولد جونز كان فى المقدمة حاملاً معه آلة التصوير السينمائى، فلم يكن هناك مكان صعب يحتم علينا تنزيل الأحمال.

بدأت متاعبنا من جديد عندما وصلنا حيداً(☆☆☆) معشوشباً تنتشر فوقه الأكواخ، ظهر لنا للوهلة الأولى على أنه سفح الجبل، كانت الساعة قد اقتربت من الخامسة، لكنى صممت على مواصلة السير على أمل الخروج من منطقة الحاكم المحلى، قرأ المرشد أفكارى، وأكد لى فى شىء من الإصرار،

☆ فلُّوسة: بتشديد اللام وضمها، هى التاج الذى يرتديه الأسقف. (المترجم)

☆☆ التيتانات: فى الميثولوجيا الإغريقية هم الجبابرة الذين حكموا العالم قبل آلهة الأولمب. (المترجم)

☆☆☆ الحَيْد: بفتح الحاء وتسكين الياء، هو ما نتأ من الجبل. (المترجم)

"إذا سرت مدة أربعة أيام ستظلين أيضاً فى ممتلكاتى" الأمر الذى جعلنى أخمِّن أن تلك كانت "البوابة" الأخيرة فى مقاطعته.

قلت لهارولد جونز "فلنبذل المزيد من الجهد" لكن أتباعنا كانوا مثل معجون تثبيت الزجاج فى النوافذ، أكثر من ذى قبل، قام هؤلاء الأتباع بمحاولة غامضة لحث البغال على السير، لكن عندما قام رجال المرشد Feterari بضرب البغال بمؤخرات طابانات بنادقهم، ليعيد البغال إلى الخلف، كانوا يتثاءبون، وكانت بنادقهم عديمة النفع على ظهور البغال، وكانت تنبعث من أفواههم المفتوحة على مصاريعها كلمات لا جدوى منها ولا طائل من ورائها، لم يشارك فى تغيير اتجاه الحيوانات الخائفة مع هارولد جونز سوى وُلدو سيلسِّى هو والطباخ، فى الوقت الذى كنت أنا فيه أعيد وأزيد فى الأسانيد القديمة التى كنت أسوقها على ماكونن، عند هذه المرحلة أصبحنا نحن الاثنين عنيدين مثل البغال تماماً، فقد عرف ماكونن أنه لن يحصل على بقشيش، وظن أنه جعل من نفسه أضحوكة أمام الناس، وخشى أن يصبح عرضة للمساءلة أمام الحاكم، أو السلطات الغامضة، الأعلى من الحاكم، وعلى الرغم من كل هذه المنغصات كان مصراً على أن ندفع له شيئاً، وأنا بدورى أيضاً كنت مصممة على عدم تمضية يومين أو ثلاثة أيام وكأننا سجناء فى هذه القرية شديدة الوساخة، فى الوقت الذى كان فيه الزبانية ومقاولو البغال يشربون فيه إلى حد الشجار، فضلاً على الحشرات كريهة الرائحة بدءاً من رائحة الشحاذين إلى رائحة البق الذى كان يزحف إلى خيامنا.

كان واضحاً أننا نستطيع بفضل المسدسين وبندقية السايس، إنقاذ أمتعتنا من قبضة الجنود العشرين، الذين استولوا من جديد على هذه الأمتعة، والأسوأ من ذلك أن هؤلاء الجنود العشرين عقدوا العزم على عدم المسير إلى أبعد من المكان الذى وصلوا إليه تحت أى عذر من الأعذار، وهنا أحسست بأن الوقت قد حان للعب آخر ورقة من أوراقى.

"حسن جداً، أنا لا أستطيع منعكم من سرقة أمتعتى، لكنكم لن تجرؤوا على إيقافى، هيا بنا يا جونز، سنواصل مسيرنا".

تحدث المرشد محاولاً إقناعنا.

"لن تستطيعا المضى قدماً وحدكما، ستموتان فى الجبل، الجبل عامر

بالضباع واللصوص".

لم يجد حاسن سبباً لاستبعاده من هذه الميلودراما(★)، قال: "سنذهب جميعاً بصحبتكما، سنمشى إلى أن توافينا المنية".

هرش ماكونن رأسه بطرف عكازه الذى يبلغ طوله نحو ستة أقدام.

قال: "يا لها من امرأة عنيدةٍ وعنيفة، لم تر عيناى أحداً بمثل هذه الغلظة، الإنسان يمكن أن يحسبها رجلاً لولا قسمات وجهها".

عند هذه المرحلة كان اثنان يمسكان بلجام بغلى، وعليه نزلت من فوق البغل، وأخرجت زمزميتى، وناديت على جابرا جورجس وطلبت منه إحضار جوال الأرز، وتناولت جراب مسدسى، وبدأت المسير، كان يقف أمامى طابور من حملة البنادق التابعين للمرشد، وفى غضون ثانية من المزاح المستعاد، كنت أتعجب مما لو تركونى أمر، وإذا لم يتركونى أمر، سوف يتعين على فتح النار أو الوقوف، وأدركت أن الحالتين هما مثار للسخرية والتهكم، كان هارولد جونز يتبعنى، وحقيبته التى يحملها على ظهره، تتدلى من كتفيه، من سوء الحظ أن وُلدو سيلسِّى أتلف هذه اللمسة الفنية، عندما قام بإزالة المخدة الممزقة التى كنت أضعها بين عامود سرج بغلى، وراح يجرى متثاقلاً، وقام حاسن بإحضار مؤخرة، القافلة، والمعروف أن حاسن هذا فى لحظات الانفعال تغرورق عيناه بالدموع، ويعرى رأسه، ويروح يستعمل الحركة والإشارة للتعبير عما يريد، كما شارك جابرا جورجس أيضاً فى إحضار المؤخرة، إذ كان يحتضن حزمة هى عبارة عن خوذ من خوذات النوم، لابد أن درجة الحرارة كانت تزيد عن ١٠٠ ْ فهرنهيتيه، كما كان يحمل أيضاً قمعاً من السكر وغلاية بلا غطاء، من يُمْن الطالع أن حملة بنادق المرشد كانوا متأثرين مثل حاسن بكل مظاهر الشفقة والرثاء المحيطة بالموقف، تُعُيِّنَ على تحاشى نظرات هارولد جونز إلىَّ، وأتذكركم كنت جوعانة تماماً، وأحس بالحرارة الشديدة، وكم كنت مُتْعَبة وغاضبة، حتى أتمكن من منع نفسى من الضحك من مظهرنا السخيف، لكن الجنود استسلموا، وهنا وبدون أن ننظر إلى المرشد Feterari، بدأت أنا وجونز تحركنا، وغمغمات حاسن ترافقنا، بعد أن عاد إلى الخلف فجأة لإحضار حِرام صوفى، وليؤكد من جديد على

★ مسرحية تبالغ فى إثارة العواطف وتنتهى بنهاية سعيدة. (المترجم)

المرشد ماكونن الذى كان محرجاً:

"ستسقط من فوق الصخور، وسوف نُعْدم جميعاً، نحن ليس معنا مصباح، والمكان عامر بالحيوانات البرية والرجال غير المتحضرين، وهى لن تتوقف مطلقاً، سيقيدونك بالسلاسل، لقد ضاعت قبعتى، وليس لدى بطانية، الجو شديد البرودة، نحن نكاد نتجمد، لو ماتت، فذلك يعنى ضياعنا كلنا، الزمزميات ليس فيها ماء، والجو حار، ونحن نشعر بالعطش، سنضل طريقنا، ونموت جميعاً،" وعندما أحس المرشد بمدى الكارثة التى يمكن أن تتهددنا لحق بنا.

قال المرشد وهو كسير العينين: "لن تستطيع الذهاب معهما، وإذا لم تتوقف فسوف يقوم رجالى بتوقيفك".

لم نلق بالاً لذلك التهديد، لكن الجلبة والضوضاء القادمة من الخلف أزعجتنا، كان أتّو بيركو قد فك بندقيته، وكان الزبانية يستعدون لمؤازرته.

تأوه حاسن: "ستقوم الحرب، وسوف نُقْتَل قبل أن نموت على الصخور، لقد ضاعت بطانيتى منذ يومين".

كنت متجهمة إلى الحد الذى جعلنى لا ألقى بالاً لكل ما يدور، لكنى قلت لهارولد جونز: إنى خشيت أن تكون ورقتنا الأخيرة قد فشلت.

قال هارولد جونز بصورة قاطعة "لن أعود إلى الوراء، ألا تستطيعين فعل أى شئ؟ تفتحين النار على ذلك الوغد أو.. "ثم خطرت له فكرة "تصيحين! هذا هو المطلوب، عليك بالصياح".

نظرت إلى جونز نظرة شك، ثم نظرت بعد ذلك إلى حاسن الذى غمغم قائلاً: "إنه رجل سيئ للغاية، هو رجل مخيف. أكاد أبكى".

سحبت منديلاً كبيراً، كنت أستعمله تحت قبعتى على رأسى عندما تشتد حرارة الشمس، وغطيت وجهى بذلك المنديل، وبكيت! كان ذلك العمل هيستيريا فى بدايته، وهنا تحولت الدهشة المرتسمة على وجه وُلدو سيلاسّى إلى ضحك، لكنى عندما تذكرت الألم الذى فى قدمى، والوقت الذى أضعناه، أفلحت فى اعتصار شىء من الرطوبة من عينى، وبعد ذلك بدقيقة واحدة انفجرت فى البكاء.

جاء تأثير ذلك البكاء سريعاً وغير متوقع، لم أر فى حياتى من قبل رجلاً

يشعر بالقلق وعدم الارتياح مثل هذا الرجل، وبدون أن ينظر إلينا، ورأسه مطرق وعيناه مثبتتان على الأرض، أشار لى بالمضى قدماً.

حثنى بقوله "استمرى فى السير، استمرى! سوف أرسل لك أمتعتك، وكل ما أطلبه منك هو أن تتوقفى عن الصياح والبكاء".

لكن الشكوك راحت تراودنى حول هذا النجاح السهل، وزاد شكى فى قدرتى على استئناف مسيرى مرة ثانية، مما جعلنى أتوقف على وجه السرعة، اتخذت من المنديل قناعاً، ورحت أواصل سيرى، وأنا مدركة أن القافلة تسير خلفى، لكن من حسن الحظ أن واقعية دموعى، جعلتنى لا أدرك أن حاسن كان يبكى منفطراً إلى حد جعل جونز لا يتحمل ذلك البكاء، سقط الطريق فجأة من الحافة إلى منحدر من الأحجار السائبة، وهنا انفجر قائلاً:

"أظن أنك غير متعاطفة إلى أبعد الحدود، لقد وفرت عليك ثلاثة أيام وسط هذه الفوضى وسببت لنفسى صداعاً، وأتلفت منديلى النظيف الوحيد، وأنت تضحكين".

رد جونز قائلاً: "انظرى إلى حاسن، إنه يفعل ما تفعلينه بطريقة أحسن، هل سبق لك رؤية مثل هذه القطرات؟"

واصلنا السير متلكئين من شدة التعب، نازلين من فوق الجبل، وقد غطانا الغبار، أقمنا مخيمنا بعد أن دخل علينا الظلام، وعندما أصبح آتّودايويتو Daiwitu غير قادر بعد على القيام بقفزاته الطويلة مثل الجرادة، عندما كان يقوم بعد البغال، "واحد، اثنان، ثلاثة، وهذا هو البغل الرمادى، خمسة، ستة، وأين يوجد الحيوان ذو الأذن الواحدة؟ ستة، سبعة، أطلب العون منك يا مريم، لقد نسيت! واحد، اثنان، يا وُلدو جورجس، هل البغل الجديد معك، أم أنه مع بالينا؟"

كانت هناك على رف من الرفوف الصخرية قطعة أرض عامرة بأشواك الجمال التى يبلغ طول الواحد منها نحو ست أقدام، وكانت تلك المنطقة تطل على الوادى، نصبنا خيامنا بين هذه الأشواك وأمضينا القسم الأول من الليل فى البحث عن مختلف مقتنياتنا، وفى تسوية الأماكن والفراغات التى يمكن أن نوازن هذه الأشياء عليها، فضلاً على نزع الأشواك من الأشياء التى انغرست فيها، لم يكن فى المنطقة ماء وبالتالى لم نستطع تناول الطعام.

قال جونز: "النصر حلو المذاق، لكن تناول حبتين من الأسبرين لايُعدُّ عشاء كافياً، هل تظنين أن بوسعى قتل دجاجة غينية باستعمال المسدس؟"

رجوته ألا يحاول ذلك، وأردفت قائلة: "الإنسان ينام نوماً عميقاً عندما يكون جوعاناً".

هذا المثل لا ينطبق على الحال التى نحن عليها، لأن القردة كانت تتوافد علينا خلال الفترات القليلة التى كانت الضباع ومقاولو البغال يتوقفون عن عزف ألحانهم، وفى فترة الهدوء التى تسبق الفجر، راحت البغال بحكم تعبها من وسادة الأشواك، تتجول وتدوس حبال خيامنا وقطعت منها حبلين قبل أن تندفع داخله إلى الأيك، أخيراً لابد أن أكون قد رحت فى النوم، لأنى لم أسمع بعد ذلك شيئاً سوى صيحة جونز التى يطلقها فى الصباح:

"يا حاسن، أيقظ الزبانية".

رد عليه المترجم بطريقته المعتادة "أجل"، لكن ربما كانت هناك نغمة غريبة فى رده الإيجابى، أو أن المخيم كان هادئاً على نحو غير طبيعى.

صحت قائلة: "أطلب من مقاولى البغال إحضار سُرج الأمتعة، لأنى أود أن نبدأ التحرك".

تلت ذلك فترة صمت، وبعدها جاء رد حاسن "كيف تبدئين التحرك فى غيبة البغال؟"

"تقول: البغال غير موجودة"!

"لا، لقد ذهبت البغال كلها لحال سبيلها".

ولما كنت قد تملكتنى شكوكى فى المرشد، الذى كان يؤرقنى فى أحلامى، فقد اندفعت خارجة من خيمتى، وفى قدمى فردة حذاء، وأحمل الفردة الأخرى فى يدى، رحبت بى أشواك الجمال، ودار مزيد من الحوار وأنا أقفز هنا وهناك ممسكة بقدمى التى كانت تشبه قدم القنفذ.

"من الذى أخذ البغال؟ هل سُرقت، ـ أم ـ"

تعجبت من مسألة تكييفى لهذه المؤامرة، كان واضحاً أن حاسن كان عديم النفع.

"لقد هربت البغال كلها، ربما كانت بحاجة إلى الماء، أو قد يكون الرجال

قد أخذوها، هذه المنطقة ليست من مناطق الأماهرة، الناس هنا كلهم غير متحضرين، هم يأخذون كل شىء، ويقتلونك نظير قليل من الملح".

عند هذا الحد كنت قد لاحظت بعض الأشكال المعتمة، تتحرك بين الأيك.

قلت: "أنا أرى بعض البغال".

قال حاسن: "أنت ترين البغال الميتة".

"حسن، سوف يتعين عليهم السير على أرجلهم فى يومنا هذا، حسن، سنأخذ الخيام، وأكياس البراغيث، وعلب السيد/ هارولد جونز، وسوف يتعين على جابرا جورجس الاكتفاء بصندوق واحد من صناديقه، وسنترك كل ما عدا ذلك".

قال حاسن، وهو يردد كلامه كما لو كان جوقة إغريقية مملة: "لا توجد بغال للركوب".

ولما كنت أعزو كل ما يحدث إلى مكائد ماكُونن، فقد صممت على التغلب على هذه المكائد وإحباطها، وعليه قلت:

"ما الذى يعنيه ذلك؟ بوسعنا الاستمرار فى السير".

وافق حاسن "أجل، لكن كيف ستُحمِّلين هذه الأشياء فى ظل عدم وجود الزبانية".

"ماذا تقول؟"

"لقد ذهب الزبانية جميعهم مع أتُّو بيلاكو ليبحثوا عن البغال".

"فى أى اتجاه ذهبوا؟"

لوح حاسن بيديه وبذقنه إلى الأعلى فى اتجاه المنطقة التى فيها عدونا.

قلت "هذا ينهى الأمر، سنبدأ على الفور".

قوضنا الخيام ولففنا الفراش أسرع من المعتاد، لكن عندما جاء وقت التحميل على بغل "نافق" بدأت متاعبنا فى الظهور، كان جابرا جورجس متعاوناً، على الرغم من أنه كان يصدر تعليماته وهو متعلق بالشفة السفلى لواحد من الحيوانات الغاضبة، ويمسك حيواناً آخر من عرفه، ويرفس الحبال هنا وهناك برجليه، إلى حد أننا عجزنا عن اتباع تلك التعليمات لأنها كانت

أكثر من اللازم، وهذا هو «بالينا» بطبيعة الحال، عضه واحد من البغال، وراح حاسن يدور هنا وهناك وهو يغمغم "أنا لا أظن أن هذا الذى نفعله هو الصحيح".

من حسن الحظ، وبينما كنا نقاوم بغلاً من البغال كانت لديه قوى الانقباض والانبساط التى تتوفر لآله الكونسرتينة(☆)، تناهت إلى مسامعنا صيحات كانت قادمة من الأعلى، كانت تلك الصيحات تفيد أن البغال جرى العثور عليها! ورد جابرا جورجس على هذه الصيحات بسلسلة من الأسئلة جاءت على شكل صرخات حادة، وكانت صادرة من عرف الصخرة أو بالأحرى الجبل، إلى الوادى؛ عرفنا من الصرخات الأثيوبية غير العادية أن الحيوانات راحت تتجول بحثاً عن الماء، وجرى الإمساك بها بجوار ثقب طينى من ثقوب الماء يبعد نحو ميلين عن قمة الصخرة.

أبدى جونز ملاحظة "ظننت أنكم كنتم تسرفون فى حفرة المرشد". كان جونز يقصد ما يقول عندما أضاف "تخيلت أن مقاولى البغال أحسَّا بالإعياء بعد أن قطعا معنا مسيرة طويلة بالأمس، وأن ما حدث اليوم كان مجرد حيلة أملاً فى الحصول على مسيرة هينة اليوم، ظننت أنهما طردا الحيوانات ودفعوها إلى الأيك، وأنهما كانا نائمين مرتاحين تحت الأشجار فى ذلك المكان". وأشار جونز إلى الأحراش الموجودة فى الأسفل.

قلت وأنا أَسِيفه "وخزات كثيرة بحق".

☆ آلة موسيقية يطلق عليها ايضاً اسم الاكورديون الصغير. (المترجم)

◆ الفصل التاسع عشر

أكسوم .. عاصمة مملكة سبأ

مشيناً فى ذلك اليوم واليومٍ الذى يليه تسع ساعات ونصف الساعة قطعنا خلالها خمسة وثلاثين ميلاً ونصف الميل من المدقات الجبلية الملتوية، نزلنا من هضبة ديفارك نحو خمسة آلاف قدم كى نعبر نهر زاريما Zarima، وبينما كنا نسقى البغال، مر علينا قرد ضخم يقود قافلة من القردة يصل عددها إلى نحو مائة قرد من القردة الصغيرة رمادية اللون، وكان من بين هذا القطيع أيضاً بعض القردة وردية اللون، يزاد على ذلك أن القرد الكبير كان يقود القطيع بمسحة من الاحترام المضحك، صعدنا إلى بور مريم Burr Mariam وخيمنا بجوار طين ينز منه الماء، تحت شجرة من شجر القيقب الجميزى، بدا لنا ذلك النز وكأنه ماء، جرى فى ميتاكليت Maitaklit نقاش بيننا وبين المسئول عن الجمارك، وقد أنقذنا من ذلك النقاش مقاول من مقاولى البغال كان يمر على ذلك المكان مصادفة، والذى كان يتباهى بعلمه، وقرأ التصريح الذى نحمله قراءة خاطئة إلى حد أخاف مسئولى الديوان، مما جعلهم يعطوننا هدية نحو عشرين بيضة شديدة الفساد، وفى اليوم السادس من مسيرتنا الاضطرارية نزلنا إلى تكَّازى Takkazye. وهنا وجدنا أنفسنا نعبر النهر أخضر اللون الضارب إلى اللون الرمادى، للمرة الثالثة، والذى كان بخاره يتصاعد بين الأشجار، والنباتات الزاحفة، إلى الأعلى حيث كانت أنفاس الصخر الأسود تحرقنا، كانت الأشجار الخالية من الأوراق بلا لون شأنها شأن التراب الذى كان يلهب أجسامنا، لم يكن فى المكان نصل واحد من الحشائش، وكان الشرخ متجعداً على شكل سلسلة من الصخور الجافة شبيهة بالندوب الملتئمة التئاماً سيئاً، مشيناً فوق هذه السلسلة من الصخور،

ونحن نتصبب عرقاً، إلى أن خارت قوى البغال واضطررنا إلى التخييم فى مكان بلا ماء أو علف للحيوان، وتحت شفة (حافة) الهضبة.

قال جونز "هذا هو اليوم الثالث من الأيام الثلاثة بالغة السوء التى واجهتنا."

وافقته قائلة "كانت حرارة مميتة بين النيل (الأزرق) وذلك اليوم الذى أمضيناه بين أشواك الجمال، لكنى أعتقد أنك على حق فيما ذهبت إليه".

"لا، يا بالينا Balaina، لن تستطيع غسل أى شىء، ولا حتى الأكواب، لكن إذا أحضرت لى المكرونة القذرة فى درجة الحرارة هذه، فذلك يعنى أننى سوف أنهار".

بعد ذلك بدقائق معدودات رأيت خادمنا يبصق على الأطباق وهو سعيد ويروح بعد ذلك يجفف الأطباق فى طرف قميصه، الذى اكتسب لون الرمل وأصبح قوامه مثل قوام الشحم نظراً لأنه لم يغسله أو يغيره طوال خمسة أسابيع، ونتيجة إحساسى بالغثيان، دخلت خيمتى أبحث عن زمزمية الماء، كانت الزمزمية مليئة إلى منتصفها بالماء، وأنا أذكر أن المرشد رجانى مرات عدة يطلب الشرب أثناء عملية الصُّلب التى لقيناها بين الصخور، وتذكرت أيضاً أن المكرونة لابد من سلقها فى شىء ما.

بلغت الحرارة فى تلك الليلة حداً تعذر معه النوم داخل الخيام، وعليه نقلنا أسرة المخيم إلى خارج الخيام وجلسنا تحت النجوم، بينما كان جونز، الذى نفذ تبغه هو والأشياء الأخرى، يضع فى شىء من الحرص بعض أعقاب السجائر فى غليونه، أحضر إلينا بالينا شيئاً لزجاً له مذاق طين الصلصال وتفوح منه رائحة الطين ورائحة البغال ورائحة البشر! غمرنا الفرح عندما طلع علينا الفجر، وتمكنا من مواصلة صعود القمم الصخرية فى اتجاه الهضبة، وأمل البَرَاد الذى نعلقه عليها، كانت آخر حافة من الحواف مغطاة بأشجار شاحبة اللون ناعمة اللحاء، وكانت تلك الأشجار على شكل عقد مكونة من ملفات مما جعلها تبدو لنا كأنها أنواع من الثعابين أو الحبال المطوية طياً أنيقاً على ظهر المركب، كان الزبانية سعداء بتلك الأشجار، لأنها كانت تعطيهم عصى لها مقابض ظريفة ملتوية، كانوا يقطعونها من المنطقة التى تبدأ عندها السيقان والأغصان فى الانبعاج، كانت هناك أعداد كبيرة

من القردة مختلفة الأنواع، وكانت طيور الليل ممثلة بصوت شبيه بالصوت الناتج عن الصُّنوج النحاسية، كان أيك الأشواك والحشائش الموجودة على قمة الصخرة متخشبة مثل القصب، وبعد مسير ميل آخر بدأت القرى تتبدى لنا إلى حد أن جابرا جورجس استطاع أن يبدأ جولاته بحثاً عن الطعام، جاءت تلك الجولات بلا جدوى، ووصلنا آدانكاتو Adankato ومحطة جمركية أخرى ونحن عطشانين وبلا إفطار.

كنا نسأل الناس: "أين الماء؟"

وكانوا يردون علينا "بعيد جداً، إذا ما صمدت بغالكم معكم إلى وقت الظهيرة فستصلون إليه".

كان رئيس القرية متضايقاً فى بداية الأمر، لكن منظر الوثائق الست التى تحمل أختام حكومته، أثارت عداءه بشكل واضح.

قال "أنا لا أقرأ اللغة الأمهرية، يجب أن تنتظروا معنا هنا إلى أن يمر علينا شخص يترجم لنا ذلك".

سأله جابرا جورجس بطريقة هادئة "كم سيدوم انتظارنا هنا". كان جابرا جورجس الشخص الوحيد فى القافلة القادر على الكلام باللغة التجرينيه، التى لا يفهم أحد من أهل القرية غيرها، كان رئيس القرية ينظر نظرة غامضة إلى الطريق.

"فى بعض الأحيان قد يأتى مقاولو البغال من هذا الطريق، وهم متعلمون ويعرفون لغات غريبة".

كان الموقف أكثر مما يمكن تحمله، بل إن آتُّو بيلاكو كان على وشك الانفجار، أدرك رئيس القرية أنه لم تكن لديه بنادق كافية لإزعاج أو مداهمة ما هو أكثر من بغالنا التعيسة، التى يجرى ضربها الآن من هنا إلى هناك بين التجرينيين، وبين البغالة الغاضبين غضباً شديداً.

قال رئيس القرية "بوسعى أن أكتب للحاكم".

"كم يبعد عنا الحاكم؟"

"نحو ثلاثة أيام، إذا ما كان فى منزله".

رئيس القرية هذا لم يكن عنيداً ولا سليطاً مثل المرشد Feterari، وبعد

ساعة من اللت والعجن، تركنا نمضى لحال سبيلنا، لكن جابرا جورجس هو وواحد من الزبانية ذهبا لشراء الطعام، كان الصوم قد مضى منه أسبوع في ذلك الوقت، وكان مخزون البيض الفاسد يتزايد كل يوم، جلس طباخنا أرضاً ومعه قرعة مفرغة مليئة بالماء وراح يختبر كومات البيض التى أحضرت له، بعد أن رفض الطباخ المجموعة الأولى من البيوض، أمسك به رئيس القرية وهدده بوضعه فوراً فى السجن، تحتم على الزبانى هو الآخر أن يعانى المصير نفسه، من منطلق أن قرية آدنكاتو Adankato قد تثأر لنفسها من تلك "المرأة القاسية" التى أهانت جمارك القرية، اللهم إلا إذا كان ذلك التصرف مقصوراً دوماً على الحبشة، كان جابرا جورجس قد استنفد كل معرفته بلغة التجرى، وأنفق أيضاً كل دولار معه، قبل أن يُفْرِج عنه أولئك المفسدون.

لحق بنا جابرا جورجس عند دخول الليل، بعد مسير دام أكثر من عشر ساعات، كان قسم منها خلال عاصفة بَرَديَّة عنيفة، وكنا مخيمين بجوار بعض أشجار الدوم التى كانت تخفى الماء، كانت البغال مرهقة ولم تكن الفرصة سانحة لنا بشراء أى شىء من علف الحيوانات، كان العشب نادراً وكريه الرائحة، كانت هناك عاصفة مريعة تهب علينا ولم يكن لدينا طوال أربع وعشرين ساعة أى شىء يمكن أن نأكله، كنت أحاول عنوة فتح الجوال المغلق الذى بداخله الأوانى والمواعين والمكرونة الأبدية، عندما وصل إلىّ الطباخ.

قال متعجباً، "ليس هناك طعام، هذا شىء مستحيل"! وراح بعد ذلك يروى حكاية الإساءة إليه.

ابتسمت ابتسامة شاحبة، وأشرت له على كومة من الخشب كنا جمعناها.

"لا عليك(☆)، ولا يهمك، اطبخ أى شئ".

خطرت ببال جابرا جورجس ذكرى مفاجئة.

قال "أنا معى طائر".

تهلل وجهى وأنا أتحسس شملته (مظلته)، وأخرج بعد بحث طويل فرخاً من فراخ الحبارى، لا يزال ساخناً وأكبر قليلاً من العصفور.

☆) استخدمت الكاتبة الكلمة Malesh وهى كلمة امهرية، واصلها عربى "معلهش" اى "خلّ عنك"، او "ما عليك من شىء". (المترجم)

قال: "لقد ضربته على رأسه بعصاى".

تشكل مسألة الجمارك فى الشمال عقبة خطيرة أمام الرَّحال الذى ليس على استعداد لرشوة رهط كبير من المسئولين الجشعين، أو الجلوس هادئاً تحت أشجار الزيتون فى القرية، أو أشجار القيقب الجميِّزى إلى أن ينفد صبر هؤلاء المسئولين وتتبدد آمالهم، المعاملات الحكومية فى الحبشة لها اليد الطولى مثل الأوامر الكثيرة التى تصدر عن الحكام المحليين، الذين لا يقف أتباعهم على حقيقة شخصية رئيس رئيسهم، والغريب فى الأمر، أنه كلما بعد المكان عن أديس أبابا، زادت أيضاً أعداد بوابات تحصيل الرسوم، إلى أن يصل المرء إلى منطقة التجرى Tigré، حيث يجد هذه البوابات على بعد مسافات متساوية تقدر بنحو عشرين ميلاً بين البوابة والأخرى، هذا يعنى أن مقاولى البغال الذين ينتقلون فيما بين أسمرة وجُندار يضطرون إلى دفع الرسوم، لا مجرد مجموعة واحدة من الجمارك عند الحدود، وإنما يجرى دفع ضرائب عند منفذ كل منطقة من المناطق بواقع دولار واحد عن كل أربعة أحمال من الجلد الخام أو المدبوغ، ونصف دولار عن حمولة السكر التى يحملها بغل من البغال، أو العسل أو البن ويجرى أيضاً دفع نصف دولار عن كل ثلاثين قالباً من قوالب الملح، ونحن عندما نعمل الفكر فى أن كل بغل يحمل ما قيمته أربعة وعشرين دولاراً من العسل أو ما تترد قيمته بين خمسة وعشرين وثلاثين دولاراً من الجلود، وأن هناك نحو سبع أو ثمانى بوابات لتحصيل الجمارك فى الرحلة الواحدة، فإن ذلك يعنى أن التجارة الفعلية الجادة تعد أمراً مستحيلاً على هذه الشاكلة، عندما كنا فى جُندار كان السكر يباع بسعر سبعة شلنات وست بنسات لقمع السكر الواحد الذى يزن رطلين.

فى اليوم الثامن من مغادرتنا المدينة البرتغالية القديمة، وبينما كنا نحبو بمعدل ميلين فى الساعة، ومعنا البغال المُجْهدة، نظر المرشد إلينا مبتسماً ليقول لنا: "هناك بوابة أخرى عند المنعطف القادم، وسوف تحدث بعض المتاعب لأن الحاكم المحلى القديم نُقِل ولم يأت الحاكم الجديد بعد".

كانت تحدونا آمال الوصول إلى أكسيوم فى صباح الغد، ولذلك كانت تراودنا أحلام اليقظة عن الأغنام، بنية اللون وكثيفة الصوف، قال جونز: "خروف لكل واحد منا، من فضلك". دجاج سمين، وجوالات مملوءة بالشعير

للحيوانات التى تتضور جوعاً، طلبت وأنا غاضبة معرفة منزل الحاكم المنقول، وشققت طريقى عنوة داخل ذلك المنزل، وأنا ألوح بيدى وفيها الوثائق المختومة كما لو كانت أعلاماً ترفرف فى يدى، كان الجميع مندهشين من تلك الطاقة الصباحية الباكرة، الأمر الذى جعل الحاضرين يقتادوننى مباشرة إلى رجل طاعن فى السن، شخصية لا تعرف الابتسام، وغير مهتم بشكل واضح بتلك العظمة والأبهة التى ستغرب عنه، كانت القافلة قد توقفت خارج البرج الطينى الموجود فى فناء ذلك الرجل، وأنا أتصور انقضاء الساعات علينا، عندما راح سيادته هو وحاشيته يعبرون لنا على شكل جوقة وفى آن واحد، عن عجزهم، وسط احتجاجنا أمامهم بثلاث لغات: احتجاج باللغة الأمهرية قام به واحد من الزبانية، واحتجاج بلغة التجرى واللغة العربية تقدم به جابرا جورجس، واحتجاج تقدم به حاسن فيما يظن أنه لغة إنجليزية. من حسن الحظ، أن أحد المسئولين كان يتكلم اللغة الإيطالية، وقد انشرح صدره عندما استطاع ممارسة المجاملات الكثيرة التى تعلمها من تلك اللغة، مما جعله يهب لإنقاذنا، ولوح لى فى شىء من العظمة، بوضع التصريحات التى أحملها، فى جيبى من جديد، وأن أعود إلى البغل الذى كنت أركبه، والذى كان وُلدو سيلاسى متكئاً عليه، وهو غارق فى التفكير فى مسألة عودته إلى أكسيوم أم "أنه سيموت خلال المسير".

تشكل الموكب المرهق من جديد، وطوال النهار الذى مررنا خلاله على قرى صغيرة، كنا نسأل الناس "هل لديكم شعير، أو شمبورا، أو الماشيلا(☆)؟" وكان الرد الذى نحصل عليه "لا، ليس لدينا شىء نبيعه،" إلى أن وصلنا فى ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم، إلى آداجاسُنِّى Adagasunni، حيث الأرض المستوية مزودة بذؤابات من التلال والأكواخ فوق منحدرات حقول هذه التلال، هنا، استطعنا فى نهاية المطاف، شراء وجبة جافة لماشيتنا ورحنا نراقبها وهى تأكل وعلى وجهنا تعبير رئيس خدم الأسرة وهو يحاول إعطاء التلميذ ولى العهد مزيداً من كعكة زواج شقيقته.

أمطرت السماء علينا من جديد فى تلك الليلة، أو بالأحرى انفجرت علينا سلسلة من السحب، وأغرقت الأمطار الخيام؛ إذ وصل ارتفاع الماء داخلها إلى

☆ الشمبورا والماشيلا: نوعان من الاعشاب يستخدمان غذاء للماشية. (المترجم)

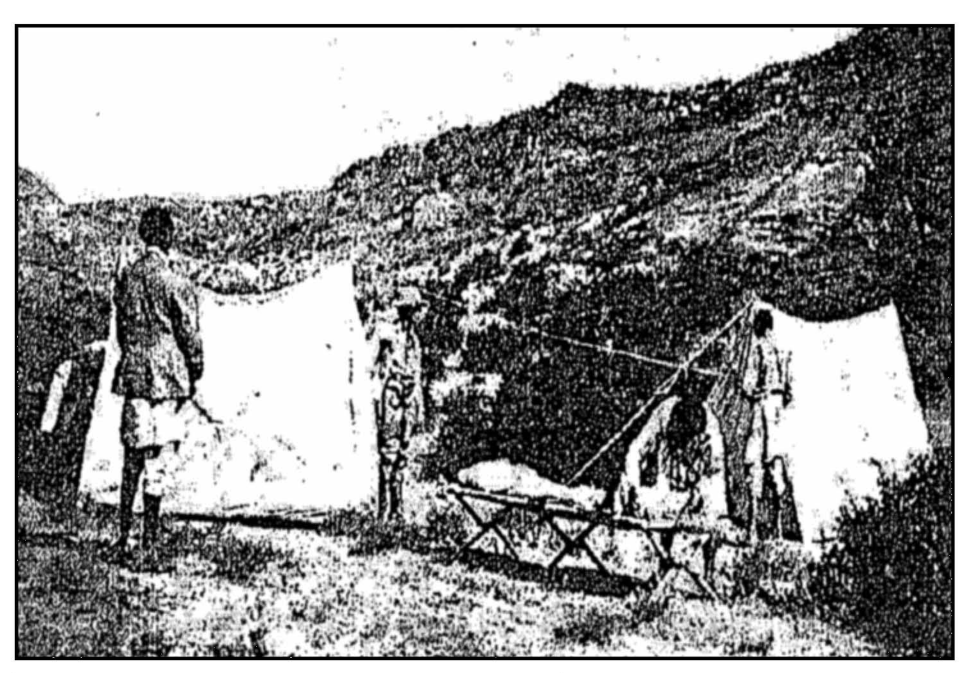
نحو بوصتين وتركتنا نحن وممتلكاتنا مشبعين بالماء، إلى حد استحال علينا معه حزم أمتعتنا أو حتى ارتداء ملابسنا، كل الأشياء كانت متورمة أو منكمشة، إلى حد أننا كنا ممنونين لذلك الحال الشبيه بالظلام، الناجم عن العاصفة والساعة المبكرة من النهار، التى كانت تطوق اجتماعنا مع الحاكم الجديد، امتد مرور موكب الحاكم الجديد خلفنا مدة نحو ساعة، كانت عامرة بأمتعة ذلك الحاكم، وعبيده، وحملة بنادقه، كانت النساء كبيرات السن يحملن القرع المفرَّغ، وكان الصبية الصغار لا يرون شيئاً بسبب السلال التى فوق رءوسهم، وكانت البنات يحملن حُزماً، وهذا شخص يحمل قارورة شبيهه إلى حد بعيد بقوارير الويسكى الأمر الذى أسال لعاب جونز، وكانت هناك أيضاً حيوانات مختلفة الأنواع بدءاً بزوج من الثيران وانتهاء بكلب من كلاب الصيد، وفى منطقة يضيق عندها مسار الطريق، وعندما كنا نحاول فصل أنفسنا عن قافلة قوامها نحو مائة بغل محملة بالجلود، التقينا الحاكم. ولما كنا نحمل له خطاباً من خطابات التزكية من راس تفارى، جرى نزول الجميع من فوق مطاياهم، حيث جرى الكثير من الانحناءات، والتحيات، التى أفسدت بسبب الفوضى التى انتابت الرجال والحيوانات، ومسارعة بغالتنا هم والغرباء إلى وضع أنفسهم على شكل حزم مزدوجة عند حوافر البغال حتى يتمكنوا من تقبيل أقدام صاحب السعادة، بعد أن أعدنا تصنيف أنفسنا اكتشفنا أن الحاكم، هذا الشخص اللطيف، متين البنية، وأشقر إلى حد ما، وأسنان كبيرة مربعة كى تناسب فكه، قد أوفد واحداً من أتباعه إلينا، وعليه كان الجزء المتبقى من مسيرنا إلى أكسيوم آمناً، وكنا عندما نمر على بوابة من بوابات تحصيل الرسوم، لا يبدى الحراس أى اهتمام بنا سوى الانحناء لنا من منطقة الوسط.

بدأت تطالعنا فى فترة العصر تلك الأكواخ التى كانت تسمى ذات يوم باسم عاصمة مملكة سبأ، شاهدنا دوائر إثر دوائر من تلك الأكواخ، وكانت كل مجموعة من تلك الأكواخ داخل مجمع سكنى جدرانه من الحجر، له بوابة موصلة إلى الطابقين، تمكن من تفتيش الزائرين قبل الدخول، ويجرى ذلك التفتيش من خلال نافذة صغيرة فوق المدخل مباشرة، مررنا من خلال هذه البوابة وسط سحابة من الغبار وأكبر جمع من الصبية الصغار الذين أفلحنا

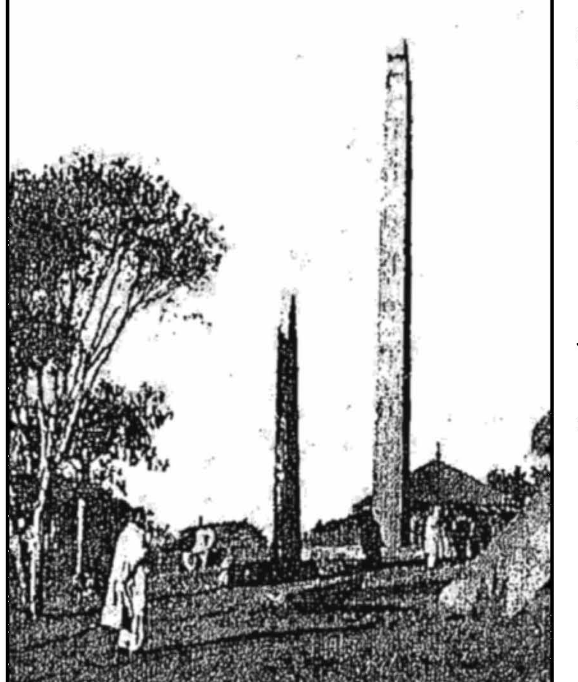
فى تجميعهم، لنصل بعد ذلك إلى السوق، كانت السوق عامرة بالقوافل المتجهة إلى جُندار وإلى أسمرة، والتى توقفت كى تبيع القطن الأبيض والسكر، أو الجلود، والزيت والعسل، وذلك اعتماداً على هذه القبائل ومجيئها من الشمال أو الجنوب. تقع على جانب من الأجناب المنازل المكونة من طابقين والمليسة بالجبس وهى منازل الحاكم، وعلى الجانب الآخر توجد كنيسة مريم القديمة، التى أتلفت بعمل واجهة حديثة لها من الخشب والجبس، وعمل برج مربع الشكل يميل لونه إلى اللون الوردى، أما باقى الجدران الحجرية التى ترك الزمن بصماته عليها فقد بناها البرتغاليون وهى توحى بأنها ليست مكاناً مقدساً من أماكن العذراء، تقول الأساطير، إن ألواح العهد الأصلية التى سرقها منليك، ولد سليمان، بعد أن ترك القدس ومعه ألف شاب من قبيلة من القبائل الإثنتى عشرة، محفوظة هنا، كى يجرى تأسيس مملكة يهودية فى إفريقيا، هناك قصة أخرى تقول: إن تابوت العهد، الذى كانت الألواح المقدسة محفوظة فيه، مدفون فى صخور أكسيوم، التى انفتحت على سبيل المعجزة، لكى تسمح بمرور منليك، أثناء مطاردة جيش والده الغاضب عليه، له، لكن هذه الصخور أطبقت على الفاسدين من أتباعه.

ظل ملوك الحبشة، على امتداد ثلاثة آلاف عام تقريباً، يُتَوَّجُون فى أكسيوم، واعتباراً من القرن الرابع، وعندما جرى تقديس فريمنتوس Frumentius كأول أسقف حبشى لاكسيوم، بواسطة أثناسيوس Athanasius بطريرك الإسكندرية، فقد جرى حفل التقديس هذا داخل حدود كنيسة مريم، التى يُحَّرم على النساء دخولها، لا يسمح بدخول كل ما هو أنثوى إلى داخل مسورات كثيرة فى الكنيسة المخصصة لمريم العذراء، وتنفذ هذه القاعدة تنفيذاً دقيقاً وصارماً إلى حد أن الفرس، أو البقرة أو الدجاجة، أو الأوزه، لا يجوز الاحتفاظ بأى منها فى منازل القساوسة المجاورة للكنيسة، وأنا هنا أتساءل إذا ما قامت عصفورة ببناء عش لها تحت طنف بارز من طنف الكنيسة، هل ستطرد من الرحمة بالجرس، والكتاب والشمعة؟!

يرجع تاريخ أكسيوم إلى زمن الحميريين، الذين غادروا اليمن السعيد، ليؤسسوا فى الحبشة ييها Yeha، كما أسسوا أكسيوم Axum بعد ذلك ، فى فترة لاحقة، جاء الحميريون ومعهم دينهم القديم، عبادة الشمس والحجر؛



مـخيم فى اكسـيوم عند سـفح الصـخـر، تقـول الأساطير إنه جرى شقه لمرور ولد سليمان، الهارب هو وتابوت العـهـد عند اليهود



المسـلات التى فى اكسيوم

وفى مطلع القرن الرابع عندما قام ملك من الأكسوميين، اسمه إيزانس Aizanes بإقامة منليث(*) تأبيناً لانتصاراته، كان وجه من وجهى المنليث يحمل نقوشاً سبئية، والوجه الثانى يحمل نقوشاً يونانية: "إلى آريس Ares الذى هو والدى"، وهو يرد على الشكر كما أن العملات المعدنية الحبشية مزينة، لا بمجرد كرة على هلال، وهذا هو رمز الحميريين، وإنما أيضاً بحروف يونانية، وبعد دخول المسيحية، الذى جاء أمراً سهلاً بسبب معرفة اللغة اليونانية، التى فيها علامة الصليب، "كانت كل من أكسيوم وآديولس Adulis المراكز الرئيسة لتجارة تبر الذهب، والعاج، والجلد، والجلد المدبوغ والنباتات العطرية". يكتب نوناسوس، هو والراهب كوسماس فى القرن السادس عشر، ويصفان الحملات السنوية التى كان الملك أكسيوم يرسلها كل عام لتبادل الملح، والحديد، ولحم الثيران مقابل سبائك الذهب "السَّاسويَّة" Sasou، أرسل قنسطنطين Constantine فى العام ٣٨٦ بعد الميلاد بعثة من "الثيوفيلين" Theophilus لزيارة ملك أكسيوم "الذى يسكن بالقرب من مدخل البحر الأحمر". هناك أسطورة تقول: إن الأحباش عندما عبروا البحر الأحمر فى العام ٥٢٢ الميلادى لنجدة المسيحيين المضطهدين فى الجزيرة العربية، استخدموا فى ذلك أطوافاً صنعوها من ألواح ربطوها إلى بعضها بالحبال، بعد ذلك بثلاث سنوات هيمن صولجان أكسيوم على اليمن كلها، التى حكمها من خلال حاكم مُناب، وبعد ذلك بقرن من الزمان، بدأت مدينة أكسيوم تؤوى أتباع النبى المضطهدين، وهذا هو السبب وراء عدم غزو محمد للحبشة مطلقاً، وعلى الرغم من أن أتباع محمد من الأفارقة المتشددين شنوا حرباً على الحبشة، وربما كان ذلك بسبب ذهبها الأسطورى من ناحية وعقيدتها المحددة من الناحية الأخرى، فإن الحبشى فى أيامنا هذه يلقى ترحيباً أكيداً فى معظم البلدان الإسلامية.

استولى يهود الفلاشا بقيادة جوديث Judith، ملكة سمين Simyen، على أكسيوم من خلف سليمان فى القرن العاشر، وحكموا أكسيوم لمدة تزيد على المائة عام. وعندما طردهم تكلا Tekla حيمانوت Haimanot اللاستى Lasta

(*) منليث: حجر ضخم مفرد يكون عادة على شكل عمود او مسلة. (المترجم)

من أكسيوم، حكم من جاءوا بعده الحبشة كلها باستثناء شوًّا Shoa، التى كانت موالية دوماً لسلالة منليك، إلى أن قام أحدهم في العام ١٢٦٨ بالتنازل عن العرش لصالح الأسرة المالكة الحقيقية. وبدءاً من ذلك الوقت، بدأ ورثة مقيودا Maqueda، ملكة سبأ، يحاربون وينتصرون، ويحاربون وينهزمون، لكنهم كانوا فى كل الأحوال يحكمون جزءا من الحبشة، إلى أن جرى الاعتراف بهم على أنهم "ملوك الملوك"، ومن باب تجنب الصراعات العائلية جرى التعارف على سجن كل أقارب الإمبراطور الحاكم من الذكور، أولا فى أكسيوم ثم بعد ذلك فى سجن خاص، وعند وفاة الملك يجتمع الحكام Rases ويختارون خلفاً من بين المسجونين الملكيين، كان الملك الصَّنيعة يذهب من الزنزانة إلى العرش وتظل السلطة فى يدى الوصى على العرش هو والحاكم، الذى كان يخلع الحكام الذين جرى اختيارهم، كما يحلو له هو، من هذا المنطلق، حدث ذات مرة أن كان هناك، فى آن واحد، نحو ستة من الأباطرة السابقين، الذين كانوا يعيشون فى أجزاء مختلفة من الحبشة.

أجبرت جُندار، فى القرن السابع عشر، أكسيوم على التخلى عن مكانتها باعتبارها عاصمة، ومع ذلك ظلت المدينة القديمة هى التى تتوج حاكم الحبشة، من بين بقايا أفراد سلالته النسبية المدهشة الآخذة فى الانقراض السريع. ونحن اليوم ننظر إلى الأكواخ المبنية من الطين والطنف المتخلفة البارزة من أسقفها المصنوعة من القش والعشب، ونحن راكبو مطايانا خلال الطرق الفرعية التى تنتشر فيها الفضلات والروث، وعظام الفك، والجماجم المتبقية عن الحيوانات النافقة، والتى تزدحم وتتزاحم فيها الروائح المتباينة إلى حد أنها يمكن تمييز الواحدة منها عن الأخرى، شأنها فى ذلك شأن الروائح الصادرة عن الشحاذين الذين لا يغتسلون ومن ثم يزيدون من تلك الروائح الكريهة، الأمر الذى يجعل مسألة تصور أو تخيل الحال التى عليها العاصمة السبئية أمراً مستحيلاً علينا.

لا يزال هناك أثر من آثار أكسيوم القديمة، ويتمثل فى المناليث الضخمة، التى تهيمن من الفراغ الواقع خلف كنيسة مريم، على الأكواخ الحقيرة والكنائس، الأصل فى هذا الموضوع، هو أنه لابد أنه كان هناك خط من تلك القواعد التمثالية الضخمة، وسبب ذلك هو أن هذا الطرف من القرية تنتشر

فيه كتل حجرية ضخمة مكسرة، ووسيعة بشكل لا يصدق، ومنحوتة على شكل حلية ورأس عمود، بعض هذه المناليث عبارة عن مجرد أعمدة، كبيرة الحجم مثل ركائز دائرة الدرويد، بعض آخر من هذه المناليث منحوتة بتصميمات زينية ولابد أنها انطلقت فى العلو، مدببة ومستدقة نحو السحب الأولى، لا تزال قلة قليلة من الكتل الصخرية المنتصبة بين كثير من الكتل الساقطة على الأرض، ومبعثرة على طول حافة الأكواخ، كما أن هناك مجموعة من هذه الكتل الصخرية لا تزال واقفة متشامخة، هذه المجموعة مكونة من خمسة أعمدة منليثية، والأعمدة الأربعة الخارجية عبارة عن أعمدة عادية ومنخفضة عن الرمح المركزى المحفور، الذى لابد أن ارتفاعه يتردد بين ٦٠ و٧٠ قدماً.

هذا المنليث هو أفخم المنليثات الواقفة، وهو مثل إخوانه من المنليثات الأخرى، المكسَّرة إلى عدة ألواح، يقع فى غور قريب من خزان المياه، وهو يمثل بناية من طوابق كثيرة، قاعدة هذا المنليث تمثل هيكل الكنيسة، الصف الأول له باب زائف، ومن فوق هذا الباب نجد أن كل دور مُعَلَّمٌ بما يوحى بوجود أطراف دعامات، كما لو أن النموذج الأصلى مصنوع من الخشب، كل منليث من تلك المناليث يواجه الشمس المشرقة، وعند قمة المنليث يوجد فراغ على شكل شبه دائرة مثبت فيه من الأمام قرص معدنى، ومن خلف رأس واحد من هذه الأعمدة يوجد تمثيل خافت للشمس.

وهذا هو تيودور بنت Theodore Bent، الذى زار أكسيوم فى العام ١٨٩٣، والذى ضمن رحلته كتابا مهما اسماه "المدينة المقدسة عند الأحباش" يصف لنا المغزى الدينى من تلك المناليث:

تقع المذابح عند السفح...، أحد هذه طوله نحو سبع أقدام وعشر بوصات، وعرضه نحو تسع أقدام، وله حلبة مرتفعة، محفور فيها وعاء يشبه بطريقة غريبة وعاء الكايلكى kylix اليونانى، ويستخدم فى استقبال الدم الناجم عن الأضحية المذبوحة، وهناك قناتان منحوتتان فى ركنين يمكنان الدم من الانسياب إلى الحلبة السفلى، التى نجد فيها هى الأخرى ثلاثة أوعية استقبال أخرى جرى شقها هى وسلسلة كاملة من الثقوب فى المنطقة المحيطة، وهناك أيضا قناتان أخريان عند الأركان ليمكنا الدم من الانسياب على الأرض، المذابح

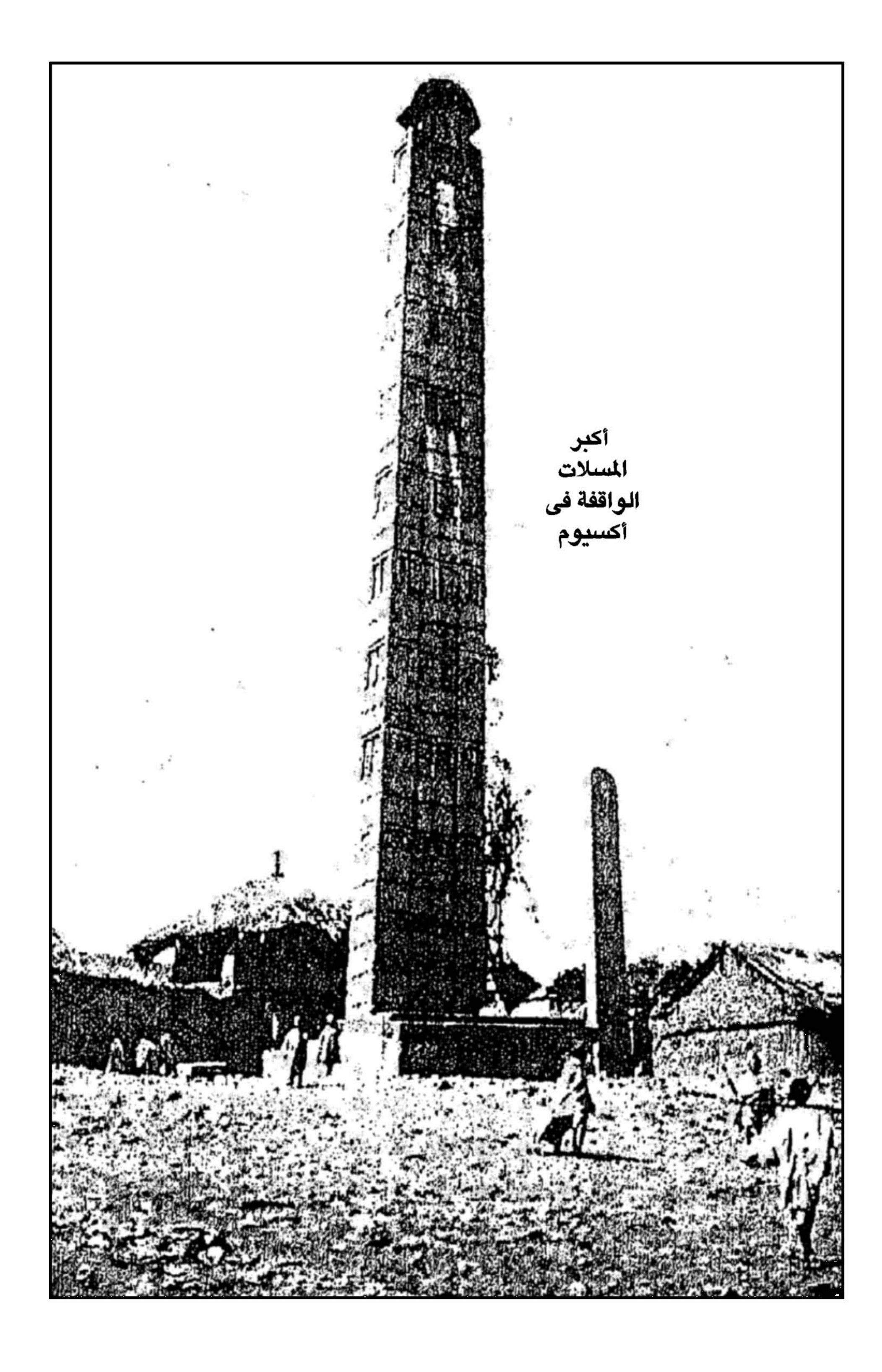
التى من هذا القبيل كانت شائعة فى عبادة الميتريك Mittiraic، حيث كان يجرى نحر الأضحيات لإله الشمس العظيم.

يبرز السيد «بنت» ما مفاده أن المسلة الواقفة العظمية هى بلا شك كبرى المسَّلات، لأن فيها قطعاً ضخمة عرضها نحو أثنى عشرة قدماً وثمانى بوصات ونصف البوصة بالمقارنة مع المنليث الواقف الذى يصل عرضه إلى نحو ثمانى أقدام وسبع بوصات والموجود فى حديقة من الحدائق المجاورة.

يجرى فى معظم الأحيان ترميم المجمعات السكنية والكنائس باستخدام كتل قديمة التى ربما كانت جزءا من سلسلة مدهشة من المسلات، التى يمكن رد أصلها إلى الأحجار المحفورة الغشيمة والباكرة، التى تكون قمتها خالية من التشكيل، والتى مرت بمراحل معمارية وزينية متباينة إلى أن وصلت إلى القاعدة التمثالية الرائعة المكونة من تسعة طوابق مثلما قلنا من قبل، هذا الصف من الأحجار الهائلة الذى يمتد فى اتجاه أعالى الوادى، صخوره بدائية مثل صخور زيمبابوى Zimbabwe أو ستونهنج Stonehenge، ومع ذلك فإن القواعد التمثالية تتشكل بصورة متدرجة وتأخذ شكل الفروض، ثم يجرى قطعها على شكل أحزمة أو سيور، بحيث يمثل كل حزام دوراً محمولاً على دعائم، فى حين نجد أن بعض الأدوار الحديثة لها أقفال، وترابيس، أو مقابض على الأبواب الهيكلية، ومن ثم يصبح بوسع المرء تخيل الصالات الخيالية الموجودة فى الداخل، المدينة الحالية محاطة بالأعمدة الساقطة على الأرض من كل جانب، أو بالصخور التى تبدو كأنها قواعد لأعمدة أو تماثيل فى يوم من الأيام.

يمتد من الحجر الذى يحمل نقوشاً إغريقية وسبئية، يصف فيها أيزانس Aizanes نفسه بأنه "ملك الأكسوميين، والحميريين، والسبئيين، والزيليين Zeila.. إلخ إلخ." والإعراب عن تقديره لمارس(☆) وتنويهه بثلاثة من آلهة سبأ، صَفٌّ من هذه الأحجار ليصل إلى قلب مدينة أكسيوم القديمة، ونقلاً عن الأستاذ ميولر Müller، فإن هذه الأحجار من تاريخ لاحق لتاريخ المسلات، إضافة إلى أن هذه الصخور كانت قواعد لتماثيل معدنية، "العروش" الحقيقية

☆ إله الحرب عند اليونان. (المترجم)


أكبر
المسلات
الواقفة فى
أكسيوم

"التى أقيمت فى صعدة Sada" لتأبين الانتصارات التى حققتها أكسيوم، ناظر السيد «بنت» على واحدة من تلك الصخور آثاراً وعلامات تدل على المكان الذى كانت قدما التمثال ترتكزان عليه، هناك بعض الأحجار التى فيها أخاديد (فروض) التى ربما كانت أشكال معدنية مثبتة فيها فى يوم من الأيام.

الأرجح أن مختلف الأحجار الحاملة للنقوش، كانت مقامة بالقرب من التماثيل التى تنتمى إليها، وقد ترك لنا كل من روبل Rüpell، ودابادای D'Abadie، وبنت، وديلمان، وميولر صور التراجم لنتف وُجدت فى فترات من الحملات المختلفة التى قاموا بها، صور التراجم هذه تصف حملات، ومعارك، وأسلاب ملوك أكسيوم، كما تصف أيضاً تاريخ أزمان هؤلاء الملوك، والعهود التى قطعوها على أنفسهم أمام مختلف الآلهة، وإهدائهم لثلاثة تماثيل لهؤلاء الآلهة "تمثال من الذهب، وآخر من الفضة، وثالث من النحاس الأصفر"، كما تصف صور هذه التراجم أيضاً حدود ممتلكات ملوك أكسيوم.

لابد أن المبانى المبنية من الطين فى أيامنا هذه، تخفى وراءها كنزاً لعلماء الآثار، هذا فى الوقت الذى نجد فيه أن كنيسة مريم، المنشأة على موقع هو فى الأصل موقع لسلسلة من البنايات القديمة، وفيه أيضاً أساسات لكتل ضخمة يرجح لها أنها كانت قاعدة لمعبد حميرى من معابد الشمس، هى الأخرى عامرة بالتذكارات المهمة، لم يسمح لى سوى باختراق الفناء الخارجى، حيث يوجد صف من قواعد التماثيل الحجرية الضخمة، التى لابد أنها كانت تحمل تماثيل شبيهة بالتماثيل الموجودة فى ميدان إله الحرب، الموجود خارج المدينة، وعلى مقربة من بوابات الفناء الداخلى، يوجد ذلك الحجر الذى كان يجرى عليه تتويج الأباطرة؛ ويزاد على ذلك أن المكان كله تتبعثر فيه الأحجار القديمة وبقايا نحت بدائى.

يوجد على بعد مسير ساعة على ظهور المطايا فى اتجاه الشمال الغربى هيكل تخطيطى لأسد على صخرة من الصخور، وتوجد على مبعدة من هذا المكان قمة جبل متوجة "بكنيسة سليمان" House of Solomon حيث يظهر رأس الأسد من جديد.

نصبنا مخيمنا تحت صخور كانت فى يوم من الأيام فلَقاً مر من خلاله ولد سليمان، تجمع عشرات من العفاريت شبه العراة على قمة الصخرة وراحوا

يصرخون بتعليقاتهم كما لو كانوا زرازير صغيرة داخل مدخنة من المداخن، ويضيع تشكىٍّ بالينا وسط صوت جابرا جورجس، وراحت البغال تتمرغ فى التراب وتعض ظهورها الملتهبة على مبعدة قدم أو اثنتين من الطبق الذى كان الزبانية يضعون فيه خبزهم، ارتفعت فوق الأكواخ الحقيرة سحابة من الدخان، حولت تلك الأكواخ إلى ما يشبه الفطر عند سفح هذه الأعمدة المستدقة القديمة قدم الدهر.

حاولت الإمساك بعبق التاريخ وعراقة الأسطورة كما هى فى أنقاض قصور جُندار، وكما هما فى لالبيلا التى لها حمرة الورد البلدى، لكنى ضُللت فيما حاولته، مر كلب يجرى خلال حبال الخيمة وهو يحمل رأس غنمه مغطى بالتراب، كان هناك بعض من الرجال حملة البنادق يحاجون شحاذين ربطا أثمالهما إلى بعضها البعض فى إشارة منهما إلى أن هناك نزاعاً بينهما يودان إخراجه إلى العلن، كان هناك حصان أعرج، معقول من ظهره ومن أطرافه الأمامية ببعض الأشرطة.

صرخ جابرا جورجس قائلاً: "أنتم أيها الكلاب، ويا أبناء اللصوص! هل يعد مسيحياً ذلك الذى قدم لى دجاجتين ليستا سوى عظام محشوة بالريش، وبيضاً أسود من صوم العام الماضى، مقابل دولار؟"

جاءنى بعد ذلك صبى، طويل وواسع العينين وصريح، وراح يتحدث معى حديثاً لطيفاً وهو يمسك فى طرف شملته (مظلته) Chamma.

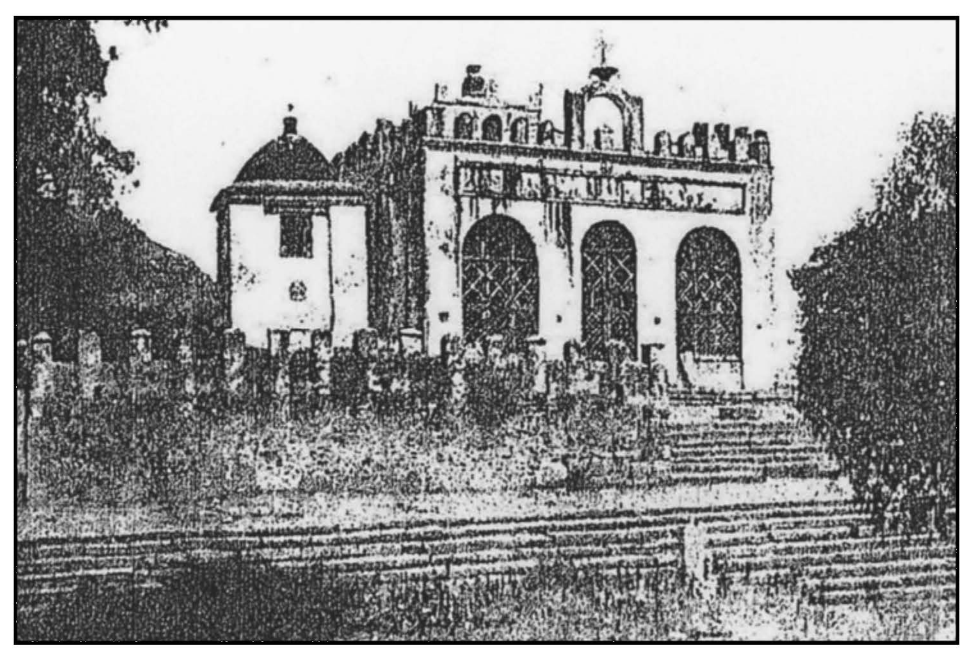
"لقد أحضرت لك هدية لأنهم يقولون إنك جئت من طريق طويل".

نظرت إلى أعلى وأنا مندهشة، قام الصبى بحرص وفك طرف الشملة ليخرج منه شىء صغير جد وضعه على راحة يده المفرودة، كان ذلك الشئ عملة نحاسية صغيرة، أصغر من عملة الفارذنج(☆)، متآكلة، ومخضرة اللون بفعل الزمن، وأنا أعتقد أنها عملة حميرية، بل وربما تكون سبئية.

قال الصبى "هى قديمة جداً؛ لقد عثرت عليها هناك فى الجبال، لكنى ليس لدى العلم الذى يمكننى من تقييمها".

شكرته وقدمت له نقوداً، لكنه ابتسم وهو يضع طرف شملته على كتفه.

☆ قطعة نقد بريطانية تساوى ربع بنس. (المترجم)



كنيسة أكسيوم التى يُتَوَّج فيها الأباطرة الأحباش



الكنيسة المبنية بجانب المدفن الأسطورى لملكة سبأ.

"لا، إنها هدية؛ ولتبارك العذراء قدميك".

جاءت انحناءته سريعة إلى حد أن رأسه احتك بتنورتى، وانصرف لحال سبيله ثانية، رافعاً ذقنه إلى أعلى، ويؤرجح عكازه الطويل، قبل أن أتمكن من الرد عليه، وقفت مدة دقيقة، أنظر إلى هذه القطعة المعدنية، التى حفرها الزمن وقولبها، مثلما فعل الناس فيها قبل أربعة عشر قرناً.

كان الدخان قد غطى الأكواخ تماماً، وتحول فى ظل الهواء الرطب إلى حشد من الأشباح، كان هناك شيء من الهدهدة حول المخيم، وكانت تتناهى إلينا من بعد إيقاعاتٍ مزامير تغنّى قادمة إلينا من دير من الأديرة، كانت المناليث تبدو كأنها ذُرى من الغموض تخترق العاصفة التى أظلمت وقت الغروب، فى الوقت الذى كانت فيه أغنية داود، جد ولد سليمان «الذى كان أول من حكم أكسيوم»، تتجرف خلال حلقات الضباب مثلما تتجرف أصوات موسيقى المعركة أمام فرقة من الأشباح.

همس جابرا جورجس فجأة فى أذنى "لقد اشتريت عنزة، وأنا أظن أنها مريضة بسبب الحال الذى تبدو عليه عيناها المغلقتان، لكنى سوف أذبحها قبل أن تموت وسوف أصنع منها حساءً طيباً".

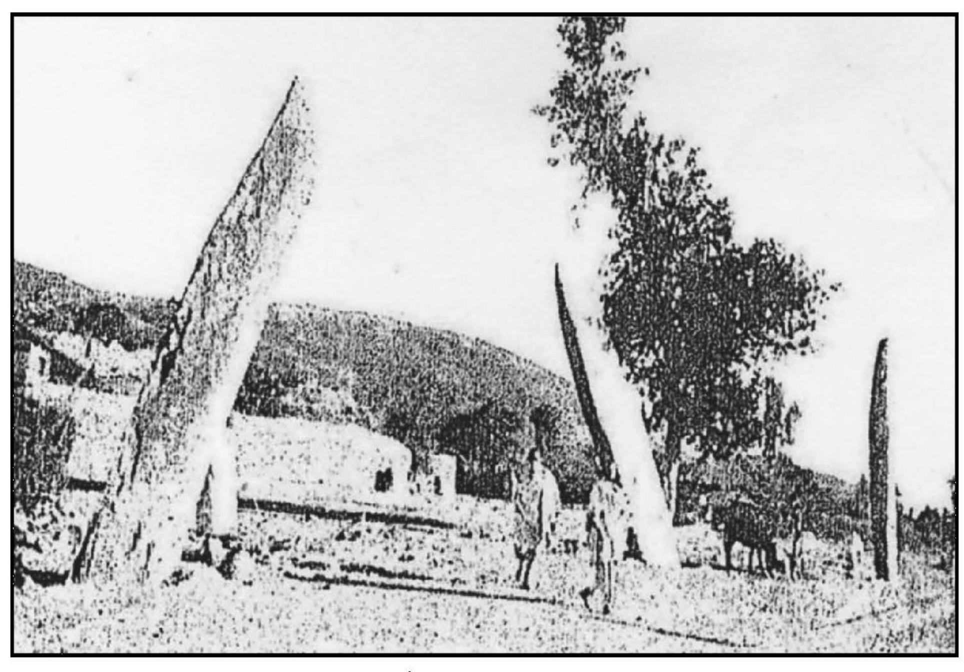
لم تكن آلة التصوير تحظى بشعبية فى أكسيوم، لم يُنظر إليها أول مرة على أنها ليست إلهاً يُسترحم أو يُسْترضى، وإنما كشئ شرير ينبغى تدميره، وعندما نصبنا آلة التصوير السينمائى أمام المسلات، ثارت بين أفراد الجمهور غمغمات توحى بالغضبٍ وجرى إلقاء بعض الأحجار علينا، تزايدت تلك الأحجار إلى أن أصبحت وابلاً من الأحجار، بعد أن وجد الأطفال أنهم لا يمنعون من ذلك بواسطة آبائهم، لكن من يمن الطالع أن اليد المرتعشة تكون وراثية، وعليه فإن الصواريخ التى كانت توجه إلينا كانت بلا حول أو طول ولا ضرر منها شأنها فى ذلك شأن الطلقات الحبشية التى يطلقها الأحباش على الدجاج الغينى وعلى الغزال.

حدثت أثناء صعودنا الجبلٍ لحظة من لحظات انعدام الوقارٍ والاحترام، عندما أحاط بنا جمع من الشكّائين، الذين لا يعرفون لهم هدفاً أو مقصداً سوى المضايقة، وحدثت لحظة فاشلة أخرى، عندما جرى جنود الحاكم المحلى خلفنا وهم يمطروننا بسيول الاعتذار التى انتهت بالنغمة المتوقعة المعتادة.

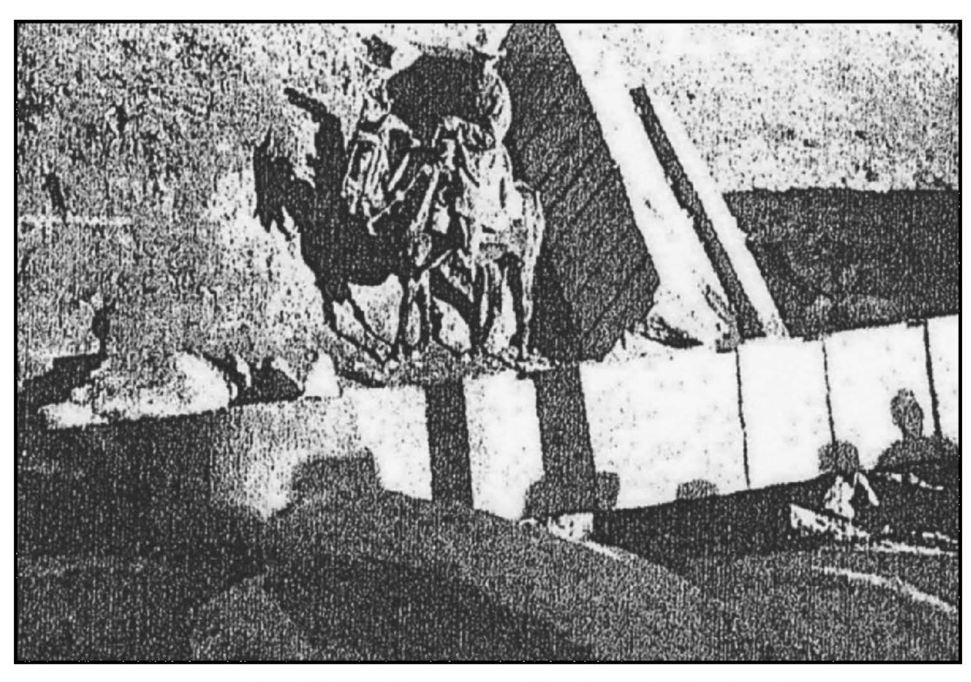
كان ضوء الشمس متقداً عبر السهل ونحن نغادر آخر المناليث المقامة تكريماً لإله الشمس طوال قرون سابقة لعصرنا، كان ذلك المنليث الأخير يقف وحيداً عند سفح جبل من الجبال، ليكون بمثابة موقع متقدم للمواقع الثلاثة والأربعين التى كانت تزين المدينة فى يوم من الأيام، لما كانت أكسيوم مدهشة مثل الزمن فقد دفنت أسرارها مع العظمة التى كانت عليها فى يوم ما، كما أن تاريخها يظل غامضاً مثل تاريخ المسلات العظيمة.

قلت ونحن نركب مطايانا متجهين صوب الشرق إلى الجبال الغربية، حارسة الاستقلال الحبشى، وميدان المعركة التى أمَّنت ذلك الاستقلال للحبشة "إذا ما سرَّعنا الخطى سنصل آدوا فى غضون أربع ساعات". لكن البغال رفضت الإسراع، وبعد أميال قلائل؛ يضاف إلى ذلك أن الحيوان الذى أحضرنى من أنكوبر Ankober وقاوم صخوراً على امتداد ٨٠٠ ميل، بدأ يعرج على الأرض المستوية، كنا نفحص أرجل البغل عندما مرت علينا بعض النساء التجرينيات، وكن يحملن أطفالهن على ظهورهن فى أكياس من الجلد، لابد أن هؤلاء النساء زرن مؤخراً حلاق النساء المحلى لأن شعورهن كانت مدهونة بالزيت وملفوفة، تقدمت صاحبة أنعم الضفائر من بين هؤلاء النساء، والتى كان فى أذنيها قرط من ذهب، وزهرة فى كل فتحة من فتحتى أنفها، وقطعت صدفة من سلسلة أحجبتها، ثم قامت بوضع هذه الصدفة فى أذن البغل.

قالت: "ستجرى الآن مثل الريح، لا تخافى"، لكن الحيوان بقى أعرج كما هو، وتحتم علىَّ أن أوازن نفسى على بغل من بغال الأمتعة، إلى أن كشف منعطف من المنعطفات المفاجئة عن منظر طيب غير متوقع بالمرة مجموعة من حيوانات الركوب الراقية عليها سُرج أوروبية كانت تحت شجرة من الأشجار فى حراسة بعض من حملة البنادق يرتدون ثياباً بيضاء، وفى اللحظة التى شاهدت فيها تلك الشملات البيضاء، أدركت أن أبيض الحبشة هو رمادى فى حقيقة الأمر، أو "لون اللحم البشرى المحلى" على حد قول هارولد جونز، شخصية، أهَّلَها حجم قبعتها المصنوعة من اللباد، وحذاؤها الأصفر اللامع البراق أن تكون أهلاً لهذا الوصف، اقتربت منا وهى تنحنى لنا.



المناليث الأصغر فى اكسيوم



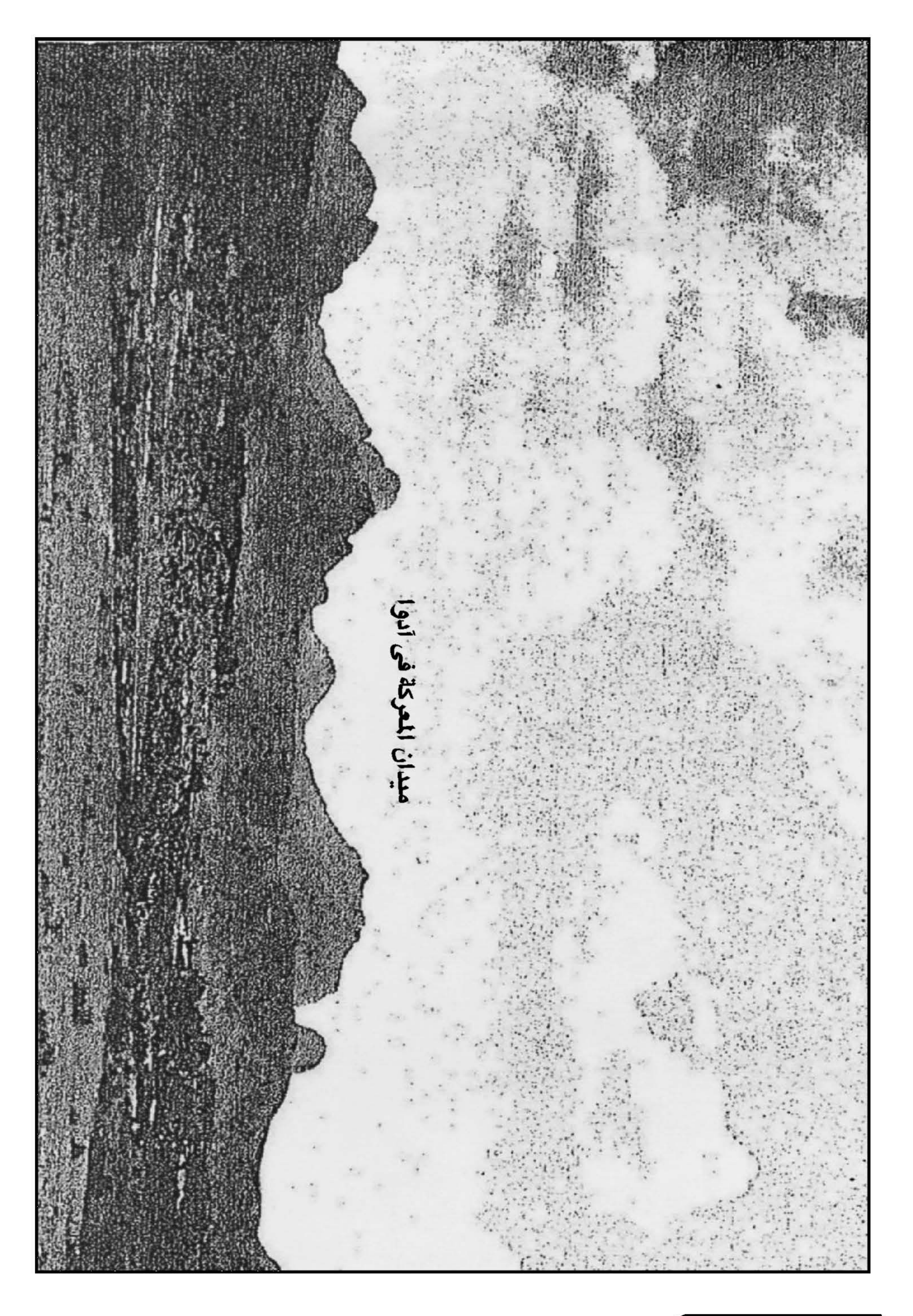
السيد/ هارولد جونز بالقرب من مسلة ساقطة فى اكسيوم.

"أحمل لكم تحيات الكومنداتور بولِّيرو Commendatore Pollero، وهو يتمنى أن تكونوا قمتم برحلة طيبة، وأن تتفضلوا بإنهاء الرحلة على بغاله".

لقد صببنا كثيراً من البركات والتشكرات على رأس ذلك القنصل الإيطالى الحنون، أثناء ركوبنا هانئين مرتاحين ونحن متجهون إلى آدوا، التى تعد مركزاً لملكته، والسبب فى ذلك أن هذا "الإفريقى" Africano الذى لديه خبرة ثلاثين عاماً، له نفوذ أكبر على الحدود الحبشية أكثر من الحكام أو الحكام المحليين الذين يتلاعبون مع لصوص الحدود والجمارك الأخرى.

اقتربنا بسرعة من جبل فريمونا Fremona، يعلو هذا الجبل حصن ضخم وبعض أطلال الجدران التى بناها البرتغاليون قبل طردهم من ذلك المعقل الأخير من الحبشة، بسبب الخلافات الدينية والتآمر السياسى، تسلقنا ونحن نشق طريقنا بين الأكواخ المبنية من اللبن لنلقى نظرة على الأحجار المجوَّفة عن طريق النحت التى تشكل منازل المنطقة الغربية من الحبشة؛ هذه المنازل مبعثرة حالياً خلال جدران غير متجانسة تنتمى إلى تاريخ لاحق، هناك جانب من الاستحكام القديم لا يزال بلا مساس، وهو يحيط بربوة، مغطاة بالحشائش، ويخترقها شىء ربما كان خزاناً عميقاً جداً، ويرجح له أن يكون متصلاً بمجرى مائى تحت الأرض.

ونقلاً عن الأساطير يُقال إن مقيودا، «ملكة سبأ»، مدفونة فى هذا المكان بواسطة ولدها اليهودى، وهناك قصة أخرى تجعل هذه الربوة موقعاً لأول كنيسة مسيحية بناها فريمنتوسٍ فى الحبشة التى حولها إلى المسيحية قبل نحو ١٦٠٠ عام مضت، واعتباراً من ذلك التاريخ أصبحت هناك سلسلة من الكنائس التى قاومت الرياح والعواصف فى ذلك المكان المرتفع، والكنيسة الحالية، مربعة الشكل، المبنية من الأحجار بطريقة بدائية ويعلوها صليب من بيوض النعام هى أيضاً من ضمن الآثار الضاربة فى القدم، الكنيسة الحالية عبارة عن مبنى عجيب منخفض ومربوع، ولها أربعة أركان وهى شديدة القِصَر ومنبسطة كيما تبدو مثل لعبة الداما الملصقة بأركان صندوق من الصناديق، يجرى الاقتراب من أو الوصول إلى هذه الكنيسة عن طريق سُلَّم، عريض، منحدر وغير منتظمٍ الدرجات، التى تبدو أكثر تأثيراً من الكنيسة نظراً لأنها تشغل جانباً كاملاً من الربوة، كما أنها أطول من الكنيسة ذاتها،



ميدان المعركة فى آدوا

يوجد داخل المبنى ممر مستطيل ضيق فيه مجموعة رباعية من الأبواب، المؤدية إلى معبد مربع خاص مصنوع من جذوع ضخمة منشورة نشراً بدائياً، ويبدو أن هذه الجذوع جرى قطعها وتجويفها من أشجار الجميز التى فى مكان بعيد، وسبب ذلك أنى لم أر فى آدوا خشبا بمثل هذا الحجم حتى يمكن أن تقطع منه دعامات من هذا القبيل.

عندما خرجنا من المبنى، الذى غسلته الشمس وحولته إلى لون الذهب الشاحب الشبيه بالعشب الأبيض الموجود على الربوة، كانت هناك عملية تعميد، كان هناك برج من اللَّبن، تتساقط من سقفه بعض قطرات الماء، على خباء جرى فرده لاستقبالها، على هذا الخباء كانت تجلس فتاة عمرها خمسة عشر عاماً، واضعة رجلاً فوق الأخرى وطفلها ملفوف فى جلد تيس مزين بالأصداف والأحجبة، كان هناك صبى يؤرجح مبخرة بجوار القسيس، الذى كان يعلق صليبه الطويل فى كتفه ويقرأ فى سره من مجلد، وعندما مررت عليه، استدار وظل يقرأ، وقدم لى الصليب كى أقبِّله.

♦ الفصل العشرون

تأمل ما مضى

قال جونز: "الغداء! لا عمل إلا بعد أن انتهى من أكل الدجاجة رقم ثمانين، أقصد بذلك بدءاً من تحركنا من أديس - لأنى لم أحاول العد قبل ذلك".

تجادلنا جدلاً ودوداً بشأن هذا الرقم.

قلت: "دجاجتان اليوم يعد رقماً كبيراً إلى حد ما؛ لقد ولت أوقات كثيرة خالية من الدجاج ...".

دار جونز حول الربوة، فى حين كانت «آدوا» عبارة عن منظر باهت من الأكواخ والأشجار عند سفح مخروطاتها الجبلية، كانت الجدران المهدمة والقلاع المهدمة توضح الأماكن التى أدت فيها المدافع الإيطالية أعمالها، كانت بقايا قصر جبر سيلسِّى تزحف على المنحدر، كانت هناك بعثة مهجورة على شكل برج، تقف بارزة فى مواجهة الطين والقش الذى يؤوى الآلاف السبعة أو الثمانية الذين يشكلون سكان آدوا، لكن الذى استحوذ على انتباهنا بحق بعد ستة أسابيع من الصخر والأشواك، ستة أسابيع من الأوجاع الكاملة الشاملة متعددة الألوان، ستة أسابيع من العرق، والوحل والعواصف، كان عبارة عن منزل من الحجر الرملى أحمر اللون، شبه مدفون فى بوغنفيلية(✫).

قال جونز وفى عينيه المزركشتين بفعل الشمس بريق "الخبز!"

قلت: " حمَّام ودش! "

خرج الكوميندادور للترحيب بنا، تجاهل كل ثقوبنا وأثمالنا، وقدم لنا أسخن الماء وأبرد المشروبات، ودهن خدوشنا بالمرهم، وقابل عبثنا بالتعجب: " بلغنى أنكم غادرتم جُندار، لكن كيف لى بتوقع وصولكم خلال أسبوع؟ لا

✫ نبات امريكى مُعترش. (المترجم)

أحد يستطيع، باستثناء المراسلين الوطنيين، يستطيع القيام برحلة سريعة من هذا القبيل".

ابتسمنا بطبيعة الحال، ثم اغتسلنا، ولصقنا البلاستر، وقدم لنا غداء رائعاً، كانت هناك كئوس مستدقة من الفضة لمشروب آستى سبومانت Asti Spumante الذى تفوح منه رائحة العنب، كان نبات البوغنفيلية منشوراً على طول مفرش مائدة الطعام الذى شدنى لونه إلى أن تذكرت أن اللون الأبيض كان شيئاً نسبياً عندى لفترة من الوقت، كان جميلاً بحق أن نستمع إلى لغة إيطالية ناعمة مثل القطيفة التى تغلف سيف فكر هذه اللغة، لم تعد الكلمات مبعثرة فى أكبر قدر ممكن من الصوت وأقل قدر ممكن من المعنى، الكلمات لها بشكل عام معان عديدة، وكل هذه المعانى مسلية، لكنى كنت منغمسة كلية فى الطعام علىً نحو منعنى من المشاركة فى تبادل الهجوم والتخلص من الإجابة عن الأسئلة المحرجة، فى الحديث الذى كان يدور بين الكوميندادور واثنين من مواطنيه، كان على المائدة لحم دجاج بطبيعة الحال، لكن لا وجه للشبه بينه وبين ذلك الدجاج الذى أتعب فكينا، صحيح أيضاً أن المائدة كانت تحتوى على المكرونة، لكن الصلة بعيدة جداً بين المكرونة رمادية اللون التى كنا نتناولها وكان إعلانها أو اسمها يحمل ساقاً مشئومة، الأجمل من ذلك كله أن المائدة كان عليها زباجون Zabagone، له رغوة من البيض والسكر، فضلا على المارسالا Marsala التى لا يجيد صنعها إلا الأيدى الإيطالية، هذا الصنف فيه حرارة المجاملة الإيطالية، وفيه أيضاً لسعة ذكائهم، وفيه أيضاً نضج خبرتهم، وفيه أيضاً ذهب توضيحاتهم وتصويراتهم السرمدية.

قال الكوميندادور أخيراً، عندما أفرغت الكئوس الفضية من محتوياتها، وعندما راح جونز يطيل النظر إلى سيجارة كاملة كما لو كانت ستختفى بمجرد لمس الكبريت لها: "حسن، ما هى انطباعتكما عن الحبشة؟"

كان السؤال صعباً نظراً لأن كل ولاية أحدثت لدينا انطباعاً جديداً، عدَّل أو قوَّى انطباعاً قديماً.

قلت فى نهاية المطاف، ظناً منى أن ذلك هو ما حاول القيام به كل الأوروبيين، والسياسيين، والتجار، والممولين، الأرض والسكان بحاجة إلى

التمية البطيئة، وأن مسألة اختراق ذهن الحبشى تعد عملية صعبة فيما يتعلق بجعله يحدث انفتاحاً فى بلده، الفارق كبير جداً بن شمال الحبشة وجنوبها، على الرغم من أن الخصائص والسمات تعد واحدة، الشمال يتشكك فى الغرباء، وجرى تعزيز نوع من الاستقلال مثير للشكوك وانعدام الثقة عن طريق عزل مجتمع كل قرية من القرى، جرى فى الجنوب تعديل هذه الخصائص والسمات عن طريق الإكثار من الاتصالات بالعالم الخارجى، مما جعل الناس فى الجنوب، أكثر وداً وأحسن طبعاً وضيافة، الإحساس بالمسئولية الشخصية غير موجود، بأى شكل من الأشكال، فى أية منطقة من الحبشة، ورأى أى إنسان لا قيمة له شأنه فى ذلك شأن الإحساس بالوقت لدى هؤلاء الناس، مسألة توفير الضامن، تعد مسألة قومية، وهى تشير إلى انعدام ثقة الإنسان بأخيه الإنسان.

"الساعات لا وجود لها فى الجبال".. كنا نسمع هذه العبارة مرات فى اليوم الواحد، وهى تدل على عرق من البشر يستطيع المداومة على القيام بعمل منتظم، وهذا واحد من العوائق الكبيرة فى طريق التجارة، وسبب ذلك أن الحبشى على استعداد لدفع أى مبلغ على سبيل البقشيش بدلاً من دفع راتب دورى منتظم.

البلاد تكاد تكون خلواً من الوعى الحديث، وإذا ما نحينا جانباً كلا من ولى العهد وربما معه واحد أو اثنان آخران، نجد أنه ليس هناك فرق فى مفهوم الحياة الأساسية بين الحاكم والفلاح، وبين الجاهل والمتعلم. وعلى حد قول واحد من زبانيتنا "الجلوس، والأكل، والحديث عن النقود هو أساس الحياة الحبشية". وربما يكون قد أضاف أيضاً "والشراب"، وفيما عدا ذلك، تسيطر على الحبشى فكرتان هما: قليل من الشجار وأكبر قدر ممكن من الاستعراض والتباهى، هناك فارق واضح وصارخ فى كل من سوريا، وفلسطين، والعراق، بين نظرة المسلم الجاهل التقليدي القديم أو المسيحى وبين ناتج المدارس البيروتية، قد نستغرب أن جيلاً واحداً من التعليم استطاع تحويل طفل الأسواق المؤمن بالخرافات إلى طلاب يجيدون لغات عدة، وأطباء، وصحفيين، قادرين على دراسة سياسة أوروبا باعتبار ذلك دليلاً لهم إلى آمالهم القومية، هناك فى العالم العربى الحديث رغبة صادقة فى التعلم، الناس يتطلعون إلى منافسة أوروبا، ويتطلعون أيضاً إلى

الدخـول إلى الأسـواق العـالميـة، وهم على وعى بالعـقـبـات التى تعـتـرض طريقهم، وهم يرحبون بالنقد الألمعى البناء.

العربى الذى يلتقى أى رحال من الرحالة الأوروبيين يسـأله "ما رأيك فى بلادنا؟"، لكن الحبشى لا يطرح مثل هذا السـؤال مطلقـاً، الفـلاح الحـبـشى الذى يشكل القسم الأكبـر من الأمة، والراضى عن نفسه وعن طريقة تصريفه لأمور دنياه، غير مهتم تماماً بالشئون الأجنبية، أو الأسـاليب الأجنبية، أو آراء هؤلاء الأجانب الذين يعبرون أفقة المحدود، هذا الفـلاح الحبشى ليست لديه الرغبـة فى التعلم، كما أنه غيـر واع بالدونيـة، وربما كان ذلك ناتجـاً عن عدم مـعـاناته من الحـاكم الأجنبى، الذى ربما حـرك طبـائعـه العـرقـيـة وولد فـيـه الرغبة فى الاستقـلال، وربما حثه أيضـاً على بذل الجهد وطلب الوحدة، واقع الأمر، أن كل ولاية أو مقاطعة، وإن شئت فقل منطقة من مناطق الحبشـة تعد قضية مستقلة، وليس لديها رغبـة فى تغيير أى شىء اللهم باستثناء صغار مسئوليها وطراز بنادقها، ويتمثل جواز السـفـر الحقيقى فى الفضة، وهو يحمل صورة ماريا تـريزا، والرياضى هو واللتّـات، وكذلك المحـارب والطفيلى الكسـول، بل وكل قـروى حبشى، يحمل كل واحد منهم بندقيـة ومظلة ملونة، وذلك من باب إدراك كل منهم لطبيعيته المزدوجة.

يقول هذا الإنسـان لأى مقترح من مقـترحـات التغيير "هذا هو الأسلوب الحبشى".

فيما يتصل بالآمال المرتقبة فى التجارة، نجد أن الجنوب فيه خط سكة حديد، فضلاً على ولى عهد يود أن يجعل من أديس أبابا عاصمة زاهرة على درجة عـالية من الكفـاية، فى ظل وجود هـذه الأصول، وفى ضوء الإحسـاس بقيمة العلاقات الأجنبيـة، يستطيع الحبشى، بصورة متدرجة، منافسـة التجار العرب، والتجار الهنود والأرمن، لكنى على قناعة من أن الحبشى ليس محبـاً للتجارة، ولما كان الشمال مبالغاً فى السمات والخصائص الأسـاسية كلها، فإن فـلاح الشـمـال صـاحب الدم الحـبـشى الخـالص، والذى يعـيش فى الجـبـال يكشـف، وعلى أفـضل نحـو ممكن، عن سـمـات وخـصـائص الحـبـشى التى لا علاقة لها بدنيا المال والأعمال، الفـلاح الحـبشى الشمالى يبلغ من الحـرص حداً يحول بينه وبين الاسـتـثـمـار، وهو أيضـاً يبلغ من البطء حـداً يمنعـه من انتـهاز الفـرص التى تسنح له، وهو أيضـاً يبلغ من الوضـاعة حـداً يمنعـه من

الرضا بربح معقول، الحبشى لا يثق بشريكه أو عملائه، وهو كثير الحشو فى الكلام إلى حد أنه لا يستطيع القيام سوى بأمر من الأمور العامة. من الممكن أن تؤدى الضغوط الأجنبية إلى جعل الحبشى يغير نظرته إلى الأمور، لكن هذه النظرة متأصلة فى ثلاثة آلاف عام من الاستقلال من ناحية، وفى عزلة جغرافية، وسياسية ودينية استمرت قروناً عدة، من الناحية الأخرى.

تشكل البنية البركانية لبلاد الحبشة كل العوائق الممكنة التى تقف فى وجه التطور فى هذه البلاد، تقع المناطق المزروعة هى والقرى فى الأراضى المستوية وعلى الحواف التى ترتفع عن مستوى سطح البحر بنحو ستة إلى عشرة آلاف قدم؛ فى حين نجد الأنهار التى تنخفض عن مستوى سطح البحر بنحو ١٠٠٠ قدم، هى والشروخ المقطوعة فى الصخور والخالية من الممرات وشديدة الانحدار، تشكل عقبة كأداء أمام التنقل، الطرق والسكك الحديدية أمور مهمة للتجارة، نظراً لأن التجارة فى الوقت الحالى تعتمد على قوافل البغال أو الجمال ويصل معدل سرعة البغل إلى خمسة أميال فى اليوم الواحد، فى الأراضى الوعرة ونحو سبعة أو ثمانية أميال فى اليوم الواحد فى الأرض غير الوعرة، يقطع مقاولو البغال، فى الظروف العادية، الطريق من جُندار إلى أدِّى كوالا Addi Quala، وهو يقدر بنحو ٢٢٦ميلاً، فى زمن مدته شهر واحد، ويتعين على هؤلاء المقاولين الاختيار ما بين التخييم بالقرب من الأنهار فى ظل حرارة وبوار الأخاديد العميقة، أو الأراضى العالية حيث يوجد العشب ويقل الماء، يتباهى بعض الأحباش بأنهم لم يشربوا الماء مطلقاً فى حيواتهم، وهم بكل تأكيد لا يستعملونه فى أى شىء آخر!

هناك شكوك حول مدى كفاية التجارة فى الوفاء بسداد تكلفة شق الطرق السريعة التى ستكون من قبيل المفاخر الهندسية، أرض الحبشة ليست جبلية بالمعنى المعتاد لهذه الكلمة، الأرض هنا عبارة عن فلق فى صدوع ومكوَّمة على شكل صخور وعرة، وليس هناك تواصل بين هذه الصخور، اللهم باستثناء طريق شديد الاستدارة يعرف باسم طريق الماعز، وقريب من البروزات الصخرية المأهولة بالسكان، الحبشة التى يبلغ عدد سكانها نحو عشرة ملايين نسمة ليس فيها مدن غير أديس أبابا، والناس هنا مبعثرون فى أكواخ، يسهل إنشاؤها من الطين والعشب المحليين إلى حد أن أصحاب هذه الأكواخ يكادون يكونون خفيفى الحركة مثل بدو الجزيرة العربية، تتغير مواقع

الأسواق الأسبوعية طبقاً للمواسم والمحاصيل، الحبشة ليس فيها لغة مشتركة، إلي حد أن المناطق المتجاورة من التجِّرى والأماهرة لا يفهمون بعضهم بعضاً، وليست هناك أيضاً عملة عامة، يزاد على ذلك أن الدولارات المنليكية يندر قبولها، أما القروش فلا يجرى التعامل بها سوى فى الجنوب، خراطيش الذخيرة مختلفة الأنواع، هى وقضبان الملح، والأزرار المصنوعة من الطين، والزيت، والبخور، والكحل، والقطن الأبيض، والأدوية ، كل ذلك عبارة عن عملات فى إطار وضع واحتياجات المنطقة.

تتمثل العقبة النهائية التى تقف فى طريق التجارة فى ذلك العدد الكبير من النقاط الجمركية التى سبقت الإشارة إليها بالفعل، وفى منظومة الفساد التى يتعيش منها المسئولون، نظراً لأنهم لا يتسلمون مرتبات، ولكن يتعين عليهم التربح كيما يعيشون، والحاكم يفعل ذلك خارج مقاطعته، والمرشد يفعل ذلك خارج الحى الذى يعيش فيه، ورئيس القرية يفعل الشئ نفسه خارج قريته، وهم يجبرون التجار على دفع مبالغ كبيرة على سبيل البقشيش حتى يسمحوا لهم بالتجارة، الأمر الذى يقلل من أرباحهم على نحو يعجزون معه عن تطوير أى عمل من الأعمال المالية تطويراً كبيراً، سألت مقاولاً ذكياً من مقاولى البغال عن سبب عدم إضافة الأحذية الجاهزة إلى بضاعته، طالما أن الأثيوبيين جميعاً يستخدمون هذه الأحذية، وبالتالى يدفع ثمن جلد النعل لوحده، وثمن الأربطة والشرائط لوحدها، الأمر الذى يؤدى إلى ارتفاع كلفة مثل هذا الحذاء إلى الضعفين فى البادية وفى الحضر، على الرغم من أن الجلود يجرى إنتاجها فى البادية.

قال: "تفسير هذا التغيير يحتاج إلى وقت طويل" وهنا تذكرت أن الوقت والكلام لا قيمة لهما عند الفلاح الحبشى.

أسررت ببعض هذه الأفكار إلى الكوميندواتور، ورماد السيجارة يتجمع بجانبنا، انتقد أو وافق، لكنه كان يوضح الأمور دوماً من واقع خبرته.

قلت وأنا أقلل من قيمة ذلك "هذا مجرد انطباع سطحى، لقد عملنا وترحلنا بكل جد واجتهاد طوال فترة وجودنا هنا".

قاطعنى مُضيِّفنا: "الانطباع أمر له قيمته، سنوات الدراسة عديمة القيمة، لكن أى شىء يكون بين هذا وذاك يكون عديم النفع".

"ما الذى تقصده بهذا الكلام؟"

لقد ترحلت كثيراً، وهل أنت بحاجة إلى السؤال؟ ألا تعرفين كيف أن

حقائقك الأولى القاطعة يمكن أن تبهت بسبب خبرة قليلة؟ أنت تعرفين الأشياء بالفطرة فى بداية الأمر، لكن بعد فترة من الشك قد تستغرق مسألة استعادة تلك المعرفة زمناً طويلاً".

تدخل فى الحديث إيطالى آخر، مساعداً بذلك فى بناء القصة "الخبرة تعمى الإنسان عن الضروريات".

سألت الكومينداتور: "ما رأيك فى هذا الكلام؟"

قال: "المال يلغى كل ما عداه فى هذا البلد".

"شىء مضحك، ألا يكون للنقود قيمة".

جاء الرد ثاقباً، وأدركت أن الكلمة الأخيرة قد قيلت بالفعل "يندر أن يكون الأطفال سيئى الطوية".

ودَّعنا فى صبيحة اليوم التالى حرس من الديوك الرومية بيضاء اللون وهى تكركر.

راح الكوميندااتور يشرح لنا، فى الوقت الذى اندفع فيه حشد مدهش من الأوز، والدواجن، والحمام عندما سمعت صوت الرجل "حريمى".

سألته وأنا أستعيد ذكرى رسالته المقصورة على الحبشيات "أنت ليست لك امرأة أخرى؟"

التمع جبينه "هذا أمر جد خطير، اتفقنا على أن التجربة هى شكل من أشكال العمى".

بدت آدوا لنا زرقاء زرقة الضباب، ونحن راكبون مطايانا متجهون صوب الشمال وسائرون محاذون لسلسلة قممها ذات الأشكال الغريبة، يقع بين هذه القمم ميدان القتال الذى غيَّر مستقبل وتوازن القوى فى إثيوبيا بين هذه القمم، هنا فى هذا الميدان، وفى شهر مارس على وجه التحديد من العام ١٨٩٦، حاول الإيطاليون فرض معاهدة أوتشياللى Uccialli، التى فرضوا بمقتضاها الحماية على منليك، لكنهم أُنزلت بهم الهزيمة بواسطة جيش تباين تقدير عدده وتراوح بين ٩٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠٠ مقاتل، و لما كان التفوق العددى بنسبة خمسة إلى واحد، فقد فشل الإيطاليون بخرائطهم غير الدقيقة فى تحقيق الحشد بعد مسير ليلة حسب تقديرات قائدهم باراتارى، وأمضى حكام إثيوبيا، وهم تكلا حيمانوت حاكم جوجام، والحاكم ميكائيل هو وخيالة وُلاَّ جَلا Wolla Galla، ومنجاشا Mangasha التجِّرى، وفى المؤخرة

منليك هو والإمبراطورة، أمضوا الليل يُصلُّون من أجل أن يبدأ الإيطاليون بالهجوم، كانت جيوشهم تتناقص ساعة بعد أخرى، نظراً لأن الجوع واللامبالاة كانا يعيدان حملة البنادق إلى قراهم، وكان القساوسة المرافقون للقوات يدعون القديس جورج والقديس ميكائيل، قديسى الحرب والقتال، أن يُسَرِّعا من معركة خلاصهم.

" فلنترك الأجانب يبادئون بالهجوم!" وتحقق هذا الطلب ونُفِّذت تلك الأستراتيجية، واتضح فى الصباح بعد سلسلة من الهجمات المنفصلة، أن الإيطاليين قد انهزموا، فقد بلغ عدد القتلى، والجرحى والأسرى عشرة آلاف، وألغيت معاهدة أوتشياللى واعترفت الدول باستقلال الحبشة التى لم تنهزم.

وصلنا فى ذلك اليوم على ظهر مطايانا إلى بلدة مارب Mareb، الحد النهرى لإريتريا، واستغرقت القافلة عشر ساعات ونصف الساعة فى قطع واحد وعشرين ميلاً، كنا نتقدم القافلة على ظهر البغال التى اقترضها القنصل المضياف، وعندما وجدنا قطيعاً من الماعز، دفعنا خرطوشة إلى عفريت صغير كى يقوم بجلب هذه الماعز لنا، لم أعرف قط أن الماعز يمكن أن تكون خادعة بهذه الطريقة، أطلقنا الزبانية بين هذه الحيوانات الخادعة، وعادوا إلينا يسحبون وراءهم أسمن هذه الحيوانات، لكن هذه الماعز لم تعطينا سوى ملاعق قليلة من الحليب، واستغرق أربعة رجال ساعة كاملة فى ملء قارورة واحدة بحليب الماعز.

جرى الترحيب بنا فى مارب Mareb بواسطة حرس من العسكر الإيطاليين الذين كانوا يرتدون طرابيش حمراء.

قال الرقيب بلغة إيطالية عجيبة "المكان هنا فيه لصوص كُثر، وعليه أوفدنا منجاشا، الحاكم المحلى لحراستكم". قاموا بالحراسة على أحسن وجه ,وفى خلال دقيقتين كانوا قد أخلو الأرض استعداداً لنصب خيامنا، واحضروا لنا الخشب والماء، وسارعوا إلى جلب العلف المطلوب للحيوانات.

"هذه أيضاً، يا سيدتى، بيوض، وأثنتا عشرة دجاجة يرسلها منجاشا، الحاكم المحلى، لتكون عشاءً لكم".

نظر جونز مشمئزاً إلى مجموعة الدواجن التى توقوق، وغمغم قائلاً: "الثانى والثمانين". لكنى تذكرت الأيام العجاف لكنى رفعت يدىَّ شكراً وامتناناً.

فهرس الكتاب

المؤلف فى سطور



الدكتور/ صبرى محمد حسن

● أستاذ اللغويات المتفرغ، وله أكثر من ثلاثين بحثاً ومقالاً، نشرت فى المجلات الدولية والعربية والمحلية.

● له مقالات وأبحاث نشرت بمجلات:

الفيصل فى المملكة العربية السعودية، ومجلة كلية الملك عبدالعزيز الحربية، والمجلة العربية فى الرياض بالمملكة العربية السعودية، وكتاب الهلال بجمهورية مصر العربية. وله كتب مترجمة إلى العربية منها:

أ: كتب نشرتها دور نشر عربية

١- التفكيكية: النظرية والممارسة.

٢- الشاعر والشكل.

٣- الاستراتيجية العربية والإسرائيلية وجها لوجه.

٤- الأطفال والمخدرات.

٥- الإخوان السعوديون.

هذه الكتب من منشورات دار المريخ فى المملكة العربية السعودية.

« ب » كتب نشرتها دار آفاق الابداع العالمية للنشر بالمملكة العربية السعودية.

١- الموظف المشاكس.

٢- عمل الفريق الفعال.

« ج » كتب نشرتها دار الهلال فى جمهورية مصر العربية.

١- هارون الرشيد.

٢- الكوكائين والمراهقين.

« د » روايات مترجمة نشرت ضمن روايات الهلال:

١- حلم ليلة إفريقية.

«هـ» كتب وروايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة.

١- سبعة أنماط من الغموض.

٢- وسط الجزيرة العربية وشرقها.

٣- قلب الجزيرة العربية.

٤- اختراق الجزيرة العربية.

٥- ترحال فى صحراء الجزيرة العربية.

٦- حركات التحرر الإفريقى.

٧- إرادة الإنسان فى علاج الإدمان.

٨- تفهم ذهنية مدمن المسكرات.

٩- سيرتى الذاتى «أحمد بللو».

« و » روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة.

١- سكين واحد لكل رجل.

٢- نجوم حظر التجوال الجدد.

٣- المهمة الاستوائية.

٤- الجماليات لم يولدن بعد.

« ز » كتب نشرها المركز القومى للترجمة.

١- ملاحظات عن البدو والوهابيين.

٢- ترحال فى الجزيرة العربية.

٣- مكة فى أواخر العام ١٨٨٥.

٤- الشفاهية والكتابية.

٥- بنات مدمنى ومدمنات المسكرات.

٦- التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر

روايات نشرها المركز القومى للترجمة

١- تجار اللحم البشرى

٢- بلا خوف

٣- فى انتظار ماريا

« ح » كتب نشرت ضمن كتاب الجمهورية

١- بلاد العرب.

٢- مغامرة فى الجزيرة العربية.

٣- حاج فى الجزيرة العربية .

٤- محاكمة اليهودية.

٥- ايران فى عيون الإنجليز

٦- كتابة الرواية من الحبكة إلى الطباعة.

طبع بمطابع دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع : ٢٠١٠/١١٥٩٩

الترقيم الدولى : I.S.B.N - 977-236-734- 3


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET


الثمن ١٥ جنيهاً